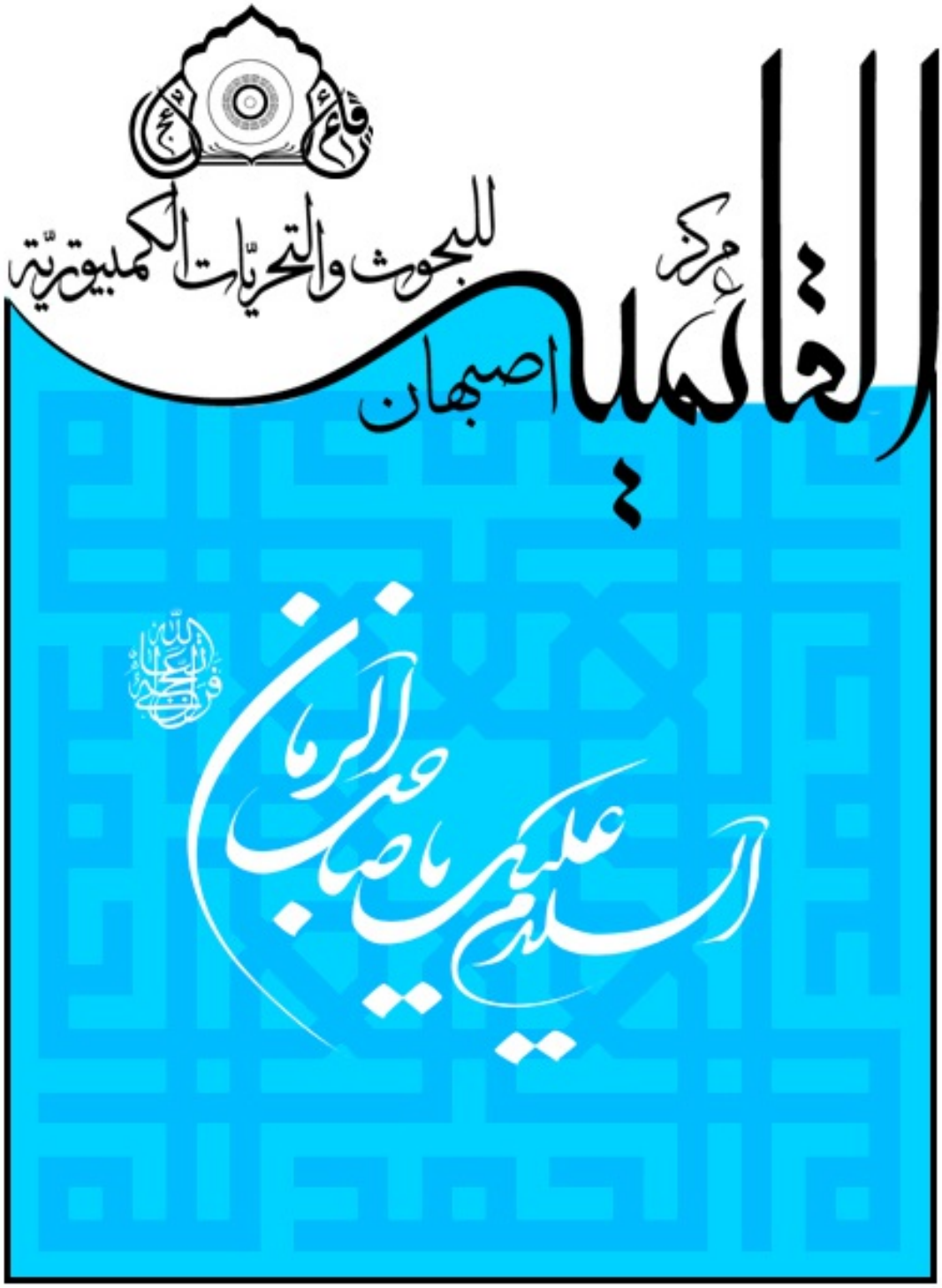

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

خطط الشام

تأليف

محمد كرد علي

٦

الناشر

مكتبة النوري

دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

خطط الشام

كاتب:

محمد كرد على

نشرت فى الطباعة:

مكتبه النورى

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
خطط الشام المجلد ۶ ----- ۱۰
اشارة ----- ۱۰
التاریخ المدنی ----- ۱۰
[البیع و الکنائس و الدیرة] ----- ۱۰
بیوت العبادة عند الأقدمین: ----- ۱۰
منشأ الأدیار و البیع: ----- ۱۱
أعظم الکنائس و أقدمها: ----- ۱۲
مبدأ هدم الکنائس: ----- ۱۴
کنائس دمشق: ----- ۱۶
کنائس حلب: ----- ۱۷
الکنائس و البیع فی القدس: ----- ۱۷
کنائس فلسطین: ----- ۱۹
کنائس الأردن: ----- ۲۰
کنائس لبنان: ----- ۲۱
عمل الرهبان و الراهبات العظیم: ----- ۲۱
الأدیار القدیمة فی الشام: ----- ۲۳
المساجد و الجوامع ----- ۳۵
[فی أول الفتح:] ----- ۳۵
مساجد حلب: ----- ۳۶
جوامع عمالة حلب: ----- ۳۸
مساجد الساحل و جوامعه: ----- ۳۹
جوامع المدن الداخلیة: ----- ۴۱

جوامع العاصمة و ضواحیها: ۴۴
المدارس ۴۶
[نشأة المدارس:] ۴۶
دور القرآن بدمشق: ۴۸
دور الحدیث بدمشق: ۴۹
مدارس الشافعیة بدمشق: ۵۱
مدارس الحنفیة بدمشق: ۵۹
مدارس المالکیة بدمشق: ۶۳
مدارس الحنابلة بدمشق: ۶۴
المدارس الحدیثة: ۶۵
مدارس الطب بدمشق: ۶۶
مدارس حلب : ۶۷
مدارس القدس : ۷۵
بقیة مدارس القطر: ۷۹
الخوانق و الربط و الزوایا ۸۲
خوانق دمشق: ۸۲
رباطات دمشق: ۸۴
زوایا دمشق: ۸۵
خوانق حلب و ربطها و زوایاها: ۸۸
ربط القدس و زوایاها: ۹۲
الربط و الزوایا فی المدن الصغری: ۹۴
مراقد العظماء ربط و خوانق: ۹۵
المستشفیات و البیمارستانات ۹۷
[مستشفیات دمشق:] ۹۷

مستشفيات حلب: ۹۹
بقية المستشفيات: ۹۹
لهفة على المدارس و غيرها: ۱۰۰
دور الآثار ۱۰۳
[المتاحف و العرب:] ۱۰۳
نشأة علم الآثار : ۱۰۴
البعثات الأثرية الغربية: ۱۰۵
آثارنا و آثار جيراننا: ۱۰۶
تأسيس دور الآثار: ۱۰۷
متحف دمشق: ۱۰۷
متاحف بيروت و السويداء و حلب و طرطوس و القدس و عمان: ۱۰۸
دور الكتب ۱۰۹
[نشأة الكتب:] ۱۰۹
نشأة الخزائن و العناية بحفظها: ۱۱۱
مصائب الكتب و دورها: ۱۱۵
خزائن اليوم و أهم ما حوت: ۱۱۷
الأديان و المذاهب ۱۲۳
[أديان القدماء:] ۱۲۳
اليهودية : ۱۲۵
السامرة : ۱۲۷
الأرثوذكسية: ۱۳۱
الكثلكة: ۱۳۳
المارونية: ۱۳۷
البرتستانتية: ۱۳۸

أصل السنة: ۱۴۲
الشيعة: ۱۴۵
الباطنية: ۱۴۸
الإسماعيلية: ۱۵۰
النصيرية أو العلوية: ۱۵۳
الدروز: ۱۵۵
البابية: ۱۵۸
الاخلاق و العادات ۱۶۱
اشارة ۱۶۱
[عادات الدمشقيين:] ۱۶۱
عادات الحلبيين : ۱۶۵
عادات لبنان و أخلاقه: ۱۷۰
العادات فی الأرجاء الأخری: ۱۷۵
عادات القبائل و أخلاقها: ۱۷۹
رأی فی الأخلاق الشامية: ۱۸۳
حياة محمد كرد علی مؤلف خطط الشام «ترجمته بنفسه» ۱۹۲
مصادر الخطط ۲۰۱
اشارة ۲۰۱
أ ۲۰۱
ب ۲۰۲
ت ۲۰۲
ث ۲۰۳
ج ۲۰۳
ح ۲۰۴

د ----- ۲۰۴
ذ ----- ۲۰۴
ز ----- ۲۰۵
س ----- ۲۰۵
ش ----- ۲۰۵
ص ----- ۲۰۵
ض ----- ۲۰۵
ط ----- ۲۰۵
ع ----- ۲۰۶
غ ----- ۲۰۶
ف ----- ۲۰۶
ق ----- ۲۰۶
ک ----- ۲۰۷
م ----- ۲۰۷
ن ----- ۲۰۸
و ----- ۲۰۸
فهرست الجزء السادس من خطط الشام ----- ۲۰۸
تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ----- ۲۱۱

خطط الشام المجلد ۶

اشارة

نام کتاب: خطط الشام

نویسنده: کرد علی، محمد

تاریخ وفات مؤلف: ۱۳۷۲ ه. ق

موضوع: جغرافیای شهرها

زبان: عربی

تعداد جلد: ۶

ناشر: مکتبه النوری

مکان چاپ: بیروت

سال چاپ: ۱۴۰۳ ه. ق

نوبت چاپ: سوم

khtt alsham

تألیف: محمد سردعلی تاریخ النشر: ۰۱/۰۱/۲۰۱۲ الناشر: مؤسسة النوری للطباعة والنشر والتوزیع

النوع: ورقی غلاف فنی، حجم: ۲۴×۱۷، عدد الصفحات: ۶۳۴ صفحة الطبعة: ۳ مجلدات: ۲

مدة التأمین: یتوفر عادة فی غضون أسبوعین

اللغة: عربی

التاریخ المدنی

[البیع و الکنائس و الدیرة]

بیوت العبادة عند الأقدمین:

لم یخلف التاریخ الصحیح مستندا یرکن إلیه فی وصف بیوت العبادة عند قدماء سکان الشام أیام کانوا یعبدون الأصنام و الأوثان ثم بعد أن أصبحوا یعبدون النیران. فلا نعرف إذا شیئا یعتدّ به عن هیاکل الفینیقیین فی صور و صیدا و بیروت و جبیل و لا عن هیاکل مشارف الشام الجنوبیة و لا عن بیوت النیران فی حلب و لا عن بیوت العبادة عند الحثیین و البابلیین و الاشوریین و لا عن هیکل الرب مرناس الذی کان یعبد فی غزة، و یحجون إلی هیکله من الأقطار و لا عن معبد المشتری (جوبیتر) الذی أنشأه أدریانوس الرومانی فی جبل جرزیم فوق نابلس، و لا عن هیاکل المشتری معبود الرومان الذی وجد فی السخنة بین تدمر و دیر الزور، و لا عن هیکل الیونان فی أنطاکیة، و لا عن هیکل بزیزة بالغرب من کوسبة فی لبنان، و لا عن بعل مرقد فی أطلال دیر القلعة قرب بیت مری بلبنان، و لا عن هیکل الزهرة فی افقة فی جبل کسروان. و الهیکل الباقی من هیاکل القدماء هو هیکل بعلبک و قلیل أمثاله جدا مما صبر علی ضربات الدهر.

أما کنائس الیهود فقد تبین أنهم شرعوا بإنشاء کنیس لهم فی سبی بابل

خطط الشام، ج۶، ص: ۴

يجتمعون فيه و يتعبدون. و أهم ما كان من كنائسهم كنيسهم فى القدس بنوه بعد رجوعهم من بابل بجانب المعبد و قسموه قسمين قسم للرجال و قسم للنساء، ثم كثرت الكنائس فى المدن الصغرى و الكبرى فى كل بلد كان فيها لليهودية معتقدون و أنصار. و لكل كنيس خزانة مقدسة تقام فى داخل البناء على خشب و تجعل متجهة نحو القدس و هى مغشاة بالكتان و فيها الطوامير المقدسة و أمام الخزانة ستار يذكر بستار المعبد و فى وسطه أمام الخزانة شىء أشبه بمنبر.

هذا غاية ما يقال فى هياكل القدماء و بيوت عباداتهم، و كيف السبيل إلى وصف المعابد القديمة و التاريخ لا يعرف شيئا يعتدّ به عن العالم الاسرائيلى بل و لا عن نصارى القرون الأولى، و كل ما يعرف عن موسى و عن قضاة إسرائيل و داود أو المسيح و الحواريين لا يكاد يملأ سوى صفحات قليلة و النصرانية نفسها لم تنتشر فى الشام إلا فى القرن الرابع للميلاد على يد قسطنطين أو أم قسطنطين بن قسطنطين بانى القسطنطينية و هو الذى بنى كنائس كثيرة بدمشق و غيرها حتى يقال إنه بنى فى زمانه اثنى عشر ألف كنيسة.

و لا بد لنا قبل وصف الكنائس و البيع و الأديار أن نعرفها تعريفا يقربها من جميع الأذهان و لا يوقع فيها لبسا. فالدير كما قالوا فى تعريفه بيت يتعبد فيه الرهبان و لا يكاد يكون فى المصر الأعظم إنما يكون فى الصحارى و رؤوس الجبال فان كان فى المصر كانت كنيسة أو بيعة. و ربما فرّق بينهما فجعلوا الكنيسة لليهود و البيعة للنصارى. و قال بعضهم: البيعة متعبد النصارى و قيل: كنيسة اليهود. و الأولى أن تطلق الكنيسة على متعبد النصارى و الكنيس على متعبد اليهود. و جاءت لفظة الدير من الدار و الجمع أديار و الديرانى صاحب الدير و الذى يسكنه و يعمره. و يقال له ديّار. و يقال دير و ديرة و أديار و ديران و دارة و دارات و ديّرة و دير و دور و دوران و أدوار و دوّار و أدورة.

منشأ الأديار و البيع:

أنشئت الأديار الأولى فى الشام، فهى موطنها الأول، ذلك أن من

خطط الشام، ج۶، ص: ۵

المسيحيين من أخذوا يألفون العزلة لأول ظهورهم فى صعيد مصر و جبال أنطاكية ينقطعون للنسك. و لما زاد عدد هؤلاء الناسكين دعت الضرورة إلى إنشاء أكواخ منفردة أشبه بعمرات جعلت برئاسة رئيس. و أنشئت دور عظيمة يعيش فيها أولئك الزهاد عيشة مشتركة يجمعهم سقف واحد و تسيّرهم إدارة رئيس واحد. ثم اتحدت تلك الأكواخ و البيوت. و أنشئت أديار فى المدن تولاها الأساقفة و انتقل ذلك إلى الغرب. و كما كانت الشام منشأ الأديار كذلك كانت أول من وضع هندسة الكنائس ذات القباب، فقد جرت فى هندستها لأول مرة على مثال المعابد القديمة، فالشام إذا أول من أنشأ الأديار و الكنائس كما قامت فيها النصرانية و اليهودية.

قلنا: إنه يردّ إنشاء الكنائس إلى عهد قسطنطين و قد بدأت البيع بالتكاثر فى سنة (۳۳۰) للميلاد و ذكر بعض المؤرخين أن ثيودوسيوس الكبير حول بعض هياكل الوثنيين فى بعلبك الى كنائس فبنى كنيستين فى القلعة إحداهما فى وسط البهو الكبير القائم أمام هيكل الشمس. و قال المسعودى: إن هيلانى بنت بإيليا الكنيسة المعروفة بالقيامة فى هذا الوقت الذى يظهر منها النار فى يوم السبت الكبير الذى صبحه الفصح و كنيسة قسطنطين و ديارات كثيرة للنساء و الرجال على الجبل المطل على مدينة بيت المقدس المعروف بالطور و هو بإزاء قبة اليهود و عمرت مدينة إيليا عمارة لم يكن قبلها مثلها و لم يزل ذلك عامرا إلى أن أخربته الفرس حين غلبت على مصر و الشام.

تكاثرت الكنائس و الأديار فى الشام فلم يمض على انتشار النصرانية قرنان حتى زاد عدد الأديار و البيع على صورة مستغربة حتى إن الغسانيين ولعوا أيضا بعمارة الأديار فى الجزء الذى ارتفع سلطانهم عليه فى الجنوب على عهد ملوك الروم فشادوا دير حالى و دير أيوب و دير الدهناء و دير ضخم و دير النبوة. و اشتهر الغساسنة بإقامة الديرة و البيع و كانوا كما قيل يعتمدون ببنائهم المواضع الكثيرة الشجر و الرياض و المياه و يجعلون فى حيطانها و سقوفها الفسافس و الذهب و مثلهم كان شأن آل المنذر بالحيرة و بنى الحارث بن

كعب بنجران من بيوتات العرب.

خطط الشام، ج۶، ص: ۶

أعظم الكنائس و أقدمها:

و يظهر أن كنيسة القبر المقدس فى القدس هى أقدم كنيسة فى الشام قامت فى مكان نظر إليه فى كل وقت بأنه مقدس. و ذكر الأسقف أوسابيوس القيصرى (۳۱۴- ۳۴۰) و هو والد تاريخ الكنيسة أن فى الحفريات التى جرت على عهد الملك قسطنطين اكتشفت مغارة المخلص المقدسة. و زاد المؤرخون المحدثون أن الملكة هيلانة والدة قسطنطين المتوفاة نحو سنة (۳۲۶ م) زارت القدس و اكتشفت القبر المقدس و صليب يسوع، فالبنايات التى أقيمت فى ذاك المكان سنة (۳۳۶ م) هى من البناء المدور قد دعى كنيسة القيامة و مؤرخوا المسلمين يسمونها كنيسة القمامة كما كان هناك كنيسة كاتدرائية خاصة برمز الصليب و قد أحرق الفرس هذين المكانين سنة (۶۱۴ م). و أعاد هرقل بناء ما كان خرب كسرى من الكنائس فى مصر و الشام، و ذكر المؤرخون أن الفرس خربوا كنائس القدس بمعاونة اليهود و مما خربوا كنيسة الجسمانية و كنيسة المنية و ظلتا خرابا الى القرن الرابع من الهجرة، و لما انصرفوا عمر النصارى كنيسة القيامة و المقبرة و الاكرانيون و مار قسطنطين و أحدث الراهب مودست رئيس دير تيودوس فى سنة (۶۱۶ و ۶۲۶) كنيسة القيامة و كنيسة الصليب و كنيسة الجلجلة و أضيفت سنة (۶۷۰) الى الجنوب كنيسة للعذراء.

و لما فتحت القدس و جاء الخليفة عمر بن الخطاب أدركته الصلاة فلم يرض أن يصلى فى كنيسة القيامة لئلا يكون بعده للمسلمين حجة فى أخذها و بنى مقابلها جامعا و مصلى. و لما تنصر الروم على رواية ابن بطريق و بنت هيلانة أم قسطنطين الكنائس فى بيت المقدس كان موضع الصخرة و حولها خراب فترك، و رموا على الصخرة التراب و هذه التى بنى عليها المسجد الأقصى، ثم ذهب الخليفة الى بيت لحم فحضرته الصلاة فصلى داخل الكنيسة عند الحنية القبلية، و كانت الحنية كلها منقوشة بالفسيفساء، و كتب عمر للبطرك سجلا أن لا يصلى فى هذا الموضع من المسلمين إلا رجل واحد بعد واحد و لا يجمع فيه صلاة و لا يؤذن فيه و لا يغير فيه شىء. و كنيسة بيت

خطط الشام، ج۶، ص: ۷

لحم من الكنائس القديمة المشهورة أنشأها قسطنطين سنة (۳۳۰) فكانت كاتدرائية كبرى و أنشأ يوستنيانوس حيطانها و أقيمت فيها أديار و كنائس كثيرة حتى اطلق عليها سنة ستمائة للميلاد اسم المكان الزاهر.

و من أشهر كنائس الشام كنيسة دمشق المعروفة بكنيسة مار يوحنا مكان الجامع الأموى اليوم، صالح المسلمون على نصفها الشرقى لأنهم اعتبروا دمشق بما فتح صلحا و عنوة، فكان النصف من هذه الكنيسة العظمى، التى كانت أكبر معابدهم على رواية ابن كثير، فى النصف الذى فتحه خالد بن الوليد بالسيف. و كان بدمشق خمس عشرة كنيسة كتب بها عمر بن الخطاب كتاب أمان و أقر ما بأيدى النصارى أربع عشرة كنيسة، فجعل أبو عبيدة من الكنيسة الكبرى مسجدا. فكان المسلمون و النصارى يدخلون من باب واحد و هو باب المعبد الأصلى فى القبلة؟ قال جرجس بن العميد: و قيل: إن الوليد بذل للنصارى فى كنيسة مار يوحنا أربعين ألف دينار فلم يريدوا أن يأخذوا المال فأخذها فأخربها و لم يعطهم شيئا. و فى تواريخ دمشق أن النصارى رفعوا إلى عمر بن عبد العزيز فى خلافته ما بيدهم من عهد أبى عبيدة بن الجراح من أن كنائسهم لا تهدم و لا تسكن و أن الوليد أخذ كنيستهم بغير حق قهرا، فلما رأى عمر ذلك منهم دفع لهم مالا يرضيهم به حتى بلغ مائة ألف فأبوا، فكتب الى محمد بن سويد الفهرى أن يدفع إليهم كنيستهم أو يرضيهم فى ذلك. فلما وصل كتاب عمر إلى دمشق أعظم الناس ذلك و فيهم يومئذ بقية من أهل الفقه، فشاورهم محمد بن سويد فقالوا: هذا أمر عظيم ندفع إليهم مسجدنا و قد أذنا فيه بالصلاة و جمعنا فيه يهدم و يعاد كنيسة. فقال رجل منهم: هنا مسألة فإن لهم كنائس عظاما حول مدينتنا و هى دير مران و الكنيسة بباب توما و غيرها من الكنائس ان أحبوا أن نعطيهم كنيستهم فلا يبقوا حول مدينة دمشق و لا

بالغوطة كنيسة إلا هدمت أو نبقى لهم جميع كنائسهم و يتركوا هذه و نسجل لهم بذلك سجلا، فرضى النصارى على أن يسجل لهم الخليفة سجلا منشورا بأمان على ما بدمشق و الغوطة من كنيسة أن تهدم أو تسكن. و هكذا استحالت كنيسة مار يوحنا إلى مسجد جامع للمسلمين أخذوه بحكم الفتح

خطط الشام، ج۶، ص: ۸

و أرضوا أبناء ذمتهم على كل حال. و ما ندرى كيف آل إلى هؤلاء من اليهود أو إلى النصارى من الصابئة و غيرهم. و لعل التقليد القائل بأن فى الجامع رأس يحيى بن زكريا عليهما السلام أتى من كون الكنيسة كانت على اسم مار يوحنا. و يوحنا هو يحيى و اللّه أعلم.

و خاصم النصارى حسانا بن مالك الكلبى الى عمر بن عبد العزيز فى كنيسة بدمشق فقال له عمر: إن كانت من الخمس عشرة كنيسة التى فى عهدهم فلا سبيل لك إليها. و قال غيره: خاصمت العرب فى كنيسة بدمشق يقال لها كنيسة ابن نضر كان معاوية أقطعهم إياها فأخرجهم عمر بن عبد العزيز منها فدفعها الى النصارى فلما ولى يزيد ردها الى بنى نضر.

و فى كتاب سجل يحيى بن حمزة أن النصارى ذكروا لعمر بن عبد العزيز أن عتقاء العرب قد سخروا بهم و برئيسهم و بدينهم و جماعتهم من أهل القرى و أن أولئك العتقاء أحلاف و فرق و أنهم غلبوهم على كنائسهم و سألوا الوفاء لهم بما فى عهدهم و بما فى الكتاب الذى كتبه لهم خالد بن الوليد عند فتح مدينتهم فأمرهم ان يأتوا بحجتهم فأتوا بكتاب خالد بن الوليد فاذا فيه: «بسم اللّه الرحمن الرحيم هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق يوم فتحها أعطاهم أمانا لأنفسهم و لأموالهم و كنائسهم لا تهدم و لا تسكن لهم على ذلك ذمة اللّه و ذمة الرسول عليه الصلاة و السلام و ذمة الخلفاء و ذمة المؤمنين لا يعرض لهم أحد إلا بخير إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية شهد بهذا الكتاب يوم كتب عمرو بن العاص و عياض بن غنم و يزيد بن أبى سفيان و أبو عبيدة بن الجراح و معمر بن غياث (عتاب) و شرحبيل بن حسنة و عمير بن سعد و يزيد بن نبيشة و عبد اللّه بن الحارث و قضاعى بن عمر و كتب فى شهر ربيع الأول سنة خمس عشرة».

قال يحيى بن حمزة فنظرت فى كتابهم فوجدته خاصة لهم، و فحصت عن أمرهم فوجدت فتحها بعد حصار، و وجدت ما وراء حائطها آثارا وضعت لدفع الخيل و مراكز الرماح، و نظرت فى جزيتهم فوجدتها وظيفة عليها خاصة دون غيرهم، و وجدت أهلها عند فتحها رجلين رجلا روميا قتلته الحرب أو نفته، و مساكنهم و كنائسهم قسمة بين المسلمين

خطط الشام، ج۶، ص: ۹

معروفة لا تخفى، و رجلا من أهلها حقن دمه هذا العهد، فمساكنهم و كنائسهم مع دمائهم لهم لم تسكن، و لم تقسم معروفة ليس تخفى، فقضيت لهم بكنائسهم حين وجدتهم أهل هذا العهد و أبناء البلد، و وجدت من نازعهم لفيفا طرأ و ذلك لو أنهم أسلموا بعد فتحها كان لهم صرفها مساجد و مساكن. فلهم فى آخر الدهر ما لهم فى أوله و أثبت فى الأصول قبل و أشهد اللّه عليه و صالح المؤمنين، وفاء بهذا العهد الذى عهده لهم السابقون الأخيار فلم يكن بينهم خاصة فى ذلك اختلاف نظر لهم .. و قضيت لمن نازعهم بما كان لهم فيها من حلية أو آنية أو كسوة أو عرضة أضافوا ذلك إليها أن يدفع ذلك إليهم بأعيانها إن قدروا عليه و سهل قبضه، أو قيمة عدل يوم ينظر فيه شهد اللّه على ذلك اه.

هذا ما كان من المسلمين مع أبناء ذمتهم و مراعاة العهود التى قطعوها على أنفسهم. و لم تزل سيرة خلفاء بنى أمية و بعض بنى العباس مع النصارى و كنائسهم سيرة الخليفة الثانى و الفاتحين من الصحابة الكرام. فقد بنى أبو جعفر المنصور كنيسة فى دمشق لبنى قطيطانى الغوريق، ذكر ذلك ابن عساكر. و لما وقع حريق فى كنيسة مريم بدمشق أيام أحمد بن طولون أمر أن تفرق على أهل الحريق سبعون ألف دينار ففضل عنهم أربعة عشر ألف دينار فأمر أن تفرق عليهم على قدر سهامهم ثم أمر ففرّق على أهل دمشق و غوطتها مال عظيم فأقل من أصابه من ذلك دينار.

مبدأ هدم الكنائس:

أول حادث وقع فی تخریب الكنائس قبل الإسلام كان لما ثار بفلسطین أهل السامرة و هدموا فی سنة إحدی و عشرین و خمسمائة الكنائس كلها و أحرقوها من بیسان الی بیت لحم و قتلوا النصاری و عذبوهم عذابا شدیدا فأعاد یوستنیانوس الكنائس و كتب الی عامله فی فلسطین أن یعفی أهلها من الخراج و یعمر بها الكنائس و الدیارات و بنی بیمارستانا للغرباء فی القدس.

و بقدر ما رأی النصاری من عدل المسلمین معهم أیام عزهم أخذ بعض ملوكهم بعد القرن الثالث یحكمون العواطف بدل العقل فی الكنائس

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۰

و البیع، و كان من أثر ذلك أن نالت السیاسة من بیوت العبادة فكان إذا أحسّ القائم بأمر المسلمین أن قومه فی شدة فی دیار الحرب انتقم من أهل ذمته فی دیار الإسلام، و سلط العامة من طرف خفی لیخربوا كنائس النصاری و بیعهم.

قال القلقشندی: و فی السنة الأخیرة من ریاسة البطریرك قسیما و هی سنة ثلاث عشرة و ثلاثمائة أحرق المسلمون كنیسة مریم بدمشق و نهبوا ما فیها و تتبعوا كنائس الیعاقبة و النساطرة. و قال ابن بطریق: إن هذه الحادثة وقعت فی رجب سنة اثنتی عشرة و ثلاثمائة و ذلك أن المسلمین فی دمشق ثاروا فهدموا كنیسة مرتمریم الكاتولیقیة، و كانت عظیمة كبیرة حسنة أنفق فیها مائتا ألف دینار، و نهبوا ما كان فیها من آنیة و غیر ذلك من حلی و ستور، و نهبت دیارات و خاصة دیر النساء الذی كان فی جانب الكنیسة و شعثوا كنائس كثیرة للملكیة، و هدموا كنیسة النسطوریة.

و ثار المسلمون بالرملة و هدموا للملكیة فیها كنیستین كنیسة مار قزماس و كنیسة مار كورقس و هدموا كنیسة عسقلان و قیساریة و ذلك سنة (۳۱۱).

و ثار المسلمون بكنیسة بیت المقدس و أحرقوا أبواب كنیسة قسطنطین القبلیة سنة (۳۲۵).

و كان الداعی الی ذلك ما وقع من اضطهاد المسلمین فی الروم علی الغالب فلم یجد ملوك الإسلام واسطة لتخفیف الشر الواقع علی رعایاهم من أهل الإسلام إلا- بالضغط علی النصاری فی دیارهم و التأثیر فی ملوك النصاری بضربهم فی أكبادهم فی كنائس هی مهوی قلوب أبنائهم فی بیت المقدس و ما إلیها بدلیل أن ابن بطریق نفسه قال بعد إیراد تلك الحوادث:

وقع بین الروم و المسلمین هدنة مرضیة فی سنة ست و عشرین و ثلاثمائة و قال فی حوادث السنة التالیة: إن المسلمین ثاروا فی عسقلان فهدموا كنیسة كبیرة تعرف بكنیسة مریم الخضراء و نهبوا جمیع ما فیها و أحرقت و عاضد المسلمین الیهود فی هدمها. و كان الیهود یشعلون النار فی الحطب و یجرونه بالبكر الی أعلا السقوف حتی یحرقوها و ینحل رصاصها و تقع عمدها و خربت الكنیسة و بقیت خربة. و روی أیضا أن الصناحی والی القدس

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۱

اضطهد بطریرك القدس فاستعدی علیه ملك مصر فأعداه فلم یستمع الوالی لذلك و اختبأ البطریرك فی كنیسة القیامة فهاجمها الوالی و أحرقوا أبوابها و سقطت القبة، و توجه الرعیة الی كنیسة صهیون و أحرقوها و نهبوها.

و هدم الیهود و أخربوا أكثر من المسلمین.

و أهم ما نال الكنائس فی الشام من الأذی، كان علی عهد الحاكم بأمر اللّه الفاطمی فإنه لم یبق فی مملكته دیرا و لا كنیسة إلا هدمها. ففی سنة (۳۹۸) كتب الحاكم الی دمشق بهدم كنیسة السیدة القاتولیكی فهدمت، و كتب الی والی الرملة بهدم كنیسة القیامة فی القدس و إزالة معالمها و القضاء علی آثارها، و هدم الاقرانیون كنیسة ماری قسطنطین و سائر ما اشتملت علیه حدودها و استقصوا فی إزالة الآثار المقدسة، و كان فی جوار المقبرة دیر للنساء یعرف بدیر السری فهدم أیضا. و كان ابتداء نقضها سنة أربعمائة و وضعت

اليد على الأملاك و الأوقاف و جميع ما فى تلك الكنائس من آلاتها و حلاها.

و عاد الحاكم بعد أن ضرب النصارى فى كنائسهم فى جميع أرجاء مملكته فأعطاهم عهدا كما كان يعطى الخلفاء العادلون و منها هذا المنشور الذى أورده ابن بطريق:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم أمر أمير المؤمنين بكتب هذا المنشور لنيقيفور بطريرك بيت المقدس بما رآه من إجابة رغبته، و إطلاق بغيته، من صيانته و حياطته، و الذب عنه و عن أهل الذمة من نحلته، و تمكينهم من صلواتهم على رسومهم فى افتراقهم و اجتماعهم، و ترك الاعتراض لمن يصلى منهم فى عرصة الكنيسة المعروفة بالقيامة و خربتها، على اختلاف رأيه و مذهبه، و مفارقته فى دينه و عقيدته، و إقامة ما يلزمه فى حدود ديانته، و حفظ المواضع الباقية فى قبضته، داخل البلد و خارجه و الديارات و بيت لحم ولدّ، و ما برسم هذه المواضع من الدور المنضوية إليها، و المنع من نقض المصلبات بها، و الاعتراض لأحباسها المطلقة لها، و من هدم جداراتها و سائر أبنيتها، إحسانا من أمير المؤمنين إليهم، و دفع الأذى عنهم و عن كافتهم، و حفظا لذمة الإسلام فيهم، فمن قرأه أو قرئ عليه من الأولياء

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۲

و الولاة، و متولى هذه النواحى و كافة الحماة، و سائر المتصرفين فى الأعمال، و المستخدمين على سائر منازلهم، و تفاوت درجاتهم، و استمرار خدمتهم، أو تعاقب نظرهم، فى هذا الوقت و ما يليه، فليعلم ذلك من أمير المؤمنين و رسمه، و يعمل عليه و بحسبه، و ليحذر من تعدى حده و مخالفة حكمه، و يتجنب مباينة نصه و مجانبة شرحه، و ليقرّ هذا المنشور فى يده حجة لمودعه، يستعين بها على نيل طلبته، و إدراك بغيته، إن شاء اللّه تعالى.

و كتب فى جمادى الأخرى سنة إحدى عشرة و أربعمائة». و فى أعلاه بخط الحاكم توقيع: الحمد للّه رب العالمين.

قال ابن بطريق، و انفتح حينئذ باب رجعة الكنائس ورد أوقافها عليها، و أطلق عمارة جميع الكنائس و الديارات التى يستدعى منه الإذن فيها و فى عمارتها بمصر و فى سائر بلاد مملكته، و كتب لكل منهم سجلا لإعادة أوقافها إليها، إلا ما كان من الأوقاف و الكنائس قد بيع فى وقت القبض عليها فى دمشق و فى جميع بلاد الساحل، و صرف ثمنه فى النفقات السلطانية، لضيق الأموال و قلتها، أو ما كان منها قد حصل لمن يتوقون شره من المسلمين. و لما تسامح الحاكم بعمارة الكنائس و تجديدها ورد أوقافها عاد الذين أسلموا من النصارى وقت الاضطهاد إلى دينهم بأمره و تسامحه. و لما هلك الحاكم و بويع لابنه الظاهر و استولت عمته على الملك بالفعل تقدمت بمسير نيقيفور بطريرك بيت المقدس إلى حضرة الملك ليطالبه بعودة الكنائس و تجديد كنيسة القيامة ببيت المقدس و سائر البيع فى جميع بلاد مصر و الشام و رجوع أوقافها إليها.

و كان البطاركة أشبه بسفراء سلام بين ملوك الإسلام و ملوك الروم.

إذا وقع حيف على المسلمين فى ديار أعدائهم يندبهم ولاة الإسلام الى مطالعة الروم بما ينال النصارى فى الشام و غيرها من الاضطهاد إن هم أساءوا إلى المسلمين الواقعين فى أسرهم، أو الراحلين إليهم فى التجارة. و مما اشترط ملك الروم على الظاهر العبيدى فى عقد الهدنة ثلاثة شروط منها أن يعمر الملك الظاهر كنيسة القيامة ببيت المقدس و يجددها من ماله، و يصيّر بطريركا على بيت المقدس، و أن تعمر النصارى جميع الكنائس الخراب

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۳

التى فى بلاد الظاهر. فقبل الظاهر ما شرطه الملك من بناء كنيسة القيامة و من إقامة بطريرك و من تجديد النصارى بقية الكنائس سوى ما كان منها قد عمل مسجدا.

و قد علل مجير الدين الحنبلى عمل الحاكم فى هدم البيع تعليلا غير مقبول كثيرا قال: إنه بسبب ما أنهى الى الحاكم من الفعل الذى يتعاطاه النصارى يوم الفصح من النار التى يوقدونها فى سبت النور يوهمون أنها تنزل من السماء و قال: إن المستنصر باللّه أبا تميم

معدا، هادن ملك الروم على أن يطلق خمسة آلاف أسير ليمكن من عمارة القيامة التى كان خربها جده الحاكم فأطلق الأسرى. قال: و الذى يظهر أن تخريبها لم يكن تخريبا كليا بل كان فى غالبها.

و قد وقع فى العصور التالية بعض حوادث من تخريب كنيسة أو بيعة كان السبب فيه داخليا كأن يميل أهلها إلى عدو خارجى يداهم القطر، فقد استطالوا سنة (۶۵۸ ه) على المسلمين كما يقول المؤرخون فنهبهم المسلمون و خربوا كنيسة مريم بدمشق و كما وقع لهبة اللّه النصرانى متولى خزانة السلطان فإنه «كان تمكن من المسلمين و آذاهم، و رفع منار النصارى و تسلطوا بجاهه على المسلمين، وجدد لهم بناء كنيسة مريم و شيد بنيانها، و رفع بابها، و حسن عمارتها، ثم هدم ما زاده، و أعيدت الكنيسة إلى ما كانت عليه، و تولى النصارى هدم ذلك بأنفسهم».

و كل تخريب وقع كان عن دواع كلية فى الغالب يرجع فى جملته إلى اعتداء النصارى فى غير ديار الإسلام على المسلمين. فإن نيقيفور دومستيقس صاحب الروم لما غزا جزيرة اقريطش (كريت) فى أسطول و نازلها فى النصف من المحرم سنة خمسين و ثلاثمائة و حاصرها ثمانية أشهر و فتحها و خرب ما فيها من المساجد و سبى من أهلها خلقا كثيرا قام المصريون فخربوا بعض ما عندهم من الكنائس انتقاما من الروم على فعلتهم و هكذا دواليك فى تلك العصور المظلمة.

و فى سنة (۸۵۶) صدر مرسوم الملك بالكشف على الأديار و بهدم ما استجد بدير صهيون فى القدس و انتزاع قبر داود من أيدى النصارى فهدم البناء

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۴

المستجد، و فيها أخرج المسجد من دير السريان و صار زاوية و هدم البناء المستجد ببيت لحم و فى كنيسة القيامة و كشفت جميع الأديار و هدم جميع ما استجد بها. و فى سنة (۸۹۵) هدمت القبة التى أحدثها النصارى فى دير صهيون. و السبب فى ذلك على ما يبدو للنظر أن الدولة فى تلك الأيام حاذرت من أن يكون من بعض الأديار و الكنائس أماكن يعتصم فيها تساعد فى الأيام العصيبة على أن تكون ثكنا و قلاعا لمن يداهم الشام من غير أهل الإسلام.

و مع هذا لم يخل زمن من ظهور حكام استعملوا العدل فى تلك الأعصار مع أبناء ذمتهم فقد ذكروا أن المفرج بن الجراح لما تغلب على أرجاء فلسطين ألزم النصارى ببناء كنيسة القيامة ببيت المقدّس، قال ابن بطريق: إنه عاون على بناء كنيسة القيامة و أعاد فيها مواضع بحسب إمكانه و قدرته.

كنائس دمشق:

و لم يحدثنا التاريخ بما كان من أنواع الكنائس بعد القرن الثامن و معظم الكنائس و الأديار فى الشام اليوم بعد كنائس القدس و بيت لحم و دمشق هى مما أنشئ فى القرون الأخيرة. فالكنائس فى دمشق جددت بعد سنة (۱۸۶۰) أى بعد أن خربت فى حوادث تلك السنة. فلطائفة الروم الأرثوذكس ثلاث كنائس أكبرها المريمية و هى أعظمها، و من أقدم كنائس هذه الديار و فيها مقام البطريرك الأنطاكى خربت فى أدوار كثيرة و آخر خرابها فى وقعة تيمور يبلغ طولها نحو ۷۰ ذراعا و عرضها نحو أربعين. و الثانية كنيسة مار يوحنا الدمشقى أنشئت بعد سنة (۱۸۶۰) و فى جوارها مدرسة الروم.

و الثالثة كنيسة الميدان فى محلة القرشى تم بناؤها سنة (۱۸۶۲). و لطائفة الروم الكاثوليك ثلاث كنائس أيضا كانت الكبرى كنيسا لليهود القرائين فاشتراها الكاثوليك و أسست أيام الحكومة المصرية تم بناؤها سنة (۱۸۴۰) على اسم السيدة و هى فى حارة زيتون قرب سور البلد القديم و حرقت فى حادثة سنة (۱۸۶۰) ايضا و هى متينة راسخة البنيان و فيها مقام البطريرك الأنطاكى لتلك الطائفة. و الكنيسة الثانية فى باب المصلى على اسم القديس جاورجيوس.

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۵

و الثالثة فی القرشی علی اسم سیدة النیاح. و للسریان الکاثولیک کنیسة علی اسم مار موسی الحبشی فی حی المسیحیین علی الطریق العامة و فیها دار البطریرکیة و لها مدرسة متصلة بها حرقت فی سنة (۱۸۶۰) أیضا ثم جددت.

و للأرمن القدماء کنیسة قرب السور و هی قدیمة احترقت فی حوادث سنة (۱۸۶۰) و اسمها مار سرکیس و لها مدرسة جدد بناؤها بعد الحوادث.

و للسریان الیعاقبة کنیسة بالقرب من الباب الشرقی فی محلة حنانیا جددت سنة (۱۸۶۰) باسم القدیس جاورجیوس. و للأرمن الکاثولیک کنیسة أمام دیر اللعازاریین أنشئت بعد سنة (۱۸۶۰) علی اسم القدیس غریغوریوس.

و للبرتستانت کنیستان بنت إحداهما مسز موط الانکلیزیة سنة (۱۸۶۸) و الثانیة (۱۸۶۴) بناها القس یوحنا کرقورد الأمیرکانی.

و قد أنشئت عدة کنائس و أدیار فی دمشق أهمها دیر اللعازاریین کان شرع ببنائه قبل حوادث (۱۸۶۰) ثم أحرق وجدد بعد ذلک و فیه مدرستان إحداهما للذکور و الثانیة للإناث. و للیسوعیین مدرسة للبنات و فیها کنیسة صغیرة. و هناک دیر الفرنسیسکان بالقرب من دیر اللعازاریة قیل: إنه أنشئ من نحو ۳۵۰ سنة وجدد عقیب حوادث (۱۸۶۰) و فیه مدرسة للصبیان. و لطائفة الموارنة دیر علی اسم مار أنطونیوس البادوانی حرق (۱۸۶۰) و فیه دار البطریرکیة. و فی سفح الصالحیة کنیسة صغری للسریان الکاثولیک. و أنشئت فی العهد الأخیر کنیسة فی المدرسة الإیطالیة بطریق الصالحیة و أخری وراء المستشفی العسکری لراهبات الفرنسیسکان و غیرها من الکنائس الصغری.

کنائس حلب:

و لیس فی الشهباء کنائس قدیمة و أقدمها لا یرد عهده إلی قبل منتصف القرن الماضی فمنها کنیسة الأربعین للأرمن الغریغوریین فی الصلیبة و هی من الکنائس القدیمة جددت (۱۸۶۹) و کنیسة السیدة للأرمن الغریغوریین (۱۸۵۰) و کنیسة مار أنطونیوس البادوی للآباء الفرنسیسیین أنشئت (۱۶۶۰) ثم جددت، و کنیسة انتقال السیدة للسریان الکاثولیک فی حارة الصلیبة جددت

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۶

(۱۸۵۰) بعد حریق وقع لها. و کنیسة أم المعونات للأرمن الکاثولیک تم بناؤها (۱۸۴۰) و منها کنیسة بشارة الإنجیل للبرتستانت فی محلة جقور القسطل جعلت کنیسة (۱۸۶۷). و کنیسة مار فرنسیس للآباء الفرنسیسیین فی حی جلوم تم بناؤها (۱۸۷۸). و کنیسة السیدة للروم الأرثوذکس فی الصلیبة جدد بناؤها (۱۸۵۱). و سیدة الانتقال للروم الکاثولیک جددت بعد حریقها (۱۸۵۱). و مار جرجس للروم الکاثولیک فی ثرعسوس تم بناؤها (۱۸۵۰) و کنیسة قلب یسوع للآباء الیسوعیین فی حی تراب الغربا تمت سنة (۱۸۸۱). و کنیسة مار بطرس للکلدان فی العزیزیة (۱۸۸۲).

و کنیسة مار جرجس للسریان الأرثوذکس فی جقور قسطل و هی من الکنائس القدیمة اختص بها السریان بعد أن کانت مشترکة بینهم و بین الأرمن فی سنة (۱۸۹۳) و کنیسة القدیس بوناونتورا للآباء الفرنسیسیین تم بناؤها فی حی الرام سنة (۱۹۰۷) و کنیسة للموارنة باسم مار الیاس الحی فی الصلیبة تمت سنة (۱۸۹۱)، و کنیسة الأنفس المطهرة فی الحمیدیة تم بناؤها سنة (۱۹۱۰).

الکنائس و البیع فی القدس:

و فی القدس أدیار و کنائس کثیرة بحیث یصح أن تدعی بلد الکنائس و لطائفة کاثولیک الرومانیین کنیسة اسمها کنیسة البطریرکیة و دیر المخلص للفرنسیسکان و له کنیسة و میتم و صیدلیة و مطبعة، و کنیسة القدیسة حنة و کنیسة الاکسی هومو (أی صورة المسیح المکللة بالشوک) و کنیسة الدورمیسیون و کاتدرائیة سان ایتیان، و کنیسة الاغونی و أدیار کنیسة القیامة ودی لافلاجلاسیون و الدومنیکیین و إخوان البعثة الإفریقیة و اللعازاریین و الآباء الپاسیونیست و البندکتیین. و دیر البندکتیین و أدیار الکرملیین و سیدات

صهیون و أخوات القدیس یوسف و أخوات الوردیة و الکلاریس و أخوات ریباراتریس و البندکتیات. و لهم کنائس فی المدارس. منها فی المدرسة الاکلیریکیة البطریرکیة و میتم الأطفال فی دیر المخلص و المدرسة الصناعیة فی الدیر نفسه و مدرسة الذکور للفرنسیسکان و المدرسة الصناعیة

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۷

للذکور لرهبان سیدة صهیون و مدرسة الذکور لإخوان المدارس المسیحیة و مدرسة و میتم بنات أخوات القدیس یوسف و میتم البنات لأخوات الفرنسیسکانیات و مدرسة للبنات لراهبات الوردیة و مدرسة و میتم لبنات سیدات راتسبون، و مدرسة البنین و البنات لجمعیة الأرض المقدسة الألمانیة.

و من المستشفیات مستشفی سان لویس، تعاون فیه راهبات القدیس یوسف و ملجأ اللقطاء و العجزة و المرضی لأخوات الإحسان، و ملاجئ الحجاج مثل کازانوفا للفرنسیسکان. و الملجأ الکبیر الفرنسی لسیدة فرنسا و ملجأ الاغسطینیین و الملجأ الکاثولیکی الالمانی و الملجأ النمساوی و الروم المجتمعین أو الروم الکاثولیک کنیسة فی البطریرکیة و بیعة فی سانت فیرونیک و مدرسة اکلیرکیة کبری لرهبان القدیسة حنة لاخوان البعثة الإفریقیة (الآباء البیض) و میتم للبندکتیات و واحد للسوریین المتحدین و له مدرسة اکلیرکیة یدیرها الآباء البندیکتیون و قلیل من الأرمن المتحدین مع کنیسة سیدة السپاسم و بیعة و ملجأ و مدرسة متصلة بالکنیسة اللاتینیة.

و للطوائف البرتستانتیة الالمانیة کنیسة المخلص الالمانیة و ملاجئ فرسان القدیس یوحنا و مستشفی الدیاکونیس قیصر ورت و دار للبرص للاخوان المورافیین و میتم للفتیات و میتم سوری للأولاد أسسه شنیلر و له ملجأ للعمیان و مدرسة لأولاد العرب فی القدس. و للطائفة البرتستانتیة الانکلیزیة مدرسة و کنیسة أسقفیة و جمعیة التبشیر الکنائسی لدعوة أبناء العرب من المسلمین و الیهود للمذهب و لها کنیسة القدیس بولس و میتم للذکور أسسه أسقف کوبا و مدرسة للذکور و البنات و مدرسة عالیة و کنیسة یسوع لجمعیة یهود لندرا، و هذه الارسالیة تقوم بنفقة مستشفی کبیر و صیدلیتین و مدارس للذکور و الإناث و مدرسة صناعیة و مطبعة. و لرهبنة فرسان القدیس یوحنا الانکلیزیة مستوصف للرمد و بعض الأدیار و المدارس تنفق علیها جمعیة تبرعات فلسطین و جمعیة مبرات ارسالیة الشرق الانکلیزیة. و لطائفة الروم الارثوذکس عدة أدیار و کنائس منها دیر هیلانة و قسطنطین و دیر إبراهیم و دیر جیتسمانی و القدیس باسیلیوس و القدیس تیودوروس و القدیس

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۸

جورج و القدیس میشل و القدیسة کاترینا و اوتیم و سیدة النجا و اسبیریدون و کارالومبوس و دیمتریوس و نیقولاوس و روح القدس و مدرسة للبنات و أخری للذکور و مستشفی و غیر ذلک. و للبعثة الروسیة مدرسة کبری فی حی یافا و البنایات علی جبل الزیتون. و کان للجمعیة الروسیة الفلسطینیة ملجأ کبیر للحجاج بالقرب من المعهد الروسی، و ملجأ للراهبات بالقرب من البیمارستان.

و للأرمن دیر بالقرب من باب صهیون و لهم مدرسة اکلیریکیة و مدرستان للذکور و للإناث و کنیسة القدیس یعقوب و دیر للنساء اسمه دیر الزیتونی و دیر و بیعة جبل صهیون و لهم ملجأ. و للأقباط دیر یقیم فیه أسقفهم و دیر آخر یقال له دیر القدیس جورج. و للسریان الیعقوبیین کنیسة صغری یقیم فیها أسقف لهم. و للحبش دیر و کنیسة فی الشمال الغربی من المدینة و للإسرائیلیین زهاء ۷۰ کنیسا. و کثیر من معاهد الخیر و الإحسان و ملاجئ للزوار و معاهد للفقراء أسس معظمها مونتفیور و روتشیلد و جمعیة الاتحاد الإسرائیلی و غیرهم و لهم أربعة مستشفیات و دار للمعتوهین و مدرسة للعمیان و ملجأ للشیوخ و مدرسة ابتدائیة و صناعیة تقیم علیها جمعیة الاتحاد الإسرائیلی و مدرسة انکلیزیة للبنات و مدرسة المانیة للبنین و ملاجئ منها الالمانی و الاسبانی و فی القدس مدرسة البنات لاسوج. و لما زار الامبراطور غلیوم الثانی ملک ألمانیا مدینة القدس أمر بانشاء أربع کنائس و کلها واقعة فی أهم بقعة فی المدینة ثلاث منها مشرفة علیها من الخارج و الرابعة داخل المدینة أی السور.

و قبل الحرب العامة کان فی القدس ۸ أدیار للذکور و ۹ أدیار للإناث من اللاتین و کنیستان للروم الکاثولیک و واحدة للأرمن

الكاثوليك و ۱۴ ديرا للروم الذكور و ۴ أديرة للإناث من الروم و ۴ أديار للروس و ۵ للأرمن و ۳ للأقباط و ۳ للحبش و ۲ للسريان و ۲ للبرتستانت الاسقفيين و ۱ للإنجيليين و ۱ للهيكليين من الطوائف البرتستانتية و ۴۰ كنيسا للإسرائيليين و ربما زادت بعض الطوائف أماكن أخرى للعبادة.

و كنائس القدس و أديارها و بيعها على غاية من الفخامة لأنها من إنشاء

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۹

دول كبرى و مكانة القدس فى هذا الباب لا تنازعها فيه غير رومية العظمى، و أهم تلك الكنائس فى القدس كنيسة القيامة و هى ليست بالكبرى كثيرا بالنسبة لكنائس الغرب المهمة بل هى متوسطة الحجم استأثر أهل كل مذهب من مذاهب النصرانية ببقعة صغيرة منها لا يتعدونها يكنسونها و يوقدون سرجها و يتعهدونها بما يصلحها. و السدانة للمسلمين حتى لا يقع بين أهل تلك المذاهب شىء من التحاسد الذى أدى فى الأزمان السالفة الى فتن و حوادث، و لكل قطعة من قطع كنيسة القيامة و جدار من جدرانها و عمود من عمدها حادثة تاريخية يذكرونها فى تاريخهم الدينى.

و إن؟؟؟ كان عنى بعمران كل بلد على مثل ما عنى بإنشاء الأديار و الكامل؟؟؟ القدس و ما إليها من الأرض المقدسة لكانت الشام أعمر أقطار العالم؟؟؟ بكنائسها؟؟؟ و أديارها فقد قدّم؟؟؟ بعضهم ما أنفق على هذه المعاهد الدينية الكبرى بخمسة عشر مليون حسبه؟؟؟ قبل أن يحاول اليهود أن يجعلوا لهم من فلسطين وطنا قوميا، و قبل أن ينشئوا فيها كنائسهم و معابدهم و يشترك يهود العالم فى إتمام مشاريعهم فى فلسطين. و لا يدخل فى هذا التقدير فى معابد القدس من العاديات و الآثار و التحف و الطرف فإن ذلك لا يقوّم؟؟؟

بثمن. كل هذا بسائق المنافسة السياسية و الدينية بين الطوائف المسيحية بعضها مع بعض و بين المسيحيين من جهة و الموسويين من أخرى.

كنائس فلسطين:

و لو جئنا نستقصى كنائس فلسطين لطال بنا المجال من؟؟؟ كنائسها كنيسة روسية فى يافا مطلة على سهل سارون و كنائس صغيرة ثابتة للفرنسيين و الروم الأرثوذكس و الكاثوليك و الموارنة، و كنيس لليهود. و لهم مدرسة مهمة فى تل أبيب و أهم الأديار فيها دير اللاتين و فيها كنيسة للبرتستانت الالمان من طائفة الهيكليين و اسمها أحباب القدس و قد كثرت الكنائس فى المدن و القرى و الغالب أن كنائس القرى سبقت بإنشائها كنائس المدن لأن النصرانية انتشرت أولا فى القرى و عصى أهل المدن على التدين بها لغلبة التعصب عليهم. و من رأى بعض الواقفين أن النصرانية انتشرت أولا فى المدن

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۰

كالقدس و أنطاكية و الإسكندرية و أفسس حتى وصلت الى داخل بلاط القياصرة.

و فى نابلس دير للاتين و كنيسة للروم و كنيس و كتاب للسامرة و مدرسة للانكليز و مدرسة للراهبات و لها بيع صغيرة و فى أريحا كنيسة للروم و أخرى للاتين. و كنيسة بيت لحم من أقدم الكاتدرائيات الباقية لم تخرب فى جملة ما خربه الحاكم، و قد رممت فى أوقات مختلفة و زينت و لا- سيما فى عهد الصليبيين، و فى بيت لحم عدة أديار و كنائس منها دير للفرنسيسكان مع دار ضيافة و مدرسة للذكور و صيدلية و كنيسة جميلة و لأخوات القديس يوسف دير و ميتم و مدرسة للبنات و دير للكرمليات عمر على مثال قصر سانت آنج فى رومية و له كنيسة و مدرسة اكليركية لجمعية آباء القلب المقدس و جمعية الأب بيلونى و فيه مدرستان إحداهما صناعية و كنيسة. و لراهبات المحبة مستشفى و لإخوان المدارس المسيحية مدرسة عظمى و للروم دير الولادة و كنيستان إحداهما باسم القديسة هيلانة و الثانية باسم القديس جورج و مدرسة للذكور و أخرى للإناث. و للأرمن دير عظيم و هو دير الفرنسيسكان و

دير الروم أشبه بقلاع. و للبرتستانت الالمان مدرستان و ميتم، و للانكليز مدرسة للفتيات يضاف إليها دار للمعلمات و كلها تحوى كنائس و بيعا. و فى الناصرة أربع عشرة بيعة و كنيسة و معظمها من ضخامة البناء ما يذكر بقصور الملوك، و دير الفرنسيسكان يزار لبعض الآثار التاريخية فيه و هو أثر من آثار القرون الوسطى. و فى صفد كنيسة و مدرسة للروم الكاثوليك و خمس كنائس للإسرائيليين و خمس مدارس ابتدائية دينية و مدرسة عالية للاتحاد الإسرائيلى و كنيسة و مستشفى للبرتستانت. و فى طبريا كنيسة للروم و أخرى للكاثوليك و خمس كنائس لليهود. و للكاثوليك كنائس فى حيفا و البصة و شفاعمرو و ترشيحة و المقار. و فى الطور دير و كنيسة لكل من الفرنسيين و الروم الأرثوذكس، و كنيسة الفرنسيين من أبدع كنائس العالم.

و فى الرملة دير للآباء الفرنسيسكانيين أسس سنة (۱۴۰۰) على يد الأمير فيليب الاسبانى ثم خرب سنة (۱۷۰۰) ثم أعيد بناؤه. و خرب صلاح الدين

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۱

كنيسة لدّ التى أنشئت فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر، كما خرب كثيرا من الكنائس فى عهده و خرب بعضها فى الحروب و خرب الآخر قصدا لأسباب سياسية و حربية حافزة. و فى جينين دير و مدرسة للذكور و للروم كنيسة و للبرتستانت و للكاثوليك و لكل كنيسة مدرسة تابعة لها.

و بالجملة فكل بلد فى فلسطين لا يخلو من دير أو كنيسة أو كنيس مهما بلغ من قلة ساكنيه من المسيحيين و الإسرائيليين.

و الفضل فى إنشاء هذه الكنائس لجماعة الرهبان و المبشرين فهم الذين استوكفوا أكف المحسنين فى الغرب و صرفوا عقولهم و أوقاتهم فى إقامة تلك المعاهد المهمة، و قد جاء منهم نوابغ فى كل قرن خلدوا اسمهم بقدر ما يذكر؟؟؟ من العناية بنشر دينهم و إقامة شعائره و معابده فاستفاد العمران من عمر؟؟؟ فوائد لا ينكرها منصف. كتب إيليا بطريرك بيت المقدس؟؟؟ أنسطاس ملك الروم: قد بعثت إليك بجماعة عبيد اللّه و رؤساء رهبان بريتنا و فيهم؟؟؟ الفاصل؟؟؟ الذى قد صيّر بريتنا مدائن و أعمرها و هو نجم فلسطين.

كنائس الأردن:

و فى عبر الأردن كنائس أهمها كنيسة مادبا أو ميدبا و قد تقدم الكلام عليها فى المصانع و نزيد الآن أن ميدبا (عن مجلة المسرة) فاقت أخواتها؟؟؟

بكنائسها الفخمة العشر و أن سرجيوس مشيد الكنائس شيد كنيسة على اسم الرسل القديسين. و من الكنائس التى بقى ذكرها إلى اليوم كنيسة البتول التى يرجع عهدها إلى؟؟؟ أيام القيصر يوستنيانوس. و لما فاضت جيوش الأعاجم على هذه الديار حرقت الكنائس و الديرة و ذبحت الألوف من الرهبان و النصارى ثم وطئتها أقدام الفاتحين من المسلمين فدثرت؟؟؟ تلك الأسقفية و عادت أخربة ينعق فيها البوم عصورا طويلة.

و كان فى أكثر أمهات قرى حوران كنائس مهمة فى الإسلام خربت بطول الزمن حتى قيل إنه كان فى إقليم حوران فقط أربع و ثلاثون أسقفية و ناهيك بما يقتضى لها من الكنائس. و اشتهرت اليوم كنائس تبنة و بصير و خبب. و فى جبل عجلون عدة كنائس منها ثلاث فى الحصن أكبرها كنيسة اللاتين. و فى عجلون عدة كنائس صغرى جعل بجانبها مدارس.

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۲

و فى الكرك ثلاث كنائس للروم و الكاثوليك و البرتستانت. و قد بلغ الغرام برجال المذاهب المسيحية أن أهل كل مذهب إذا وجدوا خمس عيال فى قرية من رعاياهم أنشأوا لهم كنيسة فالكنائس الصغيرة كثيرة جدا فى كل بلد و كل قرية أنشأ فيها اللاتين كنيسة أنشأ فيها البرتستانت أيضا و العكس بالعكس.

كنائس لبنان:

أما كنائس لبنان فكثيرة جدا لا تكاد تخلو قرية من كنيسة أو كنيستين و ربما أكثر، و ليست كلها على جانب عظيم من العظمة و لا يرد عهدها إلى زمن قديم، فإن معظم ما كان منها فى كسروان و ما إليه إلى جنوبى الجبل ليس له من العمر أكثر من مئتى سنة، ذلك لأن الموارنة لم يمتدوا إلى كسروان قبل القرن السادس عشر للميلاد، و كان عشهم فى شمالى لبنان قبل ذلك. و لقد ترى فى بعض المدن اللبنانية كزحلة و هى أكثر القرى سكانا فى الجبل كثيرا من الكنائس التى لم تقم على ما يظهر إلا بسائق المنافسة ففيها ۱۲ كنيسة للكاثوليك و كنيستان للأرثوذكس و كنيستان للموارنة و كنيسة و دير لليسوعيين و كنيسة للسريان الكاثوليك و كنيسة للأميركان، و فى زحلة أيضا دير القديس الياس الطوق للرهبنة الباسيلية و فيها كنيسة فى المدرسة الشرقية و غير ذلك من الكنائس الملحقة بالمدارس و لا تقل عن ست و عشرين كنيسة. و فى مدينة بيروت و طرابلس و اللاذقية و صور و صيدا كنائس كثيرة لكل طائفة و لكل جمعية تبشيرية و أهمها ما كان فى بيروت فللروم الأرثوذكس و للروم الكاثوليك و للبرتستانت الأميركان و لغيرهم من الطوائف كنائس و بيع مهمة، و أهمها ما كان لليسوعيين أو المرسلين الأميركان.

و فى الهدنة التى عقدت بين المنصور قلاوون و ولده الملك الصالح و بين حكام الفرنج بعكا سنة (۶۸۲) أن تكون كنيسة الناصرة و أربع بيوت من أقرب البيوت إليها لزيارة الحجاج و غيرهم من دين الصليب كبيرهم و صغيرهم على اختلاف أجناسهم و أنفارهم من عكا و البلاد الساحلية و يصلى

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۳

بالكنيسة الأقساء و الرهبان و تكون البيوت المذكورة لزوار كنيسة الناصرة خاصة، و إذا نقبت الحجارة التى بالكنيسة المذكورة ترمى برا و لا يحط حجر منها على حجر لأجل بنايته و لا يتعرض إلى الأقساء و الرهبان و ذلك على وجه الهبة لأجل زوار دير الصليب.

و من كنائس لبنان و ما إليه كنيسة معاد و كنيسة رشكيدا و كنيسة حدنون و كنائس اهدن و عبدله و بحديدات و صربا و كفر شليمان و قنوبين و بكفيا و ادّه و بشرّى و بكركى و الديمان و زحلة و دير القمر و الشرفة و برمانا و غزير و بيت خشبو و بزمار و بعبدات و القريّة و حريصا و أميون و جزين و جبيل و أفقة و الكورة و الزاوية و بحنّس و دير مار الياس و الشوير و بسكنتا و كفتين و دير مار يعقوب المقطع و دير سيدة الراس و دير حماطورة و دير مار جرجس و دير مار الياس النهر و دير ناطور و دير سيدة النورية عند وجه الحجر و دير كفتون و دير جبرائيل و دير ميخائيل المعظمة فى برج صافيتا و دير مار جرجس الحميرا و دير الأحمر. و دير مار شربين و دير مار توما قرب صيدنايا.

و كان الصليبيون أنشأوا عدة كنائس فى أرواد و طرطوس و صيدا و بيروت و غيرها من الساحل فهدمت، ثم بنيت مساجد و لأن بعضها كان بمثابة حصون فى أيدى الرهبنات المتجندة مثل الهيكليين و الاسبتاريين و التوتونيين. و فى أمهات المدن الصغيرة كنائس مهمة مثل بعلبك و عكار و الحصن و حمص و حماة و يبرود و القبيات و الإسكندرونة و أنطاكية.

و فى هذه فقط تسع كنائس و فيها أنشئت أول كنيسة فى الشام و كانت فى جميع أدوارها موضع إعجاب المؤرخين و السائحين و منها ما هو فى القرى مثل صدد و معلولا و صيدنايا و هذه أليق بأن تذكر فى باب الأديار لأنها بعيدة عن المدن و الدير فى الحقيقة كنيسة و زيادة. و لليهود فى حلب و دمشق عدة كنائس و لكنها ليست من المكانة على شىء و لهم فى تادف و جوبر و غيرهما كنائس قديمة ينتابونها للعبادة و من عادة الإسرائيليين أن يكون فى دار كل غنى كنيس و هو عبارة عن غرفة كبيرة تجعل للعبادة و أشهرها فى دمشق كنيس سوق الجمعة و لهم فى حلب كنائس مهمة و كذلك فى بيروت.

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۴

عمل الرهبان و الراهبات العظيم:

يتصور القارئ مبلغ عناية الرهبان و الراهبات بدينهم من إلقاء نظرة على الفصل التالى: للراهبات الالمانيات مدرسة و دار للأيتام فى القدس و مستشفى فى حيفا و مستشفى و مدرسة ليلية و نهارية للإناث فى بيروت و معهد فى دمشق و آخر فى حلب و قد جئن القدس سنة (۱۸۸۷). و جاء راهبات السجود القدس سنة (۱۸۸۸) و أسسن فيها ديرا كبيرا ثم جئن بيروت و أنشأن دارا للعبادة. و للعازاريين محال مهمة و هم يقسمون قسمين قسم الرهبان اللعازريين الالمان جاءوا سورية عام (۱۸۹۰) و أنشأوا فى القدس مدرسة، و القسم الثانى رهبان فرنسيون جاءوا سورية منذ نحو قرنين و أخذوا الأديار التى كانت لليسوعيين و لهم مدرسة فى بيروت و أخرى فى عينطورة و أهدن فى لبنان و رابعة فى دمشق و خامسة فى ريفون.

و جاء الآباء السالزيون القدس سنة (۱۸۹۱) و لهم دار للأيتام فى بيت لحم و دار للأيتام زراعية فى بيت جمال و ثالثة فى الناصرة و مدرسة ابتدائية فى بيت لحم. و جاء الراهبات السالزيات القدس سنة (۱۸۹۱) و هن يشتغلن مع الرهبان السالزيين. و أتى راهبات صهيون القدس عام (۱۸۵۶) و أنشأن معهدا فى كنيستهن المسماة اكس هومو. و قدم الآباء البيض القدس عام (۱۸۷۸) و أنشأوا كنيستين فيها. و نزل آباء القلب المقدس القدس عام (۱۸۷۹) و أنشأوا مدرسة فى بيت لحم. و لراهبات الوردية عمل دينى مثل بنات جنسهن. و جاء القدس آباء سيدة صهيون عام (۱۸۸۴). و الدومنيكان أو رهبان مار عبد الأحد و ردوا على القدس عام (۱۸۸۲) و أسس الرهبان الصعوديون مأواهم فى القدس عام (۱۸۸۷) و أسس الآباء الترابيون ديرا فى الاطرون و هم معروفون بفن الألبان و الزراعة. و جاء الراهبات البندكتيات القدس عام (۱۸۹۶) و راهبات هورتوس كونكلوز و هن اميركانيات جئن القدس عام (۱۹۰۱).

و لراهبات الناصرة مدرسة فى حيفا و أخرى فى شفاعمرو و ثالثة فى عكا و دير الناصرة فى بيروت و قد جئن سورية سنة (۱۸۵۵). و قدم الراهبات

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۵

الكرمليات الشام سنة (۱۸۷۳) و أنشأن ديرهن المعروف فى جبل الزيتون فى القدس و لهن دير فى بيت لحم و آخر فى سفح جبل الكرمل قرب حيفا.

و جاء رهبان الفرير الشام سنة (۱۸۷۸) و لهم مدرسة فى القدس و أخرى فى حيفا و ثالثة فى الناصرة و رابعة فى بيت لحم و خامسة فى بيروت و سادسة فى طرابلس و سابعة فى إسكندرونة و ثامنة فى دمشق و تاسعة فى يافا. و جاء رهبان مار يوحنا الالهى القدس عام (۱۸۷۹) فأسسوا مستشفى فى طنطور على طريق بيت لحم و لهم مستشفى و مستوصف فى الناصرة.

و جاء راهبات سانت كلير الشام عام (۱۸۸۴) و أنشأن ديرا على طريق بيت لحم و لهن دير فى الناصرة. و وردت الراهبات الفرنسيسيات البيض القدس عام (۱۸۸۵) و أنشأن ميتما و لهن ميتم فى بيت لحم و أنشأن مدرسة فى دمشق.

و جاء راهبات المحبة القدس عام (۱۸۸۶) و لهن مستشفى و دار للأيتام فى بيت لحم و مستشفى و مدرسة فى حيفا و مستشفى فى الناصرة و لهن فى بيروت مستشفى عظيم و دار للأيتام و دار للصناعة للذكور و الإناث و ثلاث مدارس صغرى فى بيروت و مكتب للصنائع فى طرابلس و دور نقاهة فى اهدن و بحنّس من لبنان و مدرسة فى برج البراجنة و فى كل معهد منها دار للعبادة يختلف إليها أهل المذهب الذى يبشرون به.

و لقد قالوا: إن عدد الجمعيات الأجنبية التى تسعى لتنوير أفكار النصارى فى سورية تبلغ ثمانين جمعية، و أهمها جمعية اليسوعيين وردوا الشام قبل قرنين أو ثلاثة فأسسوا الأديار التى ينزلها اللعازريون اليوم ثم غادروا الديار فلم يعودوا إليها إلا عام (۱۸۳۱) فأنشأوا مدرستهم فى غزير من لبنان و فى عام (۱۸۷۶) افتتحوا كليتهم العظمى فى بيروت و لهم الآن عدة أديار و مدارس فى بكفيا و المعلقة و زحلة و غزير و دمشق و حلب و تعنايل و جزين و قد أنشأوا بعد الحرب العالمية مدارس صغرى كثيرة فى ربوع جمهورية لبنان و يوشكون أن يتوسعوا فى الداخلية كثيرا بمدارسهم و كنائسهم. أما الفرنسيسكان فلم يزالوا فى الشام منذ الحروب الصليبية و زادوا عام (۱۸۴۸) عدد أديارهم و أنشأوا ملاجئ للزوار فى القدس و لهم فيها ستة ملاجئ و لهم أديار و ملاجئ فى بيت لحم و عين كارم و

طبريا و جبل الطور و الناصرة و قانا و عكا و صور

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۶

و صيدا و بيروت و حريصا و طرابلس و اللاذقية و دمشق و حلب و إسكندرونة و لهم مدرسة فى حلب.

و كان الكرمليون تركوا الشام مع القافلة الأخيرة من الصليبيين ثم عادوا إلى جبل الكرمل عام (۱۶۳۶) و بنوا ديرا و محلا للضيافة فى الجبل و لهم أديار فى حيفا و طرابلس و القبيات من إقليم عكار و مدرسة فى بشرّى. و ديرهم فى الكرمل من أجمل أديار الشام ترى منه أجمل المناظر. و جاء راهبات القديس يوسف أو الراهبات اليوسفيات من مرسيليا إلى القدس عام (۱۸۴۸) و لهن فى فلسطين ۱۳ معهدا و ۳ مستشفيات أحدها فى القدس و الآخر فى يافا و الثالث فى الناصرة. و لهن فى هذه المدن ثلاث دور للأيتام و مدرستان نهاريتان و خمس مدارس دينية و مدرسة فى بيروت و دير فى صيدنايا و مدرسة فيها دير و مدرسة فى دير القمر و ديران و مدرستان ليليتان و مستشفى فى حلب و دير و مدرسة فى إسكندرونة.

الأديار القديمة فى الشام:

«دير إسحاق» كان بين حمص و سلمية فى موضع حسن نزه على نهر جار و حوله كروم و مزارع إلى جانب ضيعة صغيرة يقال لها جدر، و هى التى ذكرها الأخطل فى قوله:

كأننى شارب يوم استبدّ بهممن قرقف عتقتها حمص أو جدر

و قال فيه أبو عبد الرحمن الهاشمى السلمانى من أهل سلمية:

و إذا مررت بدير إسحاق فقل‌جادتك غيث سحائب و بروق

دير يشبّه ماؤه بهوائهو هواؤه بلطافة المعشوق

و ليس لهذا الدير من أثر اليوم.

«دير الباعفى» كان قبلى بصرى من أرض حوران و هو دير بحيرا الراهب كما زعموا و لا يعرف الآن. و بحيرا شخص خيالى.

«دير باعنتل» من جوسية على أقل من ميل و جوسية على مرحلة من حمص و لا يعرف اليوم هذا الدير.

«دير البتراء» كان فى وادى موسى دير للراهبات و ذكر البولونديون

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۷

ديرا للرهبان فى البتراء كان يرأسه القديس موسى أسقف البدو الرحالة يقال: إن بانيه اثينوجينوس أوائل القرن السابع للميلاد. و ذكر الرحالة تيتمار أنه طاف تلك الفيافى سنة (۱۲۱۷) و عثر بين أخربة البتراء على كنيسة و دير لم يزل يسكنه بعض الرهبان. و هناك الكنيسة الكاتدرائية المثلثة السواعد و قد كانت اما لسائر الكنائس الملكية الكاثوليكية فى هذه البلاد الشرقية (عن مجلة المسرة).

«دير البخت» كان على فرسخين من دمشق و يسمى دير ميخائيل و كان عبد الملك بن مروان قد ارتبط عنده بختا و هى جمال التركفغلب عليها و كان لعلى بن عبد اللّه بن عباس قربه جنينة يتنزه فيها. و قرية دير البخت معروفة الى اليوم فى الجيدور. و وجه التسمية فى هذا الدير بعيد لأنه عرف بهذا الاسم قبل الإسلام على ما ظهر من رواية ابن عساكر فى بعض وقائع عمر بن الخطاب فى الجاهلية و مروره بدير البخت و اجتماعه براهب أكرمه و تفرس فيه الخير فيما قال.

«دير بصرى» قيل هو الذى كان فيه بحيرا الراهب فى حوران.

مجهول محله.

«دير بلاص» من أعمال حلب مشرف على العمق فيه رهبان لهم مزارع و هو دير قديم مشهور لم يبلغنا أنه موجود.

«دير البلمند» من أديار الروم الأرثوذكس المشهورة على نشز عال قرب مدينة طرابلس فى أقصى حدود جبل لبنان يقال: إنه من أديار

الصليبيين و إن اسمه جاء من تركيب بل مونت أى الجبل الجميل و هو اليوم عامر.

«دير بلودان» مر به ابن فضل اللّه العمرى و نزل إليه فقال فيه: إن بناءه قديم بديع الحسن وافر الغلة كثير الكروم و الفواكه و الماء الجارى، بقربه قرية بلودان و هى محاذية لكفر عامر تطلّ من مشترفها على جبة الزبدانى و به رهبان نظاف و نظم فيه أبياتا و منها:

حبذا الدير من بلودان داراًىّ دير به و أىّ نصارى

فيهم كل أحور الطرف أحوىفائق الحسن فى حسان العذارى

و قال محاسن الشوا الحلبى:

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۸ حييا ساكنى بلودان عنىو رجالا بدير قانون زهرا

و لا يعرف متى زال هذا الدير، و دير قانون من قرى الوادى لا دير فيه اليوم.

«دير بولس» كان بنواحى الرملة نزله الفضل بن إسماعيل و قال فيه شعرا لم يسمه فى أوله:

عليك سلام اللّه يا دير من فتىبمهجته شوق إليك طويل

و لا زال من جو السماكين و ابلعليك لكى يروى ثراك هطول

قال البكرى: و دير بولس آخر و «دير بطرس» (أو نطرس) و هما معروفان بظاهر دمشق فى نواحى بنى حنيفة فى ناحية الغوطة و إياهما عنى جرير بقوله:

لما تذكرت بالديرين أرّقنىصوت الدجاج و قرع بالنواقيس

فقلت للركب إذ جدّ الرحيل بنايا بعد يبرين من باب الفراديس

و لا نعرف شيئا عن هذا الدير.

«دير البنات» و هو دير أبيض البناء مشرف على أرض طرابلس كان للرواهب قال فيه الطيبى:

دير البنات الزهر أنت المنىو أنت من دون الأمانى المرام

لم أنس يوما فيك أذهبتهباللهو بل ذهبته بالمدام

و نحن فى غرة أيامناو العيش مثل الطيف حلو اللمام

و الدوح ما جفت له زهرةو الروض طفل ما جفاه الغمام

و بيننا خود كشمس الضحىو أغيد قد فاق بدر التمام

لو لا نبات الشّعر فى خدهلم تدر أى الأغيدين الغلام

و لا نعرف اليوم أى أديار البنات هذا.

«دير يونّا» أى يوحنا و روى بالباء بدل الياء كان بجانب الغوطة بدمشق ليس بكبير و لا رهبانه بكثير و لكنه فى رياض مشرقة و أنهار متدفقة و يقال بأنه من أقدم ديرة النصارى. اجتاز به الوليد بن يزيد فأقام فيه أياما و قال فيه:

حبذا يومنا بدير يونّاحيث نسقى براحه و نغنّى

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۹ و استهنا بالناس فيما يقولون إذا خبروا بما قد فعلنا

قال ابن فضل اللّه و هذا الدير اليوم لا وجود له.

«دير حمطورا» هو فى شرقى طرابلس فى جانب الوادى الذى أسفل من طرزيه و الحدث. و هو بناء فى سفح الجبل من ذلك الجانب قبالة الطريق السالك إلى طرابلس و هو حصين جدا لا يسلك إليه إلا من طريق واحد و ظهر الجبل الذى له ممتنع- قاله ابن فضل اللّه.

«دير الحنابلة» فى تاريخ الصالحية لم يكن فى الجبل أى قاسيون إلا بناية يسيرة من الناحية الغربية دير أبى العباس الكهفى و دار بيت الضيا و غيرها، و من الناحية الشرقية دير يقال له دير الحنابله و كان أولا لناس من الرهبان فاتفق أنهم أحدثوا شيئا فأخرجوا منه ثم بنى

الشیخ أبو عمر المدرسة.

«دیر حنیناء» دیر بالشام و هناک مات معاویة بن هشام بن عبد الملک فقال الکمیت یرثیه:

فأی فتی دنیا و دین تلمستبدیر حنیناء المنایا فدّلت

تعطلت الدنیا به بعد موتهو کانت له حینا به قد تحلّت

و قیل: إن الذی رثی بهذا الشعر البطال أحد قواد الأمویة و فرسانهم مات بدیر حنیناء قافلا مع معاویة بن هشام من غزوة فأمر معاویة الشعراء برثائه.

و الروایة فی شعر أبی تمام حبیناء بالباء المعجمة و لا یعلم عنه شیء فی عصرنا.

«دیر الخمان» کان هذا الدیر بأرض أذرعات بنی بالحجارة السود علی نشز من الأرض یشرف علی برکة الفوار و هو من البناء الرومی القدیم.

و لا یعرف الیوم عنه شیء.

«دیر خالد» و هو دیر صلیبا بدمشق کان مقابل باب الفرادیس نسب الی خالد بن الولید لنزوله فیه عند حصاره دمشق قال ابن الکلبی: و هو علی میل من الباب الشرقی و لا یعرف عنه شیء آخر و فی هذا الدیر یقول محمد ابن علی المعروف بأبی البقاء:

جنة لقبت بدیر صلیبامبدعا حسنه کمالا و طیبا

جئته للمقام یوما فظلنافیه شهرا و کان أمرا عجیبا

شجر محدق به و میاهجاریات و الروض یبدو ضروبا

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۰ من بدیع الألوان یضحی به الثاکل مما یری لدیه طروبا

کم رأینا بدرا به فوق غصنمائس قد علا بشکل کثیبا

و شربنا به الحیاة مداماتطلع الشمس فی الکؤوس غروبا

فکأن الظلام فیها نهارلسناها تسرّ منا القلوبا

لست أنسی ما مر فیه و لا أجعل مدحی إلا لدیر صلیبا

«دیر خناصرة» ورد ذکره فی شعر بنی مازن فی قول حاجب بن ذبیان المازنی مازن بن تمیم من عمرو بن تمیم لعبد الملک بن مروان فی جدب أصاب العرب قال:

و ما أنا یوم دیر خناصراتبمرتد الهموم و لا ملیم

و لکنی ألمت بحال قومی کما ألم الجریح من الکلوم

و خناصرة بلدة فی قبلی حلب و لیس للدیر ذکر الآن.

«دیر الدواکیس» شرقی القدس حسن البناء له سمعة و ذکر و کان له وقف یعود منه علی الرهبان السکان جلیل فائدة و نفع و لابن فضل اللّه فیه و قد مر به غیر مرة أبیات منها:

دیر الدواکیس أم ریش الطواویسأم الشموس سنا تلک الشمامیس

مأوی المیاسیر لکن بعد أوبتهممنه یعدّون فی حزب المفالیس

فانزل به و أقم فیما ترید و قلإملا کؤوسی و فرّغ عندها کیسی

و اقدح زناد سرور من مدامتهفهذه النار من تلک المقابیس

«دیر رمانین» جمع رمان بلفظ جمع السلامة یعرف أیضا بدیر السابان و هو بین حلب و أنطاکیة مطل علی بقعة تعرف بسرمن و هو دیر حسن کبیر خرب قبل القرن السابع و آثاره باقیة کما قال یاقوت و فیه یقول الشاعر:

ألف المقام بدير رمانينااللروض إلفا و المدام خدينا

و الكأس و الإبريق يعمل دهرهو تراه يجنى الآس و النّسربنا

قال ياقوت و دير السابان و هو دير رمّانين و تفسيره بالسريانية دير الشيخ.

«دير سابر» كان من نواحى دمشق و هو من إقليم خولان سكنه عمر ابن محمد الأموى. و خولان كانت بقرب دمشق خربت بها قبر أبى مسلم

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۱

الخولانى و بها آثار باقية- ياقوت. و بيت سابر اليوم قرية فى سفح جبل الشيخ من عمل وادى العجم.

«دير سعد» كان من ديرة الشام نزله عقيل بن علّفة المرى و كان يصهر إليه خلفاء بنى أمية و هذا كل ما عرف عنه قديما.

«دير سليمان» دير بجسر منبج و هو فى جبل عال من جبال دلوك مطل على مرج العين و هو غاية فى النزاهة قال أبو الفرج أخبرنى جعفر بن قدامة قال: ولى إبراهيم بن المدبّر عقيب نكبته و زوالها عنه الثغور الجزرية و كان أكثر مقامه بمنبج فخرج فى بعض ولايته إلى نواحى دلوك برعبان و خلف بمنبج جارية كان يتحظاها يقال لها غادر فنزل بدلوك على جبل من جبالها بدير يعرف بدير سليمان من أحسن بلاد اللّه و أنزهها و دعا بطعام خفيف فأكل و شرب ثم دعا بدواة و قرطاس فكتب:

أيا ساقيينا وسط دير سليمانأديرا الكؤوس فانهلانى و علانى

و خصا بصافيها أبا جعفر أخىفذا ثقتى دون الأنام و خلصانى

و ميلا بها نحو ابن سلّام الذىأود، و عودا بعد ذاك لنعمان

و عما بها النعمان و الصحب إننىتنكر عيشى بعد صحبى و إخوانى

و لا تتركا نفسى تمت بسقامهالذكرى حبيب قد سقانى و غنانى

ترحلت عنه عن صدود و هجرةفأقبل نحوى و هو باك فأبكانى

و فارقته و اللّه يجمع شملنابلوعة محزون و غلة حرّان

و ليلة عين المرج زار خيالهفهيج لى شوقا وجدد أحزانى

فأشرفت أعلى الدير أنظر طامحاباًلمح آماق و أنظر إنسان

لعلى أرى أبيات منبج رؤيةتسكن من وجدى و تكشف أشجانى

فقصّر طرفى و استهل بعبرةو فدّيت من لو كان يدرى لفدّانى

و مثله شوقى إليه مقابلىو ناجاه عنى بالضمير و ناجانى

«دير سمعان» بنواحى أنطاكية على البحر قال ابن بطلان و بظاهر أنطاكية دير سمعان و هو مثل نصف دار الخلافة ببغداد يضاف به المجتازون و له من الارتفاع كل سنة عدة قناطير من الذهب و الفضة و قيل: إن دخله فى السنة أربعمائة ألف دينار و منه يصعد إلى جبل اللكام- قال هذا فى

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۲

القرن الخامس للهجرة. و فى رواية أن دير سمعان بنواحى حلب بين جبل بنى عليم و الجبل الأعلى. و دير سمعان أيضا فى قرية تعرف بالبقرة من قبلى معرة النعمان و به قبر عمر بن عبد العزيز مشهور لا ينكر ذكره السيد الرضى فى رثائه بقوله:

با ابن عبد العزيز و لو بكت العين فتى من أمية لبكيتك

أنت نزهتنا عن السب و الشتم فلو يمكن الجزا لجزيتك

دير سمعان لاعدتك الغوادىخير ميت من آل مروان ميتك

و قال أبو فراس بن أبی الفرج البزاعی و قد مر به فرآه خرابا فغمه:

یا دیر سمعان قل لی أین سمعانو أین بانوک خبرنی متی بانوا

و أین سکانک الیوم الألی سلفواقد أصبحوا و هم فی الترب سکان

أصبحت قفرا خرابا مثل ما خربوابالموت ثم انقضی عمر و عمران

وقفت اسأله جهلا لیخبرنیهیهات من صامت بالنطق تبیان

أجابنی بلسان الحال إنهم کانوا و یکفیک قولی إنهم بانوا

«دیر السیق» کان معروفا قدیما و یقع قبلی البیت المقدس علی نشز عظیم عال مشرف علی الغور غور أریحا یطل علی تلک البسائط الخضر و مجری الشریعة و به رهبان ظراف أکیاس لا یأتیهم إلا قاصد لهم أو مارّ فی مزارع الغور. تحتهم و فوقهم الطریق الآخذة الی الکثیب الأحمر. و مشهد موسی علیه السلام فی القبة التی بناها علیه الملک الظاهر بیبرس و فی هذا الدیر و مشترفه و أطلال قلالیه و غرفه قال ابن فضل اللّه العمری:

أری حسن دیر السیق یزداد کلمانظرت إلیه و الفضاء به نضر

بنوه علی نجد من الغور مشرف کتخت ملیک تحته بسط خضر

و أشرق فی سود الغمام کأنماتشقق لیلا عن جلابیبه الفجر

و قام علی طود علیّ کأنمامصابیحه تحت الدجی الأنجم الزهر

و زفت إلیه الشمس من جنب خدرهاو ناغاه جنح اللیل فی أفقه البدر

و ألقت إلیه الریح فضل عنانهاو أحنی علیها لا تبلّ له عذر

و لو کان کالنسرین هان ارتقاؤهو لکنه قد حط من دونه النسر

علا نهر ریحا و المجرّة فوقهفمن فوقه نهر و من تحته نهر

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۳

«دیر شق معلولا» و هو بباطن جبة عسال و هو بناء رومی بالحجر الأبیض معلّق بسقیف و بها صدع فیها ماء ینقط نحو الذی بصیدنایا، و یأخذه النصاری للتبرک معتقدین فیه نحو اعتقادهم فی الآخر و إنما الاسم للذی بصیدنایا- قاله فی مسالک الأبصار و الغالب أنه دیر الروم الباقی الی الیوم.

«دیر صلیبا» و یعرف بدیر السائمة (السائحة؟) و هو بدمشق مطل علی الغوطة ویلیه من أبوابها باب الفرادیس نزل دونه خالد بن الولید أیام محاصرة دمشق و هو فی موضع نزه کثیر البساتین و بناؤه حسن عجیب و إلی جانبه دیر للنساء فیه رهبان و رواهب و إیاه أراد جریر بقوله:

إذا تذکرت بالدیرین أرقنیصوت الدجاج و قرع بالنواقیس

فقلت للرکب إذ جد النجاء بهمیا بعد یبرین من باب الفرادیس

و قد مر بنا هذان البیتان فی دیر بولس بروایة أخری. و قال الآخر:

یا دیر باب الفرادیس المهیج لیبلابلا بقلالیه و أشجاره

لو عشت تسعین عاما فیک مصطبحالما قضی منک قلبی بعض أوطاره

قال ابن فضل اللّه و هذا الیوم (أی فی الثامن) لا عین له و لا أثر و إنما صار دورا و أبنیة و مساجد و مدافن و هی بناحیة محلة حمام النحاس اه.

«دیر صیدنایا» یؤخذ مما قاله صاحب مسالک الأبصار أنهما اثنان أحدهما یقصده النصاری بالزیارة و هو فی دمنة القریة و الآخر علی

بعد منها مشرف على الجبل شماليها بشرق و هو دير مار شربين و يقصد للتنزه من بناء الروم بالحجر الجليل الأبيض و هو دير كبير و فى ظاهره عين ماء سارحة و فيها ما يطلّ على بواطن ما وراء ثنية العقاب و يمتد النظر من طاقاته الشمالية إلى ما أخذ شمالا عن بعلبك. و أما الذى فى القرية فمن بناء الروم بالحجر الأبيض أيضا و يعرف بدير السيدة و له بستان و به ماء جار فى بركة عملت به و عليه أوقاف كثيرة و له مغلات واسعة و تأتيه نذور وافرة و طوائف النصارى من الفرنج تقصد هذا الدير و تأتيه للزيارة. و كنت أراهم يسألون السلطان فى أن يمكنهم من زيارته و إذا كتب لهم زيارة قمامة و لم يكتب معها صيدنايا يعاودون السؤال فى كتابتها لهم، و لهم فيها معتقد. و قال جاءت مرة كتب ريد فرنس

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۴

(ملك فرنسا) و كتب الاذفونش (ملك اسبانيا) على أيدى رسلهم و مما سألوا فيها تمكين رسلهم من التوجه الى صيدنايا للتبرك بها فأجاب السلطان سؤالهم و حمل الرسل على خيل البريد إليها. و هذا الدير لم يزل عامرا إلى اليوم يزوره الناس و فيه راهبات أرثوذكسيات و فى عيد الصليب من كل سنة تجرى فى قربه اجتماعات و أفراح و يأتيه الناس من الأقاليم المجاورة و غيرها.

«دير الطور» الطور فى الأصل الجبل المشرف، و الطور ها هنا جبل مستدير واسع الأسفل مستدير الرأس لا يتعلق به شىء من الجبال و ليس له إلا طريق واحد و هو ما بين طبرية و اللّجون مشرف على الغور و مرج اللّجون و فيه عين تنبع بماء غزير كثير و الدير فى نفس القلة مبنى بالحجر و حوله كروم يعتصرونها و يعرف عندهم بدير التجلى و الناس يقصدونه من كل موضع فيقيمون به و يشربون فيه و موضعه حسن يشرف على طبرية و البحيرة و ما والاها و على اللجون. و ما زال هذا الدير عامرا و قد جدد فى أدوار مختلفة و فيه يقول مهلهل بن يوسف المزرّع:

نهضت الى الطور فى فتيةسراع النهوض الى ما أحب

كرام الجدود حسان الوجوهكهول العقول شباب اللعب

فأى زمان بهم لم يسرّو أى مكان بهم لم يطب

أنخت الركاب على ديرهو قضيت من حقه ما يجب

و أنزلتهم وسط أعتابهو أسقيتهم من عصير العنب

و أحضرتهم قمرا مشرقاتميل الغصون به فى الكثب

نحث الكؤوس بأهزاجهو مرسوم أرماله بالعجب

و ما بين ذاك حديث يروقو خوض لهم فى فنون الأدب

فيا طيب ذا العيش لو لم يزلو يا حسن ذا السعد لو لم يغب

«دير عمان» قال ياقوت: بنواحى حلب و تفسيره بالسريانية دير الجماعة قال فيه حمدان بن عبد الرحيم الحلبى:

دير عمان و دير سابانهجن غرامى و زدن أشجانى

إذا تذكرت منهما زمناقضيته فى عرام ريعانى

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۵

و مرّ به أبو فراس بن أبى الفرج البزاعى فقال ارتجالا:

قد مررنا بالدير دير عماناو وجدناه داثرا فشجانا

و رأينا منازلا و طلولادارسات و لم نر السكانا

و أرتنا الآثار من كان فيهاقبل تفنيهم الخطوب عيانا

فبكينا فيه و كان علينالا عليه لما بكينا بكانا

لست أنسى يا دير وقفتنا فيك و إن أورثتنى النسيانا

من أناس حدّوك دهرا فخلّوك و أمسوا قد عطلوك الآنا

فرّقتهم يد الخطوب فأصبحت خرابا من بعدهم أسيانا

و كذا شيمة الليالى تميت الحىّ منا و تهدم البنيانا

حربا ما الذى لقينا من الدهر و ماذا من خطبه قد دهانا

نحن فى غفلة بها و غرورو ورانا من الردى ما ورانا

و لا نعرف عنه شيئا الآن.

«دير فاخور» و هو الموضع الذى تعمد فيه المسيح من يوحنا المعمدان كما فى كتب الجغرافية.

«دير فيق» هو فى ظهر عقبة فيق- عقبة تنحدر الى الغور من أرض الأردن و من أعلاها طبرية و بحيرتها- و هذا الدير فيما بين العقبة و بين البحيرة فى لحف جبل يتصل بالعقبة منقور فى الحجر و كان عامرا بمن فيه من الرهبان و من يطرقه من السيّار، و النصارى يعظمونه، و اجتاز به أبو نواس فقال فى غلام نصرانى فيه قصيدة منها:

بحجك قاصدا ما سرجسانفدير النوبهان فدير فيق

و بالمطران إذ يتلو زبورايعظمه و يبكى بالشهيق

و هذا الدير غير عامر الآن.

«دير القاروس» قال ابن فضل اللّه: إنه على جانب اللاذقية من شمالها و هو فى أرض مستوية و بناؤه مربع و هو حسن البقعة. و فيه يقول أبو على حسن بن على الغزى:

لم أنس فى القاروس يوما أبيضامثل الجبين يزينه فرع الدجى

فى ظل هيكله المشيد و قد بداللعين معقود السكينة أبلجا

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۶ و اللاذقية دونه فى شاطىءبلوره قد زيّن الفيروزجا

و لدىّ من رهبانه متنمسأضحى لفرط جماله متبرجا

أحوى أغنّ إذا تردد صوتهفى مسمع رد احتجاج ذوى الحجى

لا شىء ألطف من شمائله إذاحث الشّمول و لفظه قد لجلجا

فله و لليوم الذى قضيتهمعه بكائى لا لربع قد شجا

«دير القديس سابا» إلى الجنوب الشرقى من أورشليم على بعد ثلاث ساعات و نصف عنها على الراجل و على انخفاض ۵۶۰ مترا عنها عند الطريق المؤدى منها الى البحر الميت على مقربة من وادى الراهب (النار) و على عدوة وادى قدرون إلى شمال بيت ساحور الشرقى. و هو أشبه بقلعة منيعة غريبة الأبنية. و من الدير إلى هضم الوادى ۲۷۵ ذراعا فيصعد من الوادى إلى الدير بسلالم بعضها منقور بالصخر و الآخر مبنى على شكل أدراج و لا يدخل إليه إلا باذن البطريرك الأورشليمى. و رهبانه ستون راهبا يعيشون عيشة تقشف منقطعين إلى الصلاة و الصوم و العبادة و فى كل جمعة يبعث لهم دير القبر المقدس فى أورشليم طعامهم مرة واحدة و لا يسمح للنساء أن يدخلنه، و تلك عادة منذ تشييده إلى اليوم لم تدخله امرأة، و قربه برج مار سمعان و هو دير خرب فيه بيت كبير يشرف على دير القديس سابا على بعد خمس دقائق فيسمح للنساء أن ينظرن الدير الكبير من بيت هذا البرج و قربه دير على قمة جبل تاودوسيوس و هو عامر الآن و فيه رهبان و يسميه العرب دير عبيد (من مجلة النعمة).

«دير قنّسرى» على شاطئ الفرات من الجانب الشرقى من نواحى الجزيرة و ديار مضر مقابل جرابلس (فى الأصل جرباس) و جرابلس شامية، و بين هذا الدير و منبج أربعة فراسخ و بينه و بين سروج سبعة فراسخ، فهو دير كبير كان فيه أيام عمارته ثلاثمائة و سبعون

راهبا، و وجد فی هیکله مکتوبا:

أیا دیر قنّسری کفی بک نزهةلمن کان بالدنیا یلذّ و یطرب

فلا زلت معمورا و لا زلت آهلاو لا زلت مخضرا تزار و تعجب

«دیر کعب» کان من أدیار الشام و هو الذی جاء فیه المثل أطول من

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۷

فراسخ دیر کعب قال الشاعر:

ذهبت تمادیا و ذهبت عرضاکأنک من فراسخ دیر کعب

«دیر کفتون» و لعله المعروف الیوم بدیر کفتین قال فیه ابن فضل اللّه:

إنه ببلاد طرابلس مبنی علی جبل و هو دیر کبیر و بناؤه بالحجر و الکلس فی نهایة الجودة و به ماء جار و له حوض کبیر مملوء من شجر النارنج یحمل نارنجه إلی طرابلس یباع فیها و یرتفق بثمنه الرهبان و له مستشرف مطل علی البلاد و المزارع و منه مکان یشرف عن بعد علی البحر، و لهذا الدیر صیت جائل و سمعة مذکورة و به رهبان کثیرو العدد و النصاری تقصده و تحمل إلیه النذور و یقصده کثیر من أهل البطالة و اللهو للتفرج به و التنزه فیه، و فیه یقول الطیبی:

أدیر کفتون تکفی کل نائبةمن الهموم و تلقی کل سراء

من کل خضراء فی الأشجار مائسةو کل صهباء فی الکاسات حراء

حللت فی دیر کفتون فلا عجبإذ متّ سکرا بحمراء و خضراء

«دیر مارون» قال المسعودی فی التنبیه و الإشراف: و فی أیام موریق من ملوک الروم ظهر رجل من أهل حماة من أعمال حمص یعرف بمارون إلیه تنسب المارونیة من النصاری. و أمرهم مشهور بالشام و غیرها أکثرهم بجبل لبنان و سنیر و حمص و أعمالها کحماة و شیزر و معرة النعمان و کان له دیر عظیم یعرف به شرقی حماة و شیزر ذو بنیان عظیم حوله أکثر من ثلاثمائة صومعة فیها الرهبان و کان فیه من آلات الذهب و الفضة و الجوهر شیء عظیم فخرب هذا الدیر و ما حوله من الصوامع بتواتر الفتن من الأعراب و حیف السلطان و هو بقرب نهر الارنط (العاصی) نهر حمص و أنطاکیة.

و قال ابن بطریق: و کان فی عصر موریق ملک الروم راهب یقال له مارون و کان یقول: إن سیدنا المسیح طبیعتان و مشیئة واحدة و فعل واحد و أقنوم واحد و أکثر من تبعه علی مقالته تلامیذه القائلون به أهل مدینة حماة و قنسرین و العواصم و جماعة من أرض الروم فسموا الموارنة و لما مات مارون بنی أهل حماة دیرا بحماة و سموه دیر مارون. قلنا: و لعله دیر آخر غیر الدیر الذی نشأ فیه مارون شرقی حماة و شیزر. و قد خرب دیر مار مارون سنة (۷۵)

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۸

للهجرة لما غزا موریق و موریقان بلاد الشام و حملا علی هذا الدیر و قتلا منه خمسمائة راهب و هدما بنیانه ثم تحولا من هناک إلی قنسرین و العواصم فقتلا الأهلین و نهبا و خربا المساکن و لم یعفیا عن أحد من أتباع مار مارون.

و قال الدویهی: کان قرب دمشق فوق نهر یزید دیر علی اسم القدیس مارون.

قال: و لقد استدللنا برسومه و أطلاله الماثلة إلی الیوم علی عظمه و شرفه ذکره ابن الحریری المؤرخ فیما کتبه عن الحاکم بأمر اللّه سنة (۳۸۶). و لا أثر الیوم لدیر حماة و لا لدیر دمشق.

«دیر مار موروثا» و هو دیر صغیر بظاهر حلب فی سفح جبل جوشن علی نهر العرجان (العوجان؟). و کان سیف الدولة محسنا إلی أهله و قلما مرّ به إلا نزله و وهب لأهله هبة کبیرة و کان یقول: رأیت أبی فی النوم یوصینی به- و فی روایة والدته-. و له بساتین قلیلة و مباقل و فیه نرجس و بنفسج و زعفران و یعرف بالبیعتین لأن فیه مسکنین للرجال و النساء. قال الخالدی و إیاه عنی الصنوبری بقوله:

كأنما اختيرت الفصوص لهبين عقيق و بين فيروزج

أما ترى البيعتين أفردتابمفرد الأقحوان و المزوج

أثوابه المزن كيف ما اتصلتو ناره البرق كيف ما أجّج

هذا ما رواه ابن فضل اللّه فى هذا الدير، و فى روايهٔ یاقوت أن هذا الدير ذهب و لا أثر له و قد استجد فى موضعه مشهد زعم الحلبيون أنهم رأوا الحسين ابن على رضى اللّه عنه يصلى فيه فجمع له المتشيعون بينهم مالا و عمروه أحسن عمارهٔ و أحكمها و فيه أيضا يقول بعض الشاميين:

بدير مارت مروثا الشريف ذى البيعتين

و الراهب المتحلىو القس ذى الطمرين

إلا رثيت لصبّمشارف للحين

قد شفه منك هجرمن بعد لوعهٔ بين

قال و فيه يقول الحسين بن على التميمى:

يا دير مارت مروثاسقيت غيثا مغيثا

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۹ فأنت جنهٔ حسنقد حزت روضا أثيثا

«دير مارت مريم» قال الخالدى: و بالشام دير يقال له مارت مريم و هو من قديم الديرهٔ و نزله الرشيد و فيه يقول الشاعر:

نعم المحل لمن يسعى للذتهدير لمريم فوق الظهر معمور

ظل ظليل و ماء غير ذى أسنو قاصرات كأمثال المها حور

«دير الماطرون» يروى لزيد بن معاويهٔ فيه:

و لها بالماطرون إذاأكل النمل الذى جمعا

حرقهٔ حتى إذا ربعتذكرت من جلق بيعا

فى قباب حول دسكرهٔبينها الزيتون قد ينعا

قال أبو محمد حمزهٔ بن القاسم قرأت على الحائط من بستان الماطرون هذه الأبيات:

أرقت بدير الماطرون كأننىلسارى النجوم آخر الليل حارس

و أعرضت الشعرى العبور كأنهامعلق قنديل عليها الكنائس

و لاح سهيل عن يمينى كأنهشهاب نجاهٔ وجهه الريح قابس

و لم يبق فى الوجود من هذا الدير غير اسمه.

«دير المصلّبهٔ» و هو بظاهر مدينهٔ القدس الشريف فى شامها بغرب و هو دير رومى قديم البناء بالحجر و الكلس محكم الصنعهٔ مونق البقعهٔ فى بحيرهٔ من أشجار الزيتون و الكروم و شجر التين بإزاء قريهٔ تجرى على الدير بمرسوم السلطان. قال فى مسالك الأبصار بعد ما تقدم: و هذا الدير دخلت إليه و رأيته و فيه صور يونانيهٔ فى غايهٔ من محاسن التصوير و تناسب المقادير و صعدت إلى سطحه فرأيت له حسن مشترف وسعهٔ فضاء و رهبانه من الكرج. قال و كان أخذ و جعل مسجدا للمسلمين ثم أعيد ديرا للنصارى و توصل إلى هذا بكتاب أحضر من ملك الكرج و أعان عليه قوم آخرون. قال: و حدثه رهبانه بأن على ديرهم وقوفا فى بلادهم منها خيول سائمهٔ تحمل أثمان نتاجها إليهم و أنه يجىء منها فى كل سنهٔ قدر جليل و أنها تنفق فى مصالح الدير و ابن السبيل.

و فيه يقول أبو على حسن الغزى:

يا حسن أيام قطعت هنيئهٔبالدير حيث التين و الزيتون

خطط الشام، ج۶، ص: ۴۰ دير المصلبة الرفيع بناؤه‌تفدى عبير ترابه دارين

فى ظل هيكله و أسراب الدّمى‌مجلوّة و المرمر المسنون

و مزنرين إذا تلوا إنجيلهم‌و تعطفوا فحمائم و غصون

غزلان و جرة هم و بين جفونهم‌لأسود بيشة إن عرضن عرين

نزعوا القلانس و المسوح فزحزحت‌منهن عن غرر الشموس دجون

وسعوا بكاسات المدام و ما درواأن للكؤوس الدائرات جنون

فقضيت بينهم زمانا لم يزل‌عندى إليه تشوق و حنين

تلك المنازل قد سفحن مدامعى‌لا مصر قاطبة و لا جيرون

و لا يزال هذا الدير عامرا و هو للروم الأرثوذكس.

«دير مرقس» الغالب أنه كان من نواحى حلب ورد فى شعر حمدان بن عبد الرحيم فى قوله:

أسكان عرشين القصور عليكم‌سلامى ما هبت صبا و قبول

ألا هل إلى حث المطىّ إليكم‌و شم خزامى حربنوش سبيل

و هل غفلات العيش فى دير مرقس‌تعود و ظل اللهو فيه ظليل

إذا ذكرت لذاتها النفس عندكم‌تلاقى عليها زفرة و عويل

بلاد بها أمسى الهوى غير أننى‌أميل مع الأقدار حيث تميل

«دير مرّان» هذا اسم لديرين فى الشام كان أحدهما على الجبل المشرف على كفر طاب قرب المعرة يزعمون أن فيه قبر عمر بن عبد العزيز (رض) و هو مشهور بذلك كان يزار فى عصر ياقوت. و الثانى بالقرب من دمشق على تل مشرف على مزارع الزعفران و رياض حسنة و بناؤه بالجص و أكثر فرشه بالبلاط الملون، و هو دير كبير و فيه رهبان كثيرة و فى هيكله صورة عجيبة دقيقة المعانى و الأشجار محيطة به. روى ذلك الخالدى أما محل الدير فمحل خلاف منذ القديم قال ابن فضل اللّه: و الناس فى اختلاف اين كان دير مران فمن قائل إنه كان بمشارق السفح نواحى برزة و الأكثر على أنه كان بمغاربه و أن مكانه الآن (القرن الثامن) المدرسة المعظمية، و أما الذى كان بمشارق السفح فهو دير السائمة المسمى دير صليبا. و روى صاحب قضاة دمشق قال: لما وافى المأمون دمشق سنة خمس عشرة و مائتين نزل بدير مران

خطط الشام، ج۶، ص: ۴۱

و مكانه المعروف بالسهم إلى قرب النيرب خارج دمشق فى سفح قاسيون فعمر المأمون هذا الدير و بنى القبة التى فوق الجبل و هى المعروفة الآن بقبة النصر و لم يعثر على أثر لهذا الدير العظيم. و كان هذا الدير لقربه من دمشق و لجمال موقعه مقصد الملوك و الراغبين فى النزهة و الشراب. قال ابن بطريق:

إن كنائس الغوطة و دير مران كان المسلمون ينزلونها و يسكنون فيها. و قد نزل يزيد بن معاوية دير مران و مات فيه الوليد و اجتاز به الرشيد و المأمون و قد أكثر الشعراء من ذكره حتى نسب ليزيد قوله و قد أصاب المسلمين سباء بأرض الروم:

و ما أبالى بما لاقت جموعهم‌بالغذقدونة من حمى و من موم

إذا اتكأت على الأنماط مرتفقابدير مران عندى أم كلثوم

و من جملة ما قيل فى هذا الدير قول أبى بكر الصنوبرى و هو:

أمرّ بدير مران فأحياو أجعل بيت لهوى بيت لهيا

و يبرد غلتى بردى فسقيالأيام على بردى و رعيا

ولی فی باب جیرون ظباءأعاطیها الهوی ظبیا فظبیا

و نعم الدار داریا ففیهاحلالی العیش حتی صار أریا

سقت دنیا دمشق لیصطفیهاو لیس یرید غیر دمشق دنیا

تفیض جداول البلور فیهاخلال حدائق ینبتن وشیا

مظللهٔ فواکهها بأبهی المناظر فی نواظرها و أهیا

خطط الشام، ج۶، ص: ۴۲ فمن تفاحهٔ لم تعد خداو من رمانهٔ لم تخط ثدیا

و له فیه:

متی الأرحل محطوطهٔو عیر الشوق مربوطهٔ

بأعلی دیر مرانفداریا إلی الغوطهٔ

فشطی بردی فی جنب بسط الروض مبسوطهٔ

رباع تهبط الأنهار منها خیر مهبوطهٔ

و روض أحسنت تکتیبه المزن و تنقیطه

و قال فیه الحسین بن الضحاک:

یا دیر مرّان لا عرّیت من سکنقد هجت لی حزنا یا دیر مرانا

حثّ المدام فإن الکأس مترعهٔمما یهیج دواعی الشوق أحیانا

و قال الببغا أبو الفرج عبد الواحد:

و یوم کأن الدهر سامحنی بهفصار اسمه ما بیننا هبهٔ الدهر

جرت فیه أفراس الصبا بارتیاضناإلی دیر مران المعظم و العمر

بحیث هواء الغوطتین معطر النسیم بأنفاس الریاحین و الزهر

فمن روضهٔ بالحسن ترفد روضهٔو من نهر بالغیض یجری إلی نهر

و فی الهیکل المعمور منه انتزعتهاو صحبی حلالا بعد توفیهٔ المهر

و نزهت عن غیر الدنانیر قدرهافما زلت منها أشرب التبر بالتبر

و قال عون الدین الحلبی الکاتب المتوفی سنهٔ (۶۵۶) و هو مما یستأنس به من أن هذا الدیر کان عامرا إلی أواسط القرن السابع و فیه ذکر دیرین آخرین و هما دیر متی و دیر حنینا و الأول لیس له ذکر فی دیرهٔ الشام بل هو من أدیار الموصل و لما کانت القصیدهٔ فی التشوف إلی الشام استلزم ذلک أن یکون دیر متی من جملهٔ أدیارها التی ضاع اسمها و رسمها قال:

یا سائقا یقطع البیداء معتسفابضامر لم یکن فی سیره و انی

إن جزت بالشام شم تلک البروق و لاتعدل بلغت المنی عن دیر مرّان

و اقصد علالی قلالیه تلاق بهاما تشتهی النفس من حور و ولدان

من کل بیضاء هیفاء القوام إذاماست فیا خجلهٔ المران و البان

و کل أسمر قد دان الجمال لهو کمل الحسن فیه فرط إحسان

خطط الشام، ج۶، ص: ۴۳ و رب صدغ بدا فی الخد مرسلهفی فترهٔ فتنت من سحر أجفان

فلیت ریقته وردی و وجنتهوردی و من صدغه أنسی و ریحانی

و عج علی دیر متی ثم حیّ به الربان بالطرس فالربان ربانی

فهمت منه إشارات فهمت بهاوصنت منشورها فی طی کتمان

و اعبر بدیر حنینا و انتهز فرص اللمذات ما بین قسیس و مطران

و استجل راحاتها تحی النفوس إذادارت براح شمامیس و رهبان

«دیر المغان» بحمص فی خربة بنی السمط تحت تلهم، و هو دیر عظیم الشأن عندهم کبیر القدر فیه رهبان کثیرة و ترابه یختم علیه للعقارب و یهدی إلی البلاد قاطبة و تتنافس النصاری فی موضع مقبرته (یاقوت).

«دیر میماس» نقلت من یاقوت: بین دمشق و حمص علی نهر یقال له میماس و إلیه نسب، و هو فی موضع نزه، و به شاهد علی زعمهم من حواریی عیسی علیه السلام زعم رهبانه أنه یشفی المرضی. و کان البطین الشاعر قد مرض فجاءوا به إلیه یستشفی فیه فقیل: إن أهله غفلوا عنه فبال قدام قبر الشاهد و اتفق أن مات عقیب ذلک فشاع بین أهل حمص أن الشاهد قتله و قصدوا الدیر لیهدموه و قالوا: نصرانی یقتل مسلما لا نرضی أو تسلموا لنا عظام الشاهد حتی نحرقها، فرشا النصاری أمیر حمص حتی رفع عنهم العامة فقال شاعر یذکر ذلک:

یا رحمتا لبطین الشعر إن لعبت‌به شیاطینه فی دیر میماس

وافاه و هو علیل یرتجی فرجافردّه ذاک فی ظلمات أرماس

و قیل شاهد هذا الدیر أتلفه‌حقا مقالة وسواس و خناس

أأعظم بالیات ذات مقدرةعلی مضرة ذی بطش و ذی باس

لکنهم أهل حمص لا عقول لهم‌بهائم غیر معدودین فی الناس

و حکی أن أبا نواس لما دخل حمص مارا بها دعاه فتی من أدبائها إلی دیر میماس و دعا معه أشجع السلمی فجلسوا یشربون و أبو نواس ینشدهم له و لغیره فقال أشجع:

صبحت وجه الصباح بالکاس‌و لم تعقنی مقالة الناس

و نحن عند المدام أربعةأکرم صحب و خیر جلاس

ندیر حمصیة معتقةعلی نسیم النسرین و الآس

خطط الشام، ج۶، ص: ۴۴ و لم یزل مطربا و منشدناأبو نواس فی دیر میماس

«دیر نجران» بأرض دمشق من نواحی حوران ببصری و هو دیر عظیم عجیب العمارة و لهذا الدیر ینادی فی البلاد من نذر نذرا لنجران المبارک و المنادی راکب فرس یطوف عامة نهاره فی کل مدینة مناد، و للسلطان علی الدیر قطیعة یأخذها من النذور التی تهدی إلیه.

«دیر النقیرة» فی جبل قرب المعرة و لا نعرف عنه شیئا.

«دیر هزقل» قال الخالدی هو بالشام و ذکره دعبل بن علی حین هجا أبا عباد کاتب المأمون فقال:

فکأنه من دیر هزقل مفلت‌حنق یجر سلاسل الأقیاد

قال ابن فضل اللّه: و لا أدری فی قرب أی مدینة هو.

«دیر یونس» ربما کان فی جهات الرملة فی فلسطین و قد قیلت فیه قصائد کثیرة و ما ندری إن کان اختلط بدیر فی جهات الموصل علی جانب دجلة الشرقی و موضعه یعرف بنینوی، و نینوی هی مدینة یونس.

هذا ما أمکن تلقفه عن الأدیار فی الإسلام و کان قبل الإسلام أدیار مهمة ضاعت أخبارها و لا یستغرب ما قیل فی هذه الأدیار من الأشعار فی سالف الأعصار. فقد کان المسلمون یختلفون إلی الدیرة یجعلونها محال النزهة لأنها فی أماکن نزهة علی الغالب تخیّر بانوها مواقعها، و بالنظر لتحریج الحکومات الإسلامیة فی الخمور و إباحة شربها و بیعها لأهل الذمة کان المولعون بالشراب من أهل الشأن و خلعاء الشعراء و الأدباء یغشون الأدیار فیجدون صدورا رحبة فیشربون و یطربون و لذلک خص الشعراء تلک الأدیرة بأشعار

لطيفة و قصائد ربما كان فيها شيء من المبالغة و منها ما نبا عن طور الأدب اليوم و لكنه كان من المألوف في تلك العصور.

و في ديار الشام اليوم و لا سيما في لبنان و بعض أنحاء فلسطين أديار عظيمة منها ما ورد ذكره في الجريدة التي كتبناها هنا و منها ما هو من البناء الجديد و فيها المهم بنيانه و هندسته أشبه بقلاع منه بطرابيل و صوامع للمنقطعين للعبادة و التبتل و قد ظهر في يوم ۲۷ أيار ۱۹۴۵ و قد قذفت فرنسا مدينة دمشق بحمم مدافعها أن معظم كنائس دمشق للاتين كان فيها ورشاشات و سلاح قاتلوا به السكان و على رأسهم الراهبات و الرهبان!

خطط الشام، ج۶، ص: ۴۵

المساجد و الجوامع

[في أول الفتح:]

المسجد (بكسر الجيم) البيت الذي يسجد فيه و كل موضع يتعبد فيه فهو مسجد. و يقال مسجد الجامع و المسجد الجامع أي مسجد اليوم جامع.

فالمسجد قد يكون صغير المساحة و الحجم، و الجامع مسجد عظيم يجمع المصلين أيام الجمع و الأعياد. و أول المساجد التي بنيت في الشام على ما يظهر كانت في البلدان التي سبق فتحها غيرها من أمهات المدن مثل مؤتة و الجرباء و أذرح و فحل و أجنادين و بصرى.

و لما كانت السذاجة في كل شيء قد غلبت على العرب لأول عهدهم بالإسلام كانت مصانعهم بحسب الحاجة، و إذا كان من الواجب إذا اجتمع بضعة أفراد منهم أن يقيموا الصلاة جماعة لم تلبث المساجد أن كثرت في الشام في المدن و القرى. و كان الفاتحون يصالحون الأهلين إما على النصف من كنائسهم أو على بعضها أو يكتفون بواحدة أو بنصف واحدة كما اكتفوا بكنيسة مار يوحنا من أصل خمس عشرة كنيسة في دمشق و ضاحيتها. و أعطى أبو عبيدة أهل بعلبك و أهل الرستن الأمان على كنائسهم و استثنى عليهم ربع كنيسة يوحنا للمسجد في الرستن. و صالح الفاتح أهل حمص على ربع كنيستهم للمسجد و ظلت كذلك إلى القرن الرابع و بعض بيعتها المسجد الجامع و شطرها للنصارى و بيعتهم من أعظم بيع الشام. و ترك الفاتحون لأهل اللاذقية كنيستهم و بنوا مسجدا جامعا لصلاتهم ثم وسعوه.

بقيت المساجد على حالة ابتدائية حتى تولى معاوية أمر الشام، و كان بعيد

خطط الشام، ج۶، ص: ۴۶

النظر في العمران، فسمت به همته إلى أن يخرج المساجد من دور التأسيس و يدخلها في مظهر مدني فيه الجلال و الجمال. و لم يزل بعثمان حتى أذن له أن يبني المساجد و يكبر ما كان ابتنى منها قبل خلافته. و هكذا بدأ التوسع في المساجد و الجوامع عقيب استقرار الفتح و رسوخ أقدام بني أمية.

و اختط سليمان بن عبد الملك لما ولي جند فلسطين مدينة الرملة و اختط المسجد و بناه فولي الخلافة قبل استتمامه ثم بني فيه بعد في خلافته ثم أتمه عمر بن عبد العزيز و نقص من الخطة و قال: أهل الرملة يكتفون بهذا المقدار الذي اقتصرت بهم عليه. و معنى هذا أن جوامع القوم و مساجدهم كانت بحسب حاجة من ينزل في كل صقع من المسلمين و التوسع لم يبد إلا مع معاوية بن أبي سفيان و أخلافه.

عرضنا في فصل المصانع لوصف المسجدين الجامعين في هذه الديار المسجد الأقصى و جامع دمشق. و نحن الآن نعرض لغيرهما من المساجد نذكر المهم منها في الحواضر على الأكثر، و نقابل بين قديمها و حديثها، و بديهي أن المساجد لقيت من المصائب السماوية

و الأرضية ما لقى غيرها من المصانع و العاديات. فإن الزلازل قد نسفت فى الإسلام مدنا برمتها فقد تقطع الجبل الأقرع فمات أهل اللاذقية سنة (۲۴۲ ه) و خربت طرابلس منه و فى هذا الزلزال خرب معظم الساحل و زلزلة سنة (۴۶۰) خربت فلسطين و زلزال سنة (۵۵۲) خربت به أمهات المدن الشامية و هكذا يقال فى معظم الزلازل التى وقعت بعد إلى القرن الماضى و من أهمها زلزال سنة (۱۱۷۳) حتى إن من المدن ما لم يبق فيه جدار قائم و لا إنسان سائر. و مساجد الساحل أصيبت فى الحروب الصليبية بما نسفها أو غير معالمها فأصبحت كنائس ثم لما عادت البلاد لسلطان المسلمين أعيدت بعض البيع أيضا مساجد.

و من المتعذر أن نعرف ما قام فى كل عصر و مصر فى الشام من المساجد و الجوامع. و من القرى اليوم ما كان فيه بالأمس عشرة مساجد و العمران يكثر و يقل بحسب حاجة الناس. و الغالب أن العناية ببناء المسجد كان لغرض شريف للغاية بادئ بدء يراد به وجه المولى و ثواب الآخرة و خدمة الإسلام و المسلمين. فلما أوغل الناس فى مضمار الحضارة كان من البانين من يجمعون

خطط الشام، ج۶، ص: ۴۷

بين الدين و الدنيا إذا تعلقت هممهم أن ينشئوا لهم جوامع يقصدون بها تخليد ذكرهم و نيل الثواب و الأجر. ثم أتت قرون و قد أخذ بعض الناس و لا- سيما الحكام يعمرون المساجد و يقفون عليها حتى يحفظوا بحجتها بعض ثرواتهم لذراريهم، و فى هذه العصور الأخيرة وقع التخليط و كثرت المنافسة فى إقامة المساجد و الجوامع، حتى فى الأماكن التى لا يحتاج فيها الناس إلى مساجد كثيرة إما لكثرتها أو لقلة المصلين فى جوارها. و أشبهت دمشق القاهرة فى عهد المماليك و بعدهم، فكانوا يعمرون الجامع قرب أخيه على أشبار قليلة منه. و ما حدثت البانين أنفسهم أن يشترك فى إقامة مسجد جامع بضعة من أهل الخير أو عشرات منهم، لأن المقصد الأول استحال فى الآخر إلى إحراز شهرة و إذا عمر إنسان جامعا بالاشتراك مع غيره يضيع اسمه، و غايته أن يقال بنى فلان مسجدا، و هذا مسجد فلان، أو أن ينتفع هو أو أولاده بمغل وقف الجامع.

و كان للملوك و الأمراء فى كثرة المساجد و قلتها يد طولى و منها أن الملك أو الأمير أو غيره من طبقات الحكام و الولاة إذا آنس منه قومه رغبة فى الاستكثار من المساجد و القربات جاروه على أفكاره و تقربوا إليه بمثل هذه الأعمال الصالحة، و ربما تقاضاهم هو ذلك سرا حتى يستخرج بذلك أموالهم و توزع فى الرعية فلا تجمد الثروة فى يد واحدة. قال ابن تغرى بردى فى حوادث سنة (۸۴۴): لما كانت الملوك السالفة تهوى النزه و الطرب عمرت فى أيامهم بولاق و بركة الرطلى و غيرها من الأماكن، و قدم إلى القاهرة كل أستاذ صاحب آلة من المطربين و أمثالهم من المغانى و الملاهى إلى أن تسلطن الملك الظاهر جقمق، و سار فى سلطنته على قدم هائل من العبادة، و العفة عن المنكرات و الفروج، و أخذ فى مقت من يتعاطى مسكرات من أمرائه و أرباب دولته، فعند ذلك تاب أكثرهم و تصولح و تزهد، و صار كل واحد يتقرب إلى خاطره بنوع من أنواع المعروف، فمنهم من صار يكثر من الحج، و منهم من تاب و أقلع عما كان فيه، و منهم من بنى المساجد، و لم يبق فى دولته ممن استمر على ما كان عليه إلا جماعة يسيرة.

خطط الشام، ج۶، ص: ۴۸

مساجد حلب:

فى حلب اليوم ۱۶۹ جامعا و ۱۸۲ مسجدا و منها الجيد بنيانه، و أعظمها المسجد الجامع مسجد زكريا فى غربى القلعة. صالح المسلمون أهل حلب على موضع المسجد الجامع يوم الفتح، و كان محله حديقة كنيسة الروم القديمة التى بنتها هيلانة أم قسطنطين. قالوا: إنه كان يضاهى جامع دمشق بالزخرفة و الرخام و الفسيفساء، و إن سليمان بن عبد الملك هو الذى بناه و تأنق فى بنائه ليضاهى به ما عمله أخوه الوليد فى جامع دمشق. و قيل: إن بانيه الوليد نفسه، و إن بنى العباس نقضوا ما كان فيه من الرخام و الآلات و نقلوه إلى جامع الأنبار فى جملة ما نقضوا من آثار بنى أمية بالشام. و لما جاء الروم حلب سنة (۳۵۱) أحرقوا الجامع و البلد فرم بعضه سيف الدولة ثم ابنه سعد الدولة، و أحرقته الإسماعيلية سنة (۵۶۴) مع الأسواق التى حوله فعمره نور الدين زنكى و قطع الأعمدة الصفر من بعادين و

نقل إليه عمد مسجد قنسرين، و أحرقه الأرمن سنة (۶۷۹) أيام كانوا محالفين للتتر. و عمره قراسنقر سنة (۶۸۴) و بنى فيه غيره بعض جهات منه مثل الأمير ألطون بغا الصالحى نائب حلب و الأمير يشبك اليوسفى.

و يقول العارفون بالآثار: إن بناء الجامع الحالى قد قام على الصورة التى عملت عليه زمن سابق بن محمود من بنى مرداس (۴۶۸-۴۷۲) على يد القاضى ابن الخشاب و إن فى أسفل المنارة كتابة تاريخها سنة (۴۸۳) ذكر فيها اسم ملكشاه و ابن الخشاب و فى جهة أخرى ذكر اسم تتش أخو ملك شاه و يستدل من مجموع البناء، و ليس فى جدرانه من كتابة مزبورة، أن هذا الطراز قديم صبر على الدهر. و محرابه من عهد قلاوون و المنبر من عهد الناصر محمد، و يرد عهد الباب الأوسط للحرم إلى أوائل زمن المماليك و إن كانت فيه كتابات أحدث من عهد السلطان مراد الثالث (۹۹۶). و أسس المنارة المربعة ذات الخمس طبقات القاضى ابن الخشاب سنة (۴۸۲) و هى منقوشة أبدع نقش و هى بما كتب عليها من الكتابات الكوفية و النسخية المثال الوحيد من الهندسة الإسلامية. قال أبو الفداء: و كان بحلب بيت نار قديم ثم صار أتون حمام فأخذ ابن الخشاب حجارته و عمر منارة جامع حلب.

خطط الشام، ج۶، ص: ۴۹

وصف ابن جبير فى القرن السادس جامع حلب بقوله: و هذا الجامع من أحسن الجوامع و أجملها و قد أطاف بصحنه الواسع بلاط كبير متسع مفتح كله أبوابا قصرية الحسن إلى الصحن عددها ينيف عن الخمسين بابا، فيستوقف الأبصار حسن منظرها، و فى صحنه بئران معينتان، و البلاط القبلى لا مقصورة فيه، فجاء ظاهر الاتساع رائق الانشراح. و قد استفرغت الصنعة القرنصية جهدها فى منبره، فما أرى فى بلد من البلاد منبرا على شكله، و غرابة صنعته، و اتصلت الصنعة الخشبية منه إلى المحراب فتجللت صفحاته كلها حسنا على تلك الصنعة الغريبة، و ارتفع كالتاج العظيم على المحراب، و علا حتى اتصل بسمك السقف، و قد قوّس أعلاه و شرف بالشّرف الخشبية القرنصية، و هو مرصع كله بالعاج و الآبنوس، و اتصال الترصيع من المنبر إلى المحراب مع ما يليهما من جدار القبلة، دون أن يتبين بينهما انفصال، فتجتلى العيون منه أبدع منظر يكون فى الدنيا، و حسن هذا الجامع المكرم أكثر من أن يوصف اه.

هذا وصف المسجد الجامع و ما كان فيه و ليس هو بالعظيم كمسجد دمشق أو المسجد الأقصى و قد رمم فى أوقات مختلفة. و فى حلب جامع الصالحين جنوبى المدينة أنشئ سنة (۴۷۹) أنشأه أحمد بن ملكشاه و محرابه مهم فى بابه.

و أول جامع بنى بحلب فيما قالوا بعد الجامع الكبير جامع ألطون بغا الصالحى تم سنة (۷۲۳) و فيه يقول ابن حبيب:

فى حلب دار القرى جامع‌أنشأه ألطنبغا الصالحى

رحب الذرى يبدو لمن أمّه‌لطف معانى حسنه الواضح

مرتفع الرايات يروى الظمامن مائه السارب و السارح

يهدى المصلى فى ظلام الدجى‌من نوره اللامع و اللائح

من حوله روض يرى للورى‌من زهره بالفائق الفائح

للّه بانيه الذى خصه‌بالروح للغادى و للرائح

وعدّ ابن الشحنة من أحسن الجوامع التى بنيت على أجمل الوجوه جامع منكلى بغا الشمسى نائب حلب عمر (۷۷۸). وعد ابن شداد فى باطن حلب مائتى مسجد و سبعة عشر مسجدا داخل سور البلد منها ما نسبه لمنشئه و منها

خطط الشام، ج۶، ص: ۵۰

ما عرفه بالخطة التى هو فيها. و ذكر المساجد التى بأرباض حلب و ذكر منها ما هو بالحاضر السليمانى مائة مسجد و عشرة مساجد، و ذكر مساجد الرابية و جورة جغال فعدها مائة و ثمانية و ستين مسجدا و أتى على ذكر المساجد التى بالظاهرية فعدها تسعة و تسعين مسجدا وعد بالرمادة أربعة و ثلاثين مسجدا.

وعد ببانقوسا ثلاثة عشر مسجدا و بالفرافرة اثنى عشر مسجدا و بالمضيق ستة عشر مسجدا و بالقلعة عشرة مساجد. قال ابن الشحنة و

عنه لخصنا احصاء ابن شداد لمساجد حلب: فجملة هذه المساجد التی داخل حلب و خارجها إلی حین تألیف ابن شداد کتابه سبعمائة و خمسة و عشرون مسجدا. و قد بنی بعض الولاة الأول فی الدولة العثمانیة جوامع فی حلب منهم جامع خسرو باشا (۹۳۸) و جامع عادلی محمد باشا (۹۵۷) و جامع بهرام باشا (۹۸۸) و ابشیر مصطفی باشا (۱۰۶۱) و جامع عثمان باشا (۱۱۵۰). و من جوامع حلب التی بقیت علیها بعض الکتابات الحثیة جامع القیقان و من جوامعها الأطروش و اشتهر بکتاباته و نقوشه جامع البیادة فی شمالی غربی القلعة.

جوامع عمالة حلب:

قامت فی أنحاء حلب مساجد کثیرة و منها مساجد قنسرین و هو البلد القدیم الذی کان فی الإسلام بمثابة حلب فخرّبه سیف الدولة سنة (۳۵۱) أو (۳۵۵) و أحرق مساجده، لما نزل الروم حلب و قتلوا جمیع من کان بربضها و ذلک خوفا من سقوطها فی أیدی أعدائه. و أنشئت فی أنطاکیة عدة جوامع بقیت منها بقایا علی ما انتابها من الزلازل و أهمها الیوم جامع حبیب النجّار و الجامع الکبیر و الشیخ علی و الذخیرة. و فی أنطاکیة لعهدنا ۱۳ جامعا و ۲۷ مسجدا و مجموع ما فی عملها ۱۳۵ مسجدا و جامعا و زاویة و تکیة. و أنشئت منذ الفتح جوامع فی مدینة المعرة وصف ناصر خسرو فی أواخر منتصف القرن الخامس جامعها الأعظم فقال: إنه مبنی علی أکمة قامت وسط المدینة و من أی جهة اتجهت إلی هذا الجامع کان علیک أن ترتقی سلما ذات ثلاث عشرة درجة.

و قد خربت المعرة بدخول الصلیبیین، ثم عادت إلیها بعض حیاتها و فیها الیوم ۲۳ جامعا و مسجدا أهمها الجامع العمری الکبیر تقام فیه الجمعة دون غیره

خطط الشام، ج۶، ص: ۵۱

من المساجد. و مجموع ما فی عمل المعرة ۴۱ مسجدا و جامعا. و فی عمل جبل سمعان الیوم ۱۸۳ جامعا و مسجدا، و فی بیلان ۵ مساجد و جوامع. و فی قضاء إدلب ۳۷ مسجدا و جامعا و جامعها فی القصبة من عهد الفتح یسمونه العمری.

و فی معرة مصرین و عملها ۱۱ جامعا و مسجدا، و فی حارم جامع و مسجد و فی عملها عدة جوامع و مساجد و کذلک فی اعزاز، و فی قضاء الباب ۱۵ جامعا و مسجدا و فی بزاعة و جسر الشغر و معرة مصرین و سرمین و جبرین و سلقین و خناصرة و الفوعة و أرمناز و دیرکوش و الجبول و الأثارب و دانیث و کلز و غیرها من البلدان القدیمة مساجد و جوامع. و لا تکاد تخلو فی یومنا هذا کل قریة من مسجد إلا إذا کانت مزرعة حقیرة لأحد أرباب الأملاک. و فی الشغر الیوم ثلاثة جوامع و خمسة مساجد و لا تخلو المدینة التی کانت عامرة جدا ثم خربت عن آخرها مثل بالس (مسکنة) و منبج مثلا من مساجد لا بأس بها.

و لقد تقلبت الأیام بهذه المساجد و الجوامع فکثرت فی الأماکن التی اشتدت إلیها الحاجة و قلت حیث قل العمران و ابذعرّ السکان. فقد کانت سرمین مثلا علی طرف جبل السماق من المدن و لها مساجد کثیرة روی ابن شداد أن عددها کان ینیف علی ثلاثمائة مسجد، قال: و لیس بها الآن أی فی عهده مسجد یصلی فیه غیر الجامع و أکثر أهلها إسماعیلیة و لهم بها دار دعوة.

و سواء کان هذا العدد مبالغا فیه أو غیر مبالغ فالمحقق أن الجوامع و المساجد کثرت فی الأعصر السالفة فی هذه الأرجاء بکثرة السکان و توفر خیرات الأرض ثم لما خربت المدن دع القری تراجع أمر بیوت العبادة.

و من الجوامع القدیمة فی هذا الصقع جامع اعزاز عرف بالجامع الکبیر قال الغزی: و هو صحن واسع فسیح فی شماله رواق و فیه مأذنة ضخمة و فی وسطه حوض یهبط إلیه بدرکات تجری فیه قناة جرها إلیه إسماعیل بن عبد اللّه العزازی المتوفی سنة (۷۴۸) و فی جنوبی صحن الجامع قبلیة یبلغ طولها نحو ۵۰ فی عرض ۱۵ ذراعا سقفها قباب محمولة علی أعمدة ضخمة و قد کتب علی باب الجامع المتجه إلی الغرب: بسم اللّه الرحمن الرحیم فی سنة (۶۴۴) أمر بعمله مولانا السلطان العالم العادل الملک الناصر صلاح الدنیا و الدین یوسف بن الملک العزیز محمد بن الملک الظاهر غازی ابن أیوب ناصر أمیر المؤمنین خلد اللّه ملکه.

خطط الشام، ج۶، ص: ۵۲

مساجد الساحل و جوامعه:

لما كانت مدن الساحل معرضة لهجمات الأعداء كل حين، و كانت الزلازل قد توالت عليها كثيرا و ظلت مرسحا للجيوش الصليبية مدة قرنين أصاب الجوامع و المساجد فيها ما أصاب غيرها من العمائر، فليس فى الإسكندرونة اليوم سوى جامعين و فى عمالتها بعض المساجد الحقيرة، و كذلك الحال فى السويدية و اللاذقية و المرقب و طرطوس و جبلة و بانياس و طرابلس و جبيل و بيروت و صيدا و صور و عكا و حيفا و يافا و غزة، خربت جوامعها و مساجدها و عمرت غير مرة فى الإسلام. ففى اللاذقية اليوم عدة مساجد و فيها جامع جميل مطل عليها من الهضبة المطلة على الثغر و لها منارة جميلة. و أهم جوامع اللاذقية جامع المغربى و من جوامعهم جامع الجديد و الكبير المنصورى و أرسلان باشا و الصليبة و صوفان و الشيخ ضاهر و جامع الاسكلة و الشواف و الصغير، و فى اللاذقية اثنا عشر مسجدا غير هذه الجوامع. و فى جبلة جامعان و هما جامع السيد إبراهيم و المنصورى و من مساجدها القنطارى و بنى على أديب و الغزالى و الأكراد و جامع واحد فى بانياس، و فى طرطوس جامع كان على عهد الصليبيين كنيسة كاتدرائية، و فى صافيتا جامع و ثلاثة مساجد فى جوارها.

و فى طرابلس عدة جوامع و مساجد و معظمها من آثار المماليك البحرية و الجراكسة، و ما تجدد بعدهم فقليل جدا بالنسبة لآثارهم فى هذه المدينة، و أكثرها لم يذكر عليه اسم بانيه. و لا ريب أن البواعث كانت دينية محضة و رغبة فى ثواب اللّه بدار الآخرة فكان عدم ذكر البانى على البناء أبعد عن السمعة و الرياء، و كان الأمير أو المتمول منهم إذا شيد مسجدا للصلاة جعل فى أحد أطرافه مشهدا ليدفن فيه عند موته و لم يزل إلى الآن كثير من قبور المماليك الرخام محفوظا فى المساجد التى أقاموها على الطراز المخصوص بهم كأن يجعلوا فى كل زاوية من زوايا القبر قاعدة بارتفاع ثلاثين سانتيما و أعلاها كروى.

و للمماليك من نوع هذه القبور فى دمشق صنوف. و إن ما بقى إلى اليوم من الفسيفساء فى محاريب تلك المساجد و جدرانها آية فى الإبداع و حسن الصناعة.

خطط الشام، ج۶، ص: ۵۳

و من أعظم جوامع هذا الثغر الجامع الكبير بناه السلطان صلاح الدين خليل الأشرفى على ما يرى فى الكتابة المحفورة فوق باب الجامع الشمالى و ذلك فى سنة (۶۹۳ ه) و كان متولى العمارة سالم الصهيونى ابن ناصر الدين العجمى و فى سنة (۷۱۵) و على عهد ولاية السلطان محمد بن قلاوون للمرة الثالثة بنيت بأمره الأروقة المحيطة بصحن المسجد أيام نيابة المقر السيفى كستاى الناصرى و كان متولى العمارة أحمد بن حسن الحرلبعليلى و تسميه أهالى طرابلس الجامع المنصورى و هو غلط بين لأن الملك المنصور قلاوون هو أبو الأشرفى بانى الجامع المذكور.

و منها جامع طينال و تسميه العامة طيلان بناه سيف الدين طينال مملوك محمد الناصرى و حاجبه و كان قد تولى ولاية طرابلس مرتين و بنى الجامع المذكور للمرة الثانية سنة (۷۳۶). و فى منارته هندسة لطيفة و لها من داخلها سلمان أحدهما سقف للآخر، فإذا أراد المؤذن الصعود للأذان من داره الملاصقة للمسجد دخل من باب المنارة صاعدا أعلاها و إذا أراد النزول للصلاة دخل من باب آخر يصل منه إلى داخل المسجد و على هذه الصورة فباب المنارة السفلى الخارجى أدنى من أرض المسجد بقدر قامة الإنسان.

و من جوامعها جامع أرغون شاه و تسميه العامة الفنشا على الطريق الشرقية الآخذة لجبانة باب الرمل و لا يعلم تاريخ بنائه و فوق بابه كتابة حفرت أيام قايتباى من المماليك الجراكسة سنة (۸۸۰) يأمر فيها بحماية زراع أراضى الوقف للجامع المذكور و تسليمها إلى محمود الأدهمى الحسينى و قد بنى هذا الجامع حديثا بعد سقوطه و وضعت له القساطل الحديدية لجر المياه.

و من جوامعها جامع التوبة و هو ملاصق للجسر الجديد على نهر أبى على و من الثابت أنه بنى أيام دولة المماليك و طرز هندسته يشبه الجامع الكبير من وجوه كثيرة و قد جدد بناءه بعد ما تهدم من الفيضان الكبير الذى وقع فى طرابلس سنة (۱۰۲۰) أحمد بن محمد

الشربداری الأنصاری کتخدای حسین باشا السیفی، و تم بناؤه فی شهر ربیع الآخر سنة (۱۰۲۱) و الکتابات الأثریة التی علیه یرجع تاریخها إلی سنة (۸۱۷) أیام دولة المؤید أبی النصر شیخ المحمودی من المماليك الجراکسة.

خطط الشام، ج۶، ص: ۵۴

و من جوامعها جامع المعلق بناه محمود بن لطفی الزعیم سنة (۹۶۷) أیام سلیمان القانونی و هو فی محلة بوابة الحدادین. و جامع العطار وسط البلد بقرب محلة الملاحة و المشهور عند أهالی طرابلس أنه کان کنیسة فی زمن الصلیبیین ثم تحول إلی جامع بعد الفتح الإسلامی و کان قد تداعی بناؤه، فأقیم و فی أعلی بابه الشرقی مکتوب هذا التاریخ «البسملة. هذا الباب المبارک و المنبر من عمل المعلم محمد بن إبراهیم المهندس فی سنة إحدی و خمسین و سبعمائة». و جامع البرطاسی فی جانب الجسر العتیق علی نهر أبی علی و فی الکتابة التی فوق بابه یقول: بنی هذه المدرسة عیسی بن عمر البرطاسی و وقفها علی المشتغلین بطلب العلم علی مذهب الإمام الشافعی و لم یعلم الزمان الذی تحولت فیه إلی جامع و قد ذهب من أصل الکتابة التاریخیة القسم الذی یذکر به زمن البناء غیر أن أسلوب تلک الکتابة و طرز بنائه الفخم و دقة الفسیفساء التی علی محرابه و فی أرضه تدل علی أن بانیه من الأثریاء أیام دولة المماليك البحریة. و جامع الأویسیة بنی فی دولة المماليك غیر أنه لم یکن علیه کتابات تاریخیة إلا ما کان فی أعلی منارته و فیها ذکر أنه جدّد بناءها أیام السلطان سلیمان القانونی سنة (۹۴۱) رجل اسمه حیدرة و فی وقفیة الجامع أن اسم بانیه محیی الدین الأویسی.

و جامع عبد الواحد وراء سوق الصاغة بناه عبد الواحد المغربی المکناسی أیام السلطان محمد بن قلاوون للمرة الثالثة سنة (۷۰۵) و علیه زبرت کتابة تشعر بذلک. و جامع التفاحی و یسمی الیوم بالحمیدی لم یبق من بنائه الأصلی أثر و تجدد بناؤه حوالی سنة (۱۳۱۰) بمعاونة أهل الخیر و إعانة السلطان عبد الحمید الثانی فنسب إلیه. و جامع محمود بک السنجق و هذا بناه فی طرف البلد تقریبا للجهة الشرقیة بالمحلة المعروفة بباب التبانة سنة (۱۰۲۰) فی عهد السلطان أحمد من ملوک بنی عثمان و وقف علیه أوقافا کثیرة لم تزل قائمة إلی الآن. و جامع الطحام داخل البلد و لم یعلم اسم بانیه و لا تاریخ بنائه و شکله و طرز منارته یدل علی أنه بنی زمن المماليك.

هذه جوامع طرابلس و قد وصف ناصر خسرو المسجد الأعظم فیها أواخر النصف الأول من القرن الخامس بقوله: و المسجد الأعظم قائم فی وسط المدینة و هو جمیل للغایة، مزدان بأحسن زینة، و مبنی علی غایة القوة

خطط الشام، ج۶، ص: ۵۵

و المتانة، و فی صحنه قبة عظیمة تعلو حوضا من المرمر فی وسطه فوارة یخرج ماؤها من منقار نحاس أصفر اه. و الغالب أن هذا الجامع خرب بخراب تلک المدینة بعد.

و فی جبیل جامع قدیم هو مما اتخذ جامعا بعد الحروب الصلیبیة. أما مدینة بیروت فکانت فیها جوامع صغیرة بعد الفتح و لم تکن بیروت بالثغر العظیم إذ ذاک و لم یکن للمسلمین جامع فیها أیام استیلاء الصلیبیین علیها، فلما انتزعت منهم أخذوا کنیستهم و جعلوها جامعا، و هی تعرف بکنیسة مار یوحنا الصایغ و یقال لها جامع النبی یحیی أو الجامع الکبیر الیوم. و بنی فیها الأمیر منصور عساف جامع السرایة. و کان جامع الخضر کنیسة للموارنة باسم مار جرجس إلی سنة (۱۶۶۱ م) فأخذه أحد باشاوات الترک و جعله جامعا. و منها جامع المجیدیة و غیره و مجموع ما فی بیروت الیوم من المساجد و الجوامع ثلاثون جامعا و مسجدا.

و فی صیدا سبعة جوامع و مساجد أهمها الجامع الکبیر جامع یحیی و کان کنیسة علی الغالب باسم مار یوحنا و فی صور مسجد جامع. و فی عکا بضعة جوامع أهمها جامع الجزار، و فی حیفا و عملها عدة جوامع و مساجد، و فی یافا و عملها کذلک و جوامع یافا قدیمة فی الجملة، و فی غزة الیوم عدة جوامع و مساجد. و قد أعجب الظاهری فی القرن التاسع بجوامع غزة، و کان مسجدها الجامع من الکنائس المهمة فی القرن الثانی عشر للمیلاد علی اسم القدیس یوحنا المعمدان، و کان کاتدرائیة لأسقف الروم، و فیها جامع هاشم و جامع باب الداروم و غیره من الجوامع التی فیها نقوش بدیعة و أنقاض تدل علی مجد قدیم.

جوامع المدن الداخلية:

و فى الخليل و (حبرون) جامع فيه مقام الخليل إبراهيم فى مغارة تحت الأرض. قال شيخ الربوة: و من المبانى القديمة مقام الخليل عليه السلام طوله ثمانون ذراعا و عرضه خمسون ذراعا، فى الطول منه عشرون حجرا مدماكا واحدا، و داخل المقام نصب على الضريح كل واحد حجر واحد، الطول أربعة أذرع و العرض ذراعان و نصف و السمك مثلها و أزيد. و يحتوى اليوم سور الخليل على أساس يبلغ علوه ۱۲ مترا و حجارته ملساء عليها مسحة

خطط الشام، ج۶، ص: ۵۶

الأمبراطور هيرودوس. و قد بنى هذا الجامع الصليبيون من سنة (۱۱۶۷) إلى (۱۱۸۷)، و ربما كان إنشاؤه مكان كنيسة يوستنيانوس وجدده المسلمون بعد ذلك. و أقدم ما فى الجامع من الترميمات ما قام به قلاوون من سلاطين المماليك.

و فى القدس عدا المسجد الأقصى ثمانية جوامع و هى جامع عمر بن الخطاب تهدم و مكانه الآن كنيسة القديسة حنة شمال كنيسة مار يوحنا و الجامع الباقى مع المأذنة من آثار قلاوون (قاله الأستاذ البرغوثى) و جامع عكاشة و جامع سوق البيزار و جامع سلمان الفارسى و جامع الشيخ جراح و جامع سويقة علوان و جامع الخانقاه بالصلاحية قرب الكنيسة و جامع باب خان الزيت. و الجوامع الخربة أيضا تسعة و هى جامع بحارة الحدادين، و آخر قرب دير اللاتين و ثالث قرب بطريركية دير اللاتين و رابع اسمه الحيات و خامس جامع اليعقوبى قرب القلعة و جامع قرب دير الأرمن و مثله على مقربة من دير السريان و غيره فى حارة اليهود و جامع الأزرق. و هناك ثلاثة جوامع معمورة أيضا و هى جامع السبيل و جامع لؤلؤ و جامع أبى قصبة. و بعض هذه الجوامع لا شأن له من حيث النظافة و الإتقان شأن المصليات البسيطة.

و فى الرملة عدة جوامع و مساجد قال ناصر خسرو فى مسجدها الجامع:

إن فى وسطه صهاريج واسعة و إن مساحته ثلاثمائة قدم فى مائتين. و قال الظاهرى:

إن من جملة مزاراتها الجامع الأبيض عجيب من العجائب. و كان فيها منارة من عجائب الدنيا بناها قلاوون. و فى لدّ عدة جوامع و مساجد و كان بها فى القرن الرابع جامع يجمع به خلق كثير من أهل القصبة و ما حولها من القرى و جامعها الكبير اليوم من عهد الصليبيين كان كنيسة. و فى نابلس تسعة جوامع و مساجد أهمها الجامع الكبير و مسجد أولاد يعقوب و جامع النصر و الخضراء و الجامع الكبير بناه يوستينانوس. و على قيد غلوة من أرسوف بقايا حرم سيدنا على بن عليل أو عليم. و فى قاقون بنى الملك الظاهر بيبرس جامعا. و الظاهر هذا جدّد و بنى عدة مساجد و جوامع فى الشام و مثله قلاوون و تنكز من المماليك.

و فى طور كرم و جينين عدة مساجد و جوامع أكثرها محدث.

و من الجوامع التى رمها ديوان الأوقاف فى فلسطين فى العهد الأخير جامع المنشية و العجمى و البحر و أرشيد و الطابية فى يافا، و جامع العصا فى الرملة،

خطط الشام، ج۶، ص: ۵۷

و جامع لدّ. و مقام النبى يحيى فى قرية المزيرعة و مقام النبى روبين و جامع سويقة علّون و جامع باب خان الزيت و الزاوية النقشبندية و جامع سعد و سعيد، و جامع بيت لحم و مقام النبى شموبل فى القدس و أرباضها. و رمت الأوقاف فى نابلس جامع النصر و الجامع الكبير الصلاحى و جامع العين و جامع التينة.

و جامع قرية رفيديا و قرية عقربة و قرية عصيرة الشمالية و قرية صيدا و جامع البئر فى قرية زواتا و جامع سبسطية و جامع قرية برقة. و أجريت عدة إصلاحات فى جامع الجزار فى عكا و أنشئ فى حيفا جامع الاستقلال. و أصلحت الأوقاف الجامع الكبير فى غزة أصابه خراب كبير بسبب معارك الحرب العامة «و هو من المساجد العظمى فى فلسطين فخم البناء كبير القيمة الأثرية جميل الشكل و

الهندسة يحتوى على عدة سلاسل من العقود الحجرية» و أصلح جامع سيدنا هاشم و جامع ابن عثمان و جامع المجدل و حرم سيدنا زكريا فى الخليل، و شرع أهالى الخليل ينشئون مسجدا فساعدهم المجلس الإسلامى الأعلى.

و كانت المدن القديمة غاصة بالجوامع مثل قيسارية و أرسوف فذهبت بذهاب عمرانها. و فى طبرية اليوم جامعان قديمان الجامع الفوقانى من بناء عرب الزيادنة عام (۱۱۵۶) و الثانى جدد بناؤه عام (۱۲۸۰). و فى صفد عدة جوامع و مساجد. و فى قلعة الشقيف بنى الظاهر بيبرس جامعا و كانوا يقيمون الصلوات فى القلاع أيضا، كما بنوا جوامع لهم فى قلعة دمشق و فى قلعة حلب.

و فى صرخد عمر الظاهر بيبرس جامعا، و كذلك فعل فى بصرى و عجلون و الصلت، و فى هذه البلدان اليوم مساجد صغيرة فقد قضت الأيام على المساجد المهمة. و فى عمان جامع و مسجد و كان فيه فى القرن السابع «جامع ظريف فى طرف السوق مسقف الصحن شبه مكة». و قد أنشئ فيها فى العهد الحديث جامع فخم.

و للدروز فى الشوف من لبنان و وادى التيم الأعلى و الأسفل و مرجعيون و صفد و ضواحى دمشق و بيروت و الجبل الأعلى و فى بعض قرى عكا خلوات أشبه بالمساجد لا منابر لها و لا مآذن، يجتمع فيها خاصتهم ليلة الجمعة و يسمونها مجالس كما أن للنصيرية (العلويين) فى جبالهم خلوات صغيرة ذات قباب تكون على الغالب فى أطراف قراهم، و كذلك لا تخلو أكثر قرى المتاولة

خطط الشام، ج۶، ص: ۵۸

(الشيعة) فى جبل عامل من مساجد صغيرة لهم لا مآذن لها و لا منابر، و منها ما يسمونه «حسينية» نسبة للحسين بن على رضى اللّه عنهما يقيمون فيها المآتم عليه فى أوقات لهم مخصوصة. و فى بعلبك عدة جوامع و مساجدها بقى بعضها من عهد عزها. أيام غلبة مذهب أهل السنة و الجماعة على سكانها أكثر من التشيع. و للإسماعيلية مجالس أيضا كما للنصيرية.

و لقد زيّن بعض عمال السلطنة العثمانية للسلطان عبد الحميد الثانى أن يبنى جوامع و مساجد فى جبال النصيرية و جبل الدروز عسى أن يثوب أهلها إلى مذهب أهل السنة و الجماعة، بنيت عدة جوامع فى هاتين المقاطعتين، منها أربعون جامعا فى جبال العلويين على أمل أن يعود النصيرية و الدروز إلى التسنن، فأصبح بعضهم يصلون شبه مكرهين، فلما آنسوا ضعف الحكومة بعد مدة قليلة أتى جهلاء النصيريين و الدروز على ما بنى من المساجد الجديدة و دمرها عن آخرها و دنسوا كرامتها بما لا يليق.

و من الكتابات الأثرية فى بعلبك ما زبر فوق باب قبة الأمجد على رابية الشيخ عبد اللّه «إنما يعمر مساجد اللّه من آمن باللّه و اليوم الآخر. أمر بعمارة هذا المسجد المبارك الأمير الاسفسهلار الكبير صارم الدين أبو سعيد خطلخ ابن عبد اللّه المعرى الملكى الأمجدى، ضاعف اللّه له الثواب و غفر له يوم الحساب، فى سنة ست و تسعين و خمسمائة».

و كتب فى جامع الحنابلة ببعلبك هذا: «بسم اللّه الرحمن الرحيم. جدّد هذا المكان المبارك فى أيام مولانا السلطان الأعظم، شاهنشاه المعظم مالك رقاب الأمم، سيد ملوك العرب و العجم و الترك و الديلم، الملك المنصور سلطان الإسلام و المسلمين، قامع الكفرة و المشركين، محيى العدل فى العالمين، ملك البحرين، خادم الحرمين الشريفين، أبى المعالى قلاوون قسيم أمير المؤمنين، خلد اللّه سلطانه، و شد أزره ببقاء ولده و ولى عهده، مولانا السلطان الملك الصالح علاء الدين، و أدام نصرهما، و جعل البسيطة ملكهما، بتولى الأمير نجم الدين حسن نائب قلعة بعلبك المحروسة و مدينتها، و نظر القاضى بهاء الدين بن خلكان و ذلك فى العشر الآخر من جمادى الأولى سنة ثنتين و ثمانين و ستمائة و الحمد للّه وحده».

خطط الشام، ج۶، ص: ۵۹

و المساجد فى لبنان قليلة جدا أنشى بعضها حديثا كجامع عالية، و أهم الجوامع فى هذا الجبل جامع دير القمر للأمير فخر الدين عثمان المعنى و عهدى به و المسيحيون من أهل جواره يحافظون عليه إذ ليس هناك من يصلى فيه من أهل الإسلام. و قد كتبت على واجهته كتابتان هكذا بالخط العربى النسخى، الأولى: «بسم اللّه الرحمن الرحيم. فى بيوت أذن اللّه أن ترفع و يذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدوّ و الآصال رجال لا- تلهيهم تجارة و لا- بيع عن ذكر اللّه و إقام الصلوة و إيتاء الزكوة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب و

الأبصار ليجزيهم اللّه أحسن ما عملوا و يزيدهم من فضله و اللّه يرزق من يشاء بغير حساب». و الثانية: «بسم اللّه الرحمن الرحيم. فى بيوت أذن اللّه ترفع و يذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدوّ و الآصال رجال لا تلهيهم تجارة و لا بيع عن ذكر اللّه (و إقام الصلوة و إيتاء الزكوة) يخافون يوما تتقلب فيه القلوب و الأبصار. عمر هذا المكان المبارك ابتغاء لوجه اللّه العظيم و رجاء لثوابه العميم العبد الفقير إلى عفو ربه القدير المقرّ الفخرى الأمير فخر الدين عثمان بن الحاج يونس ابن معن غفر اللّه له.

و كتب فى ۵ من شهر اللّه المحرم الحرام من شهور سنة تسع و تسعين و ثمان مائة للهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة و السلام».

و كانت الجوامع فى حمص مهمة للغاية أوائل الإسلام و قد صالح المسلمون أهلها على ربع كنيستهم و كانت «على أربعة أركان و ذلك من عجائب بنيان العالم» و مسجدها اليوم وسط السوق و ليس بالكبير و فيه عقود و عمد و محراب مزين بالفسيفساء المذهبة القديمة. و فى جهة أخرى محراب قديم معمول بالفسيفساء أيضا. و أكد الأثريون أن بناء هذا الجامع هو من بناء الكنيسة، و الغالب أنه جدد فى أدوار مختلفة من عهد نور الدين زنكى إلى زمن قريب. و لا تزال فى حمص منارة مأذنة من بناء بكجور الذى استولى على المدينة سنة (۳۶۷) و عليها كتابة مفيدة فى باب الهندسة العربية. و من جوامع حمص المهمة جامع سيدنا خالد خارج البلد جدد بناؤه مؤخرا و أنشئت له مأذنة على الطرز الرومى. و لم يثبت كون المدفون فى هذا الجامع هو خالد بن الوليد الفاتح، لأن هذا على أغلب الروايات مات فى مدينة الرسول و الغالب أن هذا القبر

خطط الشام، ج۶، ص: ۶۰

هو قبر خالد بن يزيد بن معاوية على ما أكد ياقوت قال: و هو الذى بنى القصر بحمص و آثار هذا القصر فى غربى الطريق باقية. و ذكر المؤرخون أنه كان فى جامع حمص عمود يقال: إنه من الكحل الأصفهانى.

و فى حماة ۳۴ جامعا و ۱۱ مسجدا و من أهمها جامع النورى بناه نور الدين زنكى سنة (۵۵۹). و منها جامع أبى الفداء الشهير بجامع الدهشة أو الحيات.

و قد وصف الأثرى هرزفلد المسجد الجامع فى حماة و هو الجامع الكبير فقال: إنه أصل حرمه كان كاتدرائية للنصارى غريبة الشكل و له ثلاثة أفنية مختلفة السعة، و ثمانى دعائم، و خمس قباب، و من كل ناحية خمسة عقود أو أقبية. و يظهر أن الحائط الغربى كان حائط رواق الكنيسة، و الحائط الجنوبى من العهد السابق للنصرانية، كما هو الحال فى جامع دمشق كان معبدا ثم بيعة ثم جامعا. و إلى جهة الشرق قامت منارة قديمة منفردة و هى مربعة الزوايا زبرت عليها كتابة كوفية ربما كانت من القرن الخامس، و تحيط بصحن الجامع الجميل أروقة معقودة، و هناك سدة بمحرابين أمام الحرم و سدة أخرى لها حوض ماء، و محراب منفرد فى الرواق الشمالى، و خزنة قائمة على ثمانية أعمدة قديمة، و فى الرواق الشرقى تربة و مصلى و لها نوافذ صلبة معمولة من النحاس من عهد المماليك، و من الرواق الغربى يصل الإنسان إلى قبة الملك المظفر محمود الثالث (۶۸۳- ۶۹۸) و له تابوت معمول بالخشب الجميل المنقوش، و هناك منارة ثانية قامت فى الخارج وسط الرواق الشمالى و يستدل من كتابته و شكله أنه من زمن المماليك، و فى جامع حماة تجلت خاصية من هندستها تجليا عظيما، و ذلك أن ظاهر الحيطان مزين بنقوش رسمت بألوان تشبه الفسيفساء لمراوحتهم فى صنعها بين الحجر البركانى الأسود و الحجر الكلسى الأبيض.

و فى الجامع النورى على الشاطئ الأيسر من العاصى فى أرض منحدرة و على بناء تحتى عال بنى هذا الجامع على عهد نور الدين، و على ما دخله من الترميمات الكثيرة تشاهد فيه إلى اليوم أجزاء مهمة من البناء القديم، و لا سيما على طول الحرم، و العقود فيه حديثة العهد بالنسبة لمجموع الجامع، و كذلك ثلاث قباب من الرواق الشمالى مختلفة الأشكال و الأبنية التحتانية من الجهتين

خطط الشام، ج۶، ص: ۶۱

الشرقية و الشمالية و الحائط الخارجى الشمالى من الجامع ربما كان الجزء الأسفل من المنارة بما فيه الحجارة المنحوتة البيضاء و

السوداء قديم العهد أيضا.

و فى هذا الجامع بقايا منبر جميل عمل من الخشب و يرد إلى زمن نور الدين ثم محراب مزين أجمل زينة له سوار من الرخام المجزع من زمن الملك المظفر تقى الدين (۶۲۶- ۶۴۲) و فى مكان آخر من الشرق محراب ذو سوار من المرمر زبر فى تيجانها اسم أبى الفداء.

و الجامع الأول هو الذى قام على أنقاض الكنيسة أو حوّل منها فى زمن الفاتح، و هو جامع السوق الأعلى وجدّد فى خلافة المهدى من خراج حمص على ما نقش على رخامة فيه، ثم جاء المظفر عمر فزاد فيه و بنى مدرسة بجواره، ثم أتى إبراهيم الهاشمى فأنشأ منارته الشمالية سنة (۸۲۵) كما زبر ذلك على رخامة فوق بابها، و من بنائه الحرم الصغير فى جانب المسجد من جهة الشرق و رواق الجامع أيضا بناه سنة (۸۳۲)، و جامع الحيات أو جامع الدهشة الذى بناه الملك المؤيد و بنى لحرمه من جهة الشرق شباكين كبيرين بينهما عمود كبير من الرخام على صورة أفاعى ملتفة و لهذا يسمى جامع الحيات. و قد نقش حرمه بالذهب و الفسيفساء و الرخام الملون فى جدرانه و أرضه و عمل له من الغرب شباكين كما فى جهة الشرق، غير أنهما هدما و أدخلا فى البستان المجاور له، و لم يبق غير الشباكين. و ذهبت خزانة الكتب الموقوفة و كان فيها سبعة آلاف مجلد. و يرى الداخل إلى حرمه حتى اليوم زنارا على ساريتين محفورا من الرخام و صورته:

«أمر بعمل هذا الجامع المبارك السلطان الملك المؤيد عماد الدنيا و الدين إسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين على بن الملك المظفر تقى الدين محمود ابن الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه ابن أيوب فى شهور سنة سبع و عشرين و سبعمائة».

و من الجوامع فى حماة جامع السلطان فى محلة الدباغة و هو متسع، بناه السلطان بدر الدين حسن شقيق أبى الفداء على هيأة جامع الدهشة و فى كل منهما رخام محفور بالآيات القرآنية كتبتها يد واحدة، و له رواق كبير و فى محرابه كتبت آيات بالخط الكوفى. و فيها جامع العزة بناه محمد بن حمزة

خطط الشام، ج۶، ص: ۶۲

العزى سنة (۷۲۳) و هو مهجور. و فيها جوامع بناها بعض آل الكيلانى الذين سكنوا حماة منذ القرن السابع و لها أوقاف عظيمة دارة إلى اليوم. و من الجوامع الحديثة جامع الحميدية الخ.

جوامع العاصمة و ضواحيها:

إذا صرفنا النظر عن الكلام على الجامع الأموى مفخرة دمشق على توالى الأيام و المعدود من المصانع العظيمة فى العالم، و عمدنا إلى وصف بعض جوامع العاصمة و مساجدها نجد عدد المساجد فى العهد الأخير بحسب إحصاء ديوان الأوقاف ثمانية و خمسين مسجدا و جامعا، منها جامع الباشورة فى الشاغور و مسجد الجديد فى مسجد الأقصاب و جامع الأتابكية فى الجركسية بالصالحية و جامع حسان فى القماحين بباب الجابية و درويش باشا فى الدرويشة (۹۸۲) و اسمه القديم الاخصاصية وسعه درويش باشا، و جامع الدقاق فى الميدان الفوقانى و الركنية فى الصالحية و مسجد رستم فى العقيبة و زيد بن ثابت فى باب السريجة و جامع السقيفة فى العمارة و جامع سيدى بشارة فى باب المصلى و جامع سيدى صهيب فى الميدان التحتانى و جامع السنجقدار و شادى بك فى القنوات و الطاغوسية فى البحصة و العداس فى القنوات و مسجد العداس الصغير فى العمارة و جامع عبد الغنى النابلسى فى الصالحية و جامع برسباى المعروف بجامع الورد فى سوق ساروجا (۸۵۲) و جامع كافل سيباى فى الدرويشية.

و فى هذا الإحصاء نظر لأن جوامع دمشق و مساجدها أكثر من ذلك و لعل من مصلحة الأوقاف أن تقلل من عددها لكى يتسع لها المجال أكثر مما اتسع لاستصفاء وقوفها فقد فاتها فى هذه الجريدة ذكر جامع السنانية عمره يوسف عبد اللّه سنان باشا سنة (۹۹۹) فى

محل مسجد البصل و جامع يلبغا أنشئ سنة (۸۴۷) و جامع التوبة فى العقيبة و جامع الجراح فى باب الصغير عمره الملك الأشرف موسى (۶۳۱) و له منبر جميل مهم. و جامع الجديد و هو جامع المعلق بين الحواصل أجمل بناء فى دمشق جدده نائب الشام سنة (۱۰۵۸) و يظن أن أصله من القرن السابع أو السادس. و جامع الحنابلة فى الجبل و يقال له جامع المظفرى أنشأه ابن قدامة المقدسى (۵۹۸) و أتمه الملك المظفر كوكبورى صاحب إربل و هو جامع جليل.

خطط الشام، ج۶، ص: ۶۳

و من الجوامع الجليلة جامع المرادية فى السويقة له منبر و محراب بديعان.

و منها جامع منجك فى الميدان أنشأه الأمير إبراهيم بن سيف الدين منجك (۸۰۰). جامع النحاس شرقى الركنية فى الصالحية فى بستان النحاس عماد الدين بن عبد اللّه بن الحسين بن النحاس (۶۵۴). و من الجوامع التاريخية التى لم تشتهر كثيرا جامع الحشر فى الجانب الغربى من القلعة لأرغون شاه جدده سنان جاووش يكيجرى (۱۰۰۸). الحيوطية للأمير على بن حيوط (۸۸۵) العسالى لأحمد باشا كوجك (۱۰۵۴) أنشأه أحمد بن على العسالى شيخ الخلوتية. جامع المزاز (۸۱۳) لعزران شاه السيد تقى الدين الزينبى الجنوبى خرب فى فتنة تيمور فجدده الطوش مرحاب. جامع الجوزة فى العمارة وسعه القاضى ناظر الجيش (۸۳۰) جامع خليخان خارج باب كيسان من الجنوب أنشأه نجم الدين بن خليخان (۷۲۶) جامع الكريمى (۷۲۴) بالقبيبات أنشأه عبد الكريم بن هبة اللّه المصرى. جامع باب المصلى أنشأه (۶۰۶) الملك العادل أبو بكر بن أيوب. و كان هذا السلطان مولعا بالعمران أنشئت فى عهده مساجد كثيرة فى مملكته. جامع الحاجب فى سوق ساروجا (۸۸۰) جامع السقيفة دفن فيه عثمان السقيفى من الصحابة فيما يقال أنشأه خليل الطوغانى (۸۱۴) و كان محله يعرف بالسبعة. و هناك مساجد دثرت لانها ليس فى جوارها من يتعهدها مثل جامع الأحمر فى حى اليهود و البهائية فى باب توما.

و فى مفكرات طارق أن اسم سوق القطن القديم بدمشق سوق النسقار و فيه جامع هشام أنشأه القاضى بدر الدين بن مزهر (۸۳۰) و أن محراب جامع التوبة مهم و كذلك منبره و نوافذه و مثل ذلك جامع الشامية و جامع التبان فى المناخلية فإن فيه عمودين مهمين و فيه قاشانى و منبر قديم و ملاصق جامع السيدة سكينة جامع من بناء الملك الظاهر عليه كتابات و فى جامع ركن الدين منكورش المعروف بالركنية فى حى الأكراد نقوش و كتابات مهمة.

هذا غاية ما يقال فى مساجد دمشق اليوم. و قد عدد ابن عبد الهادى القسم الأعظم من مساجدها فى القرن العاشر مع أنه لم يستقص أسماء كثير من الجوامع فى الضاحية بما يناهز خمسمائة قال: فناهيك ببلدة يحتوى واديها فقط على

خطط الشام، ج۶، ص: ۶۴

زهاء ألف و خمسمائة مسجد، و أما ما هو محيط بمعاملتها مما وراء جبالها فهو كثير للغاية اه. و ذيل على كتابة الدكتور أسعد طلس فأورد وصف ثلاثمائة و ثمانية مساجد فى دمشق زارها كلها و بحث فى حاضرها و غابرها و بعضها من المساجد التى عرضنا لها فى هذا الفصل و كان فات إدارة الأوقاف ذكرها فى المساجد الباقية. قال كاتب چلبى فى القرن الحادى عشر: إن عدد جوامع دمشق بين كبير و صغير يبلغ مئة و خمسين جامعا و إن الدولة العثمانية أنشأت فيها عدة جوامع على طرز جوامع ديار الروم فبنت جامع السلطان سليمان بين الشرفين الأعلى و الأدنى و أنشأت جامع درويش باشا مير ميران ولاية الشام و أنشأت جامع سنان باشا خارج باب الجابية و أنشأت جامع قره مراد باشا مير ميران ولاية الشام خارج السور فوق طريق الشام على سمت طريق باب المصلى اه.

و إذا توغلنا فى التاريخ إلى القرن السادس نجد ابن عساكر قد عد من المساجد التى بنيت بدمشق ۲۴۱ مسجدا و جامعا فى داخلها و ۱۸۴ فى ظاهرها مما ليس فى قرية مسكونة أو معمورة. قال ابن شاكر: و قد أحدثت بعد الحافظ ابن عساكر مساجد كثيرة داخلا و خارجا هذا مع ما اختصت به دمشق من كثرة المدارس و الأوقاف. و من المساجد التى عدها الحافظ منسوبة إلى أحد الصحابة مسجد ايمن بن خريم بن فاتك الأسدى الصحابى، و مسجد مروان بن الحكم و مسجد واثلة بن الأسقع، و فضالة بن عبيد الصحابى

الأنصارى قاضى دمشق. و لتغير المعالم بها لا تعرف أسماء الأحياء التى ذكر أنها كانت فيها. قال ابن شاكر: و أما المساجد الخارجية عن البلد فمنها مسجد بين حجيرا و راوية (قبر الست) على قبر مدرك بن زياد و مسجد فى راوية على أم كلثوم من أهل البيت. و مسجد كنان قبلى قذايا. قرية كانت قبلى مقابر اليهود فخربت، و مسجد فى مقبرة باب توماء عند النهر المجدول بقرب الصفوانية يعرف بخالد بن الوليد لأنه صلى به وقت الحصار، و مسجد يعرف بمسجد النبى فى أرض المصيصة له منارة. و المصيصة قرية كانت عامرة فخربت شرقى

خطط الشام، ج۶، ص: ۶۵

بيت لهيا، و مسجد عند بيت أبيات يعرف بمسجد آدم، و مسجد معاوية من أرض قينية على طريق المزة و داريا، و مسجد الحجر و يعرف بمسجد النارنج قرب المصلى، و مسجد القدم عند القطائع بقرب عالية و عويلية قديم له منارة.

و لقد كانت مساجد الغوطة عامرة كلها إلى دخول العثمانيين ثم أخذت تخرب فى عهدهم، فقد كان فى كل قرية من قرى دمشق مسجد أو مساجد جامعة بحسب ضخامة القرية، و عشرات من هذه القرى خربت برمتها فى القرون الأخيرة فذهبت معها الجوامع بالطبيعة. و من القرى التى مرت بنا و ذهب اسمها و رسمها راوية و فذايا و المصيصة و بيت لهيا و بيت أبيات و قينية و عالية و عويلية و النيرب و الربوة. و لقد كان فى الربوة عدة مساجد و مدارس. و فى تاريخ الصالحية أن المقاصف كانت تعمر عمائرها للنزهة من غير طين، و العمائر المكلفة كانت للمدارس و الجوامع و أن قاعة المسجد الديلمى الذى جدده نور الدين فى الربوة قد بناها على شعب الجبل، سقفها نهر يزيد، و أساسها نهر ثورا من المقامات التى لا تدرك. قال: و بقى بعد الألف من هذا المسجد المأذنة و أثر العمار ثم دثر.

و كان بالنيرب تسعة مساجد عدها ابن عبد الهادى، و الآن ليس فيها أثر لمسجد و لا لقرية. و كان فى القابون الفوقانى ثلاثة مساجد و بالقابون التحتانى ثلاثة، و ليس فيهما الآن سوى مسجد واحد حقير. و هكذا مساجد قرى الغوطة و المرج و قلمون فإنها كلها ليست ذات شأن، و من أجملها اليوم جامع التل و عربيل و دومة و داريا. و مما دثر مسجد خاتون فى منتصف الطريق بين دمشق و المزة. كما دثرت مساجد المزة و كانت بضعة مساجد و جوامع، منها مسجد بناه ابن عنين الوزير الشاعر فى القرن السابع، و فى هذا القرن أيضا بنى بها الوزير صفى الدين بن شاكر جامعا، و هو الذى بلط جامع دمشق و أحاط سور المصلى عليه و عمل الفوارة و بنى جامع حرستا. و الجوامع و المساجد اليوم صورة من عمراننا، و عمراننا كان متراجعا إلى عهد قريب، و هو اليوم آخذ بالتقدم فلا يبعد أن تقوم المساجد بعد الآن على قانون ينم عن حسن ذوق فى البناء فيعيد الصورة القديمة مضمومة إلى التحسين الحديث.

خطط الشام، ج۶، ص: ۶۶

المدارس

[نشأة المدارس:]

اتخذ المسلمون مساجدهم للصلاة و العبادة و تلقى القرآن و علومه و الحديث و فنونه و علوم اللسان، و ما يتعلق بذلك من المطالب التى فيها قيام أمرهم، و خدمة دينهم أولا- و لغتهم ثانيا، و ظلوا على ذلك فى الشام حتى أنشأ بدمشق رشأ بن نظيف بن ما شاء اللّه الدمشقى سنة (۴۴۴) مدرسته المعروفة بالرشائية اتخذها دار قرآن، و كان الحسن بن عمار قاضى طرابلس للفاطميين و المتغلب عليها أقام فى بلده دار حكمة أو شبه مدرسة جامعة على نحو دار الحكمة التى أنشأها الحاكم بأمر اللّه فى مصر سنة أربعمائة. و لما أراد المعتضد باللّه العباسى بناء قصره ببغداد استزاد فى الذرع بعد أن فرغ من تقدير ما أراد فسئل عن ذلك فذكر أنه يريده ليبنى فيه دورا و مساكن و مقاصير يرتب فى كل موضع رؤساء كل صناعة و مذهب من مذاهب العلوم النظرية و العملية و يجرى عليهم الأرزاق

السنية ليقصد كل من اختار علما أو صناعة رئيس ما يختاره فيأخذ عنه. و أول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة فى الإسلام أهل نيسابور فبنيت بها المدرسة البيهقية ثم مدرسة الأمير نصر بن سبكتكين و تبعه غيره.

و عنى السلاجقة بإنشاء المدارس فى أقطار الشرق، و كان آلب أرسلان إذا رأى فى بلد رجلا متميزا متبحرا فى العلم بنى له مدرسة و وقف عليها وقفا و قرر فيها للفقهاء معاليم و جعل فيها دار كتب، و نظام الملك أحد وزراء السلاجقة الذى أنشأ المدرسة النظامية فى بغداد فى القرن الخامس أيضا.

أصبحت طرابلس بدار الحكمة التى أنشأها فيها ابن عمار كعبة علم،

خطط الشام، ج۶، ص: ۶۷

كما كانت حلب على عهد سيف الدولة بن حمدان كعبة أدب. و يقال: إنه كان فى طرابلس فى ذاك القرن عدة مدارس و خزائن كتب لم يبلغنا خبرها.

و على هذا فالمدارس فى الإسلام نشأت فى أواخر القرن الرابع و عرفت جيدا فى الخامس و السادس. و نقصد بالمدارس تلك الدور المنظمة التى يأوى إليها طلاب العلم، و تدر عليهم المعاليم و الأرزاق، و يتولى تدريسهم و تثقيفهم فئة صالحة من المدرسين و العلماء، و هم موسع عليهم فى الرزق، يختارون بحسب شروط الواقف ممن يحسنون القيام بالغرض الذى ندبوا للدعوة إليه، و يجازون بما تعلموا من ضروب المعارف الآلهية و البشرية.

و لقد كان من نور الدين محمود بن زنكى لما استولى على الشام همة عظيمة فى إنشاء المدارس لأهل السنة و الجماعة كما أنشأ القائد جوهر الأزهر فى القاهرة، و القاضى ابن عمار دار الحكمة فى طرابلس لبث التشيع، و أخذ نور الدين يستدعى فحول العلماء من الأقطار و يبنى لهم المدارس و يدر عليهم المشاهرات حتى قالوا: إن الشام أصبح على عهده مقر العلماء و الفقهاء و الصوفية. بنى سنة (۵۴۵) فى حلب المدرسة العصرونية و استدعى لها من سنجار شرف الدين بن أبى عصرون من أعيان فقهاء عصره و بنى له مدرسة بمنبج و أخرى بحماة و ثالثة فى حمص و رابعة ببعلبك و خامسة بدمشق، و فوض إليه أن يولى التدريس فيها من يشاء. و بنى لقطب الدين النيسابورى المدرسة العادلية بدمشق و لم يتمها. و أول مدرسة بنيت فى حلب أنشأها بدر الدولة أبو الربيع سليمان ابن عبد الجبار بن أرتق صاحب حلب سنة عشر و خمسمائة و سميت المدرسة الزجاجية. و أول ما عرف من المدارس فى القدس ما بناه صلاح الدين يوسف ابن أيوب و نسب إلى جماعته.

و قد ذكر الرحالة ابن جبير الذى زار دمشق فى سنة ثمانين و خمسمائة أنه كان فيها نحو عشرين مدرسة تقوم بالإنفاق على من يدخل فيها للتعليم و الاستفادة. و قال: إن هذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الإسلام و المدارس كذلك و أن الرباطات قصور مزخرفة.

و قال فى كلامه على مشاهد دمشق:

و لكل مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينة من بساتين و أرض بيضاء و رباع حتى: إن البلدة تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيها و كل مسجد يستحدث

خطط الشام، ج۶، ص: ۶۸

بناؤه أو مدرسة أو خانقة يعين لها السلطان أوقافا تقوم بها و بساكنيها و الملتزمين لها، و هذه أيضا من المفاخر المخلدة. و من النساء الخواتين ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة و تنفق فيها الأموال الواسعة و تعين لها من مالها الأوقاف، و من الأمراء من يفعل مثل ذلك اه.

و معظم المدن مدارس مدينة دمشق، كثرت فى الدولتين النورية و الصلاحية و قام بإنشاء بعضها العتقاء و الخصيان و الإماء و البنات، و منها ما بنى بالمال الحلال من أموال الغنائم، و منها ما بناه بعض أهل الخير من بنات الملوك و الملكات، و من القواد و السادة، و منها ما أنشأه أهل اليسار من التجار و غيرهم.

و أكثر من بنوا المدارس فی دمشق هم غرباء عنها، و لو لا بضع مدارس أنشئت فی القرن الثانی عشر فی حلب و دمشق لقلنا: إن تاریخ المدارس فیهما ختم بانقراض ملوک الطوائف و دخول الدولة العثمانیة الدیار الشامیة. و من رأی کثرة المدارس فی القرن السادس و السابع و الثامن و التاسع و قلة ما شید منها فی القرن العاشر و الحادی عشر و الثانی عشر، یستنتج معنا أن الأمة إذ ذاک کانت علی جانب من التدین و الغنی و حب الخیر أکثر من القرون التالیة، و أن بعض من جمعوا ثروات کانوا یحبون أن یتصدقوا من مالهم بشیء یعتقدون أنه قربی لهم یوم الجزاء، و قد فسد الناس فی القرون الأخیرة و توفروا علی التهام تلک المدارس و أوقافها. و هی علی الأکثر تقسم إلی أقسام، فمنها مدارس للشافعیة یقرأ فیها فقه الإمام أحمد بن إدریس الشافعی، و أخری للحنفیة یتلی فیها فقه الإمام الأعظم أبی حنیفة، و غیرها للحنابلة لفقه الإمام أحمد بن حنبل، و بعضها للمالکیة أی فقه الإمام مالک بن أنس، و منها مدارس أو دور للقرآن یتلقون فیها القراءات علی الأصول و ما یتعلق بذلک، و منها دور للحدیث یأخذون فیها فنون الحدیث و یروونه. و کان فی دمشق خاصة مدارس لتعلیم الطب و الصیدلة و الکحالة و مدرسة للهندسة یتخرج فیها مهندسون و بناؤون، و لم یتصل بنا أنه أنشئ فی عواصم ذاک العهد: قصبة الوسط دمشق، و قصبة الشمال حلب، و قصبة الجنوب القدس، مدارس لتعلیم الفلسفة و العلوم الطبیعیة و الریاضیة، و لعل بعض العلوم و خصوصا الفلک و الجغرافیا و التاریخ کانت تدرس فی تلک المدارس کما کانت تدرس فی الجوامع فی بعض الأدوار،

خطط الشام، ج۶، ص: ۶۹

و کان أبو شامة فی القرن السادس یقرئ التاریخ درسا عاما فی الجامع الأموی بدمشق، و قد وصف أبو الفضل بن منقذ الکنانی هذه المدارس بقوله:

و مدارس لم تأتها فی مشکل إلا وجدت فتی یحل المشکلا

ما أمّها مرء یکابد حیرة و خصاصة إلا اهتدی و تمولا

و بها وقوف لا یزال مغلها یستنقذ الأسری و یغنی العیّلا

و أئمة تلقی الدروس و سادة تشفی النفوس و داؤها قد أعضلا

و معاشر تخذوا الصنائع مکسبا و أفاضل حفظوا العلوم تجملا

و قال السابق أبو الیمن المعری فی وصف مدارس حلب و منه استدللنا أنها کانت تدرس العلوم المختلفة:

فلدیها کل الفنون و فیهاما اشتهاه الشرعی و الفلسفی

لا- جرم أنه کان لإلقاء العلوم فی تلک المدارس نظم و مناهج، و یقرأ الطلبة أشهرا مخصوصة و یفحصون فیما تعلموه، و لا ینال الإجازة بالتدریس و الخطابة و الإمامة إلا من ثبتت لمشایخه کفایته، و کان علی استعداد لأن یزداد علما بعد إنجاز الطلب و إجازة الطلاب بمسموعات مشایخهم و مروایاتهم.

دور القرآن بدمشق:

فی مدینة الرسول بنیت أول دار للقرآن فی الإسلام. و ذکر الواقدی أن عبد اللّه بن أم کلثوم قدم مهاجرا إلی المدینة مع مصعب بن عمیر رضی اللّه عنهما و قیل: قدم بعد بدر بیسیر فنزل دار القرآن. و کان فی دمشق سبع دور للقرآن علی ما فی الدارس و هی:

(۱) «الخیضریة» شمالی دار الحدیث السکریة بالقصاعین و تنسب إلیها الیوم محلة الخیضریة، أنشأها قاضی القضاة قطب الدین الخیضری الدمشقی سنة (۸۷۸) و وقف علیها و علی مسجد آخر أوقافا جمة، و قد بقی الیوم جزء صغیر منها استحال زاویة للشاذلیة.

(۲) «الدلامیة» بالقرب من المارداینة علی الجسر الأبیض بالجانب الشرقی من الشارع الآخذ إلیه بالصالحیة فوق نهر ثورة علی طریق الجرکسیة، أنشأها زین الدین دلامة بن عز الدین نصر اللّه البغدادی البصری و کان من أجل

خطط الشام، ج۶، ص: ۷۰

أعيان الخواجكية بالشام و وقفها سنة (۸۴۷) و هى الآن عبارة عن مصلى و منزلين بالقرب من جامع كعكع. و فى كتاب وقفها أن صاحبها رتب بها إماما و له من المعلوم مائة درهم، و قيما و له مثل الإمام، و ستة أنفار من الفقراء الغرباء المهاجرين لقراءة القرآن، و لكل منهم ثلاثون درهما فى كل شهر، و من شرط الإمام الراتب أن يتصدى لإقراء القرآن للمذكورين و له على ذلك زيادة على معلوم الإمامة عشرون درهما، و ستة أيتام بالمكتب الذى على بابها و لكل منهم عشرة دراهم فى كل شهر أيضا و قرر لهم شيخا و له من المعلوم ستون درهما فى كل شهر، و لقراءة البخارى فى الشهور الثلاثة و للقارئ من المعلوم مائة درهم، و عاملا و له من المعلوم كل سنة ستمائة درهم، و رتب للزيت فى كل عام مثلها، و للشمع لقراءة البخارى و التراويح مائة درهم، و لأرباب الوظائف خمسة عشر رطلا من الحلواء و رأسى غنم أضحية، و لكل من الأيتام جبة قطنية و قميصا.

(۳) «الجزرية» قيل: إنها كانت بدرب الحجر نسب إيقافها لمحمد بن محمد الجزرى المقرى المحدث. و لعل درب الحجر هو طريق الجركسية قرب الدلامية فتكون دار الشيخ محمد فى حارة الشرباتى.

(۴) «الرشائية» شمالى الخانقاه السميساطية الملاصقة للجامع الأموى من شماليه أنشأها فى حدود سنة أربع و أربعين و أربعمائة رشأ بن نظيف ابن ما شاء اللّه الدمشقى المقرى. و قد درست الآن و بنيت المدرسة الاخنائية مكانها كما فى الكواكب السائرة. و قيل: كانت بباب الناطفانيين أو بالعصرونية.

قال الكتبى: هى التى جوار الخانقاه السميساطية من الشمال. قال ابن قاضى شهبة: و قد زالت عينها و أدخلت فى غيرها.

(۵) «السنجارية» كانت تجاه باب الجامع الأموى الشمالى أنشأها على بن إسماعيل السنجارى أحد التجار الأخيار المتوفى سنة (۷۳۵) و هى أمام الاخنائية استحالت دارا و لم يبق غير بابها و عليه وقفها .

(۶) «الصابونية» خارج باب الجابية قبالة تربة الباب الصغير لشهاب

خطط الشام، ج۶، ص: ۷۱

الدين أحمد بن علم الدين بن سليمان بن محمد البكرى المعروف بالصابونى تم إنشاؤها سنة (۸۶۸) و بنى أيضا تجاهها بشرق مكتبا لأيتام عشرة بشيخ لهم يقرئهم القرآن العظيم بمعاليم شرطها لهم معلومة تصرف عليهم من جهات عديدة منها عدة قرى غربى مدينة بيروت تحت يد أمير الغرب تعرف بالصابونية و لا تزال هذه الدار باقية إلى اليوم و هى مدفن السادة بنى البكرى.

(۷) «الوجيهية» قبلى المدرسة العصرونية و المسرورية و غربى الصمصامية التى شمالى الخاتونية أنشأها وجيه الدين محمد بن عثمان بن المنجا الرئيس شيخ الحنابلة الدمشقى التنوخى سنة (۶۹۰) درست و أصبحت مخازن و دورا.

و فى ترجمة تنكز أنه عمل دارا للقرآن إلى جانب داره دار الذهب بدمشق و على ذلك فتكون دور القرآن ثمانية. و ما أجمل ما قال على بن منصور السروجى فى دمشق:

فى كل قصر بها للعلم مدرسةو جامع جامع للدين معمور

كأن حيطانه زهر الربيع فمايملّه الطرف فهو الدهر منظور

يتلى القران به فى كل ناحيةو العلم يذكر فيه و التفاسير

دور الحديث بدمشق:

عنى المسلمون أى عناية برواية الحديث الشريف لفهم السنة و الكتاب و للتبرك و التفقه. و أول من بنى دار حديث فى الشام و ربما كانت مدرسته الأولى من نوعها فى بلاد الإسلام نور الدين محمود بن زنكى و كثرت دور الحديث بعد ذلك. و كان فى دمشق على ما ذكر فى الدارس ثمانى عشرة دارا للحديث و هى:

(۸) «الأشرفیة» جوار باب القلعة الشرقی غربی العصرونیة، و شمالی القایمازیة الحنفیة، و فی روایة أن القایمازیة مدرسة، و کانت دار الأمیر قایماز ابن عبد اللّه النجمی فاشتراها الملک الأشرف موسی بن العادل و بناها دار حدیث و نجز بناؤها سنة (۶۳۰)، درس بها جلة من العلماء مثل ابن الصلاح و ابن الحرستانی و أبی شامة و النواوی و الشریشی و الفارقی و ابن الوکیل و ابن الزملکانی و الحافظ المزی و السبکی و ابن کثیر و غیرهم، و کانت ید

خطط الشام، ج۶، ص: ۷۲

التعدی تسطو علی هذه المدرسة فی أواخر القرن الماضی کما سطت علی غیرها من المدارس فقام الشیخ یوسف البیبانی المغربی و استخلصها و أعادها مدرسة و سکنها من بعده نجله الشیخ بدر الدین الحسنی جعلها مقره تقرأ فیها دروسه و قد حرقت فی حریق سنة (۱۳۳۰ ه) الذی دمر أربعة شوارع من شوارع المدینة و دمر ما فیها من المدارس ثم رممت ترمیما خفیفا و عاد بعض الطلبة و الغرباء فسکنوها.

(۹) «الأشرفیة البرانیة» بسفح جبل قاسیون علی ضفة نهر یزید تجاه تربة الوزیر تقی الدین التکریتی و شرقی المرشدیة الحنفیة و غربی الأتابکیة الشافعیة، بناها الملک الأشرف المظفر موسی بن العادل بانی دار الحدیث المتقدمة قبل سنة (۶۴۳) و درس فیها جلة من العلماء أخذها المجمع العلمی العربی من الأوقاف لیجعل فیها خزانة کتب یختلف إلیها أهل تلک المحلة و لم یتم له ترمیمها لقلة المال.

(۱۰) «البهائیة» داخل باب توماء کانت دار بهاء الدین أبی محمد القاسم ابن بدر الدین أبی غالب المظفر المتوفی سنة (۷۲۳) و لیس لها الیوم أثر.

(۱۱) «الحمصیة» کانت معروفة بحلقة صاحب حمص فی الجامع الأموی فقدت و جهل مکانها، و فی مفکرات طارق أن الحمصیة فی سویقة صاروجا أمام جامع الشامیة بدئ باختلاسها منذ سنة (۹۰۰).

(۱۲) «الدواداریة» دار حدیث و مدرسة و رباط داخل باب الفرج و هو باب المناخلیة الیوم، لعلم الدین سنجر الدوادار المحدث الحافظ المتوفی سنة (۶۹۹) من نجباء الترک و علمائهم و هی غیر معروفة لعهدنا و لعلها الدار الکائنة أمام بحرة الدفاقة فظاهرها یدل علی ذلک.

(۱۳) «السامریّة» و بها خانقاه بالقرب من محلة مأذنة الشحم فی زقاق الشیخ الدسوقی، أنشأها أحمد بن محمد البغدادی السامرّی و هو مدفون بها. و السامرّی نسبة إلی سرّ من رأی بلد علی دجلة. قال الصلاحی الکتبی:

إن سیف الدین السامرّی کان یسکن داره الملیحة التی وقف علیها خانقاها و وقف علیها باقی أملاکه و کان السلطان صادرها (۶۹۶). و هی موجودة الیوم و لکن لم یبق منها غیر المدفن و یقال للحی زقاق السلمی.

خطط الشام، ج۶، ص: ۷۳

و من دور الحدیث الداثرة.

(۱۴) «السکریة» بالقصاعین و هو أول سوق الخلق (القمیلة) و کان أمس سوق القطن داخل باب الجابیة، و هی ما یظهر داخل الدخلة التی شرقی جامع شرکس، درست و کان درّس بها ابن تیمیة و والده و الحافظ الذهبی.

(۱۵) «الشقیشقیة» بدرب البانیاسی فی ظاهر المدینة أنشأها نصر اللّه الشیبانی الصفّار المعروف بابن الشقیشقة و هی من الدوارس، و من الدوارس أیضا.

(۱۶) «العرویة» بمشهد عروة من الصحن الشرقی من الجامع الأموی قبالة الحلبیة المعروفة قدیما بمشهد علی، أنشأها محمد بن عروة الموصلی و وقف علیها مکتبة عظیمة توفی سنة (۶۲۰) و محلها معروف و هی مستودع للجامع.

(۱۷) «الفاضلیة» بالکلاسة منسوبة للقاضی الفاضل البیسانی من رجال صلاح الدین و المدرسة جوار تربة هذا السلطان و هی الآن

مساكن.

(۱۸) «القلانسية» غربى مدرسة أبى عمر بالصالحية بها رباط و منارة يمر فى وسطها نهر يزيد، إنشاء أبى يعلى حمزة التميمى المعروف بابن القلانسى من كبراء دمشق المتوفى سنة (۷۲۹) و كان فى رباطه هذا مأذنة و دار حديث و بر و صدقة، و قد جعلت هذه المدرسة مسجدا صغيرا بمعاونة رجل اسمه إسماعيل التكريتى.

(۱۹) «القوصية» بالقرب من الرحبة قال بعضهم: إنها فى الجامع الأموى بجوار الشافعية و هى إحدى حلقات الجامع قديما.

(۲۰) «الكرّوسية» غربى مأذنة الشحم لمحمد بن عقيل بن كرّوس السلمى محتسب دمشق المتوفى سنة (۶۴۱) كان فيها ثلاثة قبور و جعلت دورا و هى شمالى السامرية.

(۲۱) «النورية» هى من دور الحديث الباقية و أول دار أنشئت لهذا الغرض أنشأها نور الدين محمود بن زنكى، و هى الآن مسجد جامع و بها قبره يزار و يتبرك به، تولى مشيختها فى عصره الحافظ أبو القاسم بن عساكر

خطط الشام، ج۶، ص: ۷۴

هذه هى النورية الكبرى.

(۲۲) أما «النورية الصغرى» فهى فى العصرونية بين دار الحديث الأشرفية و مدرسة العصرونية أمام العادلية الصغرى و قد حرقت فى الحريق الأخير. و فى النورية الكبرى فيما نظن يقول عرقلة الدمشقى:

و مدرسة سيدرس كل شىءو تبقى فى حمى علم و نسك

تضوّع ذكرها شرقا و غربابنور الدين محمود بن زنكى

يقول و قوله حق و صدقبغير كناية و بغير شك

دمشق فى المدائن بيت ملكىو هذى فى المدارس بيت ملكى

(۲۳) «النفيسية» قبلى البيمارستان الدقاقى (كذا) و باب الزيادة أى القوافين اليوم على يمنة الخارج منه شمالى غربى المدرسة الأمينية إنشاء النفيس إسماعيل بن محمد الحرّانى ناظر الأيتام المتوفى سنة (۶۹۶) حدثنا الثقة أنه رأى حجر بابها باقيا بحاله و قد طمس بالطين حتى لا يظهر أثرها و أصبحت دورا.

(۲۴) «الناصرية» كان بها رباط قبلى جامع الأفرم بسفح قاسيون و هى الناصرية البرانية إنشاء الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز سنة (۶۵۴) أمست حديقة الآن و كانت أنقاضها ظاهرة الى عهد قريب و أدخلت أحجارها فى ترصيف ضفة يزيد و فيها جسر معقود جميل ربما كان الموصل إلى دمشق و يتجاوز عرضه ثلاثين مترا.

(۲۵) «التنكزية» دار قرآن و حديث شرقى حمام نور الدين الشهيد وراء سوق البزورية أنشأها نائب السلطنة تنكز سنة (۷۲۸) و هى الآن مدرسة للصبيان سميت الهاشمية و كان هندسها المعمار أيدمر المعنى.

(۲۶) «الصابية» دار قرآن و حديث قبلى العادلية الكبرى و شمالى الطبرية أنشأها شمس الدين بن الصباب. قال فى مختصر الدارس إنها احترقت فى الفتنة أى فتنة تيمورلنك و لم يبق لها أثر سوى سبيل الماء.

(۲۷) «المعبدية» دار حديث و قرآن و المشهور إنها دار قرآن، إنشاء الأمير على بن معبد البعلبكى ليست معروفة.

خطط الشام، ج۶، ص: ۷۵

مدارس الشافعية بدمشق:

فى الدارس أنه كان فى دمشق سبع و خمسون مدرسة للشافعية و هى:

(۲۸) «الأتابكية» بالصالحية غربيها المرشدية و دار الحديث الأشرفية المقدسية، أنشأتها أخت نور الدين أرسلان بن أتابك صاحب

الموصل المتوفاة سنة (۶۴۰) و بها قبرها و قد جعلت لعهدنا مصلى درس بها زمرة من مشاهير علماء الشافعية.

(۲۹) «الإسعردية» بالجسر الأبيض بالصالحية دثرت و هى فى وسط البساتين، أنشأها إبراهيم بن مبارك شاه الإسعردى من أرباب الثراء و السخاء توفى سنة (۸۲۶) و دفن بتربة مدرسته. قال ابن قاضى شهبة: كان الإسعردى هذا و الشمس ابن المزلق أكبر تجار دمشق و له المتاجر السائرة فى البلدان قد أعطاه اللّه المال و البنين، و كان عنده كرم و إحسان إلى الفقراء، و كان صاحب هذه المدرسة الإسعردية يقول: عجائب الدنيا أربعة و أحسنها غوطة دمشق، و أحسن الغوطة الصالحية، و أحسن الصالحية الجسر الأبيض!

(۳۰) «الأسدية» بالشرف القبلى ظاهر دمشق مطلة على الميدان الأخضر و هى على الفريقين الشافعية و الحنفية، إنشاء أسد الدين شير كوه من قواد نور الدين و هى فى حديقة الشرف و أنقاضها ماثلة للعيان.

(۳۱) «الأصفهانية» كانت بمحلة الغرباء بالقرب من درب الشعارين لتاجر من أصفهان، و فى رواية أنها خلف المدرسة القاچمازية و غربا، محلتها و مكانها غير معروف على التحقيق، و يذهب بعضهم إلى أنها كانت موضع تكية أحمد باشا و قد أدخلت فيها.

(۳۲) «الإقبالية» داخل باب الفرج و باب الفراديس و بينهما شمالى الجامع الأموى و الظاهرية الجوانية و شرقى الجاروخية و غربى التقوية لشمال، أنشأها جمال الدولة إقبال خادم نور الدين و عتيق ست الشام، و قد استحالت دارا ثم استخلصت على يد الحاكم و ألحقت بأملاك المعارف و لم يبق منها إلا الحجر الذى كان على بابها و فيه أوقافها و هى شمالى حمام العقيقى.

(۳۳) «الاكزية» قبالة الشبلية الحنفية، إنشاء اكز حاجب نور الدين

خطط الشام، ج۶، ص: ۷۶

محمود و هى غربى الطيبة و التنكزية و شرقى أم الصالح، غيرت معالمها و بابها موجود، و قد استحالت دارا.

(۳۴) «الأمجدية» بالشرف الأعلى الشمالى مطلة على المرجة قرب مدرسة التجهيز، إنشاء الملك المظفر عمران بن عبد الملك الأمجد بهرام شاه صاحب بعلبك و هى دار فروخشاه و كان الملك الأمجد أشعر بنى أيوب، قال ابن الشحنة: دفن الأمجد بمدرسة والده التى على الشرف بدمشق، و كانت هذه المدرسة عامرة إلى القرن الثانى عشر درس بها إبراهيم بن حمزة، و لكثرة ما فى جوار هذه الدار من المدارس سمى اليوم الزقاق الموصل إليها و هو الذى يبتدئ من أمام جامع الطاووسية و مستودع الترامواى الكهربائى و ينتهى بمستودع البارود بزقاق المدارس.

(۳۵) «الأمينية» قبلى باب الزيادة المعروف اليوم بباب القوافين من أبواب الجامع الأموى، و هى شرقى المجاهدية جوار قيسارية القواسين بظهر سوق السلاح و كان به بابها و تعرف هذه المحلة قديما بباب القباب، و هناك دار مسلمة بن عبد الملك، قيل: إنها أول مدرسة بنيت بدمشق للشافعية بناها أتابك العساكر الملقب بأمين الدولة ربيع الإسلام أمين الدين كمشتكين ابن عبد اللّه الطغتكينى المتوفى سنة (۵۴۱) و قد بنيت المدرسة سنة (۵۱۴) و فى تاريخ دمشق أن الحسن بن محمد النهربيتى المقرى الفقيه سمع الحديث بدمشق فى المدرسة الأمينية و أول من درس بها على بن المسلم الدمشقى سنة (۵۱۴) و هى الآن فى سوق الحرير جعلت كتاب صبيان و اختلس الجيران بعضها.

(۳۶) «الباذرائية» جاء فى الدارس أنها داخل باب الفراديس و السلامة شمالى جيرون و شرقى الناصرية الجوانية، و فى المختصر أنها على باب الجامع الأموى الشرقى المؤدى إلى العمارة، و كانت قبل ذلك دارا تعرف بأسامة و هو أسامة الجبلى أحد كبار الأمراء المتوفى سنة (۶۰۹) أنشأها أبو محمد الباذرائى البغدادى المتوفى سنة (۶۵۵) قال الذهبى: الباذرائى قاضى القضاة سفير الخلافة نجم الدين عبد اللّه بن الحسن الباذرائى الشافعى صاحب المدرسة التى بخط جيرون. و لا تزال أسوارها باقية و هى سائرة نحو الخراب و قد اقتطع جانب منها و جعل دورا.

خطط الشام، ج۶، ص: ۷۷

(۳۷) «البهنسية» بسفح قاسيون أنشأها مجد الدين المعروف بأبى الأشبال وزير الملك الأشرف مظفر الدين موسى المتوفى سنة (۶۲۸)

و هی علی طریق المهاجرین بطرف السکة بجوار حاکورة العدس.

(۳۸) «التقویة» داخل باب الفرادیس (العمارة) شمالی الجامع شرقی الظاهریة و الإقبالیة کانت من أجلّ مدارس دمشق، بناها سنة (۵۷۴) الملک المظفر تقی الدین عمر بن شاهنشاه بن أیوب و درس بها جلة العلماء و فی عرف البشام أن المدرسة القصاعیة و المدرسة التقویة کانتا عامرتین فی القرن العاشر تقام بها الأذکار الآن باسم خانقاه و لها مخصصات شهریة من الحکومة.

(۳۹) «الجاروخیة» داخل بابی الفرج و الفرادیس و فی حی السبعة طوالع بالقرب من الإقبالیة الحنفیة شمالی الجامع الأموی و الظاهریة الجوانیة المعروفة. بناها جاروخ الترکمانی برسم محمود بن المبارک المعروف بالمجیر الواسطی البغدادی سنة (۵۹۰) درس بها کثیر من العلماء و منهم زمرة من الفقهاء بنی جهبل. و هی دار بنی الکیلانی الیوم.

(۴۰) «الحمصیة» تجاه الشامیة البرانیة قال ابن کثیر: فی سنة (۷۲۶) فتحت المدرسة الحمصیة و درس بها محیی الدین الطرابلسی الملقب بأبی رباح.

فی مختصر الدارس أنها خربت بعد قلیل من تشییدها، و الغالب أنها درست و جعلت دورا و لم یبق منها إلا قطعة خربة.

(۴۱) «الحلبیة» بمحلة السبعة طوالع و هی خلف دار الکتب الظاهریة أو المدرسة الظاهریة مجهول حالها و منشئها من القدیم. قال فی الدارس: إن شهاب الدین ابن عبد الخالق المتوفی سنة (۸۱۵) وقف إلی جانب المدرسة الحلبیة مسجدا و أضافه إلی المدرسة و وقف علیها، و ممن وقف علیها الأمیر سیف الدین من ممالیک برقوق.

(۴۲) «الخبیصیة» قبلی الزنجاری، و خان الزنجاری هو جامع التوبة الآن، تولی مشیختها ابن قاضی أذرعات و قد استحالت دورا.

(۴۳) «الخلیلیة» بانیها سیف الدین بکتمر الخلیلی المتوفی (۷۴۶) و لا یعرف عنها شیء.

(۴۴) «الدماغیة» کانت داخل باب الفرج و غربی الباب الثانی الذی

خطط الشام، ج۶، ص: ۷۸

قبلی باب الطاحون و هی قبلی و شرقی الطریق الآخذ إلی باب القلعة الشرقی و هذا الطریق بینها و بین الخندق و هی أیضا شمالی العمادیة بین الشافعیة و الحنفیة، أنشأتها عائشة جدة فارس الدین بن الدماغ زوجة شجاع الدین بن الدماغ (۶۳۸) درس بها جلة من العظماء و هی الآن قاعة النشا التی فی المناخلیة. و فی الصالحیة مدرسة أخری اسمها الدماغیة أنشأها أو درس بها افتخار الکاشغری.

(۴۵) «الدولعیة» بجیرون قبلی المدرسة الباذرائیة لجمال الدین محمد الثعلبی الدولعی خطیب دمشق، و قد کانت الدولعیة و الشبلیة عامرتین فی القرن الحادی عشر، درس بهما إسماعیل الحائک، و الدولعیة فی الدخلة المشهورة بدخلة الداغستانی فی نصف الطریق الآخذ من دار بنی منجک إلی زقاق الباذرائیة، اختلست و جعلت دورا و فی إحدی الدور قبر مدفون فیه واقف المدرسة محمد بن أبی الفضل بن زید الخطیب التغلبی الأرقمی الدولعی ثم الدمشقی (۶۳۵) قاله الصفدی و دفن فی الصفة الغربیة من المدرسة و هاک نسخة التوقیع الذی کتب للفخر المصری المتوفی (۷۵۱) بتدریس الدولعیة و نظرها:

رسم بالأمر العالی لا زال یرتفع به العلم الشریف إلی فخره، و یعیده إلی خیر حبر تقتبس الفوائد من نوره و تغترف من بحره، و یحمد الزمان بولایة من هو علم عصره و فخر مصره، أن یعاد المجلس العالی الفخری إلی کذا و کذا وضعا للشیء فی محله، و رفعا للوابل علی طله، و دفعا لسیف النظر إلی ید هی مألف هزّه وسله، و منعا لشعب مکة أن ینزله غیر أهله، إذ هو لأصحاب الشافعی رضی اللّه تعالی عنه حجة، و لبحر مذهبه الزاخر لجة، إلی أن قال: فلیباشر ما فوض إلیه جریا علی ما عهد من إفادته، و ألف من ریاسته لهذه العصابة و زیادته، و عرف من زیادة یومه علی أمسه، فکان کنیل بلاده و لا یتعجب فی زیادته، حتی یحیا بدرسه ما درس، و یثمر عود الفروع فهو الذی أنبته بهذه المدرسة و غرس، مجتهدا فی نظر وقفها، معتمدا علی تتبع ورقات حسابها و صحفها، عاملا بشروط الواقف فیما شرط، قابضا ما قبضه و باسطا ما بسط الخ.

(۴۶) «الرکنیة الجوانیة» شمالی الإقبالیتین شرقی العزیة الجوانیة و الفلکیة غربی المقدمیة، واقفها رکن الدین منکورس عتیق فلک

الدين سليمان، درس

خطط الشام، ج۶، ص: ۷۹

بها جلة من العظماء منهم ابن خلكان و أبو شامة و بنو حمزة و هى اليوم فى زقاق بنى مفلح أمام المقدمية و بينهما الطريق و يعرف بدخلة بنى عبد الهادى فى العمارة و هى منضمة إلى دار بنى العمرى و لم يبق لها أثر.

(۴۷) «الرواحية» شرقى مسجد ابن عروة بالجامع الأموى و لصيقه شمالى جيرون و غربى الدولعية و قبلى السيفية الحنبلية. بانيها زكى الدين بن رواحة الحموى التاجر الغنى المعدّل المتوفى سنة (۶۲۲) درس بها ابن الصلاح و السهروردى و ابن البازرى و ابن الزملكانى و أبناء السبكى و غيرهم، و قد أنشئت هذه المدرسة نحو سنة (۶۰۰). قال المؤرخون: إن زكى الدين بن رواحة بنى بحلب مدرسة للشافعية و بدمشق مثلها داخل باب الفراديس و وقف عليهما أوقافا حسنة و قنع بعد ذلك باليسير، و كان يسكن فى بيت المدرسة الدمشقية و هو الذى فى إيوانها من الشرق و يقابله من الغرب خزانة الكتب التى وقفها و هى كتب جليلة كان من أرباب الثروة. و أصبحت المدرسة الرواحية الآن دارا.

(۴۸) «الزاوية الخضراء» بمقصورة الخضراء غربى الجامع الأموى و هى مكان داخل الجامع أشبه بالحلقات.

(۴۹) «الشامية البرانية» بمحلة العقيبة، إنشاء ست الشام بنت نجم الدين أيوب بن شادى المتوفاة سنة (۶۱۶) و تعرف هذه المدرسة بالحسامية لأن ابنها حسام الدين دفن فيها كما أنها هى أيضا دفنت فيها. و هى اليوم مدرسة ابتدائية للأيتام تقوم بها جمعية الإسعاف الخيرى، و كان درّس بها من المشاهير ابن الصلاح و ابن أبى عصرون، و ابن الزكى و الفارقى و الشريشى و ابن الوكيل و ابن قاضى شهبة و غيرهم.

(۵۰) «الشامية الجوانية» قبلى البيمارستان النورى، إنشاء ست الشام أيضا درّس بها من عظماء الشافعية ابن الصلاح قال ابن خلكان فى ترجمته:

إن الملك الأشرف بن الملك العادل بن أيوب لما بنى دار الحديث بدمشق فوض تدريسها إليه، ثم تولى تدريس مدرسة ست الشام زمرد خاتون بنت أيوب و هى شقيقة شمس الدولة توران شاه بن أيوب التى هى داخل البلد قبلى البيمارستان النورى، و هى بنت المدرسة الأخرى ظاهر دمشق و بها قبرها و قبر أخيها المذكور و زوجها ناصر الدين بن أسد الدين شير كوه صاحب حمص،

خطط الشام، ج۶، ص: ۸۰

فكان يقوم بوظائف الجهات الثلاث. قلنا: و كثير من هؤلاء الفقهاء و المحدثين كانوا يدرسون فى المدرستين و الثلاث و ربما أكثر. و من مدرسيها سالم بن أبى الدر أمين الدين (۷۲۶) و زين الدين الفارقى شيخ دار الحديث الأشرفية.

و قد خربت هذه المدرسة و لم يبق فيها سوى بابها و واجهتها الحجرية و اتخذت دارا. و من أوقافها قرية جرمانا.

(۵۱) «الشاهينية» بالقرب من جامع التوبة بحارة العقيبة إنشاء الدوادار شاهين الشجاعى أحرقت (۸۱۶) فأعاد عمارتها هو أيضا.

(۵۲) «الشومانية» إنشاء خاتون بنت ظهير الدين شومان و هى المسماة بالطيبة، و الطيبة كما فى الدارس قبلى النورية الكبرى ليست معروفة.

(۵۳) «الشريفية» كانت عند حىّ الغرباء بدرب الشعارين عند باب السلام، و فى تاريخ مبرات الشام أنها قبلى الجامع الأموى بالصاغة لم يعرف واقفها، درست و أصبحت حوانيت.

(۵۴) «الصالحية» غربى الطيبة و الجوهرية الحنفية و قبلى الشامية الجوانية بشرق و تعرف بتربة أم الصالح إسماعيل صارت مساكن و لم يعرف لها أثر، و كان من جملة مدرسيها الذهبى و ابن كثير.

(۵۵) «الصارمية» داخل بابى النصر و الجابية قبلى العذراوية بشرق، إنشاء صارم الدين أزبك مملوك قايماز النجمى (۶۲۲) أصبحت دورا و كان درس بها طبقة عالية من المدرسين.

(۵۶) «الصلاحیة» بالقرب من البیمارستان النوری، و هی من إنشاء نور الدین محمود بن زنکی و إلیه نسبها ابن قاضی شهبة و منسوبة للسلطان صلاح الدین. لم یبق لها أثر.

(۵۷) «التقطائیة» داخل باب الصغیر فی الشاغور بنحو مائة ذراع إلی شرق شمال غربی بیت الخواجا الناصری قبلی منارة الشحم، عمر بعضها و مجهول بانیها و لیس لها أثر.

(۵۸) «الطبریة» بجوار باب البرید، أنشأها نور الدین الشهید درّس

خطط الشام، ج۶، ص: ۸۱

بها الشرف ابن هبة اللّه. لا یعرف عنها شیء و لیس لها من أثر.

(۵۹) «الطیبة» قبلی النوریة الحنفیة و شرقی تربة زوجة تنکز بقرب الخواصین، و هی المسماة بالشومانیة و إنما غیر اسمها تیمنا، درّس بها جلة من الفقهاء، و هی الآن دار لبنی العظمة و بنی کیوان.

(۶۰) «الظبیانیة» قبلی المدرسة الشامیة الجوانیة التی هی قبلی البیمارستان النوری و غربی المدرسة الصالحیة الواقعة غربی مدرسة الطیبة خربت.

(۶۱) «الظاهریة البرانیة» خارج باب النصر شرقی الخاتونیة الحنفیة و غربی الخانقاه الحسامیة بین نهری بانیاس و قنوات بالشرف القبلی، بناها الملک الظاهر بن الملک الناصر صلاح الدین، درّس بها کثیر من المشاهیر منهم امام الدین و جلال الدین القزوینی و ابن صصری و ابن جملة. و لم یبق لها أثر.

(۶۲) «الظاهریة الجوانیة» و هی للحنفیة و الشافعیة داخل باب الفرج و الفرادیس جوار الجامع شمالی باب البرید و قبلی الإقبالیتین و الجاروخیة و شرقی العادلیة الکبری، أنشأها مدرسة و دار حدیث الملک الظاهر بیبرس و هی التی دفن بها هو و ابنه الملک السعید سنة (۶۷۶) کتب علی واجهة بنائها جریدة وقفها بحروف غلیظة و زبر اسم مهندسها فی الزاویة الشمالیة من المدخل «عمل إبراهیم بن غنائم المهندس»، و ممن درّس بها نائب السلطة أیدمر الظاهری و الأذرعی و الإخنائی و السویدی و الأسدی و الرعینی و الواسطی. و هی الیوم بید المجمع العلمی العربی جعلت مخطوطاتها فی القبة الظاهریة المعمولة حیطانها بالفسیفساء البدیعة و قد أنشئت خزانة کتب منذ أواخر القرن الماضی.

(۶۳) «العادلیة الکبری» شمالی الجامع بغرب و شرقی خانقاه الشهابیة و قبلی الجاروخیة تجاه باب الظاهریة یفصل بینهما الطریق المؤدی إلی باب البرید، بدأ بإنشائها نور الدین محمود بن زنکی و لم تتم، ثم عمل فیها الملک العادل سیف الدین و لم تتم، ثم ولده الملک المعظم، و وقف علیها الأوقاف و نسبها لوالده الذی دفن فیها. أنشأها نور الدین للإمام قطب الدین النیسابوری فعاجل الأجل البانی و المبنی له قبل إتمامها. قال صاحب الروضتین: و قد رأیت أنا ما کان بناه نور الدین و من بعده منها و هو موضع المسجد و المحراب

خطط الشام، ج۶، ص: ۸۲

الآن، ثم لما بناها الملک العادل أزال تلک العمارة و بناها هذا البناء المتقن المحکم الذی لا نظیر له فی بنیان المدارس، و هی المأوی و بها المثوی، و فیها قدر اللّه تعالی جمع هذا الکتاب (الروضتین) فلا أقفر ذلک المنزل و لا أقوی اه.

و قال أیضا: و فی سنة (۶۱۲) شرع فی عمارة المدرسة العادلیة المقابلة لدار العقیقی من الغرب و حضر السلطان لترتیب وضعها بین الصلاتین یوم السبت، ثم أحرقت بالنار فی رمضان المبارک سنة أربع عشرة.

و قال ابن أبی شامة أیضا فی ذیل الروضتین فی حوادث سنة (۶۱۹): و فیها نقل تابوت العادل بن أیوب من قلعة دمشق إلی تربته المقابلة لدار العقیقی، أخرجوا جنازته من القلعة و التابوت مغشی بمرقعة، و أرباب الدولة حوله، إلی أن قال: و لم تکن المدرسة کملت عمارتها و ألقی فیها الدرس فی هذه السنة القاضی جمال الدین الحصیری و حضر درسه أعیان الشیوخ و القضاة و الفقهاء و

حضر السلطان الملك المعظم عيسى بن العادل و تكلم فى الدرس مع الجماعة.

و كان الاجتماع بإيوان المدرسة و جلس عن يمين السلطان إلى جانبه شيخ الحنفية جمال الدين الحصيرى ويليه شيخ الشافعية شيخنا فخر الدين بن عساكر ثم القاضى شمس الدين الشيرازى ثم القاضى محيى الدين يحيى بن الزكى، و جلس عن يسار السلطان إلى جانبه مدرس المدرسة قاضى القضاة جمال الدين الحصيرى و إلى جانبه شيخنا سيف الدين الآمدى ثم القاضى شمس الدين بن سنى الدولة ثم القاضى نجم الدين خليل قاضى العسكر، و دارت حلقة صغيرة و الناس وراءهم مصلون ملء الإيوان. و كان فى دور تلك الحلقة أعيان المدرسين و الفقهاء. و قبالة السلطان فيها شيخنا تقى الدين بن الصلاح و غيره، و كان مجلسا جليلا لم يقع مثله إلا فى سنة ثلاث و عشرين و ستمائة اه. قال ابن كثير:

و فى سنة أربع و سبعمائة جلس قاضى القضاة نجم الدين بن الحصيرى بالمدرسة العادلية الكبرى و عملت التخوت بعد ما جددت عمارة المدرسة و لم يكن أحد يحكم بها بعد وقعة غازان بسبب خرابها. و هذه المدرسة من أعظم مدارس الشافعية بدمشق و كان يحكم بها قاضى القضاة و يجلس نواب القاضى بالمدرسة الظاهرية المناوحة لها.

درس بها و سكنها جلة من العلماء. منهم ابن خلكان و الجلال القزوينى

خطط الشام، ج۶، ص: ۸۳

و العلاء القونوى و أبناء السبكى و كمال الدين التفليسى و ابن مالك النحوى و ابن جماعة، و ممن درس بها و سكنها الشهاب أحمد المنينى صاحب التآليف المشهور من أهل المئة الثانية عشرة و سكنها و درس بها أولاده من بعده. و قد أخذها المجمع العلمى العربى لما أسس فى سنة (۱۹۱۹ م) و جعلها مقره و رمّها بما يقربها من الهندسة الأصلية. و قد حرقت هذه المدرسة مرتين الأولى فى فتنة غازان التترى سنة (۶۹۹) مع ما حرق من مدارس المدينة، و الثانية فى سنة (۷۷۸) و لعلها أحرقت فى فتنة تيمور أيضا (۸۰۳) هذا عدا ما تناوبها من الزلازل. و مع هذا لم يزل حائطها القبلى و حائطها الشرقى قائمين، أما الجداران الآخران الغربى و الشمالى فقد خربا و ما بنى بجانبهما جديد. و من الأسف أنا لم نعثر فيها على كتابة و لو ضئيلة تدل على شىء من تاريخها و وقفها و إنشائها حتى و لا على قبر الملك العادل الذى نبش على ما يظهر فى القرن الأخير لأخذ الذخائر التى كانت تدفن مع الملوك و العظماء. و كانت فيها خزانة كتب مهمة.

و العادلية اليوم العضو الأثرى المهم من تلك المدارس التى كانت فى القرون الوسطى مفخر الشام و الإسلام. قلت فى التقرير الرابع للمجمع العلمى عن سنة (۱۹۲۵- ۱۹۲۶- ۱۹۲۷): و فى العادلية وضع المقدسى تاريخ الروضتين فى أخبار الدولتين، و فى العادلية عمل ابن خلكان تاريخه المشهور، و على باب العادلية كان يقف ابن مالك النحوى و يدعو الناس لحضور درسه، ينادى هل من متعلم هل من مستفيد، و التاريخ يعيد نفسه، و فى العادلية نزل ابن خلدون فيلسوف العرب أوائل المئة التاسعة. و كأن المولى تعلقت إرادته فقضى أن لا يخلى العادلية و الظاهرية من علم ينشر، و أدب يذكر، فاختارهما مباءة للمجمع العلمى يقيم فيهما سوق العلم و الأدب بعد الكساد على النحو الذى كانتا عليه منذ وضع أساسهما نور الدين بن زنكى و الظاهر بيبرس.

(۶۴) «العادلية الصغرى» داخل باب الفرج شرقى باب القلعة الشرقى قبلى الدماغية و العمادية، أنشأتها زهرة خاتون بنت الملك العادل أبى بكر بن أيوب و قد حرقت مؤخرا و بقيت جدرانها قائمة.

(۶۵) «العذراوية» بحارة الغرباء داخل باب النصر الذى كان يسمى بباب دار السعادة كما فى الدارس، و فى مختصره أنها فى جوار دار العدل التى

خطط الشام، ج۶، ص: ۸۴

سميت فى القرن الماضى دار المشيرية حيث يقيم مشير العساكر فى الدولة العثمانية، و جعل فى عهد الانتداب مركزا لدواوينه و دمر بالحريق، إنشاء عذراء بنت السلطان صلاح الدين يوسف فى رواية. و هى للفريقين الشافعية و الحنفية، درّس بها الفخر ابن عساكر و

ابن أبی عصرون و ابن الزکی و الشمس بن خلکان و ابن قاضی شهبة و غیرهم. و هی باقیة اتخذت دارا یجتمع فیها النساء لسماع الوعظ. و کان فخر الدین بن عساکر أول من درس بالمدرسة العذراویة، و درس بالنوریة و الجاروخیة و هذه الثلاث مدارس بدمشق، و المدرسة الصلاحیة بالقدس یقیم بالقدس أشهرا و بدمشق أشهرا.

(۶۶) «العزیزیة» شرقی التربة الصالحیة و غربی التربة الأشرفیة و شمالی دار الحدیث الفاضلیة، أول من أسسها الملک الأفضل و أتمها الملک العزیز، و ممن درس بها سیف الدین الآمدی و غیره من المشهورین، هدمها ضیا باشا والی سوریة و جعلها حدیقة ضمت إلی مدفن صلاح الدین أواخر القرن الماضی. و فی بعض التواریخ أن القاضی ابن الزکی أمر بأن تبنی دار الأمیر أسامة مدرسة للتربة. و هی المدرسة المعروفة بالعزیزیة و وقفها قریة عظیمة تعرف بمحجة. و ذکر ابن خلّکان أن السلطان صلاح الدین بقی مدفونا بقلعة دمشق إلی أن بنیت له قبة فی شمالی الکلاسة التی فی شمالی جامع دمشق و لها بابان: أحدهما إلی الکلاسة و الآخر فی زقاق غیر نافذ و هو مجاور المدرسة العزیزیة، ثم نقل صلاح الدین من مدفنه بالقلعة إلی هذه القبة، ثم إن ولده الملک العزیز عماد الدین عثمان لما أخذ دمشق من أخیه الملک الأفضل بنی إلی جانب هذه القبة المدرسة العزیزیة و وقف علیها وقفا جیدا. و للقبة المذکورة شباک إلی هذه المدرسة و هی من أعیان مدارس دمشق اه.

(۶۷) «العصرونیة» داخل بابی الفرج و النصر شرقیّ القلعة و غربی الجامع، لقاضی القضاة شرف الدین أبی سعید عبد اللّه بن محمد بن أبی عصرون ابن أبی الیسر التمیمی الجونی ثم الموصلی الدمشقی المتوفی (۵۸۵)، درس بها جماعة منهم المشایخ بنو عصرون و غیرهم. حرقت فی الحریق الکبیر سنة (۱۳۲۸ ه) و لم تعد إلی ما کانت و بقی اسم السوق منسوبا إلیها و رمّ قبر من أسسها بعض الشیء.

خطط الشام، ج۶، ص: ۸۵

(۶۸) «العمادیة» داخل باب الفرج و الفرادیس قرب الدماغیة من قبلة، بناء عماد الدین و الواقف علیها السلطان صلاح الدین درس بها عماد الدین الکاتب و غیره، و هی الآن کتاب للصبیان فی زقاق الخندق.

(۶۹) «الغزالیة» فی الزاویة الشمالیة الغربیة شمالی مشهد عثمان بالجامع الأموی و تعرف بالشیخ نصر المقدسی و هو أول من درس بها. و ممن درس بها من المشهورین الدولعی و ابن عبد السلام و القطب النیسابوری و الشرف بن أبی عصرون و أبو حامد الغزالی و هی الآن مشهد من مشاهد الجامع.

(۷۰) «الفارسیة» غربی الجوزیة الحنبلیة تجاه الخارج من باب الزیادة بالبزوریة وقفها فارس الدوادار التمیمی (۸۰۸). و فی المدرسة الآن قبران.

و هاک أبیاتا من نظم بانیها أمر أن تکتب علی تربته بعد وفاته و أظنها لغیره من المتقدمین و قد رأیتها مکتوبة علی مدفن بنی الشحنة مؤرخی حلب فی باب المقام بحلب و الأبیات هی:

هذه دارنا التی نحن فیهادار حق و ما سواها یزول

فاعتمر للممات دارا إلیهاعن قریب یفضی بک التحویل

و اعتمل صالحا یؤانسک فیهامثلما یؤنس الخلیل الخلیل

(۷۱) «الفتحیة» إنشاء الملک فتح الدین صاحب بارین و بها قبره کانت مدرستین إحداهما للشافعیة و ثانیتهما للحنفیة نسیتا و نسی مکانهما.

(۷۲) «الفخریة» بین السورین إنشاء فخر الدین، تم بناؤها سنة (۸۲۱) و هی علی أهل المذاهب الأربعة فیما یظهر، و بها درس جماعة منهم عز الدین الإربلی و الشیخ المراغی.

(۷۳) «الفلکیة» غربی الرکنیة الجوانیة بالعمارة، إنشاء أخی الملک العادل فلک الدین سلیمان، دفن فیها سنة (۵۹۹). و فی بعض

المظان أن المدرسة الفلكية بنواحى باب الفراديس تنسب إلى أبى منصور سليمان بن شروه ابن جلدك.

(۷۴) «القليجية» داخل باب شرقى و باب توماء شرقى المسمارية إنشاء مجاهد الدين بن قليج محمد. قال البورينى: إن أحمد بن سليمان الدمشقى الصوفى عزل التراب الذى فى المدرسة القليجية الذى كان من بقايا الخراب

خطط الشام، ج۶، ص: ۸۶

فى فتنة اللنك (أى تيمور لنك) و قطن بها و أسكن فى حجراتها عدة من الفقراء، و المدرسة المذكورة كانت تعرف فى القرن الحادى عشر بمزار سيدى سيف الدين، و سيف الدين هذا هو الأمير سيف الدين الاسفسهلار من الأمراء النورية، و يطل على تربته شباكان على رأس كل واحد منهما حجر فيه أسطر منقوشة، فأما الأول فعليه من الكتابة هكذا: قال الأمير الكبير المجاهد المرابط الاسفسهلار سيف الدين على بن قليج رحمه اللّه هذه الأبيات و أمر أن تكتب على قبره. و على الحجر الثانى الأبيات و ذكر الأبيات الثلاثة. الواردة فى الكلام على المدرسة الفارسية، و بذلك رأينا أن هذه الأبيات ادعاها كثيرون و أحبها غير واحد من العظماء.

(۷۵) «القواسية» بالعقيبة الصغرى قرب مسجد الزيتونة إنشاء الأمير عز الدين بن القواس درس بها جماعة.

(۷۶) «القوصية» هى حلقة بالجامع الأموى قرب مشهد يحيى، كانت محلا للتدريس، أنشأها رجل يقال له جمال الإسلام فى رواية وقف عليها أوقافا جمة درس بها بعض المشاهير.

(۷۷) «القيمرية الجوانية» بحارة القيمرية، أنشأها الأمير ناصر الدين القيمر أحد أمراء الجند، درس بها جلة من فقهاء الشافعية و لا تزال معروفة.

(۷۸) «القيمرية البرانية» و يقال لها القيمرية الصغرى فى القباقبية العتيقة غربى المقدمية و شمالى الحنبلية، خربت و أنقاضها إلى اليوم ظاهرة. و يقول طارق: إن بانيها الأمير على بن يوسف بن يوسك القيمرى سنة (۶۵۳).

(۷۹) «النجيبية» قال ابن كثير فى سنة (۶۹۰): درس الخطيب عز الدين الفارقى بالمدرسة النجيبية عوضا عن كمال الدين بن خلكان و لم يذكر فى الدارس لها وقفا و لا وقت بنائها و لا محلها.

(۸۰) «الكروّسية» بجانب السامريّة الشافعية وقفها سنة (۶۴۱) محمد ابن كروّس محتسب دمشق، و ممن درس بها كمال الدين بن الزملكانى و الشريشى.

(۸۱) «الكلاسية» متصلة بالجامع الأموى من شماله و لها باب إليه، أنشأها سنة (۵۵۵) نور الدين الشهيد سميت بذلك لأنها كانت موضع عمل الكلس

خطط الشام، ج۶، ص: ۸۷

أيام بناء الجامع، ثم أمر بتجديدها السلطان صلاح الدين درس بها جلة من الفقهاء و هى أطلال.

(۸۲) «المجاهدية الجوانية» بجوار تربة نور الدين و فى الدارس قرب باب الخواصين، واقفها مجاهد الدين أبو الفوارس الكردى أحد أمراء الدولة النورية. و فى الروضتين أنه الأمير مجاهد الدين بزان بن مامين أحد مقدمى الأكراد المتوفى سنة (۵۵۵) له أوقاف على أبواب البر بدمشق منها المدرستان المنسوبتان إليه، إحداهما التى دفن فيها و هى لصيق باب الفراديس المجدد، و الأخرى قبالة باب دار سيف الغربى فى صف مدرسة نور الدين، و له وقف على من يقرأ السبع كل يوم بمقصورة الخضر بجامع دمشق و غير ذلك. و قد درس بها قطب الدين النيسابورى و كثير غيره من الأعلام.

(۸۳) «المجاهدية البرانية» أيضا بباب الفراديس كما فى الدارس و اليوم فى زقاق حمام أسامة غربى الباذرائية لواقفها المشار إليه، و فى مختصر الدارس أنها بجوار سوق البطيخ و بها قبر واقفها، درس بها غير واحد من المشهورين و هى جامع السادات.

(۸۴) «المسرورية» بباب البريد، إنشاء مسرور الخصى الطواشى صاحب خان مسرور بالقاهرة، و قيل: مسرور الملك الناصر العادلى وقفها عليه شبل الدولة الحسامى واقف الشبلية. درس بها جماعة من نبهاء الفقهاء.

(۸۵) «المنكلائية» لا يعلم عنها إلا كونها قرب المدرسة القيمرية الجوانية كما فى مختصر الدارس و إلى اليوم لا يزال فى تلك البقعة مقام للشيخ عبد اللّه المنكلائى.

(۸۶) «الناصرية الجوانية» داخل باب الفراديس شمال الجامع و الرواحية بشرق، و غربى الباذرائية بشمال و شرقى القيمرية الصعرى و المقدمية الجوانية من آثار الملك الناصر صلاح الدين و هى اليوم دار. درس فيها بعض المشهورين من العلماء.

(۸۷) «المقدمية الجوانية» إنشاء الملك الناصر صلاح الدين يوسف، و لعلها هى التى كانت عامرة فى القرن العاشر كما يؤخذ من ترجمة الشمس البهنسى من أن المقدمية و القصاعية و السيبائية كانت عامرة فى عصره، و قد

خطط الشام، ج۶، ص: ۸۸

خربت المقدمية أوائل هذا القرن و استحالت دورا.

(۸۸) «المجنونية» شرقى الشامية البرانية بالعقيبة، إنشاء شرف الدين ابن شرف الرازى المعروف بالسبعة مجانين، و هى معروفة بالسبعة المجاهدين أيضا و ذلك بعد الثلاثين و الستمائة.

(۸۹) «النجيبية» ملاصقة للمدرسة النورية و ضريح نور الدين من جهة الشمال، أنشأها النجيبى جمال الدين اقوش الصالحى أستاذ الملك الصالح.

مدارس الحنفية بدمشق:

كان بدمشق أوائل القرن العاشر إحدى و خمسون مدرسة للحنفية كما فى الدارس و هى:

(۹۰) «الأسدية» تقدم محلها و هى فى المرجة الخضراء فى الشرف القبلى. خطط الشام ؛ ج۶ ؛ ص۸۸

۹۱) «الإقبالية» تقدم محلها و هى على الأحناف و الشوافعة، و قد زالت و لا يعرف غير أطلالها و حجر بابها.

(۹۲) «الآمدية» بالصالحية جوار الميطورية من الغرب، جاء فى الدارس أنه مجهول حالها من القديم و هى على ما فهم فى بستان الميطور قرب حى الأكراد.

(۹۳) «البدرية» قبالة الشبلية بالجبل عند جسر كحيل و يعرف بجسر الشبلية، و هى فى بستان السنبوسكى بطريق عين الكرش، لم يبق منها إلا قبة تهدّم أعلاها بجانب نهر ثورا، إنشاء الأمير بدر الدين المعروف بلالا ابن الداية من أمراء نور الدين سنة (۶۳۸).

(۹۴) «البلخية» داخل الصادرية و بابها من حمام باب البريد، أنشأها الأمير ككز الدقاق للشيخ إبراهيم البلخى بعد سنة (۵۲۵) درست و اتخذت مع الصادرية دورا فى عهدنا.

(۹۵) «التاجية» بزاوية الجامع الأموى الشرقية غربى دار الحديث العروبية، و كانت زاوية للدراويش عرفت قديما بابن سنان و بالسلارية جددت فى سنة (۶۲۴) و هى غير موجودة.

(۹۶) «الناشية» إنشاء الملك الناشى الدقاقى سنة نيف و خمسين و خمسمائة و هى مجهولة اليوم.

خطط الشام، ج۶، ص: ۸۹

(۹۷) «الجلالية» لقاضى القضاة جلال الدين أبى المفاخر أحمد بن قاضى القضاة حسام الدين الرازى، كانت ملاصقة للبيمارستان النورى و هى الآن خراب.

(۹۸) «الجمالية» كانت بسفح قاسيون للأمير جمال الدين يوسف و كان يسكنها فى القرن العاشر أيام الصيف عبد الصمد العكارى درست مع الدوارس و أخذت أنقاضها للدور.

(۹۹) «الجقمقية» هى شمالى الجامع الأموى، أسسها سنجر الهلالى و ولده شمس الدين فانتزعها الملك الناصر حسن سنة (۷۶۱) و أمر بعمارتها فبنيت بالحجر الأبلق و جاءت فى غاية الحسن و احترقت فى فتنة تيمور فجدد بنيانها سيف الدين جاقماق و خص الخانقاه

بالصوفیة و أضاف إلیها مدرسة للأیتام و تربة، و درس بها جماعة و جعلت فی القرن الماضی مدرسة للذکور و هی الیوم فی حالة خراب أو ما یقرب منه، تزعزعت بعض أرکانها بمدافع الفرنسیین سنة (۱۹۴۱).

(۱۰۰) «الجرکسیة» و یقال لها الجهارکسیة و هی مشترکة بین الحنفیة و الشافعیة و قیل: هی للحنفیة فقط، واقفها جرکس فخر الدین الصلاحی و کان نائبا عن الملک العادل ببانیاس و بلاد الشقیف و تبنین و هونین، و هو من أرباب الهمم العالیة مشهور بصداقته و صدقاته، و هذه المدرسة فوق نهر یزید بالصالحیة بالقرب من الجامع الجدید معروفة یأوی إلیها المهاجرون و الدراویش و تنسب إلیها المحلة کلها، اندرست و لم یبق منها سوی قبتین عظیمتین أعلاهما متهدم و جدرانها حجر نحیت.

(۱۰۱) «الجوهریة» شرقی تربة أم الصالح داخل دمشق بحارة بلاطة المعروف الیوم بزقاق المحکمة. إنشاء الصدر نجم الدین بن عباس التمیمی الجوهری سنة (۶۷۶) کان بعضهم أواخر القرن الماضی قسمها ثلاث دور و جعل علیها مرصدا، و قام ولداه بعده فأخذا ما أنفق والدهما علیها و أعاداها إلی الوقف فجعلت مدرسة للصبیان و حصل الانتفاع بها.

(۱۰۲) «الحاجبیة» و الخانقاه بها قبلی المدرسة العمریة بالصالحیة علی

خطط الشام، ج۶، ص: ۹۰

مقربة من مرقد الشیخ عبد الغنی النابلسی، إنشاء الأمیر ناصر الدین محمد بن مبارک الإینالی سنة (۸۶۵). و قد تداعت فأخذت أنقاضها منذ نحو سبعین سنة لتبلیط الطریق، و هی أمام جامع الحاجب بالجرکسیة، أصبحت الآن عرصة محاطة بجدار و حوض مائها لا یزال موجودا و مأذنتها کانت جمیلة.

(۱۰۳) «الخاتونیة البرانیة» مسجد خاتون علی الشرف القبلی فی مکان کان یسمی صنعاء دمشق مطل علی وادی الشقراء، وقفتها زمرد خاتون أخت الملک دقاق صاحب دمشق، و هی أم شمس الملوک إسماعیل و محمود زوجة تاج الملوک بوری توفیت سنة (۵۵۷)، و کانت حافظة للقرآن سمعت الحدیث من أبی الحسن بن قیس و استنسخت الکتب و قد خربت هذه المدرسة فی أواخر حکم المالیک فنقلت أنقاضها لتعمر بها مدرسة غیرها فی باب الجابیة، و کان من مدرسیها علی البلخی و شرف الدین عبد الوهاب الحورانی و صدر الدین البصروی و صدر الدین الأدمی.

(۱۰۴) «الخاتونیة الجوانیة» کانت بمحلة حجر الذهب محلة البیمارستان النوری، إنشاء خاتون ابنة سعید الدین اتسز و زوجة نور الدین الشهید، وقفها أخوه سعد الدین علیها، و ممن درس بها ابن شداد و ابن أبی جرادة.

(۱۰۵) «الدماغیة» تقدم محلها عند جسر ثورة قرب معمل الغزل القدیم و أنها علی الفریقین الحنفیة و الشافعیة، درس بها الافتخار الکاشغری و السنجاری و ابن سحنون خطیب النیرب و غیرهم، أصبحت الیوم حدائق.

(۱۰۶) «الرکنیة» و یقال لها الرکنیة البرانیة تمییزا لها عن الرکنیة الجوانیة المار ذکرها، و هی من إنشاء الأمیر رکن الدین منکورش عتیق فلک الدین سنة خمس و عشرین و ستمائة، درس بها جلة من الفقهاء و هی فی حی الأکراد بالسفح، اختلست منها قطعة و جعلت دورا، و لا تزال تقرأ فی حائطها کتابات کوفیة.

(۱۰۷) «الریحانیة» جوار النوریة، إنشاء ریحان الطواشی من أکبر خدام نور الدین سنة (۵۶۵) و هی کتاب للذکور. و لا یزال علی بابها حجر زبر علیه بخط جمیل الأوقاف المرصدة لها.

(۱۰۸) «الزنجاریة» خارج باب توماء و باب السلامة و یقال لها الزنجیلیة

خطط الشام، ج۶، ص: ۹۱

کانت تجاه دار الأطعمة من أحسن المدارس. و فی مختصر الدارس أنها هی التی علی بابها هذا الرخام من عجائب الدنیا و هذه الصناعة التی کانت کأنها بین أیدیهم کالعجین. أنشأها نائب عدن فخر الدین الزنجیلی صاحب الیمن أیام الملک العادل أنشئت سنة (۶۲۶) و فی روایة أنه الأمیر عز الدین عثمان ابن الزنجیلی صاحب عدن، درس بها أجلة الفقهاء و لا یعرف محل هذه المدرسة و لعلها

كانت شرقى السقيفة و هى اليوم حدائق.

(۱۰۹) «السيفية» بجوار الجامع الأموى و من القديم لا يعرف عنها غير هذا.

(۱۱۰) «السبائية» خارج باب الجابية و شمالى بئر الصارم و التربة و الزاوية بها و هى فى آخر شارع الدرويشة، إنشاء نائب الشام سيباى أمير السلاح بمصر سنة (۹۲۱) جعلها جامعا و مدرسة و زاوية و تربة. قال فى المختصر عمرها بالحجر الأبلق و لم يدع بدمشق مسجدا مهجورا و لا مدفنا معمورا إلا و أخذ منه من الأحجار و الآلات و الرخام و الأعمدة ما أحب حتى سماها علماء دمشق «جمع الجوامع» و هى منذ سبعين سنة مكتب ابتدائى للذكور، و تقام فيها الصلوات و الأذكار.

(۱۱۱) «الشبلية البرانية الحسامية» بسفح قاسيون بالقرب من جسر ثورة، إنشاء شبل الدولة كافور الحسامى الرومى طواشى حسام الدين بن لاجين والد ست الشام سنة (۶۲۶) و قد دفن بها، و هى فوق جسر ثورة من طريق عين الكرش، لم يبق منها إلا قطعة يسيرة، درس بها و أعاد بها عظماء من الفقهاء منهم الصفى السنجارى و الشمس ابن الجوزى و ابن قاضى آمد و ابن الغويرة و البصروى و الأذرعى و الكاشغرى و الطوسى و الكفيرى و التركمانى و العماد الجيلى و ابن بشارة. قال ابن خلكان: إن ست الشام بنت أيوب أنشأت مدرسة بظاهر دمشق و قد دفن فيها الملك المعظم و هى أيضا و ولده حسام الدين عمر بن لاجين و زوجها ناصر الدين أبى عبد اللّه محمد بن أسد الدين شير كوه صاحب حمص، و حسام الدين هو سيد شبل الدولة كافور بن عبد اللّه الحسامى الخادم صاحب المدرسة و الخانقاه الشبلية اللتين فى ظاهر دمشق على طريق قاسيون، و لهما شهرة فى مكانهما و أوقاف كثيرة اه. و إلى اليوم لا تزال

خطط الشام، ج۶، ص: ۹۲

القبور ظاهرة للعيان، و هناك حوض ماء و إيوان.

(۱۱۲) الشبلية الجوانية» قبالة الأكزية داخل باب الجابية، إنشاء شبل الدولة كافور المعظمى صاحب المدرسة قبلها، و هى أمام محكمة الباب الشرعية القديمة و قد أصبحت دورا.

(۱۱۳) «الصادرية» داخل باب البريد على باب الجامع الأموى الغربى، إنشاء شجاع الدين و الدولة صادر بن عبد اللّه قال صاحب الدارس: و هى أول مدرسة أنشئت فى دمشق (۴۹۱) درس بها ابن زنكى الكاشانى و البلخى و أبو العيش و أوحد الدين الدمشقى و الغزنوى رشيد الدين و ابن مسعود و الكعكى و الرضى الملتانى الهندى و البرهان الغزنوى المعروف بأبى الهول و ابن الشجاع و ابن أسد الدين الدمشقى. و هى دور مساكن منذ استصفاها المستصفون من عهد قريب.

(۱۱۴) «الطرخانية» قبلى الباذرائية إنشاء ناصر الدولة طرخان أحد كبار أمراء دمشق و هى منازل و مساكن.

(۱۱۵) «الطومانية» تجاه دار الحديث الأشرفية غربى الشريفية و الفقاعية بسوق العصرونية و لعل واقفها طومان النورى. و قد جعلت فى أواخر القرن الماضى حانة تباع فيها الخمور ثم صارت حوانيت و دارا.

(۱۱۶) «العذراوية» مر محلها و أنها على الحنفية و الشافعية. درس بها العز السنجارى و السمرقندى و الرازى.

(۱۱۷) «العزيزية» أنشئت (۶۳۵) جوار المدرسة المعظمية إنشاء الملك العزيز عثمان بن العادل شقيق الملك المعظم، و فى العزيزية دفن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب و لا يزال قبره معروفا يزار و يقصده العالم من الأقطار.

(۱۱۸) «العزيزية البرانية» بالشرف الأعلى شمالى ميدان القصر خارج دمشق و هى البستان الذى أصبح معملا للكهرباء و قد زال أثرها. أنشأها الأمير عز الدين استاد دار المعظمى المعروف بصاحب صرخد (۶۲۶)

خطط الشام، ج۶، ص: ۹۳

درس بها جماعة منهم محمد الكريمى المتوفى سنة (۱۰۶۸) أى إنها كانت عامرة إلى القرن الحادى عشر.

(۱۱۹) «العزية الجوانية» المعروفة بالكوشك أى القصر إنشاء المقدم ذكره و هى غير معروفة.

(۱۲۰) «العزية» بجامع دمشق منسوبة له أيضا، قال فى الدارس: و شرط واقفها أنه بنى مدرسة بالقدس الشريف على أنه متى كان

القدس بيد المسلمين يكون الوقف على المكان المذكور، و إن تعطل أى تعطيل القدس كان مدرسة بالجامع الأموى المعمور جوار مشهد على. درس بها حين تعطل القدس القاضى مجد الدين قاضى الطور و هى غير موجودة.

(۱۲۱) «العلمية» شرقى جبل الصالحية و غربى الميطورية إنشاء الأمير علم الدين سنجر المعظمى سنة (۶۲۸) لم يبق لها أثر.

(۱۲۲) «الفتحية» نسى مكانها منذ قرون قال ابن شداد: و هى برحيبة خالد و هى مجهولة أيضا، و منشئها الملك فتح الدين صاحب بارين.

(۱۲۳) «الفرّخشاهية» تعرف بمعز الدين فرخشاه و واقفتها حظ الخير خاتون ابنة إبراهيم بن عبد اللّه والدة عز الدين فرخشاه و هى زوجة شاهنشاه ابن أخى صلاح الدين سنة (۵۷۸) و هى مقابلة التكية السليمانية بالشرف الأعلى شمالى حديقة الأمة، دثرت.

(۱۲۴) «القچماسية» داخل باب النصر و دار السعادة إنشاء نائب الشام قچماس الإسحاقى الجركسى المتوفى سنة (۸۹۲). و أول من درس بها شمس الدين أبو تراب محمد الأمامى و هى عامرة فى الجملة.

(۱۲۵) «القصاعية» بحارة القصاعين إنشاء خطلشاه خاتون بن ككجا سنة (۵۹۳) كانت عامرة فى القرن العاشر، و درس بها محب الدين العلوانى و هو آخر من درس بها من الفقهاء و هى فى جهة الخيضيرية جعلت دورا.

(۱۲۶) «القاهرية» بالصالحية على طريق الترام فى الزقاق الذى وراء سوق الجمعة على ضفة نهر يزيد لصيق دار الحديث القلانسية المشهورة بالخانقاه و غربى العمرية يفصل بينهما الطريق، و هى مساكن و لم يبرح اسمها معروفا بالقاهرية و هى أسرة اسمها بنو القاهرية و هى الآن دار بنى الحشاش.

خطط الشام، ج۶، ص: ۹۴

(۱۲۷) «الظاهرية الجوانية» تقدم محلها فى مدارس الشافعية و أنها للحنفية أيضا، أول من درس بها الصدر سليمان و ابن النحاس و ابنه شهاب الدين و السمرقندى و الجوبرى و ابن العز و عفيف الدين الآمدى و قوام لطف اللّه الحنفى.

(۱۲۸) «القليجية» واقفها سيف الدين بن قليج النورى بين الخضراء و الصدرية السالفتين بالبزورية سنة (۶۲۰)، وجدد بناءها قاضى الشام محمد جلبى سنة (۹۲۳). درس بها الشمس على بن قاضى العسكر و فخر الدين بن خليفة البصروى و تقى الدين أحمد و علاء الدين على القونوى و غيرهم، و هى فى سوق التبن اتخذت بيتا ملاصقا لدار بنى العظم، و لعلها هى التى كانت مجمع الفضلاء و العقلاء للاستشارة إذا دهم أهل دمشق أمر مهم لا القليجية التى كانت داخل باب توماء كما روى بعض المؤرخين.

(۱۲۹) «القايمازية» داخل بابى الفرج و النصر، إنشاء صارم الدين قايماز النجمى المتوفى سنة (۵۹۶)، كان من عمال السلطان صلاح الدين يتولى أسبابه فى مخيمه و بيوتته و يعمل عمل أستاذ الدار، و كلما فتح السلطان بلدة سلمها إليه ليروضها. و هى بالمناخلية درست عند ما جرى توسيع الطريق.

(۱۳۰) «المرشدية» على نهر يزيد بالصالحية جوار دار الحديث الأشرفية إنشاء خديجة خاتون بنت الملك المعظم بن العادل أخت الناصر داوود سنة (۶۵۶)، و هى من المدارس التى بقيت إلا أن داخلها متهدم و مجموعها مختلس.

(۱۳۱) «المعظمية» بالصالحية بسفح قاسيون الغربى جوار المدرسة العزيزية، أنشئت (۶۲۱) نسبة إلى الملك المعظم شرف الدين عيسى بن العادل صاحب دمشق و هى مدفن.

(۱۳۲) «المعينية» بالطريق الآخذ إلى باب المدرسة العصرونية، إنشاء معين الدين أتسز، و هى دراسة.

(۱۳۳) «الماردانية» على ضفة نهر ثورة لصيق الجسر الأبيض معروفة، أنشأتها عزيزة الدين أخشا خاتون بنت الملك قطب الدين صاحب ماردين زوجة الملك المعظم (۶۱۰) درس بها جلة من الفقهاء، و هى جامع عامر؟؟؟ ات و فيه مدفن بنى المؤيد.

(۱۳۴) «؟؟؟ المقدمية الجوانية» داخل باب العمارة إنشاء الأمير شمس الدين

خطط الشام، ج۶، ص: ۹۵

محمد بن المقدم فى الأيام الصلاحية أنشئت سنة (۵۷۵)، و هى فى حكم المفقود استصفى قسم منها و جعل دورا و داخلها غرف تؤجر و حرمها مخزن.

(۱۳۵) «المقدمية البرانية» تجاه الركنية بسفح قاسيون شرقى الصالحية إنشاء فخر الدين إبراهيم بن المقدم، غير موجودة و لعلها دار الشريباتى و حوض مائها لم يزل كما كان أمام حمام المقدم.

(۱۳۶) «المنجكية» بجوار خانقاه الصوفية بالجاقماقية، و فى الدارس أنها بالخلخال. و كان الخلخال حديقة أخذت للثكنة الحميدية غربى المدينة.

و هى قبلى الصوفية و غربيها، إنشاء الأمير سيف الدين منجك من مماليك الناصر محمد بن قلاوون أسست سنة (۷۷۶) و هى اليوم حدائق و لا أثر لها.

(۱۳۷) «الميطورية» شرقى جبل الصالحية فى حى الأكراد، وقفتها فاطمة خاتون بنت السلار سنة (۶۲۹) خربت.

(۱۳۸) «المقصورة الحنفية» و هى محل التدريس فى حرم الجامع الأموى وقف عليها كاتب الممالك القاضى فخر الدين أوقافا.

(۱۳۹) «النورية الكبرى» إنشاء نور الدين سنة (۵۶۳)، و الصحيح أنها إنشاء ولده الصالح إسماعيل و هى بعض دار هشام بن عبد الملك الأموى، و فى الدارس أنها كانت قديما دار معاوية بن أبى سفيان و كانت لمعاوية دار أخرى بباب الفراديس تحت السقيفة يقال: إنها الدار التى كانت معروفة بدار ابن المقدم. و لا تزال المدرسة عامرة إلى يومنا إلا أن بعض جيرانها اختلسوا بعضها من الشمال.

(۱۴۰) (النورية الصغرى) كان فى القلعة جامع تقام فيه الجمعة إلى القرن العاشر و به مدرسة حنفية تسمى النورية الصغرى، قال: ابن شداد هى مدرسة بجامع القلعة، و كان مدرس القلعة أوائل القرن التاسع القاضى شمس الدين الزرعى و هو الذى ألزم ببناء مأذنة الجامع بالقلعة سنة (۸۲۴) التى كانت أحدثت سنة (۷۶۲).

(۱۴۱) «الغمورية» بالصالحية، إنشاء الأمير جمال الدين بن يغمور الدورفى اختلست.

خطط الشام، ج۶، ص: ۹۶

مدارس المالكية بدمشق:

كان بدمشق أربع مدارس للمالكية و هى:

(۱۴۲) «الزاوية المالكية» وقف السلطان صلاح الدين ملاصقة المقصورة الحنفية من غربى الجامع الأموى درس بها بعض فقهاء المالكية.

(۱۴۳) «الشرابيشية» فى القنوات و فى الدارس أنها بدرب الشعارين لصيقة حمام صالح شمالى الميطوريين داخل باب الجابية، و كانت قبل أن تصبح مدرسة للأيتام محكمة شرعية و اختلس الجيران بعضها. و هى إنشاء شهاب الدين بن نور الدولة بن محاسن الشرابيشى التاجر السفّار و لا يعلم عنها غير هذا.

(۱۴۴) «الصمصامية» شرقى دار القرآن الوجيهية و قرب المسرورية، وقف عليها الصاحب شمس الدين غبريال الأسلمى، و ذكر المؤرخون أن سنان القرمانى والد القرمانى صاحب التاريخ خرب مدرسة المالكية بالقرب من البيمارستان النورى و تعرف بالصمصامية و حصل به الضرر بمدرسة النورية ببعلبك، و ولى نظارة البيمارستان و نظارة الجامع الأموى و انتقد عليه أنه باع بسط الجامع و حصره فقتل بسبب ذلك هو و ناظر السليمية حسين سنة (۹۶۶) خنقا معا بدار السعادة بشاشيهما و عمامتاهما على رأسيهما. و لو نفذ حكم الشرع هكذا فى المختلسين و الغاصبين لما ذهبت كل هذه المدارس مع أمس الدابر.

(۱۴۵) «الصلاحية» إنشاء السلطان صلاح الدين بالقرب من البيمارستان النورى غير معروفة أيضا.

و كان فى زقاق حمام القاضى مدرسة للمالكية على ما فى مفكرات طارق.

مدارس الحنابلة بدمشق:

كان بدمشق عشر مدارس للحنابلة و هى:

(۱۴۶) «الجوزية» فى البزورية كانت فى عهدنا محكمة شرعية ثم جعلتها جمعية الإسعاف الخيرى مدرسة للأيتام ثم حرقت فى الثورة السورية، إنشاء محيى الدين بن جمال الدين بن الجوزى.

خطط الشام، ج۶، ص: ۹۷

(۱۴۷) (الجاموسية) غربى العقيبة خارج دمشق ابتلعها و أوقافها كما ابتلع غيرها المتولون عليها.

(۱۴۸) (الشريفية) عند القباقبية العتيقة قديما و دار بنى الغزى فى العمارة أمام الفرن بالجانب الشرقى و هى الآن دار. من إنشاء شرف الإسلام عبد الوهاب أبى الفرج الحنبلى شيخ الحنابلة بدمشق المتوفى سنة (۵۳۶) و ظلت يتعاقب عليها أولاده و أحفاده حينا من الدهر.

(۱۴۹) (الصاحبة) بسفح قاسيون من شرق الصالحية. إنشاء ربيعة خاتون بنت نجم الدين أيوب أخت صلاح الدين وست الشام، دفنت فى فنائها سنة (۶۵۳) و جعلت اليوم مكتبا ابتدائيا للذكور.

(۱۵۰) (الصدرية) إنشاء صدر الدين أبى الفتح أسعد المنجا التنوخى العدل سنة (۶۳۰) و كانت بجوار الجامع فى زقاق الريحان و العامة تزعم أن قبر معاوية بن أبى سفيان بها و ليس بصحيح.

(۱۵۱) (الضيائية المحمدية) شرقى جامع المظفرية بجبل قاسيون. إنشاء ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسى سنة (۶۲۰) كان علامة عصره درس بها بانيها أولا و لا يعرف عنها شىء.

(۱۵۲) (الضيائية المحاسنية) بسفح قاسيون شرقى جامع المظفرية و أمام جامع الحنابلة، بقى منها أربع نوافذ و جدار، أنشأها ضياء الدين محاسن و وقفها على من يكون أمير الحنابلة.

(۱۵۳) «العمرية الشيخية» وسط دير الحنابلة بسفح الجبل، إنشاء أبى عمر الكبير الحنبلى الزاهد المعروف بابن قدامة سنة (۵۵۰) و هو الذى نسبت الصالحية إليه لنزوله بمسجد أبى صالح بظاهر باب شرقى، و هى الآن خراب أكل النظار عليها أوقافها و استباحوا أخذ خزانة كتبها المهمة. و فى تاريخ الصالحية أنها أكبر المدارس بدمشق و الصالحية لأنها مشتملة على ثلاثمائة و ستين خلوة على ما قيل، و العامر منها الآن (عصر مؤلف تاريخ الصالحية) أقل من ذلك اه. و قال فى تاريخ الصالحية أيضا: إن أبا عمر بنى المدرسة و والده الشيخ

خطط الشام، ج۶، ص: ۹۸

أحمد بنى المصنع ثم كثر البناء المتسع بالصالحية حول المدرسة حتى بلغ من القبلة حد المدينة و من الشرق برزة إلى الميطور- و بستان الميطور الآن معروف بالقرب من جسر النحاس قرب حى الأكراد. أما الآن فهى خراب يباب، و قد درس بها أئمة أعلام فيما سلف.

(۱۵۴) (العالمة) مدرسة للحنابلة و دار للحديث شرقى الرباط الناصرى تحت جامع الأفرم غربى سفح قاسيون، وقفتها الشيخة الصالحة العالمة أمة اللطيف بنت الناصح الحنبلى سنة (۶۳۰) و هى خراب بلقع.

(۱۵۵) (المسمارية) قبلى القيمرية الكبرى داخل دمشق قبلى الفتحية قرب مأذنة فيروز. واقفها التاجر الحسن بن مسمار الهلالى الحورانى المغربى من أهل القرن السادس جعلت الآن مخفرا للشرطة.

(۱۵۶) (المنجائية) زاوية بالجامع الأموى تعرف بابن منجا.

و كان فى سوق القمح بدمشق:

(۱۵۷) (المدرسة الحنبلية) تولى عمارتها سعد الدين بن عبد العزيز إمام الملك الأشرف موسى بن الملك العادل.

المدارس الحديثة:

هذا ما ذكره صاحب الدارس من دور القرآن و دور الحديث و مدارس الشافعية و الحنفية و المالكية و الحنابلة، و قد أنشئت بعد عهده فى دمشق عدة مدارس فى القرن الثانى عشر و هى:

(۱۵۸) «المرادية» جنوب الظاهرية الجوانية و تفصل بينهما الآن سكة ضيقة لصاحبها الشيخ مراد المرادى (مراد بن على بن داود بن كمال الدين بن صالح البخارى النقشبندى سنة (۱۱۳۲) و كانت قبل ذلك خانا يسكنه أهل الفسق و الفجور و قد خربت زمن الحرب العامة و هى الآن خراب.

(۱۵۹) «النقشبندية البرانية» هى فى سوق ساروجا بناها الشيخ مراد المرادى و كانت داره، و بنى إلى جنبها مسجدا و هى الآن تكية و منزل لأحفاده.

(۱۶۰) «السليمانية» مدرسة سليمان باشا العظم، أسست فى باب البريد (۱۱۵۰) جعلت زمنا مكتبا للإناث و قد رمت بعد خرابها و سكنها دراويش.

خطط الشام، ج۶، ص: ۹۹

(۱۶۱) «العبدلية» مدرسة عبد اللّه باشا العظم، أسست فى سوق السلاح سنة (۱۱۹۳) و لا تزال موجودة.

(۱۶۲) «الإسماعيلية» مدرسة إسماعيل باشا العظم فى سوق الخياطين، أسست سنة (۱۱۴۱) و الطابق السفلى منها من بناء إسماعيل باشا العظم و العلوى من بناء أسعد باشا العظم، و لكل منهما وقف خاص به، و كانت المدرستان الأخيرتان من المدارس العامرة إلى عهد قريب فأصبحتا مأوى الفقراء و ذهبت أوقافهما أو كادت.

و هناك مدارس حدثت بعد عهد صاحب الدارس يعثر على أسمائها مبعثرة فى كتب التاريخ و المدونات الحديثة و لا أثر لها لعدم مكانتها أو لطارئ طرأ عليها. و الطوارئ على مثل هذه المدارس قد تحدث فى كل عقد أو عقدين من السنين مثل:

(۱۶۳) «المدرسة الحجازية» التى نزل بها أحمد بن شمس الدين الصفورى و لا نعرفها الآن.

(۱۶۴) «المدرسة الجوزية» انقطع إليها إبراهيم السقا سنة (۱۰۵۸) و درس بها إبراهيم بن حمزة سنة (۱۱۱۹).

(۱۶۵) «المدرسة الحافظية» بصالحية دمشق درس بها حمزة بن محمد نقيب الشام المتوفى سنة (۱۰۶۷).

(۱۶۶) «مدرسة أحمد شمسى باشا» فى سوق الأروام.

(۱۶۷) و من المدارس التى لم يذكرها صاحب الدارس مدرسة السلطان المؤيد التى بناها سنة (۸۱۷) الملك المؤيد فى دمشق و سماها «المؤيدية» و أنشأ سوقا نسب إليه و لا نعلم عنها غير هذا.

و منها (۱۶۸) «القارية» مدرسة ابن القارى قال ابن طولون: لم يكن فى الصف الشمالى مسجد غير مسجد البيع من باب الجابية إلى باب شرقى يوجه إلى القبلة، قيل: إن الصحابة بايعوا فيه، و هو الآن مدرسة بناها الخواجا محمد بن يوسف القارى سنة (۸۸۷) و بنى إلى جانبها دارا عظيمة بالغ فى إتقانها و قد أصبحت هذه الدار و المدرسة دورا صغيرة و حواصل للخشب.

و منها (۱۶۹) «المدرسة المزلقية» بطريق مقابر باب الصغير الآخذ إلى

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۰۰

الصابونية، أنشأها تاجر الخاص الشريف شمس الدين أبو عبد اللّه محمد بن على بن أبى بكر المعروف بابن المزلق ميلاده سنة (۷۵۴) كان أبوه لبانا حكى عن نفسه أن أول سفرة سافرها فى البحر كسب فيها مائة ألف دينار و ثمانمائة ألف درهم و انفتحت عليه الدنيا و عمر أملاكا كثيرة و أنشأ على درب الشام إلى مصر خانات عظيمة بالقنيطرة و جسر بنات يعقوب و عيون التجار، أنفق على عمارها ما

يزيد على مائة ألف دينار، و كل هذه الخانات فيها الماء و جاءت فى غاية الحسن و لم يسبقه أحد من الملوك و الخلفاء إلى مثل ذلك، و هو صاحب المآثر الحسنة بدرب الحجاز و وقف على سكان الحرمين الشريفين الأوقاف الكثيرة.

و من المدارس الحديثة بناء مدرسة الحقوق على شاطئ بردى فى المرجة، و هى من بناء الترك فى آخر أيامهم و هى من أجزاء الجامعة السورية. و مدارس الدولة إلى اليوم تقوم على أنقاض البيوت القديمة أو الحديثة أو بقايا الجوامع و المدارس. و همم الأفراد فاترة لسد هذه الثلمة. و مدارس الطوائف و التبشير تجعل فى الكنائس و البيع على الأغلب. و من أهم مدارس الحكومة مدرسة التجهيز و المعلمين و هى دار خاصة فى شرقى المدينة كانت لغنى إسرائيلى اسمه عنبر، فوقعت فى ملك الحكومة العثمانية لدين كان لها على صاحبها و جعلت مدرسة إعدادية فى سنة (۱۳۰۴) شرقية، و فيها من ضروب الصناعات فى البناء شىء كثير و قد خلفتها المدرسة التجهيزية غربى البلد على الشرف الأعلى و هى من أجمل أبنية دمشق على عهدها الحديث، أما سائر المدارس الحديثة فيستحى المرء من ذكرها إذ لا شأن لها و ليس للأمة و لا للحكومة يد فى إنشائها.

مدارس الطب بدمشق:

كان بدمشق أربع مدارس للطب و هى:

(۱۷۰) «الدخوارية» بالصاغة العتيقة قرب الخضراء قبلى الجامع و فى رواية شرقى سوق المناخليين: إنشاء مهذب الدين عبد الرحيم بن على المعروف بالدخوار، و فى رواية: عبد المنعم بن على المعروف بالدخوار سنة (۶۲۱) جعلها مدرسة يدرس فيها من بعده صناعة الطب، و وقف لها ضياعا و عدة أماكن

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۰۱

يستغل منها ما ينصرف فى مصالحها و فى راتب المدرس و المشتغلين بها. و وصى أن يكون المدرس بها شرف الدين على بن الرحبى. قال ابن أبى أصيبعة فى ترجمة شرف الدين بن الرحبى من كبار أطباء دمشق المتوفى سنة (۶۶۷) إن مهذب الدين عبد الرحيم بن على وقف على الدار الشمالية و جعلها مدرسة للطب و ربما هى الدخوارية بعينها. و فى رواية أنها و بستان الدخوار عند أراضى الجامع الأموى من قصر اللباد شماليها نهر ثورة، درس بها واقفها و بدر الدين محمد بن قاضى بعلبك و الدنيسرى و ابن حيدرة الرجيحى و كمال الدين الطبيب و الجمال أحمد بن عبد اللّه بن الحسين الدمشقى و سليمان بن داود و محمد ابن شهاب الدين أحمد الكحال و عز الدين السويدى. و هى اليوم دور و لا يعلم زمن دمارها.

(۱۷۱) «الدنيسرية» غربى باب البيمارستان النورى و الصالحية و بآخر الطريق من قبلة لصاحبها عماد الدين محمد الدنيسرى من مدرسى المدرسة السابقة و لم يعرف عنها غير هذا.

(۱۷۲) «الربيعية» لم يذكرها فى الدارس و قال فى مختصره: إنها غربى البيمارستان النورى و المدرسة الصلاحية بآخر الطريق قبلة يقال: إنها هى المسجد الذى أنشأه قاضى القضاة محمد بك و كان بها أيضا صيدلية منظمة إنشاء عماد الدين محمد بن عباس الربعى المتوفى سنة (۶۸۶). و جاء فى الدارس: و فى سنة (۷۴۹) أقامها جديدة عبد اللّه بعد أن صارت تل تراب و جعلها برسم تأديب الأطفال قاضى القضاة محمد بك الرومى الحنفى من مماليك السلطان بايزيد بن عثمان ثم جعلت دار بنى البكرى و نسفت فى الثورة الأخيرة بالديناميت.

(۱۷۳) «اللبودية» خارج البلد ملاصقة بستان الفلك و حمام الفلك، إنشاء نجم الدين يحيى بن اللبودى (۶۶۴) درس بها جمال الدين الزواوى.

قال فى الوافى: هو يحيى بن محمد الوزير الصدر نجم الدين بن اللبودى الدمشقى الطبيب ترقى بالطب عند صاحب حمص إبراهيم و وزر له ثم اتصل بالناصر صاحب الشام فجعله ناظر الدواوين توفى سنة سبعين و ستمائة و دفن فى تربته التى بالقرب من بركة

الحميريين و جعل تربته دار طب و هندسة و قرر لها شيخا و قراء. و قال فيه: إنه ألف فى الرد على الموفق عبد اللطيف البغدادى

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۰۲

كتابا و هو فى الثالثة عشرة و هو صاحب دار الطب و الهندسة. و مدرسته اليوم، متهدمة و اسم البستان بستان اللبودى شرقى بستان الشموليات من أراضى باب السريجة. هذه هى المدارس الطبية بدمشق و قد دثرت و دثرت أسماؤها.

و من عرف أن القدماء كانوا يعنون بالطب أكثر مما نتصور لا يستكثر على دمشق أربع مدارس فى الطب فى الدهر الغابر. فقد ذكر المؤرخون أنه كان لكل من أبى المجد بن الحكم و مهذب الدين النقاش و رفيع الدين الجيلى مجالس عامة للمشتغلين عليهم بالطب فى دمشق. قال السبكى فى معيد النعم:

و من حقهم- أى السلاطين- إقامة فقيه فى كل قرية لا فقيه فيها يعلم أهلها أمر دينهم، و من العجب أن أولياء الأمور يستخدمون فى كل حصن طبيبا و يستصحبون أطباء فى أسفارهم بمعلوم من بيت المال و لا يتخذون فقيها يعلمهم الدين، و ما ذاك إلا أن أمر أبدانهم أهم عليهم من أمر أديانهم نعوذ باللّه من الخذلان اه.

و فى المحرم من عام (۱۳۲۱) صدرت إرادة السلطان عبد الحميد الثانى بإنشاء مدرسة طبية ملكية بدمشق و أن يخصص لبنائها عشرة آلاف ليرة و مثلها لنفقتها السنوية و لوازمها لمنافسة مدرستى الطب فى بيروت الأميركية و اليسوعية. فشرع فى خريف تلك السنة بالتدريس فى دار استؤجرت موقتا فى طريق الصالحية ريثما تبنى المدرسة الجديدة.

و فى أوائل دخول الجيش العربى و الإنكليزى آخر أيام الحرب العامة أنشئت.

(۱۷۴) «مدرسة طبية» على أنقاض مدرسة الأتراك جعلت فى مستشفى الغرباء التى كانت فى مقابر الصوفية أو مقبرة البرامكة ثم أنشئ لها مدرّج باسم مدرج الجامعة السورية.

مدارس حلب:

نشأت المدارس فى حلب فى العهد الذى أنشئت فيه بدمشق و لكن على

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۰۳

صورة مصغرة، و قد بنيت أول مدرسة فيها سنة (۵۱۷) و هى:

(۱۷۵) «المدرسة الزجاجية» بناها بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار صاحب حلب، و لما أراد بناءها لم يمكنه الحلبيون من ذلك إذ كان الغالب عليهم التشيع، فكان جماعته يبنون فى النهار و الشيعة تنقض ما بنوه فى الليل.

و قال بعض المؤرخين: إنها من بناء عبد الرحمن بن العجمى لأصحاب الشافعى، و قد خربت و أصبحت دورا للسكنى، و يغلب أن يكون مكانها فى محل خان الطاف من محلة الجلوم (إعلام النبلاء).

(۱۷۶) «النورية» أنشأها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى سنة (۵۴۴) و تعرف بالنفرية أيضا و هى تجاه المدرسة الصاحبية.

(۱۷۷) «العصرونية» كانت دارا لأبى الحسن على بن أبى الثريا وزير بنى مرداس فصيرها الملك العادل نور الدين سنة (۵۵۰) مدرسة و جعل فيها مساكن للمرتبين بها من الفقهاء، و قد كانوا سنة (۸۷۴) فوق المئة، و استدعى لها من سنجار شرف الدين بن أبى عصرون فولاه تدريسها و النظر فيها، و هو أول من درس بها فعرفت به، و بنى له نور الدين مدارس بمنبج و حماة و حمص و بعلبك و دمشق، و قد كان لها بقية إلى سنة (۱۳۴۳) إذ شرعت إدارة الأوقاف بخرابها و إقامة دور للسكنى مكانها يضاف ريعها للأوقاف.

(۱۷۸) «الصاحبية» أنشأها القاضى بهاء الدين يوسف المعروف بابن شداد، قال ابن خلكان: إن حلب كانت قبل أن يتصل ابن شداد بخدمة الملك الظاهر قليلة المدارس و ليس بها من العلماء إلا نفر يسير، فاعتنى بترتيب أمورها، و جمع الفقهاء بها، و عمرت فى أيامه المدارس الكثيرة، و كان الملك الظاهر قد قرر له إقطاعا جيدا يحصل منه جملة مستكثرة، فعمر مدرسة بالقرب من باب العراق قبالة

مدرسة نور الدين محمود بن زنكى للشافعية، و ذلك فى سنة إحدى و ستمائة، ثم عمر فى جوارها دارا للحديث و جعل بين المكانين تربة يدفن فيها، و لما صارت حلب على هذه الصورة قصدها الفقهاء و حصلت بها الاستفادة و الاشتغال و كثر الجمع بها. و تقع هذه المدرسة فى الزاوية الغربية من الجنينة المعروفة الآن بجنينة الفريق شرقى محلة السفاحية، و لم يبق منها و لا من دار الحديث سوى حجر مكتوب و قد

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۰۴

كانتا عامرتين فى القرن العاشر كما فى إعلام النبلاء.

(۱۷۹) «الظاهرية» و تعرف أيضا بالسلطانية، و هى للشافعية و الحنفية أسسها الملك الظاهر (۶۱۳) و توفى و لم تتم و أكملها شهاب الدين طغرل أتابك و على بابها أنها أنشئت سنة (۶۲۰) و هى اليوم خراب إلا بضع حجر جددت يسكنها بعض الفقراء و محرابها من بدائع الصنعة.

(۱۸۰) «الأسدية» أنشأها الأمير أسد الدين شير كوه المتوفى سنة (۵۶۴) و هو عم صلاح الدين. و هى فى محلة باب قنسرين باق منها قبلية و قبة و قد جدد فيها سنة (۱۳۱۶) ثمانى حجرات.

(۱۸۱) «الشعيبية» كانت فيما قالوا مسجدا أول ما اختطه المسلمون عند فتح حلب يعرف بالغضايرى نسبة لعلى بن عبد الحميد الغضايرى. فلما ملك نور الدين حلب وصل الشيخ شعيب بن أبى الحسن الفقيه الأندلسى فصيرت له مدرسة فعرفت به، و على جدارها تاريخ بناء نور الدين سنة (۵۴۵) و هى فى القرب من باب أنطاكية مسجد تقام فيه الصلوات و هى فى إدارة الأوقاف (إعلام النبلاء).

(۱۸۲) «الشرفية» أنشأها شرف الدين عبد الرحمن بن العجمى، و أنفق عليها ما يربو على أربعمائة ألف درهم، و وقف عليها أوقافا جليلة، و كان فيها غرف و إيوان و قاعة للدرس، و فى بنائها و أبوابها من بدائع الصنعة ما يفتخر به الصناع، و على بئرها قنطرة من الحديد مكتوب عليها بالقلم المجوز أنها صنعت سنة أربعين و ستمائة و هى من بدائع الرسم. و فى سنة (۱۳۴۳) شرع فى تعميرها و اتخذ من الجهة الشرقية منها بهو كبير بأربعة أعمدة يصلح للمحاضرات و أماكن أخرى.

(۱۸۳) «الرواحية» أنشأها ركن الدين هبة اللّه محمد بن عبد الواحد الحموى و قال فى الوافى: زكى الدين بن رواحة الحموى الشاعر المعدل كان كثير الأموال محتشما، أنشأ مدرسة بدمشق و أخرى بحلب و شرط على الفقهاء و المدرسين شروطا صعبة، و أن لا يدخل مدرسته يهودى و لا نصرانى و لا حنبلى حشوى توفى سنة اثنتين و عشرين و ستمائة، و قد اندثرت فى وقعة تيمور ثم أصلحت فى زمن قصروه كافل حلب. أما الآن فقد صارت دورا و لم

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۰۵

يبق منها سوى باب ذى أحجار ثلاثة سود، و باب مسدود يعلوه حجرة عظيمة، و هى واقعة فى أول الزقاق المعروف بزقاق الزهراوى شمالى المدرسة الشرفية الآنفة الذكر.

(۱۸۴) «البدرية» أنشأها بدر الدين عتيق عماد الدين شادى فى صدر درب البازيار و يعرف الآن بزقاق الزهراوى و هى داثرة.

(۱۸۵) «السيفية» أنشأها الأمير سيف الدين على بن علم الدين سليمان ابن جندر (۶۱۷) مشتركة بين الشافعية و الحنفية، و قد دثرت هى و سميتها التى جعلت لتدريس مذهبى مالك و أحمد بن حنبل كما يأتى، لكن يتعين موقع إحداهما فى قبلى تربة الكلياتى بجانب محلة الكلاسة، بما هو موجود من تربة البانى التى لم يذكر التاريخ أنها فى جوار مدرسته، و هى اليوم قبة قديمة سقفها خرب فيها قبره.

(۱۸۶) «الزيدية» و تعرف بالألواحية لنزول الألواحى فيها، هى داخل باب أنطاكية بالقرب من المدرسة الشعيبية، أنشأها إبراهيم بن إبراهيم المعروف بأخى زيد الكيال انتهت سنة (۶۵۵) درس فيها أحمد بن محيى الدين العجمى.

(۱۸۷) «القوامیة» داخل باب الأربعین بالقرب من حارة الفرافرة تجاه قسطل الملک العادل غیاث الدین و داخلها ربط للقلندریة.

(۱۸۸) «الشادبختیة» أنشأها جمال الدین شادبخت نائب نور الدین محمود بحلب (۵۸۹)، و ممن ولی تدریسها أحمد بن کمال الدین بن العدیم المتوفی (۶۳۸) و کانت حلب یومئذ أعمر ما کانت بالعلماء و المشایخ و الفضلاء الرواسخ. و قد تولی تدریسها بعده کثیرون من الفضلاء من بنی الشحنة.

(۱۸۹) «الظاهریة أیضا» أنشأها الملک الظاهر غیاث الدین صاحب حلب (۶۱۶) للشافعیة و أنشأ إلی جانبها تربة لیدفن فیها من یموت من الملوک و الأمراء، و هی قبلی حلب مما یلی باب المقام لم یبق منها سوی المحراب و عمودین و حوض مثمن بدیع.

(۱۹۰) «الهرویة» أنشأها الملک الظاهر غازی لأجل الشیخ الذی کانت له عنده منزلة رفیعة و هو علی الهروی السائح و هی قبلی حلب، خربت فی فتنة

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۰۶

التتر و لم یبق منها سوی قبره فی قبة داخل کرم فستق، و کانت وفاته سنة إحدی عشرة و ستمائة.

(۱۹۱) «الفردوس» أنشأتها الملکة ضیفة خاتون بنت الملک العادل سیف الدین أبی بکر محمد بن أیوب و هی جلیلة، و جعلتها تربة و مدرسة و ربطا و رتبت فیها خلقا من القراء و الفقهاء و الصوفیة، و لا تزال أسوارها باقیة و جامعها عامرا، لکنها جعلت مدفنا للفلاحین النازلین فی جوارها و تحتاج إلی ترمیم، و هی مثال جمیل من أمثلة الهندسة العربیة، کتب علی حائط فنائها بعد البسملة و آیات من سورة الزخرف: «هذا ما أمرت بإنشائه ذات الستر الرفیع، و الجناب المنیع، الملکة الرحیمة، عصمة الدنیا و الدین، ضیفة خاتون ابنة السلطان الملک العادل سیف الدین أبی بکر بن أیوب تغمدهم اللّه برحمته، و ذلک فی أیام مولانا السلطان الملک الناصر العالم العادل المجاهد المرابط المؤید المظفر المنصور صلاح الدنیا و الدین یوسف بن الملک العزیز محمد بن الملک الظاهر غازی بن یوسف بن أیوب ناصر أمیر المؤمنین عز نصره، بتولی العبد الفقیر عبد المحسن العزیزی الناصری رحمه اللّه فی سنة ثلاث و ثلاثین و ستمائة». و قد کتب علی محرابها البدیع (عمل حسان بن عفان).

(۱۹۲) «البلدقیة» أنشأها الأمیر حسام الدین بلدق عتیق الملک الظاهر سنة (۶۳۵) خربت سنة (۱۰۲۴) و هی ظاهر حلب و نقلت حجارتها لبناء دار السعادة المنشأة فی تلک السنة.

(۱۹۳) «القیمریة» أنشأها الأمیر حسام الدین القیمری سنة (۶۴۶) و هی خراب منذ قرون.

و هناک أربع مدارس ذکرها ابن الشحنة:

(۱۹۴) الأولی بالجبیل لشمس الدین أحمد بن العجمی و قد دفن بها أبو ذر المؤرخ سبط ابن العجمی و هی مشترکة بین الشافعیة و المالکیة أنشئت سنة (۵۹۵) و تسمی الآن جامع أبی ذر فیها قبلیة و منبر.

(۱۹۵) الثانیة أنشأها الأمیر شمس الدین لولو.

(۱۹۶) الثالثة بالمقام أنشأها بهاء الدین المعروف بابن أبی سبال.

(۱۹۷) الرابعة أنشأها عز الدین مظفر الحموی (۶۳۲).

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۰۷

هذه هی مدارس الشافعیة فی داخل المدینة و خارجها. أما مدارس الحنفیة فی المدینة فهی:

(۱۹۸) «البلدقیة أیضا» و هی بجانب سمیتها المتقدمة الذکر بنیت کذلک سنة (۶۳۵).

(۱۹۹) «الحلاویة» کانت کنیسة من بناء هیلانة أم قسطنطین و لما بعثر الفرنج قبور المسلمین و أحرقوهم (۵۱۸) انتقم المسلمون بأن أحالوا هذه الکنیسة مع ثلاث أخری مدرسة، و فیها إلی الآن عمد الرخام فی تیجانها نقوش تمثل أنواعا من النبات تشبه نقوش قلعة سمعان، و کانت تعرف قدیما بمسجد السراجین جعلها نور الدین مدرسة، وجدد بها مساکن یأوی إلیها الفقراء (۵۴۳) و هی من أعظم

المدارس، و من أكثرها طلبة و أغزرها رواتب و جرايات، درس بها جملة من العلماء. و هى منفصلة عن الجامع الكبير بزقاق ضيق فى السوق قبالته من الغرب. و قد ذكرها أحد علماء الآثار فقال: إن الجزء الجنوبى منها يحتوى على بقايا بناء دينى من عهد النصرانية الأولى، و قد أثبت ذلك التقليد القائل بأن هيلانة بنت فى حلب كنيسة، و نقوش البناء تشبه نقوش الكنائس ذات السطح المتوسط فى ديار بكر و الرصافة.

كل هذا يدل بالنظر لصورة تيجان الكنيسة أن أصلها من بناء قام فى آخر القرن السادس. و يقول هرزفيلد: إن عهد الفراغ الذى قامت فيه القبة يرد إلى تاريخ قاعتها. و كذلك الرواقان المتلاصقان من الجنوب و الشمال، و إن الناظر فى مجموع هذا البناء يرى الجزء الغربى منه بيعة تغشاها قبتان أو ثلاث كان محرابا متصلا بالزقاق الآخذ اليوم إلى المدرسة و الجامع الأعظم. و ذكر القزوينى أن فى مدرسة الحلاوى بحلب حجرا على طرف بركتها كأنه سرير و وسطه منقور قليلا يعتقد الفرنج فيه اعتقادا عظيما و بذلوا فيه أموالا فلم يجابوا إليه. و محراب هذه المدرسة العامرة اليوم بالطلبة من أجمل المحاريب عمل بخشب الآبنوس على صورة بديعة، و كان على قبتها طائر من نحاس يدور مع الشمس.

(۲۰۰) «الأتابكية» أنشأها شهاب الدين طغرل بك عتيق الملك الظاهر غياث الدين غازى نائب السلطنة سنة (۶۱۸) و خربت فى فتنة التتر ثم رممت و ما

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۰۸

زالت عامرة إلى القرن العاشر ثم خربت، و الآن لا يعرف إلا مكانها الذى أصبح عرصة خالية شرقى جامع العادلية و قبلى خان الفرايين يفصلها عنهما الطريق الآخذ إلى السفاحية و الطريق الآخذ إلى الخسروية.

(۲۰۱) «الحدادية» أنشأها حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ابن أخت صلاح الدين، و هى من الكنائس الأربع التى صيرها ابن الخشاب مساجد فهدمها و بناها بناء وثيقا، تولاها كثير من المدرسين و كانت عامرة فى أواخر القرن العاشر. و هى فى محلة السفاحية لم يبق من آثارها سوى عضادتى باب كبير مكتوب على طرفه الأيمن (الحمد للّه).

(۲۰۲) «الجردكية» و هى ملاصقة للصاحبية، أنشأها الأمير جرديك النورى بسوق البلاط كملت سنة (۶۰۱) كانت عامرة إلى آخر القرن الثامن.

و فى أواخر القرن الثالث عشر كانت قهوة ثم تحولت مكتبا ثم صارت دكانا ثم عمرتها دائرة المعارف مخزنا واسعا للنجارة و هو الآن كذلك.

(۲۰۳) «المقدمية» أنشأها عز الدين عبد الملك بن المقدم من أمراء صلاح الدين سنة (۵۶۴) و كانت إحدى الكنائس الأربع التى صيرها ابن الخشاب مساجد فجعلها مدرسة و أضاف إليها دارا كانت إلى جانبها. و هى فى محلة الجلوم فى زقاق يسمى خان التتن باق منها قبليتها و بابها الذى فيه صنعة حسنة. و هى أخت المقدمية فى دمشق التى بناها ابن المقدم أيضا، و الأوقاف التى فى دمشق مشتركة بين الاثنتين.

(۲۰۴) «الجاولية» أنشأها عفيف الدين عبد الرحمن الجاولى النورى، و هى فى محلة سويقة حاتم و قد كان الباقى منها قبليتها. أما الآن فقد هدمتها دائرة الأوقاف و عمرت فى مكانها عقارات للاستغلال.

(۲۰۵) «الطمانية» أنشأها الأمير حسام الدين طمان النورى و خربت فى القرن الثامن أو قبله، و كانت فى درب الأسفريس الذى هو بجانب جامع منكلى بغا المعروف الآن بجامع الرومى من باب قنسرين.

(۲۰۶) «الحسامية» أنشأها الأمير حسام الدين محمود بن ختلو غربى قلعة حلب سنة (۶۱۵)، و أمام بابها القديم باب حادث كتب عليه أنه عمر سنة (۱۲۸۱)، و الباقى منها قبليتها و ثلاث حجرات صغار. و هى خربة فى إدارة

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۰۹

الأوقاف مسدودة الباب، أول من درس بها بدر الدين يعقوب النحاس ثم ولده محمد ثم العلماء بنو الشحنة.

(۲۰۷) «الأسدية» ثم الخسروية تجاه القلعة المعروفة حينئذ بالطواشية أنشأها بدر الدين الخادم عتيق أسد الدين شير كوه كانت دارا يسكنها فوقفها بعد موته، و كان مكتوبا على بابها جددت سنة (۶۳۲) قال ابن الشحنة: إن هذه المدرسة خربها المنلا محمد ناظر الأوقاف بحلب سنة خمس و ثلاثين و تسعمائة و لم يبق لها عين و لا أثر، و دخلت فى عمارة المدرسة التى أنشأها الوزير خسرو باشا المشتملة على مسجد و جامع و مدرسة و خانقاه معدة للضيوف، و هى أول عمارة أنشئت بحلب منذ دخول الترك. و فى در الحبب أن خسرو باشا كافل حلب لما تولى الوزارة أمر بإنشاء جامع و تكية فى حلب بمشارفة معمار رومى، و أدخل عدة أوقاف فيها منها الدار التى عمرها و وقفها أبو الفضل ابن الشحنة و المدرسة الأسدية الملاصقة لها و مسجد ابن عنتر الملاصق لها و كانت هذه الدار أحدى دور حلب العظام مشتملة على حديقة و بحرة و سبع قاعات و فرن و آبار لخزن الغلال و دهليز يصل إلى حمامه المشهور بحمام القاضى.

و اتفق فى هذه المدرسة أن جعلت ميضآت للتكية المذكورة. و فى أعمدة التكية المذكورة عمودان كانا للمدرسة القديمة بزقاق سالار بحلب فأخذهما، و متوليها إذ ذاك محمد چلبى ابن المرعشى و لم ينتطح فيها عنزان اه.

قلنا: و هذا مثال صريح من العمران التركى فهو و الخراب اسمان لمسمى واحد. و هذه المدرسة تسمى اليوم بالخسروية و هى عامرة بطلبة العلم بفضل النهضة الأخيرة، و محرابها و منبرها و قبتها من أجمل آثار الصناعة الحلبية فى القرن العاشر بقيت بحالها لم تمسسها أيدى المتولين و المتلاعبين، و فيها القيشانى من صنع حلب.

(۲۰۸) «القليجية» أنشأها الأمير مجاهد الدين محمد بن شمس الدين محمود بن قليج النورى سنة (۶۵۰) ملاصقة لدار العدل ثم تجدد من جوانبها الثلاثة دور مضافة إلى دار العدل، خربت فى القرن العاشر.

(۲۰۹) «الفطيسية» أنشأها سعد الدين مسعود بن الأمير عز الدين أيبك المعروف بفطيس عتيق عز الدين فرخ شاه، كانت دارا يسكنها فوقفها توفى

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۱۰

سنة (۶۴۹). و أول من درس بها أحمد القراولى المارداني المعروف بالفصيح و عليه انقضت الدولة الناصرية، و هى مما دخل فى دار العدل و حكم القاضى شمس الدين بن أمين الدولة بانتقال وقفها إلى القليجية أقرب مدرسة إليها، قال ابن الشحنة: إنها درست فى الفتنة التيمورية و لم يبق لها عين و لا أثر و لا يعلم أين كانت. و كذا صار فى مدارس عديدة فإننى ما زلت أسمع أنه كان بحلب أربعون مدرسة للحنفية خاصة و لم يدّع ابن شداد ذلك.

(۲۱۰) «المجدية الجوانية» منسوبة إلى مجد الدين بن الدايه فى محلة بزة بالقرب من ضريح النبى بلوقيا خربت فى سنة (۹۳۶).

(۲۱۱) «المجدية البرانية» منسوبة إليه أيضا دثرت بالكلية.

(۲۱۲) «الكلتاوية» بناها الأمير طقتمر الكلتاوى المتوفى سنة (۷۸۷) داخل بانقوسا فى محلة تسمى بالكلتاوية، و هى للحنفية لم يبق منها سوى قسم من قبليتها و كان فيها قبر الواقف لكنه دارس.

(۲۱۳) «الالچانية» لصيق جامع الطواشى نسبة إلى الچاى أمين السلاح زمن اشقتمر أنشئت سنة (۷۴۴).

(۲۱۴) «الكينوشية» أو الكهنبوشية داخل باب النيرب و يقال بل هى زاوية.

(۲۱۵) «الشهابية» تجاه الناصرية للحنفية. و لا أثر لها الآن، و لعلها دخلت فى بناء خان الوزير.

(۲۱۶) «الكاملية» بالقرب من الناصرية بناها ابن كامل. و لا أثر لها، و لعلها دخلت فى بناء خان الوزير أيضا.

(۲۱۷) «الصاحبية» شمالى الجردكية أنشأها شهاب الدين أحمد بن الصاحب سنة (۷۶۵) و هى باقية إلا أنها متوهنة و فيها نقوش و آثار تعد من النفائس.

(۲۱۸) «المدرسة التی فی شرقی الجامع العمری» فی بحسیتا فیها قبر الشیخ حسن الفول.

(۲۱۹) «الیشبکیة» بناها الأمیر یشبک المؤیدی نائب حلب علی أنها مکتب أیتام و بنی له فیها مدفنا دفن فیه سنة (۸۲۳) و وقف علیها سوقه الذی

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۱۱

بناه بالقرب منها و لا أثر لها، أما المسجد الذی بنی معها فهو باق فی سوق العبی.

(۲۲۰) «تغری الدرمشیة» تحت القلعة بناها الأمیر تغری درمش نائب حلب.

(۲۲۱) «السفاحیة» بناها القاضی شهاب الدین سبط بنی السفاح و وقفها علی الشافعیة و شرط أن لا یکون لحنفی فیها حظ إلا فی الصلاة.

(۲۲۲) «مدرسة أقجا» أنشأها أقجا خازن یشبک الیوسفی و هی قبلی السفاحیة بالخط المذکور و لا أثر لها الیوم.

(۲۲۳) «الدلغادریة» بناها الأمیر ناصر الدین باک محمد بن دلغادر ظاهر البلد من شمالیه علی کتف الخندق، و وقفها علی الحنفیة و قرر بها شهاب الدین أحمد بن موسی المرعشی.

(۲۲۴) «الأشودیة» أنشأها الأمیر عز الدین أشود الترکمانی دثرت فی القرن العاشر.

(۲۲۵) «النقیب» أنشأها السید الشریف المرتضی النقیب عز الدین أبو الفتوح أحمد بن محمد الإسحاقی المؤتمنی الحسینی المتوفی سنة (۶۵۳) علی جبل جوشن، و کانت عمارتها من البدائع یقال لها تاج حلب.

(۲۲۶) «الدقاقیة» أنشأها مهذب الدین أبو الحسن علی بن الدقاق سنة (۶۳۰) خربت بعد القرن التاسع علی الغالب، کانت شمالی الفیض.

(۲۲۷) «الجمالیة» أنشأها جمال الدولة إقبال الظاهری عتیق ضیفة خاتون و هی قبلی الفردوس.

(۲۲۸) «العلائیة» أنشأها علاء الدین علی بن أبی الرجا شاد دیوان الملکة ضیفة خاتون بنت الملک العادل. و هذه إما أن تکون لیست مدرسة بل مسجدا و هو موجود الآن فی محلة الکلاسة مکتوب علیه اسم البانی هذا سنة (۶۳۳) و هو مدفون فی حجرة شرقی القبلیة، أو تکون المدرسة غیره و قد زال أثرها.

(۲۲۹) «الکمالیة العدیمیة» أنشأها الصاحب کمال الدین عمر بن

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۱۲

العدیم شرقی حلب خارج باب النیرب و بنی إلی جوارها تربة و جوسقا و بستانا، ابتدأ بعمارتها سنة (۶۳۹) و تمت فی سنة (۶۴۹).

(۲۳۰) «الأتابکیة» أیضا أنشأها الأتابک شهاب الدین طغرل عتیق الملک الظاهر سنة (۶۲۰) أول من درس بها الصفی عمر الحموی ثم نظام الدین البلخی و الفخر عبد الرحمن بن إدریس و هی فی محلة الجبیلة فی صدرها قبلیة فی طرفها الأیمن إیوان فی وسطه ضریح الواقف و قد اتخذتها دائرة المعارف مدرسة ابتدائیة مکتوب علی بابها اسم بانیها أبی سعید طغرل و أنها علی المدرس و الحنفیة.

(۲۳۱) «الصهیبیة» وراء باب أنطاکیة مباشرة تجد بقایا بناء عرفه قدماء السیاح بأنه قوس قدیمة ثم نقشت علیه بعد کتابة کوفیة و یسمی جامع التوتی. و هی المدرسة الصهیبیة التی قامت علی انقاض جامع فی حلب بناه أبو عبیدة. قال سبرنهایم: إن النقوش الکثیرة و الهندسة القدیمة و الکتابات الکوفیة الموجودة فی هذا البناء تجعله فی الدرجة الأولی من المکانة، و منه یدرس التحویل التام المجهول سره حتی الآن و الذی تم علی عهد نور الدین فی أسلوب الهندسة من حیث صور الکتابة و الطرز السیاسی فی الکتابات.

(۲۳۲) «السیفیة» أیضا أنشأها الأمیر سیف الدین علی بن سلیمان ابن جندر تحت القلعة لتدریس مذهبی مالک و أحمد بن حنبل. هذا ما ورد فی الدر المنتخب فی الکلام علی مدارس المالکیة و الحنابلة.

(۲۳۳) «الناصریة» کانت قدیما کنیسة للیهود تعرف بکنیسة مثقال ثم فی سنة (۷۲۷) ثبت أنها محدثة فی دار الإسلام فقلبت مدرسة و

عمل بها منارة و هی معروفة الآن بجامع الحیات لرسوم حیات من الحجر فی قنطرة بابها و قد عراها الوهن (إعلام النبلاء).

(۲۳۴) «الشادبختیة» أیضا و هذه هی الجوانیة أنشأها الأمیر جمال الدین شادبخت الخادم الهندی الأتابکی نائب نور الدین بحلب، أول من درس فیها موفق الدین محمود بن النحاس ثم ابن العدیم ثم بنو الشحنة، و هی فی سوق الضرب و یقال الآن الزرب تحریفا مکتوبا علی بابها أنها موقوفة علی الحنفیة سنة (۵۸۹) و تعرف الیوم بجامع الشیخ معروف، محراب قبلیتها بدیع کتب علیه

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۱۳

أنه عمل أبی الرجا و عبد اللّه بن یحیی.

(۲۳۵) «الطرنطائیة» منسوبة إلی مجددها طرنطای بن عبد اللّه الأمیر سیف الدین نائب دمشق المتوفی سنة (۷۹۲) و هی فی آخر محلة باب النیرب، جسیمة مکتوب علی بابها کتابة حدیثة بالاستناد إلی بعض الکتب: وقف هذین الجامع و المدرسة عفیف بن محمد شمس الدین سنة (۷۸۵)، و فیها رواقان و حجر و فوق الرواقین رواقان صغیران و وراء کل منهما خمس حجر و شمالی باب المدرسة باب قدیم داخله دار یظهر أنها خانقاه تابع للمدرسة.

و کان فی حلب داران للحدیث أنشأهما الملک العادل و خمس دور تعد من مدارس المالکیة و الحنابلة:

(۲۳۶) الأولی أنشأها القاضی ابن شداد.

(۲۳۷) و الثانیة أنشأها مجد الدین بن الدایة.

(۲۳۸) و الثالثة أنشأها بدر الدین الأسدی.

(۲۳۹) و الرابعة أنشأتها أم الملک الصالح إسماعیل بن نور الدین محمود.

(۲۴۰) و الخامسة أنشأها الصاحب مؤید الدین إبراهیم بن یوسف القفطی کانت تعرف بالفردوس.

هذا ما رواه ابن الشحنة عن ابن شداد و غیره فی مدارس حلب الشهباء.

و أنت تری أنها من هذا القبیل تعد ثانیة دمشق. و أن مدارسها علی الأکثر نشأت فی الدولتین النوریة و الصلاحیة أو عمرت بأیدی الأمراء و الأمیرات، و لم یکتب لها البقاء کلها لأنها عمل أفراد کما قلنا. و لو لا ذلک لکانت أقرب إلی مقاومة الحوادث. و هذا من جملة آفات هذا الشرق التعس. و أکثر هذه المدارس مما بدأ فیه الخراب فی أیام العثمانیین کما هو الحال فی مدارس دمشق و قد جاء فی تقویم سنة ۱۳۳۲ أن فی الشهباء (۳۲) مدرسة، و ما نظن العامر منها یتجاوز العشر و قد أنشئت فیها علی عهد العثمانیین.

(۲۴۱) «العثمانیة» أنشأها أحد ولاة حلب فی القرن العاشر و ما زالت عامرة یسکنها الطلبة.

(۲۴۲) «الشعبانیة».

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۱۴

(۲۴۳) «القرناصیة».

(۲۴۴) «السیافیة»

(۲۴۵) «الإسماعیلیة»

(۲۴۶) «المنصوریة»

(۲۴۷) «البهائیة»

(۲۴۸) «الخسرویة» التی مرت

(۲۴۹) «الکواکبیة» أنشأها سنة (۱۱۶۷) السید أحمد بن السید أبی السعود ابن السید أحمد الکواکبی فی محلة الجلوم الصغری و أودعها کتبا قیمة تفرقت أیدی سبا.

(۲۵۰) «الأحمدیة» أنشأها سنة (۱۱۶۶) علی صلحاء أکراد ما وراء الموصل. و فیها نحو ثلاثة آلاف کتاب، القاضی أحمد بن طه زاده

المشتهر بالچلبی.

(۲۵۱) «الهاشمیة» فی محلة الفرافرة، أنشأها هاشم الدلال باشی من أصحاب الأملاک بحلب سنة عشر و ثلاثمائة و ألف.

(۲۵۲) «الدلیوانیة» کانت مسجدا فرممه محمد أسعد باشا الجابری سنة (۱۳۲۳) و جعل فیها ست حجر للطلبة و حجرة للمدرس یدرس فیها الفقه الشافعی، و شرط أن یکون الطلبة غرباء.

(۲۵۳) «البلاطیة» هی زاویة مشروط فیها إقامة عشرة من الطلبة الحنفیة و لها إمام و مؤذن و مدرس و لهم طعام، وقفها الأمیر زین الدین الحاج بلاـط الـدوادار و هی خـارج بـاب المقـام، بقی من آثارهـا إیوان کبیر و ست حجر یسـکنها الفقراء، عمرت فی منتصف القرن التاسع.

(۲۵۴) «التجهیز» أنشـئت فی صـفر سـنة عشر و ثلاثمائة و ألف باسم المکتب السلطانی، و هی فی غربی حلب فی محلة اسمها السلیمیة أو الجمیلیة و هی دار التجهیز و المعلمین.

(۲۵۵) «الصنائع» أسست هذه المدرسة سنة (۱۳۱۹) فی دار الصابونی من محلة باب قنسرین، ثم اتخذ لها بناء خاص فی محلة السلیمیة.

(۲۵۶) «الأمیری» هو جامع لکن فیه حجر للدرس و مدرس للحدیث و الفقه و النحو.

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۱۵

هذا عدا المدارس الابتدائیة و المدارس التی لغیر المسلمین و هی عدیدة.

و لیس فی تاریـخ حلب ما یـدل علی أنه کان فیها کما کان فی دمشق دور للقرآن، بل کان فیها دار القرآن الحبشـیة المنسوبة إلی أبی العشائر المطل شباکها علی الجامع الکبیر درس بها أبو الوفاء العرضی سنة (۱۰۷۱).

و ذکر ابن جبیر فی المئـة السادسـة أنه کـان یتصـل من الجـانب الغربی من جـامع حلب مدرسـة للحنفیـة تناسب الجامع حسـنا و إتقان صنعـة، فهما فی الحسن روضـة تجاور أخری قال: و هذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه من المدارس بناء و غرابة صـنعة، و من أطرف ما یلحظ فیها أن جدارها القبلی مفتح کله بیوتا و غرفا و له طیقان یتصل بعضـها ببعض، و قد امتد بطول الجدار عریش کرم مثمر عنبا، فحصل لکل طاق من تلک الطیقان قسطها من ذلک العنب متدلیا أمامها فیمد الساکن فیها یده و یجتنیه متکئا دون کلفة و لا مشقة.

و للبلدة سوی هذه المدارس نحو أربع مدارس أو خمس. قلنا: و لعله یقصد بکلامه المدرسة الحلاویة العامرة إلی الیوم.

و قـد درّس فی هـذه المـدارس أجلـة علماء الشـهباء و الوافـدین علیها من الأئمـة، و کانت کمدارس دمشق و القدس تقرئ الطالب ما ینفعه فی دینه و دنیاه. و یقول منش: إن المـدارس تکاثرت فی حلب علی عهـد أولاد صـلاح الـدین و ازدهرت معارفها و آدابها حتی بلغت أربعا و أربعین مدرسة أو تزید، ثلاث منها لعلوم الطب و لم یتعرض من کتبوا علی مدارس حلب لوصف مدارس الطب.

(۲۵۷) «القرموطیة» إنشاء عبد القادر بن قرموط سنة (۸۸۲) جددها عبد الرحمن بن قرموط سنة (۹۷۸) و هی الآن مکتب.

(۲۵۸) «الشاذلیـة» و قیل هی دار حـدیث قرب مسـجد النحویین فی سویقة الحجارین، کانت ضـیقة فتجددت قبلیتها و بابها و اسـتخرج منها دکانان.

(۲۵۹) «البولادیة» فی محلة باب المقام فی الصف الشرقی من الجادة، خربة یسکنها الفقراء.

(۲۶۰) مدرسة للشافعیة هی تربة العلمی فی محلة الدحدیلة.

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۱۶

(۲۶۱) «القلقاسیة» قبلی القلعة مندثرة.

(۲۶۲) «الصروی» ملحقة فی جامع الصروی فی محلة البیاضة أنشئت سنة (۹۲۰).

(۲۶۳) «الرحیمیة» أنشأتها رحمة بنت عبد القادر بن أحمد بک فی محلة مستدمبک سنة (۱۱۵۶).

(۲۶۴) «مدرسة تجاه زاویة الکیال» لا یعرف اسم بانیها هی الیوم مسکن للفقراء.

(۲۶۵) مدرسة من مشتملات جامع السكاكينى فى محلة الأعجام.

(۲۶۶) «الدفتردار» منسوبة لبيت العقاد بجانب سبيل البيك داخل محلة باب المقام.

(۲۶۷) مدرسة داخل بوابة النبى لا أثر لها.

(۲۶۸) مدرسة خارج بوابة النبى لا أثر لها.

(۲۶۹) مدرسة بجانب الالچاية السالفة الذكر تعرف بالصاحبية أنشأها بهاء الدين يوسف بن رافع المعروف بابن شداد لا أثر لها.

(۲۷۰) مدرسة تجاه سابقتها لنور الدين زنكى لا أثر لها.

(۲۷۱) «تربة ألطونبغا» و تعرف الآن بالمدرسة بلا اسم.

(۲۷۲) «نصر اللّه» فى محلة بحسيتا تجاه كنيس اليهود بزقاق المدرسة معطلة موهنة.

مدارس القدس:

مدارس بيت المقدس كمدارس دمشق و حلب من حيث البناء و الترتيب و الوقوف عليها، و معظمها مما أقامه الملوك و الأمراء و الأغنياء و العلماء، و لم يكتب لها البقاء كثيرا لأنها كلها من عمل الأفراد، و عمل الأفراد مهدد بالوهن فى كل قرن، ضربها الدهر ضرباته، و عبث بجمالها و قطع أوصالها، و لو كانت من عمل الجماعات كمدارس الغرب فى بيت المقدس نفسه، لكتب لها البقاء أكثر، و لكانت أحكم و أعظم.

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۱۷

و أقدم مدارس بيت المقدس ما بنى على عهد صلاح الدين يوسف بن أيوب عقيب استخلاصه هذه المدينة من أيدى الصليبيين، ثم توفر أهل الخير من الأمراء و الأغنياء، و منهم النساء و الإماء، فأنشأوا منها ما أنشأوا عنوان الغيرة على العلم و بث الفضائل. و قد عدد مجير الدين الحنبلى ما كان على عهده منها فى القدس و الخليل فقال: إنه كان فى بيت المقدس من المدارس:

(۲۷۳) «المدرسة الفارسية» بجوار المسجد الأقصى بالقرب من بئر الورقة منسوبة لوقف المدرسة الفارسية التى شرقى المسجد وقفها الأمير فارس البكى، و هى عامرة فيها دار كتب المسجد الأقصى.

(۲۷۴) «النحوية» على طرف صحن الصخرة من جهة القبلة إلى الغرب بانيها الملك المعظم عيسى سنة أربع و ستمائة كان يدرس فيها الكتاب لسيبويه.

(۲۷۵) «النصرية» كانت على برج باب الرحمة مدرسة تعرف بالنصرية للشيخ نصر المقدسى، ثم عرفت بالغزالية نسبة لأبى حامد الغزالى و قد اعتكف فيها و أتم تأليف كتابه إحياء العلوم فيما قيل. ثم أنشأها الملك المعظم عيسى و جعلها زاوية لقراءة القرآن و الاشتغال بالنحو و وقف عليها كتبا و تاريخ وقفها سنة (۶۱۰) و يقول مجير الدين: إنها دثرت فى عصره و هى الآن غرفتان عامرتان معدتان للزيارة.

(۲۷۶) «التنكزية» واقفها الأمير تنكز الناصرى نائب الشام، و هى مدرسة عظيمة ليس فى المدارس أتقن من بنائها عمرت سنة (۷۲۹) و هى بجانب باب الحرم بجوار باب السلسلة مجاورة للسور من جهة الغرب، و لا تزال عامرة و هى مقر المحكمة الشرعية.

(۲۷۷) «البلدية» بجانب باب الحرم جوار باب السلسلة، واقفها الأمير منكلى بغا الأحمدى نائب حلب و دفن فيها سنة (۷۸۲) و ما برحت عامرة و لكنها دار للسكنى.

(۲۷۸) «الأشرفية» داخل المسجد الأقصى بالقرب من باب السلسلة، عمرها الملك الأشرف قايتباى و بدئ بحفر أساسها (۸۸۵)، و كانت قبتها ثالث القباب المهمة فى القدس. و الأولى قبة الصخرة و الثانية قبة الأقصى.

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۱۸

و قد تكاملت هذه المدرسة (۸۸۷) و كانت طبقتين سفلية و علوية، و لعلها آخر المدارس الإسلامية الفخمة التى أنشئت من هذا الطراز فى بيت المقدس، على كثرة ما وقف عليها من الأوقاف لم يبق منها إلا سطحها و بابها و عليه كتابة من عهد الأشرف.

(۲۷۹) «العثمانية» بباب المتوضإ بجوار الحرم، واقفتها امرأة من أكابر الروم اسمها أصفهان شاه خاتون و تدعى خانم، و عليها أوقاف ببلاد الروم و غيرها، و على بابها تاريخها فى سنة أربعين و ثمانمائة و هى لا تزال عامرة و تسكنها أسرة.

(۲۸۰) «الخاتونية» بباب الحديد جوار الحرم واقفتها أغل خاتون بنت شمس الدين محمد بن سيف الدين القازانية البغدادية، ثم أكملت عمارتها و وقفت عليها أصفهان شاه بنت الأمير قازان شاه (۷۸۲) و ما حبس عليها من المغل غير معلوم، و هى اليوم دار سكن فيها قبر السيدة خاتون القازانية البغدادية.

(۲۸۱) «الأرغونية» بباب الحديد جوار الحرم، واقفها أرغون الكاملى نائب الشام و هو الذى استجد باب الحديد أحد أبواب المسجد، أكملت عمارتها سنة (۷۵۹) و هى الآن دار سكنى و قد ضاعت أوقافها و أحباسها و فيها قبر أرغون شاه.

(۲۸۲) «المزهرية» بباب الحديد جوار الحرم، وقفها المقر الزينى أبو بكر بن مزهر الأنصارى صاحب ديوان الإنشاء بالديار المصرية، و بعضها راكب على ظهر الأرغونية، و لها مجمع على أروقة المسجد و كان الفراغ من بنائها فى سنة (۸۸۵) و قد غدت دارا للسكنى و قسم منها خراب.

(۲۸۳) «الجوهرية» بباب الحديد جوار الحرم الشريف و بعضها على رباط كرد. واقفها الصفوى جوهر زمام الادر الشريفة فى سنة (۸۴۴) و هى الآن دار للسكنى.

(۲۸۴) «المنجكية» بباب الناظر جوار الحرم وقفها الأمير منجك نائب الشام و نقل مجير الدين أن الأمير كان وصل إلى القدس الشريف ليبنى المدرسة للسلطان الملك الناصر حسن، فلما قتل السلطان فى سنة اثنتين و ستين و سبعمائة بناها لنفسه و نسبت إليه، و وقف عليها و رتب لها فقهاء و أرباب

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۱۹

وظائف ثم تلاشت ثم عمرت، و لا تزال معمورة إلى هذا العصر، و قد أتقن عمارها فى العهد الأخير و أقام فيها المجلس الشرعى الإسلامى الأعلى.

(۲۸۵) «الجاولية» فى الجهة الشمالية، واقفها الأمير علم الدين سنجر الجاولى نائب غزة توفى (۷۴۵) ضاعت أوقافها و هى اليوم قسم من كلية روضة المعارف الوطنية.

(۲۸۶) «النصيبية» فى الجهة الشمالية، واقفها الأمير علاء الدين على ابن ناصر الدين محمد نائب قلعة نصيبين، ولى نيابة القدس و عمر بها المدرسة و توفى بدمشق سنة (۸۰۹) و نقل إلى هذه المدرسة و هى اليوم قسم من كلية روضة المعارف الوطنية.

(۲۸۷) «الإسعردية» جوار الحرم إلى الشمال، واقفها الخواجة مجد الدين عبد الغنى الإسعردى و تاريخ وقفها (۷۷۰) و لا تزال عامرة. و قد شرع فى ترميمها منذ عهد غير بعيد لنقل دار كتب المسجد الأقصى إليها و إقامة قاعة للمحاضرات فيها.

(۲۸۸) «المالكية» إلى شمالى الحرم، عمرها الحاج ملك الجوكندار، و كان بناؤها فى مستهل المحرم سنة إحدى و أربعين و سبعمائة. و هى تابعة للإسعردية و ما برحت عامرة.

(۲۸۹) «الفارسية» إلى شمالى الحرم، واقفها الأمير فارس البكى ابن الأمير قطلو ملك بن عبد اللّه نائب السلطنة بالأعمال الساحلية و الجبلية و نائب غزة، و هو الذى نسبت إليه الفارسية بداخل المسجد الأقصى و هذه الآن دار سكن و كان يدرس فيها الخالدية.

(۲۹۰) «الأمينية» بباب شرف الأنبياء المعروف بباب الدويدارية بجوار المسجد، واقفها الصاحب أمين الدين عبد اللّه فى سنة ثلاثين و سبعمائة و هى دار سكن.

(۲۹۱) «الدويدارية» بباب شرف الأنبياء جوار الجامع، واقفها الأمير علم الدين أبو موسى سنجر الصالحى النجمى و تاريخ وقفها سنة

(۶۹۶) و فیها الیوم مدرسة البنات الإسلامیة.

(۲۹۲) «الباسطیة» بباب شرف الأنبیاء، بعضها علی المدرسة الدویداریة،

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۲۰

واقفها زین الدین عبد الباسط بن خلیل الدمشقی ناظر الجیوش المنصورة و عزیز المملکة وقفها سنة (۸۳۴) لا- تزال موجودة تابعة للدویداریة و فیها مدرسة البنات الإسلامیة.

(۲۹۳) «الکریمیة» بباب حطة جوار الحرم، واقفها الصاحب کریم الدین بن المعلم هبة اللّه بن مکانس ناظر الخواص الشریفة بالدیار المصریة سنة (۷۱۸) و هی الآن دار سکن.

(۲۹۴) «الدلغادریة» بباب حطة جوار الحرم، واقفها الأمیر ناصر الدین ابن دلغادر بعد أن عمرتها زوجته مصر خاتون وقفها سنة (۸۹۷) و هی دارسة.

(۲۹۵) «الطولونیة» داخل المسجد علی الرواق الشمالی، کان یصعد إلیها من السلم الموصل منه إلی منارة باب الأسباط، أنشأها أحمد بن الناصری محمد الطولونی الظاهر زمن الملک الظاهر برقوق سنة (۸۲۷) و هی من المدارس الداثرة.

(۲۹۶) «الفنریة» مقابل الطولونیة من جهة الشرق، کان یصعد إلیها من السلم المتصل منها إلی منارة باب الأسباط أیضا، و هی من إنشاء الطولونی عمرها مع مدرسته المقدم ذکرها و جعلها للملک الظاهر برقوق، فلما توفی الظاهر و آل الأمر لولده الملک الناصر فرج رتب لها قری و أقام نظامها و جعل لها معالیم تصرف علیها، ثم لما توفی الناصر فرج لم یکن لها کتاب وقف فاشتراها بعد وفاته رجل من الترک یقال له محمد شاه بن الفنری الرومی و وقفها و نسبت إلیه، و قد درست و أصبحت مساکن.

(۲۹۷) «الحسنیة» علی باب الأسباط، وقف شاهین الحسنی الطواشی من دولة الملک الناصر حسن المتوفی سنة (۷۶۲) هی الآن دارسة.

(۲۹۸) «الصلاحیة» بالقرب من السور من جهة الشمال بباب الأسباط وقف صلاح الدین علی الشافعیة. ذکر المؤرخون أن صلاح الدین کان نازلا فی کنیسة صهیون ففاوض جلساءه من العلماء الأکابر فی أن یبنی مدرسة للفقهاء الشافعیة و رباطا للصلحاء الصوفیة، فعین للمدرسة الکنیسة المعروفة بصندحنة عند باب أسباط، و عین دار البطرک و هی بقرب کنیسة

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۲۱

القمامة للرباط، و وقف علیها وقوفا، و ارتاد أیضا مدارس للطوائف، و قیل: کان موضع هذه المدرسة دیرا للراهبات أقیم فی مکان بیت القدیسین یواکیم وحنة فهدمه الملک و أقام المدرسة مکانه. و تاریخ وقفها (۵۸۸) و وظیفة مشیختها من الوظائف السنیة بمملکة الإسلام. و کان الأتراک نزلوا عن هذه المدرسة للآباء البیض فی القرن الماضی فجعلوها مدرسة أکلیرکیة، و فی الحرب العامة أخذها الترک و جعلوها مدرسة للعلوم الدینیة، فلما سقطت القدس فی أیدی الحلفاء رجعت إلی المسیحیین کنیسة.

(۲۹۹) «الکاملیة» بخط باب حطة بجوار الکریمیة من جهة الشمال، واقفها الحاج کامل من أهالی طرابلس کتب محضر بوقفها سنة (۸۱۰) تعد فی الدوارس.

(۳۰۰) «المعظمیة» وقف الملک المعظم عیسی مقابل باب شرف الأنبیاء المعروف بباب الدویداریة، تاریخ وقفها سنة ستین و ستمائة و هی معمورة و کان یدرس فیها الخالدیة خصوصا الکافیة و الهدایة.

(۳۰۱) «السلامیة» بباب شرف الأنبیاء تجاه المعظمیة و هی بجوار المدرسة الدویداریة من جهة الشمال، واقفها الخواجا مجد الدین أبو الفداء إسماعیل السلامی و الظاهر أنها وقفت بعد السبعمائة و هی دار قرآن و لا تزال دار سکن.

(۳۰۲) «الوجیهیة» بخط درج المولة. وقف وجیه الدین محمد بن عثمان بن أسعد بن المنجا الحنبلی المتوفی فی سنة (۷۴۵) هی الآن دار للسکن.

(۳۰۳) «المحدثیة» بالقرب من الوجیهیة عند قبو باب الفواغة بجوار الحرم، واقفها عز الدین أبو محمد عبد العزیز العجمی الأردبیلی

سنة (۷۶۲) و هی الیوم قسم من کلیة روضة المعارف الوطنیة.

(۳۰۴) «الحسنیة» بباب الناظر علی رباط علاء الدین البصیر، واقفها ناظر الحرمین الشریفین و نائب السلطنة بالقدس، و کان بناؤها فی سنة (۸۳۷) و هی لعهدنا دار سکن.

(۳۰۵) «التّشتمریة» بباب الناظر بالقرب من الحسنیة، واقفها الأمیر تشتمر السیفی، تاریخ وقفها (۷۵۹) و هی دار سکن.

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۲۲

(۳۰۶) «البارودیة» بباب الناظر بالقرب من التشتمریة، واقفتها الست الحاجة سفری خاتون ابنة شرف الدین أبی بکر بن محمود المعروف والدها بالبارودی تاریخ وقفها سنة (۷۶۸) هی الیوم دار سکن.

(۳۰۷) «الجهارکسیة» بجوار الیونسیة من جهة الشمال، کانت کنیسة من بناء الروم قسمت نصفین، جعل الأول المدرسة الجهارکسیة و الثانی الزاویة الیونسیة. و الجهارکسیة نسبة لواقفها الأمیر جرکس الخلیلی المتوفی سنة (۷۹۱)، لا تزال معمورة.

(۳۰۸) «الحنبلیة» بباب الحدید، واقفها الأمیر بیدمر نائب الشام فرغ من بنائها (۷۸۱) و هی دار سکن.

(۳۰۹) «دار الحدیث» بجوار التربة الجالقیة من جهة الغرب نسبة لرکن الدین الکبیر العجمی المعروف بالجالق. واقفها الأمیر شرف الدین عیسی بن بدر الدین أبی القاسم الهکاری (۶۶۶).

(۳۱۰) «دار القرآن السلامیة» تجاه دار الحدیث، واقفها سراج الدین عمر بن أبی بکر أبی القاسم السلامی (۷۶۱) لم تبرح معروفة.

(۳۱۱) «الطازیة» بخط داود بالقرب من باب السلسلة، وقف الأمیر طاز المتوفی (۷۶۳) موجودة إلی الآن دار سکن.

(۳۱۲) «الأفضلیة» و تعرف قدیما بالقبة بحارة المغاربة، وقف الملک الأفضل نور الدین أبی الحسن علی بن الملک صلاح الدین علی فقهاء المالکیة بالقدس، و وقف أیضا حارة المغاربة علی طائفة المغاربة علی اختلاف أجناسهم ذکورهم و إناثهم، و هی دار سکن الآن.

(۳۱۳) «اللؤلؤیة» بخط مرزبان بجوار حمام علاء الدین البصیر من جهة الشمال أو بباب العامود، واقفها الأمیر لؤلؤ غازی عتیق الملک الأشرف شعبان بن حسن لا تزال موجودة و قسم منها زاویة.

(۳۱۴) «البدریة» قرب اللؤلؤیة بخط مرزبان، وقفها بدر الدین محمد ابن أبی القاسم الهکاری و هی دار سکن.

(۳۱۵) «المیمونیة» عند باب الساهرة و کانت کنیسة من بناء الروم، واقفها الأمیر فارس الدین أبو سعید میمون القصری (۵۹۳) حولت إلی

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۲۳

مدرسة فی عهد العثمانیین، و هی الآن مدرسة بنات للمعارف و جعل اسمها «المأمونیة».

(۳۱۶) «الأباصیریة» مدرسة تنسب للأمیر علاء الدین الأباصیری، کانت بجوار باب الناظر و هی معمورة یسکنها فقراء السودان و کانت فی عهد الأتراک قسما من السجن.

(۳۱۷) «الموصلیة» بباب شرف الأنبیاء بجوار المسجد الأقصی، و نسبت للخواجة فخر الدین الموصلی و هی عامرة.

هذه خمس و أربعون مدرسة عمرت کلها قبل عهد العثمانیین و ما ندری إن کانت أنشئت فی زمنهم الطویل مدرسة للفقه أو دار للحدیث أو القرآن، و أکثر هذه المدارس من البناء الحجری الجید و فیها یتجلی جمال الهندسة العربیة و بعضها لم یقو علی عوادی الأیام فتداعی فی عصر واقفه، و بعضه مما سطا علیه أکلة الأوقاف فاضمحل بالطبیعة، لم تشفع فیه متانة بنائه و إحکام بنیانه، و أکثره مما صبر علی الأیام و بقی إلی الآن مثالا ناطقا بفضل البانین و الواقفین لکنه تعطل عما کان وقف علیه من التدریس و الملازمة.

و کیف دارت الحال فعدد الباقی من مدارس بیت المقدس بالنسبة لما بقی من نوعه فی دمشق و حلب أکثر و لا یعلل ذلک إلا أن أرباب العدوان علی الوقوف و الأحباس لم یتیسر لهم أن یتسلطوا علیها و کان لهم من عنایة غیر المسلمین بمدارسهم و دیاراتهم فی

القدس عبرة و عظة.

و كان فى قرية الطور (۳۱۸) «المدرسة المنصورية» و هى خراب.

و بمحلة الواد (۳۱۹) «المدرسة العثمانية».

و بباب السلسلة (۳۲۰) «المدرسة الكيلانية».

(۳۲۱) «الدقمرية».

(۳۲۲) «المرمرية».

(۳۲۳) «البرقوقية».

(۳۲۴) «الرشيدية».

و بباب المناظر (۳۲۵) «الفرهادية».

و بباب حطة (۳۲۶) «الصلاحية».

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۲۴

و فى القدس اليوم مدارس مهمة لطوائف النصارى و لجماعة الصهيونيين تحتاج إلى درس خاص ففيها من حيث العمران ما هو ذو شأن و إن كان حديثا على طراز غربى فى البناء لا صلة بينه و بين هندسة هذه الديار، لذلك ليس له فى النفس تلك الروعة التى يجدها المرء لمدارسنا القديمة المتقنة الأوضاع.

بقية مدارس القطر:

ذكر من زاروا حماة فى القرنين السابع و الثامن أنه كان فيها ثلاث مدارس و بيمارستان و أن فيها زوايا و ربطا. و ليس لهذه المدارس من أثر اليوم. و من جملة مدارسها:

(۳۲۷) «المدرسة الخاتونية» لمؤسستها مؤنسة خاتون بنت الملك المظفر صاحب حماة أنشأتها و نسبت إليها فسميت الخاتونية و وقفت عليها وقفا جليلا و كتبا، و هى الآن بستان فى مبدإ طريق محلة الجراجمة على يسار المنحدر إلى باب النهر.

(۴۲) «المدرسة الطواشية» فى محلة المدينة، وقفها الطواشى مرشد فى دولة الملك المنصور تجاه باب الجامع الكبير الشمالى فى جانب حمام الذهب الشرقى، خربت بعد الألف و هى الآن دارسة، و كانت عظيمة جدا و لها أوقاف مهمة و لم يبق منها إلا آثار الجدران فى البستان.

(۳۲۸) «المدرسة البارزية» و هى للشافعية و قد خربت أيضا.

(۳۲۹) «المدرسة العصرونية» فى باب حمص على ضفة العاصى قرب بستان الجبل، كانت دار قرآن و كان لها جامع و داران متصلان بها، و فى جدارها كتابة حجرية إلى اليوم مقروءة و خلاصتها أن الأمير نجم الدين التوتان بن ياروق أنشأها سنة (۵۸۴) و عمر مسجدها و كتب عليها: أمر بعمل هذه الدار المباركة السيد الفقير إلى اللّه تعالى محمد بن محمد بن أبى بكر الشافعى خلا قبلها و ما استثنى، جعلها دار قرآن و وقف عليها أوقافا كثيرة لتسكن فى هذه الديار من فقراء المسلمين الغرباء مقيمين بها ليلا و نهارا يتلون كتاب اللّه و يتذاكرونه بينهم و يدعون للواقف و لوالديه و للمسلمين. و قرر بها شيخين يعلمونهم القرآن الكريم و يكون مقام الفقير فيها مدة خمس سنين

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۲۵

فإن ختم القرآن أو مضت المدة المعينة فيكسى ثوبا أو جبة، جعلها اللّه خالصة لوجهه الكريم فى شوال سنة خمس عشرة و سبعمائة.

(۳۳۰) «المدرسة العزية» كانت فى محلة باب الجسر، بناها محمد ابن حمزة العزى بجوار جامع العزى فى شهور سنة (۷۲۷) و هى

خراب.

(۳۳۱) «المدرسة النوریة» کانت قریبة من جامع نور الدین و بعد أن عفت آثارها جددها سیف الدین الکیلانی و جعلت تکیة.

(۳۳۲) «المدرسة الحنفیة» هی القطعة الشرقیة من حرم جامع نور الدین، بناها الملک المؤید صاحب حماة. و هذه إحدی المدارس التی أشار إلیها ابن جبیر التی کانت حذاء المارستان و الثانیة النوریة و الثالثة لا یعرف مکانها.

(۳۳۳) «المدرسة الشیخیة» و هی الزاویة السفاحیة فی الموقف بناها قاضی القضاة نجم الدین عبد الظاهر بن السفاح الحلبی و کانت تسمی مدرسة الشیخة و قد وقف لها حولها أوقافا کثیرة.

(۳۳۴) «المدرسة المظفریة» کانت فی جانب الجامع الکبیر إلی الغرب، فی محلة المدینة، بناها الملک المظفر تقی الدین عمر.

و کان لجمیع هذه المدارس أوقاف دارة علی الطلبة و المدرسین و معالیم لهم، و قد کتب علی باب جامع النوری فی الحجر ما یستفاد منه أن أحد الملوک وقف علی طلبة العلم فیه خمسة عشر ألف درهم فی کل سنة استجلابا لأدعیتهم و إعانة لهم علی طلب العلم. و یقال علی الجملة: إن مدارس حماة حسنة من حسنات بیت أیوب فإن بضعة منهم تولوا مملکتها فعمروها بعلمهم و عدلهم و نشطوا العلماء و أفضلوا علی المعوزین.

و لیس فی حمص مدارس قدیمة، و قد ذکر ابن جبیر فی المئة السادسة أن بها مدرسة واحدة و لیس بها مستشفی علی رسم مدن هذه الجهات. و قال یاقوت فی القرن السابع: إنه کان بها مدارس. و قال الظاهری فی القرن التاسع:

إن بها مدارس. و هذه المدارس لا أثر لها.

و من أهم مدارس طرابلس (۳۳۵) «المدرسة القرطائیة» أفخم مدارس طرابلس کلها و هی ملاصقة للجامع الکبیر من الجهة الشرقیة، و قد ذهب

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۲۶

اسم بانیها بالتحقیق و زمن بنائها مع الکتابة التی طمست لإخفاء أوقافها التی کانت محفورة علی ظهر جدارها القبلی، و المظنون أن بانیها هو قرطای ابن عبد اللّه الناصری الذی أقام المنبر بالجامع الکبیر الأشرفی و ذکر اسمه هناک، و کان تاریخ بنائه فی شهر ذی القعدة (۷۲۶) و هذه المدرسة تشبه من وجوه کثیرة جامع البرطای و تقام فیها الصلوات و هی ملحقة بالجامع الکبیر.

(۳۳۶) «مدرسة تغری برمش» بباب الحدید علی الطریق الآخذة إلی المولویة، و المشهور عند أهل طرابلس أن بانیها الملک الظاهر بیبرس، و لیس الأمر کذلک و هذه صورة الکتابة التاریخیة التی فوق بابها:

«بسم اللّه الرحمن الرحیم. المال و البنون زینة الحیاة الدنیا و الباقیات الصالحات خیر عند ربک ثوابا و خیر أملا، قوله الحق و له الملک. عمر هذا المکان المبارک المقر السیفی تغری برمش الظاهری أعز اللّه أنصاره مسجدا للّه تعالی و تربة لدفن ولدیه الأخوین الشقیقین السعیدین سیدی الأمیر قالتمر و سیدی الأمیر تغری بردی الطفلین المنغصین علی الدنیا المتجاورین فی دار الآخرة تغمدهما اللّه برحمته و أسکنهما فسیح جنته، و جمع بینهما فی دار کرامته. و ذلک فی ثالث شهر اللّه المحرم سنة تسع و تسعین و سبعمائة و رحم اللّه من یترحم علیهما». و هذه المدرسة متداعیة للسقوط.

(۳۳۷) «المدرسة الزریقیة» هی فی محلة السویقة داخل طرابلس و هی متسعة و لا تقام فیها الصلوات و هذه صورة الکتابة التاریخیة التی علیها:

«أمر بإنشاء هذه الزاویة المبارکة العبد الفقیر إلی اللّه تعالی سیف الدین کرنای السیفی و ذلک بتاریخ شهر شوال سنة ثمان و ثلاثین و سبعمائة».

(۳۳۸) «المدرسة السقرقیة» تقع فی طرف المدینة للجهة الغربیة علی الطریق الآخذة إلی جبانة باب الرمل، بناها آقطرق الحاجب مسجدا للّه تعالی و تربة للدفن و علی حائطها لجهة الجنوب الشرقی کتب الوقفیة بأحرف غلیظة ظاهرة فیها اسم بانیها و تعداد

العقارات الموقوفة على المسجد و شروط الواقف

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۲۷

لصرف ريعها و فيها أن كتاب الوقف مؤرخ بمنتصف ذى القعدة الحرام سنة (۷۵۷).

(۳۳۹) «الخاتونية» تقع أمام المدرسة السقرقية، بنتها أرغون خاتون بالاشتراك مع زوجها و معتقها عز الدين ايدمر الأشرفى والى طرابلس، و كان الفراغ من بنائها فى سنة (۷۷۵) كما هو مذكور فى كتاب الوقف المحفور عند مدخل المدرسة المذكورة و فيها أسماء العقارات الموقوفة عليها و شروط الواقفة لصرف ريعها و إقام الصلوات فيها.

(۳۴۰) «مدرسة دبّها» بناها الشيخ عبد اللّه الدبها الحلبى من أصحاب الطريقة النقشبندية قريبا من سوق الصاغة سنة (۱۲۳۴) على ما زبر ذلك على بابها، و وقف عليها أوقافا حسنة و دفن فيها و تقام فيها الصلوات.

و فى طرابلس مدارس و زوايا و خوانق أخرى لا يعلم اسم بانيها و لا زمن بنائها و بعضها مهجور مقفر و آخر متداع.

و من مدارس الشام (۳۴۱) «مدرسة حصن الأكراد» أنشأها والى هذه البليدة بكتمر بن عبد اللّه الحر الأشرفى زاوية و مدرسة و بيمارستانا بأموال جسيمة على الصادى و الغادى من أبناء السبيل و ذلك فى سنة (۷۱۹).

و منها (۳۴۲) «رباط خليل الرحمن» أنشأه قلاوون سنة (۶۷۹) صاحب الآثار فى دمشق و القدس و الخليل و غيرها.

و منها (۳۴۳) «مدرسة غزة» أنشأها للشافعية الأمير الكبير علم الدين الجاولى الذى سمع مسند الشافعى بالكرك على دانيال، و عمل نيابة السلطنة فى غزة و بنى بها مدرسة و جامعا حسنا، و له عمائر كثيرة و خانات توفى سنة (۷۴۵).

و منها (۳۴۴) «خانقاه النجمية» فى بعلبك، عمره نجم الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين يوسف أيام ولايته عليها و خصه بالصوفية.

و منها (۳۴۵) «السيفية» بمدينة الصلت لمنشئها الأمير سيف الدين بكتمر والى الولاية سنة (۷۲۴).

و منها (۳۴۶) «الزبدانية» لواقفها محمد بن عبد الصمد بن عبد اللّه بن

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۲۸

حيدرة (۶۵۶) درس فيها فى سنة (۶۹۸) ابن العدل محى الدين يحيى بن محمد بن عبد الصمد و هى مدرسة جده.

و منها (۳۴۷) «الأمينية» بمدينة بصرى، و كانت عامرة فى القرن السادس و لم نعلم اسم بانيها.

و كان فى المعرة (۳۴۸) «مدرسة المعرة» قديمة للشافعية بنيت على ما يفهم مما كتب على رتاجها الجميل زمن الملك المنصور محمد أحد ملوك الأيوبيين فى حماة سنة (۵۹۵) و عمر فيها ابن الوردى مدرسة فى النصف الأول من المئة الثامنة.

و منها (۳۴۹) «مدرسة عزاز» أنشأها إسماعيل بن عبد الرحمن العزازى و ساق إليها القناة الحلوة و انتفع الجامع و كثير من المساجد بهذه القناة و له آثار حسنة غيرها توفى سنة (۷۴۸).

قال ابن طولون: كان فى ربوة دمشق مدرسة يقال لها المضجية (۳۵۰) و فى الأصل (المنبجة) موقوفة على مدرس حنفى و طلبته.

و كان فى منبج مدرسة بناها نور الدين محمود بن زنكى لابن أبى عصرون فى جملة ما بنى له من المدارس، و فى آثار البلاد أنه كان فيها مدارس و ربط.

و فى جباع و ميس و عيناتا و جزين و مشغرة و الشقراء من جبل عامل مدارس دينية تخرج فيها جلة فقهاء الشيعة و أدبائهم، و قد خربت و اضطر أهل عامل إلى إرسال بعض الطلبة إلى النجف الأشرف يدرسون فى مدارسها التى هى للشيعة بمثابة الأزهر فى القاهرة و الزيتونة فى تونس لأهل السنة.

و لا نعلم فى سائر مدن الشام ساحلها و داخلها شيئا من تاريخ المدارس و خططها فإن كانت فهى ضئيلة لأن قوة المسلمين فى هذه الديار كانت فى العواصم الكبرى حيث ينزل الملوك و الأمراء و الأغنياء، و سائر المدن ضعيفة الشأن فى هذا المعنى. و من الصعب

أن تقوم المدارس للطلبة فی القری. و کانت الکرک و صفد و بصری و الزبدانی و منبج و الرملة و غزة، و أکثرها الیوم أشبه بالقری منها بالمدن أکثر من بیروت و صیدا و صور و یافا و حیفا و عکا و اللاذقیة و جبلة و السویدیة و الإسکندرونة عمرانا، فقد ذکر الظاهری فی القرن التاسع أنه کان فی کل من غزة و صفد و بعلبک مدارس بصیغة الجمع، و منها ما

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۲۹

کان مرکزا من مراکز العلم مثل صفد. و مانخال بعض المدن التی أصبحت قری کانت خالیة أیضا من مدارس مثل کفر طاب بین المعرة و شیزر و لکن أخبارها ضاعت.

و من مدارس القطر مدرسة قایتبای فی غزة درست و یظن أنها قرب المسجد، و فیها مدرسة هاشم حدیثة العهد و فیها طلاب متعممون، و مدرسة أبی نبوت فی یافا، و مدرسة الجزار فی عکا، و مدرسة فی الجامع الکبیر المارستانیة فی نابلس، و مدرسة جامع الحنابلة، و مدرسة البیک و الصلاحیة فی نابلس أیضا و بجوارها الشیخ بدران شیخ المدرسة، کانت محکمة شرعیة و الآن تحولت مقهی.

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۳۰

الخوانق و الربط و الزوایا

خوانق دمشق:

الخانقاه کلمة فارسیة قیل: أصلها خونکاه أی الموضع الذی یأکل فیه الملک. و هی زوایا الصوفیة لم تعهد علی هذا النمط إلا فی القرن السادس، و أول من بناها من الملوک بمصر کما قال السیوطی السلطان صلاح الدین یوسف و رتب للفقراء الواردین أرزاقا معلومة. و قال المقریزی: إن الخوانک حدثت فی الإسلام فی حدود الأربعمائة من سنی الهجرة، و جعلت لیتخلّی الصوفیة فیها لعبادة اللّه تعالی، و إن أول من اتخذ بیتا للعبادة زید بن صوحان بن صبرة، و ذلک أنه عمد إلی رجال من أهل البصرة قد تفرغوا للعبادة و لیس لهم تجارات و لا غلات فبنی دورا و أسکنهم فیها و جعل لهم ما یقوم بمصالحهم من مطعم و مشرب و ملبس و غیره.

و قیل: إن أول خانقاه بنیت فی الإسلام للصوفیة زاویة برملة بیت المقدس بناها أمیر النصاری حین استولی الفرنج علی الدیار القدسیة، و سبب ذلک أنه رأی طائفة من الصوفیة و ألفتهم فی طریقتهم، فسأل عنهم ما هذه الألفة و الصحبة و الأخوة الخاصة بینکم فقالوا له: الألفة و الصحبة للّه طریقتنا.

فقال لهم: أبنی لکم مکانا لطیفا تتآلفون فیه و تتعبدون، فبنی لهم تلک الزاویة.

و فی التاج أن معاویة کان یکتب إلی أطرافه و عماله و إلی زیاد بالعراق بإطعام السابلة و الفقراء و ذوی الحاجة و له فی کل یوم أربعون مائدة یتقسمها وجوه جند الشام.

و لقد کان بدمشق من هذه الخوانق أو الخانقات ست و عشرون خانقاها علی ما فی الدارس و هی:

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۳۱

(۳۵۱) «الأسدیة» داخل باب الجابیة فی المحل المعروف بدرب الهاشمیة قدیما إنشاء أسد الدین شیر کوه، ولی مشیختها نجم الدین بن القرشیة العباسی و غیره و هی غیر معروفة.

(۳۵۲) «الإسکافیة» کانت علی نهر یزید بسفح قاسیون، إنشاء شرف الدین بن الإسکافی مجهول محلها.

(۳۵۳) «الأندلسیة» شرقی العزیزیة و الأشرفیة قرب الکلاسة ملاصقة للجقمقیة غربی السمیساطیة و هی المعروفة بأبی عبد اللّه الأندلسی و من صوفیتها شهاب الدین أحمد القبانی. و هذه الخانقاه الآن عمد قائمة لیس إلا.

(۳۵۴) «الباسطیة» کانت بالجسر الأبیض غربی الإسعردیة و شمالی العزیة إنشاء عبد الباسط بن خلیل ناظر الجیوش بعد الثمانمائة، ولی مشیختها قاضی القضاة الباعونی و هی الآن فی البساتین خراب.

(۳۵۵) «الحسامیة الشبلیة» شمالی الشبلیة البرانیة عند جسر کحیل منسوبة لأم حسام الدین عمر بن لاجین ولی مشیختها شرف الدین نعمان و هی غیر معروفة.

(۳۵۶) «الخاتونیة» ظاهر باب النصر المعروف بدار السعادة أول الشرف القبلی علی نهر بانیاس شرقی جامع تنکز و ملاصقة له منسوبة إلی خاتون بنت معین الدین زوجة نور الدین و هی الآن عمائر و بنایات.

(۳۵۷) «الدویریة» کانت بدرب السلسلة بباب البرید منسوبة لمحمد ابن عبد اللّه الدمشقی المقری المعدّل .

(۳۵۸) «الروزنهاریة» بالباب الشرقی من الجامع الأموی خارج باب الفرادیس فی المحل الذی کان یعرف ببرج المستجد، لأبی الحسن الروزنهاری لیست معروفة.

(۳۵۹) «السمیساطیة» للشمال الشرقی من الجامع الأموی، أسسها أبو

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۳۲

القاسم علی بن محمد السلمی المعروف بالحجیش السمیساطی المتوفی سنة (۴۵۳) قالوا: إنه دفن بداره بباب الناطفانیین المعروف الآن بباب العمارة و کان قد وقفها علی فقراء المؤمنین و الصوفیة و وقف علوها علی الجامع و حبس أکثر نعمته علی وجوه البر. و کانت هذه الدار دار عبد العزیز بن الولید و هو الأصبغ الأموی و ابن أخت عمر بن عبد العزیز، و قد سکنها عمر بن عبد العزیز لما ولی الخلافة و تولاها أناس من أکابر العلماء. وجددها تنکز فی سنة (۷۲۸) بناء جمیلا، و تنکز هذا جدد عمائر المساجد و المدارس و وسع الطرقات فی دمشق و له فی الشام عمائر و آثار. و قد نقضت منذ بضع سنین من أساسها وجدد بناؤها علی أن تجعل مدرسة راقیة للعلوم الدینیة فلم یتم لها هذا و رجعت حجرها مأوی البطالین.

ذکر القلقشندی من الوظائف الدینیة بدمشق فی القرن التاسع وظیفة شیخ الشیوخ، و موضوعها التحدث علی جمیع الخوانق و الفقراء بدمشق و أعمالها، و العادة أن یکون متولیها شیخ الخانقاه السمیساطیة بدمشق.

(۳۶۰) «الشومانیة» أنشأها شومان ظهیر الدین أحد ممالیک بنی أیوب و لم یذکر فی الدارس غیر هذا.

(۳۶۱) «الشهابیة» داخل باب الفرج غربی العادلیة الکبری و شمالی المعینیة إنشاء الأمیر ایدکین بن عبد اللّه مملوک الأمیر الطواشی شهاب الدین رشید النجمی سنة (۶۵۰) خربت فی وقعة تیمور (۸۰۳) و لم تتجدد بعد، و هی الآن دور و أنقاضها ظاهرة بأحجارها النحیتة.

(۳۶۲) «الشبلیة» إنشاء شبل الدولة کافور المعظمی بإزاء الشبلیة البرانیة المتقدمة علی نهر ثورة بسفح قاسیون، ولیها نجم الدین بن برکات بن القرشیة البعلی و غیره و لا یعرف عنها غیر هذا.

(۳۶۳) «الشنباشیة» بحارة البلاطة تعرف بأبی عبد اللّه الشنباشی کانت مدرسة للإناث.

(۳۶۴) «الشریفیة» تجاه العرویة شرقی دار الحدیث الأشرفیة ملاصقة للطومانیة شرقی باب القلعة و غربی العادلیة الصغری، إنشاء أحمد بن الفقاعی درس بها الفارقی و هی الآن حوانیت.

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۳۳

(۳۶۵) «خانقاه الطاحون» خارج البلد منسوبة لنور الدین تولاها الشیخ سعید الغثانی و هی داثرة.

(۳۶۶) «الطواویسیة» منسوبة للملک دقاق أو لابنه و هی المشهورة بجانب الکوجانیة و الطریق الآخذ إلی المرجة و الصالحیة و هی الیوم جامع اقتطعت الأوقاف من غربیها قطعة جعلتها للمستغلات.

(۳۶۷) «العزیة» بالجسر الأبیض علی نهر ثورة بالصالحیة قبلی الباسطیة و غربی الماردانیة و مدرسة إبراهیم الإسعردی، إنشاء عز الدین

آی دمیر الظاهری (۶۹۰) و هی محطة الترامواى الآن.

(۳۶۸) «خانقاه القصر» مطلة على الميدان الأخضر، إنشاء شمس الملوك ذهبت مع ما ذهب.

(۳۶۹) «القصاعية» كانت بالقصاعين أو سوق مدحت باشا اليوم إنشاء فاطمة خاتون خطليجى، خربت و لم يبق لها عين و لا أثر.

(۳۷۰) «الكجكجانية» بالشرف الأعلى بين الطواويسية و العزية و أمام شركة الكهرباء و الترامواى، إنشاء إبراهيم الكجكجانى لم تبرح قبتها ظاهرة.

(۳۷۱) «المجاهدية» إنشاء مجاهد الدين إبراهيم على الشرف القبلى سنة (۶۵۶) و لم يعلم منها و لا مكانها.

(۳۷۲) «النهرية» المشهورة بخانقاه عمر شاه بأول شارع القنوات شرقى سيدى خمار و هى الآن دار.

(۳۷۳) «النجيبية» جاء فى مختصر الدارس أنها بناحية باب البريد، إنشاء نجم الدين أيوب والد صلاح الدين و لا يعرف لها أثر.

(۳۷۴) «الناصرية» إنشاء صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز محمد ابن غازى بن أيوب بجبل قاسيون على نهر يزيد تقدم ذكرها فى دور الحديث صارت اليوم حاكورة صبار.

(۳۷۵) «الناصرية» منسوبة للناصر صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب بن شادى كانت بدرب خلف القيسارية، و هى غير معلومة.

(۳۷۶) «اليونسية» فى أول الشرف الأعلى الشمالى شرقى الخانقاه الطواويسية، إنشاء الأمير الشرفى يونس سنة (۷۸۴) هدمت و جعلت طريقا فى أيامنا.

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۳۴

و من الخوانق الحديثة (۳۷۷) «خانقاه أحمد باشا» الشهير بين أمراء الأروام أى العثمانيين بشمسى أحمد باشا تولى دمشق فطالت مدته و بنى فيها خانقاها قبالة قلعة دمشق من جانبها القبلى ملاصقة لخندقها و جعل فيها حجرات للصوفية و هى من محاسن دمشق. هذه رواية الحسن البورينى، و ما زالت هذه الخانقاه عامرة و لكن لا على الصورة التى أرادها الواقف بل صارت جامعا.

و من خوانق دمشق القديمة (۳۷۸) «خانقاه النحاسية» أنشأها الخواجة الكبير شمس الدين بن النحاس الدمشقى سنة (۶۲۲).

رباطات دمشق:

الرباط و يقال له التكية بالتركية قال الأميرى: و الخانقاه بالكاف يعنى الخانكاه و هى بالعجمية دار الصوفية و لم يتعرضوا للفرق بينهما و بين الزاوية و الرباط و هو المكان المسبل للأفعال الصالحة و العبادة. و أول من اتخذ دار الضيافة للواردين الوليد بن عبد الملك الأموى و اتخذ بعده عمر بن عبد العزيز دارا لطعام المساكين و الفقراء و ابن السبيل. و كان لنور الدين محمود بن زنكى يد طولى فى الاستكثار من الربط و الخوانق بنى منها فى جميع مملكته للصوفية و وقف عليها الوقوف الكثيرة و أدر عليها الإدارات الصالحة، و كان يكرم الصوفية و الفقهاء و العلماء. و قد جدد الظاهر دور الضيافة للرسل و الواردين.

و يؤخذ مما قاله المقريزى أن الرباط دار يسكنها أهل طريق اللّه، و الرباط و المرابطة ملازمة ثغر العدو ثم صار لزوم الثغر رباطا، و الرباط المواظبة على الأمر، و قيل لكل ثغر يدفع أهله عمن وراءهم رباط، فالمجاهد المرابط يدفع عمن وراءه، و المقيم فى الرباط على طاعة اللّه يدفع بدعائه البلاء عن العباد و البلاد، فالرباط بيت الصوفية و منزلهم، و لكل قوم دار و الرباط دارهم.

و كان بدمشق ثلاثة و عشرون رباطا و هى:

(۳۷۹) «رباط البيانى» داخل باب شرقى بحارة درب الحجر أو البيمارستان الآن. و البيانى نسبة لأبى البيان محمد بن محفوظ القرشى و يعرف بابن الحورانى لا يعرف عنه شىء أنشىء سنة (۵۰۱).

(۳۸۰) «رباط التكريتى» بالقرب من الرباط الناصرى بقاسيون، إنشاء

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۳۵

محمد بن على بن سويد التكريتى التاجر المثرى سنة (۶۷۰) غير معروف.

(۳۸۱) «رباط الشيخ محيى الدين» بالصالحية بناه على قبر محيى الدين ابن عربى السلطان سليم خان و جعله جامعا و تكية لطعام الفقراء فى سنة اثنتين و عشرين و تسعمائة قاله القرمانى. و هو موجود إلى اليوم.

(۳۸۲) «رباط صفية القلعية» بالقرب من المدرسة الظاهرية لا يعرف عنه شىء غير هذا.

(۳۸۳) «رباط زهرة» كان قرب حمام جاروخ و أمام فرن خليفة بجيرة دار الأمير مسعود ابن الست عذراء صاحبة المدرسة و هو غير معروف.

(۳۸۴) «رباط طومان» إنشاء طومان أحد أمراء السلجوقيين تحت القلعة و لا يعرف عنه شىء.

(۳۸۵) «رباط جاروخ التركمانى» لا يعرف عنه إلا أنه كان بباب الجابية.

(۳۸۶) «رباط غرس الدين خليل» من ولاة دمشق، كان معروفا بباب الجابية و هو مجهول.

(۳۸۷) «رباط المهرانى» و

(۳۸۸) «رباط البخارى» كانا عند باب الجابية و لا يعلم عنهما غير ذلك.

(۳۸۹) «رباط البافلاطونى» و

(۳۹۰) «رباط الفلكى» و

(۳۹۱) «رباط بنت السلّار» داخل باب السلامة و لا يعلم عنها شىء.

(۳۹۲) «رباط عذرا خاتون» كان داخل باب النصر غير معروف.

(۳۹۳) «رباط بدر الدين عمر».

(۳۹۴) «رباط الحبشية» بمحلة المعينية غير معروف.

(۳۹۵) «رباط أسد الدين شير كوه» بدرب زرعة لا يعرف و لا يعرف درب زرعة.

(۳۹۶) «رباط القصاعين» و

(۳۹۷) «رباط بنت الدفين» كانا داخل المدرسة الفلكية.

(۳۹۸) «رباط بنت عز الدين مسعود صاحب الموصل» و

(۳۹۹) «رباط الداوداری» داخل باب الفرج، ولى مشيخته

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۳۶

نور الدين بن قوام و هما غير معروفين.

(۴۰۰) «رباط الفقاعى» من رباطات السفح سفح قاسيون.

(۴۰۱) «رباط الوزار» بمحلة سويقة صاروجا.

و بعض هذه الرباطات قد ذكرت أولا- باسم مدارس و بنيت فى محلها و الغالب أن الرباطات كانت تستحيل فى الأحايين جوامع أو مساجد أو مدارس كما شوهد ذلك فى زماننا. و مما أغفله صاحب الدارس من الرباطات

(۴۰۲) «رباط نجم الدين أيوب» والد صلاح الدين، وقفه و كان داخل الدرب بزقاق العونية بباب البريد.

زوايا دمشق:

الزوايا كالخانقاهات و الرباطات إلا أنها تقام فيها الأذكار و قد كثرت بكثرة الطرق و المشايخ المعتقدين و ذلك بعد القرن السادس. و كان بدمشق على عهد صاحب الدارس ست و عشرون زاوية:

(۴۰۳) «الأرمویة» بسفح قاسیون، إنشاء عبد اللّه بن یونس الأرموی المتوفی سنة (۶۳۱) و هی خراب.

(۴۰۴) «الأرمویة الشرفیة» بالسفح أیضا، إنشاء الشیخ شرف الدین ابن عثمان بن علی الرملی غیر معلومة.

(۴۰۵) «الحریریة» ظاهر دمشق بالشرف القبلی، إنشاء علی الحریری أبی محمد ابن أبی الحسن بن مسعود سنة (۶۳۰) لم تحققها.

(۴۰۶) «الحریریة الأعففیة» لأحمد الأعفف الحریری.

(۴۰۷) «الدهستانیة» لإبراهیم الدهستانی، کانت عند سوق الخیل العتیق.

(۴۰۸) «الحصنیة» إنشاء تقی الدین الحصنی بالشاغور و هی موجودة.

و فی ظهر نسخة من کتاب العنوان فی ضبط مواليد و وفیات أهل الزمان للنعیمیّ ما نصه: «الحمد للّه: کان ابتداء عمارة الزاویة أعلی خان السبیل المعروف بخان الحصنی قدّس سره نهار الاثنین من شعبان سنة (۱۰۹۲) اثنتین و تسعین و ألف فی مدّة قلیلة، و مطلعها من مسجده المعروف بالحصتیة المجاورة

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۳۷

للخان المذکور، و قد أنشأ العبد الفقیر فیه أیضا عمارات کثیرة و کذلک عمارة میضأته التی اختلسها بنو العجمی الغادرون و انتزعت منهم و أعیدت أحسن ما کانت بإمداد اللّه تعالی و معونته و رفقه و الحمد للّه الذی بنعمته تتم الصالحات، و کتبه العبد الفقیر تقی الدین الحسینی الحصنی الشافعی لطف اللّه تعالی به و المسلمین».

(۴۰۹) «الدینوریة» بالسفح إنشاء عمر بن عبد الملک الدینوری المتوفی سنة (۶۲۹).

(۴۱۰) «الدینوریة الشیخیة» بالسفح أیضا إنشاء أبی بکر الدینوری بانی الزاویة بالصالحیة.

(۴۱۱) «السیوفیة» بالسفح علی نهر یزید غربی دار الحدیث الناصریة و العالمة، إنشاء الشیخ السیوفی نجم الدین بن عیسی بن شاه أرمن الرومی.

(۴۱۲) «الداودیة» بالسفح أیضا تحت کهف جبرائیل، إنشاء زین الدین عبد الرحمن بن أبی بکر بن داود القادری.

(۴۱۳) «السراجیة» بالصاغة العتیقة منسوبة لابن سراج.

(۴۱۴) «الشریفیة التعارانیة» شرقی الناصریة الجوانیة، إنشاء محمد الحسینی التعارانی.

(۴۱۵) «الطالبیة الرفاعیة» بقصر حجاج، إنشاء طالب الرومی.

(۴۱۶) «الوطیة» شمالی جامع جراح للمغاربة و تعرف بزاویة المغاربة، إنشاء الرئیس علی الشهیر بابن وطیة الموقت سنة (۸۰۲).

(۴۱۷) «الطیبة» شمالی القیمریة الکبری داخل مدرسة القطاط، إنشاء طه المصری شرقی حمام أسامة سنة (۶۳۱).

(۴۱۸) «العمادیة المقدسیة» عند کهف جبرائیل بالسفح، إنشاء أحمد ابن عماد الدین بن العماد المقدسی المتوفی سنة (۶۸۸).

(۴۱۹) «الغسولیة» بالسفح أیضا، إنشاء أبی عبد اللّه محمد ابن أبی الزهر الغسولی.

(۴۲۰) «الفقاعیة» بالسفح أیضا، إنشاء الشیخ یوسف الفقاعی.

(۴۲۱) «الغویتیة» بالسفح، لصاحبها الشیخ علی الغویتی.

(۴۲۲) «اللوثنیة» بالسفح أیضا، إنشاء علی اللوثنی.

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۳۸

(۴۲۳) «القوامیة البالسیة» غربی جبل قاسیون و الزاویة السیوفیة و دار الحدیث الناصریة علی حافة نهر یزید، لصاحبها أبی بکر بن قوام البالسی.

(۴۲۴) «القلندریة الدرکزبنیة» بمقبرة باب الصغیر لمحمد بن یونس الساوجی من مشایخ القلندریة. و قلندر لفظة فارسیة معناها الدرویش الذی نفض یده من الدنیا و زهدت نفسه فی زخارفها.

(۴۲۵) «القلندرية الحيدرية» كانت بمحلة العونية.

(۴۲۶) «اليونسية» بالشرف الشمالى غربى الوراقية و العزية البرانية للشيخ يونس بن يوسف الفتى أنشئت سنة (۶۱۹).

(۴۲۷) «زاوية ابن اللقيمية» إنشاء ناصر الدين بميدان الحصا، و هو من ذرية صلاح الدين أيوب غير معلومة.

(۴۲۸) «زاوية عبد القادر الموصلى».

هذه أسماء الزوايا و بعضها لم يزل باقيا لم يصب بما أصيبت به المدارس.

و من الزوايا التى كانت فى المزة:

(۴۲۹) «زاوية خضر العدوى» على باب دمشق، و كان هذا مشهورا بشيخ الملك الظاهر بيبرس و كان يعتقده، بنى له كما قال ابن طولون عدة زوايا فى مصر و الشام منها زاوية المزة، و بدمشق زاوية و بظاهر بعلبك زاوية و بحماة زاوية. و من الزوايا الحديثة:

(۴۳۰) «تكية السلطان سليم» التى بناها أيام بنى القبة على قبر محيى الدين ابن عربى بالصالحية (۹۲۲) و وقف عليها أوقافا دارة و لا يزال بعضها إلى الآن و قد بقى الرسم من هذه التكية و أضيفت إلى معاهد الجامعة السورية.

(۴۳۱) «التكية السليمانية» بجانبها منسوبة للسلطان سليمان القانونى، جاء فى كتاب الجوامع و المدارس أن فيها من الأحجار و الآلات و الرخام الصافى و الملوّن و الصنائع و القباب و الترصيص ما يحير الناظر و يسر الخاطر.

ثم مدح بحرتها و مأذنتها فقال: إنه يحصل للمسافر أنس بهما لأن غالب المهندسين متشرفون بدين الإسلام. ثم قال: تجددت مدرسة إلى جانب التكية السليمانية من الشرف برسم المدرس فى سنة (۹۷۴) و هى من زوائد التكية و جاء مدرسها من الباب العالى اه. و قد رمت هذه التكية فى الحرب العامة على آخر أيام

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۳۹

الترك و أزيل ما كان علق بقبتها و مسجدها و حجرها من الكلس و الجبس و أعيدت إلى حالتها الأولى فظهر حسن هندستها و طرز بنائها الرومى، و منارتاها شاهدتان بأنها من طرز بناء الجوامع فى فروق، و كانت تتداعى منارتها الشرقية فنقضت و أعيدت كما كانت، و استولت إدارة الجامعة السورية على جزء منها فى العهد الأخير جعلته مخابر لمدرسة الطب، و لها أوقاف قيل:

إنها تبلغ نحو مئة ألف ليرة مسانهة. و هذه التكية من أجمل آثار العثمانيين، هندسها معمار سنان أشهر مهندس فى دولة الترك المتوفى (۹۶۶) و لم يحصل الانتفاع بها مع أنها فى الغاية بناء و هندسة و أوقافا.

و من التكايا التى عمرت أواخر القرن العاشر:

(۴۳۲) «تكية مولويخانة» تكية الدراويش بالقرب من جامع تنكز، و هى فى غاية الحسن عمرت سنة (۹۹۳) و المولوية هى طريقة الدراويش المنسوبين لجلال الدين الرومى، و كان مقرها فى قونية و طريقتهم تمتاز بالرقص و التواجد و الإنشاد و قد ألغى الكماليون طريقة المولوية من مملكتهم و لم يبق منها إلا بعض تكايا فى الشام أكلت أوقافها و من أهمها تكية حلب.

و من الزوايا التى عمرت بعد صاحب الدارس على ما يظهر:

(۴۳۳) «الزاوية الغزالية» بالجامع الأموى شمالى مشهد عثمان، كان مدرسها سنة (۱۰۸۳) مصطفى المحاسنى.

(۴۳۴) «الزاوية المزلقية» بطريق مقابر باب الصغير الآخذ إلى الصابونية لشمس الدين بن المزلق مولده سنة (۷۵۴) و كان من الأغنياء، عمر على درب الشام إلى مصر خانات عظيمة بالقنيطرة و جسر بنات يعقوب و عيون التجار و غيرها، و أنفق على عمارتها ما يزيد على مائة ألف دينار و لم يسبقه أحد إلى مثل ذلك، و هو صاحب المآثر بدرب الحجاز، وقف جميع أملاكه من القرى و غيرها، و جعل النظر فى ذلك لمن كان حاجب الحجاب و لمن كان خطيبا بالجامع الأموى، و لم يمض قرن و بعض الثانى حتى لم يبق جاريا من مبراته سنة (۱۰۸۳) المعينة فى كتاب الوقف سوى شىء قليل. قاله المحاسنى. و الغالب أن اسم واقف هذه المدرسة محمد بن على بن المزلق المتوفى سنة (۸۴۸) و هى عند مسجد الذبان. و من الزوايا الحديثة:

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۴۰

(۴۳۵) «زاویة الصمادیة» فی الشاغور أنشئت سنة (۱۰۵۳) أنشأها زاویة و مسجدا محمد بن خلیل الصمادی.

(۴۳۶) «الزاویة الشاذلیة» أنشئت (۱۲۹۰) فی القنوات لأهل الطریقة الشاذلیة و ما زال یقام فیها الذکر.

(۴۳۷) «الغواصیة» زاویة أنشئت فی المیدان لأصحاب الطریقة الرفاعیة، حرقت فی الثورة الأخیرة، و کانت عمرت فی أواخر عهد السلطان عبد الحمید الثانی.

(۴۳۸) «زاویة السعدیة» فی زقاق الخمارات و هی لأهل طریقة سعد الدین الجباوی.

و یؤخذ من مجموع الإحصاء الرسمی أن بدمشق الآن إحدی عشرة تکیة، و لعل الزوایا داخلة فی هذا المجموع. و فی القنیطرة تکیة أنشأها لالا مصطفی باشا الذی تولی دمشق سنة (۹۷۱).

خوانق حلب و ربطها و زواياها:

(۴۳۹) «خانقاه البلاط» هذه أول خانقاه بنیت فی حلب، سمیت بذلک لأنها فی سوق البلاط (الآن سوق الصابون) أنشأها شمس الخواص لؤلؤ الخادم عتیق الملک رضوان سنة تسع و خمسمائة، کان لها بابان أحدهما من السوق المذکورة ثم سد و جعل صغیرا، و الآخر من شارع شرقیها، قیل: هی موقوفة علی الفقراء المتجردین دون المتأهلین بحلب، ثم هجرت و اتخذت بیتا، إلی أن أحیاها الشیخ علاء الدین الجبرتی بنفقة الأمیر تغری بردی، ثم إن الحکومة الترکیة اتخذت منها مخفرا ثم أجرته دائرة الأوقاف مدة طویلة فعمر مخزنا للتجارة و نقل باب الخانقاه القدیم إلی شمالی باب المخزن و عمل له دهلیز یدخل منه إلی الصحن و القبلیة، و وقع فی هذین ترمیمات بسعی أهل الخیر و معاونة مدیریة الأوقاف فعاد للمحل بعض الحیاة.

(۴۴۰) «خانقاه القدیم» أنشأها نور الدین محمود بن زنکی سنة خمسمائة و ثلاث و أربعین، کانت تحت القلعة إلی جانب الخندق ملاصقة لدار العدل، ثم عرفت بالمقشاتیة ثم خربت و دخلت فی عمارة المستشفی الوطنی.

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۴۱

(۴۴۱) «خانقاه القصر» من إنشاء نور الدین أیضا سنة خمسمائة و ثلاث و خمسین، و هی تحت القلعة سمیت بالقصر الذی کان هنالک من بناء شجاع الدین فاتک.

(۴۴۲) «خانقاه الست» أنشأتها زوجة نور الدین أم الملک الصالح إسماعیل سنة خمسمائة و ثمان و سبعین، و بنت إلی جانبها تربة دفنت بها ولدها الملک الصالح. ثم کثرت الخوانق و الربط من ذاک العهد. وعد ابن الشحنة منها عدا ما تقدم خمسة و عشرین رباطا أنشئت فی الدولتین النوریة و الصلاحیة ثم فی دولة المالیک، و کلها قامت بأیدی أهل الخیر من الملوک و الأمراء و الأمیرات و بعض أرباب الدولة.

(۴۴۳) «خانقاه الملک المعظم مظفر الدین کوکبوری بن زین الدین علی کوجک صاحب إربل» فی المحلة التی کانت تعرف بالسهیلة ثم عرفت بسویقة حاتم. هکذا فی الدر المنتخب و هی تعرف بالزینیة بزقاق یقال له زقاق الفرن، مکتوب علی بابها أنها جددت فی دولة الملک الظاهر أبی المظفر ابن الملک الناصر یوسف بن أیوب، و أن واقفها الأمیر زین الدین علی ابن بکتکین سنة (۶۳۰). و الآن فیها قبلیة و ست حجر.

(۴۴۴) «خانقاه بعرصة الفراتی» أنشأها مجد الدین أبو بکر محمد بن محمد الدایة ابن نوشتکین المتوفی سنة خمسمائة و خمس و ستین، أخو نور الدین من الرضاع.

(۴۴۵) «خانقاه بمقام إبراهیم» أنشأها مجد الدین ابن الدایة المذکور أیضا.

(۴۴۶) «خانقاه سعد الدین کمشتکین الخادم» مولی بنت الأتابک عماد الدین المتوفی سنة خمسمائة و ثلاث و سبعین، کانت ملاصقة

للمدرسة الصلاحية (البهائية اليوم) ثم عرفت بالقلقاسية و يرجح أنها و الآتية دخلتا فى خان خيرى بك.

(۴۴۷) «خانقاه طاوس» بجانب السابقة.

(۴۴۸) «خانقاه ابن التنبى» أنشأها الأمير عبد القاهر ابن عيسى المعروف بابن التنبى وقفها سنة (۶۳۹) عند وفاته، و هى ذيل محلة العقبة و الآن صارت دارين و تحتهما فى حجرة قبر الواقف.

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۴۲

(۴۴۹) «خانقاه الأمير علاء الدين طاى بغا» كانت دارا يسكنها فوقفها على الصوفية عند موته سنة (۵۵۰) و هى مما دخل فى دار العدل ثم دثر و قام فى محله المستشفى الوطنى.

(۴۵۰) «خانقاه العجمى» أنشأها أبو بكر أحمد بن العجمى و كانت دارا يسكنها، فوقفها أخوه الشيخ شرف الدين على الصوفية.

(۴۵۱) «خانقاه حوشى» أنشأها بيرم مولى ست حارم بنت التعسنا (التعسلنى) خالة صلاح الدين فى دهليز دار الملك المعظم و تعرف بخانقاه حوشى.

(۴۵۲) «خانقاه بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن شداد» المتوفى سنة (۶۳۲) كانت دارا يسكنها فوقفها للصوفية.

(۴۵۳) «خانقاه الفطيسية» أنشأها مسعود بن عز الدين أيبك المعروف بفطيس المتوفى سنة (۶۴۹) و هو عتيق عز الدين فرخشاه، و كانت فى مدرسته المعروفة بهذا الاسم ثم دخلتا فى دار العدل كما ذكر فى خبر المدرسة.

(۴۵۴) «خانقاه سنقرجاه» و هى برأس زقاق البهاء قبلى دار العدل عمرت سنة (۵۵۴) ثم دثرت مع دار العدل و دخل الجميع فى بناء المستشفى الوطنى و ما يليه.

(۴۵۵) «خانقاه الكاملية» مكتوب على بابها وقفت هذه الخانقاه فاطمة بنت الملك الكامل محمد توفيت سنة (۶۵۶)، و هى فى محلة الجلوم الكبرى فى زقاق يسمى بزقاق الشيخ عبد اللّه، ليس فيها اليوم سوى ثلاث حجر صغيرة مشرفة على الخراب.

(۴۵۶) «خانقاه بنت صاحب شيزر» و هو سابق الدين عثمان أنشأتها قبالة دورهم، لا أثر لها و قد كانت فى العرصة التى إلى شرقى جامع العادلية و قبلى خان الفرايين.

(۴۵۷) «خانقاه بدرب البنات» شمالى البيمارستان الكاملى وقفتها ست العراق ابنة نجم الدين أيوب بن شاذى عن ولدها سيف الدين سنة (۵۷۴) و هذا الدرب يعرف اليوم ببوابة خان القاضى من محلة باب قنسرين لا أثر لها.

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۴۳

(۴۵۸) «خانقاه بدرب البنات» كذلك أنشأتها زمرد خاتون و أختها ابنتا حسام الدين لاجين عمر بن النورى و أمها أخت صلاح الدين يوسف.

(۴۵۹) «خانقاه نور الدين» محمود بن زنكى ذكرها أبو ذر قال:

أظنها أنشئت سنة ثلاث و خمسين و خمسمائة، قال ابن شداد: أظنها التى بجوار المدرسة الشاذبختية الجوانية، و فى هامش بخط محمد بن عمر الموقع أنها أصبحت تعرف بالشيجرية، ليس لها أثر.

(۴۶۰) «خانقاه ضيفة خاتون» بنتها سنة خمس و ثلاثين و ستمائة داخل باب الأربعين تجاه مسجد حافظ عبد الرحمن بن الأستاذ، هذه الخانقاه الآن بمحلة الفرافرة أمام جامع الزينبية و مدرسة الهاشمية، تسمى الناصرية لأن على بابها أنها أنشئت زمن الناصر يوسف بن أيوب، فيها إيوان عظيم و محراب بديع، و هى مائلة إلى الاندثار يسكنها بعض الفقراء من العبيد المعتقين.

(۴۶۱) «خانقاه بنت والى قوص» مندثرة مجهولة المحل.

(۴۶۲) «خانقاه القوامية» كانت تجاه خانقاه ضيفة خاتون، ليس لها أثر.

(۴۶۳) «خانقاه محمد بن عبد الملك بن المقدم» بدرب الحطابين الذى عرف بعد ذلك بدرب ابن سالار سنة أربع و أربعين و

خمسمائة، و درب ابن سالار هو المعروف الآن بزقاق خان التتن من محلة الجلوم، فيرجح أنها كانت بجانب مدرسة المقدمية التى مر ذكرها المنسوبة إلى محمد بن عبد الملك بن محمد الذى يظهر أنه ابن صاحب الخانقاه. لا أثر لها.

(۴۶۴) «خانقاه الشمسية» فى رأس درب البازيار ملاصقة لبيت أبى ذر المؤرخ، أنشأها أبو بكر أحمد و أوصى أخاه صاحب الشرفية أن يقفها على الصوفية، الدرب المذكور يعرف الآن بزقاق الزهراوى.

(۴۶۵) «خانقاه الخادم» هى إلى جانب المتقدمة من شماليها وقفها الخادم من عتقاء بنى العجمى على سكنى بنى العجمى الإناث.

(۴۶۶) «خانقاه تجاه المتقدمة» لا يعلم لمن تنسب و لعلها هى ما جاء فى بعض التواريخ أنها إنشاء جمال الدولة إقبال الظاهرى، قال أبو ذر عن هاتين الأخيرتين إن فى كل قبرا، و الآن تحول جميع ذلك إلى دور مسكونة.

(۴۶۷) «خانقاه طغرل بك» هو الأمير شهاب الدين طغرل الأتابك

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۴۴

و هى فى خارج باب الأربعين بالجبيل، هى الآن مدرسة النجاة.

(۴۶۸) «خانقاه الدورية» أنشأها محمد بن جمال الدين يوسف الدورى عين التجار بحلب و وقف لها ابنه وقفا و هى موقوفة على شمس الدين الأطعانى، كانت على شاطئ نهر قويق من جهة الناعورة، و هى داثرة مكانها مجهول. خطط الشام ؛ ج۶ ؛ ص۱۴۴

۴۶۹) «خانقاه السحلولية» على شاطئ قويق قرب بستان حجازى وقفها كافل حماة الإسعردى على عبد الرحمن بن سحلول المتوفى سنة (۷۸۲) و جعل لها مدرسا هدمت فى حادثة تيمور لا يعلم محلها.

(۴۷۰) «خانقاه الكاملة» أنشأته الكاملة زوجة علاء الدين بن أبى الرجاء خارج حلب.

(۴۷۲) «رباط» أنشأه سيف الدين على بن سليمان بن جندر بالرحبة الكبيرة، و كان فى دار تعرف ببدر الدين محمود بن شكرى الذى خنقه الملك الظاهر غازى، هو مندثر الآن و يرجح أنه كان فى محلة باب قنسرين تجاه جامع الكريمية.

(۴۷۳) «رباط» قرب مدرسة النورية التى تعرف أيضا بالنفرية، كانت فى محلة السفاحية تجاه المدرسة الصاحبية فى الزاوية الغربية من الجنينة المعروفة اليوم بجنينة الفريق و هى مندثرة.

(۴۷۴) «رباطان» تحت القلعة للخدم أحدهما برأس درب الملك الحافظ، و الآخر اسمه الجمالية برأس زقاق المبلط بينه و بين السلطانية طريق، و هذا من إنشاء جمال الدولة إقبال الظاهرى فى حدود الأربعين و ستمائة.

(۴۷۵) «رباط قراسنقر» ذكره ابن خطيب الناصرية فى ترجمة بانيه المتوفى سنة (۷۲۸) و قال: له وقف كبير، و هو مندثر لا يعلم محله.

(۴۷۶) «رباط الخدام» تحت القلعة، مندثر.

(۴۷۷) «رباط» بشرقى تربة ابن الصاحب أمام الظاهرية، أنشئ فى دولة الناصر حسين على بن أحمد.

(۴۷۸) «رباط» بجانب مدرسة ضيفة خاتون فى الفردوس، أنشئ سنة (۶۳۳).

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۴۵

(۴۷۹) «رباط» قرب الظاهرية التى فى خارج حلب، أنشئ أيام يوسف الناصر.

(۴۸۰) «رباط للقلندرية» فى داخل المدرسة المقدمية التى كانت فى الفرافرة تجاه قسطل الملك العادل، مندثر.

(۴۸۱) «الثكنة العسكرية» أسسها إبراهيم باشا المصرى (۱۲۴۸) ثم أصلحت سنة (۱۲۹۷) و تسمى بقشلة الشيخ يبرق لزاوية هذا الدفين بجانبها، و هى فى الجهة الشمالية الشرقية من حلب طولها ثلاثمائة و أربعون ذراعا و عرضها زهاء مائتين.

(۴۸۲) «ثكنة على قمة جبل البختى» بدئ بتأسيسها (۱۳۳۰) ثم زيد عليها بعد انسحاب الترك زيادات و لم تزل غير كاملة.

و قد درس كثير من الرباطات فى باب المقام و غيره.

(۴۸۳) «زاوية معروفة ببنى الخشاب» مكتوب على حجر فى جدارها:

جدد عمارة هذه الزاوية المعروفة ببنى الخشاب الحسن بن إبراهيم بن سعيد ابن الخشاب (۶۳۳) و فيها تربة كانت تسمى بالتربة الخشابية، هى اليوم فى زقاق اسمه زقاق أبى درجين من محلة الجلوم، جددها فى سنة (۱۳۱۵) مصطفى الهلالى و جعل لها حجرة درس و منبرا.

(۴۸۴) «الزاوية الهلالية» فى محلة الجلوم بزقاق الهلالية، كانت مسجدا صغيرا قطنه هلال الرام حمدانى، ثم وسعت و صارت تقام فيها الجمعة و الأذكار.

(۴۸۵) (زاوية البزازية) فى الجلوم بزقاق خان البيض، تصلى فيها الأوقات الجهرية و لها قبلية.

(۴۸۶) (الزاوية الكمالية) فى محلة العقبة فى زقاق الكيزوانى.

(۴۸۷) (زاوية الأخضر) فى محلة السفاحية تجاه جامع الموازينى وقفها الشيخ الأخضر و دفن فيها سنة (۱۲۸۷).

(۴۸۸) (زاوية الشيخ تراب).

(۴۸۹) «زاوية الطواشى».

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۴۶

(۴۹۰) «زاوية النسيمى» تحت القلعة، كانت مسجدا قديما جددها قانصوه الغورى (۹۱۰).

(۴۹۱) «الزاوية الجوشنية الاقصراوية» نسبة لمنشئها سنة (۷۴۷) على الشيخ إبراهيم شهريار الكازرونى.

(۴۹۲) «زاوية الصالحية» فى سويقة الحجارين و تعرف بالقادرية أيضا، و كانت قديما تعرف بالبهشنية من أقدم الزوايا متولوها بنو الحلوى.

(۴۹۳) «زاوية البيلونى» فى سويقة حاتم صغيرة معطلة يسكنها الفقراء، إنشاء أحد بنى البيلونى.

(۴۹۴) «زاوية محيى الدين» فى باب الجنين.

(۴۹۵) «زاوية الكيالى» فى سويقة حاتم.

(۴۹۶) «زاوية الجعفرية» فى زقاق فرن جقجوقة من سويقة حاتم أنشئت (۷۹۶).

(۴۹۷) «زاوية الهبراوى» فى محلة الكلاسة كانت دارا وقفها محمد خير الهبراوى وسع ببعضها الجامع و جعل الباقى زاوية.

(۴۹۸) «زاوية لبنى الهبراوى أيضا» كانت تسمى مسجد الراعى.

(۴۹۹) «زاوية فى المقامات» مندرسة.

(۵۰۰) «زاوية محمد الأطعانى» البسطامى فى محلة الشماعين من المشارقة أنشئت سنة (۷۰۰).

(۵۰۱) «زاوية خضر» تجاه بستان الكلاب فى جنوبى بستان إبراهيم آغا، أنشأها بدر الدين بن زهرة متنزها، ثم اغتصبها من بعده جلبان كافل حلب و جعلها زاوية سنة (۷۷۰) و هى مندثرة.

(۵۰۲) «زاوية للقادرية» تنسب للأمير جلبان أيضا على رأس باب الجنان، منشأة سنة (۷۷۰).

(۵۰۳) «تكية المولوية» من أعظم التكايا، أنشأها مرزا فولاذ و مرزا علوان فارسيان من أتباع شاه إسماعيل الصفوى، ثم أحدث فيها زيادات كثيرة.

(۵۰۴) «زاوية» غربى قبلية جامع قارلق، أنشئت سنة (۱۲۰۷).

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۴۷

(۵۰۵) «زاوية الحربلى» فى قارلق، أنشأها على الحربلى سنة (۱۳۱۲).

(۵۰۶) «زاوية الشيخ طه بطيخ» فى قارلق أنشئت سنة (۱۲۸۰).

(۵۰۷) «تكية الحداد» فى محلة تاتارلر.

(۵۰۸) «زاوية للخلوتية» بالجانب الغربى من الجامع الأحمدى فى محلة الدلالين، وقف أحمد صديق.

(۵۰۹) «زاوية» بجانب سابقتها للطريقة النقشبندية للواقف المذكور.

(۵۱۰) «زاوية لطريقة سعد اليمانى» فى محلة المشاطية.

(۵۱۱) «زاوية الشيخ بلال» فى محلة البلاط.

(۵۱۲) «زاوية بيت خير اللّه» فى محلة بانقوسا.

(۵۱۳) «زاوية قطليجا» فى محلة محمد بك أنشئت سنة (۷۵۷).

(۵۱۴) «زاوية أبى الجدايل» بزقاق المزوّق.

(۵۱۵) «الزاوية الصيادية» أنشأها أبو الهدى الصيادى سنة (۱۲۹۵) ثم زيدت إلى سنة (۱۳۲۷).

(۵۱۶) «التكية الإخلاصية» نسبة لإخلاص الخلوتى المتوفى سنة (۱۰۷۴) عمرها له محمد باشا الأرناءوط.

(۵۱۷) «تكية القرقلر» مبنية فوق مغارة الأربعين تحت القلعة.

(۵۱۸) «زاوية الشيخ يبرق» فى داخل الثكنة العسكرية، أنشئت سنة (۶۷۱).

(۵۱۹) «تكية بابا بيرم» للقلندرية أنشئت سنة (۷۶۴).

(۵۲۰) «زاوية المصريين» فى محلة اقيول.

(۵۲۱) «زاوية هى مسجد الفرا» أنشئ فى حدود الألف، ثم اتخذ زاوية لبنى الأنجق فى محلة الألماحى.

(۵۲۲) «زاوية الشيخ عبد اللّه» هى مسجد فى محلة الشرعسوس.

(۵۲۳) «زاوية تغرى برمش» كافل حلب قرب جامع الأطروش، أنشأها سنة (۸۴۱).

(۵۲۴) «زاوية العقيلية» فى محلة محب.

(۵۲۵) «تكية المخملجى» فى ترب الغرباء، أنشئت سنة (۶۴۳).

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۴۸

(۵۲۶) «تكية الشيخ أبى بكر» للطريقة الوفائية أسسها حمد بن عمر القارى فى القرن العاشر.

(۵۲۷) «زاوية البعاج» فى محلة الطبلة.

(۵۲۸) «زاوية الشيخ جاكير» هى مدفن الشيخ تشبه زاوية.

و فى حلب خانقاهات و مدارس و زوايا كثيرة اندثر معظمها، جاء فى ترجمة مظفر الدين صاحب إربل أنه بنى أربع خانقاهات للزمنى و العميان و دارا للأرامل و دارا للأيتام و دارا للملاقيط و خانقاهين للصوفية.

ربط القدس و زواياها:

كان فى بيت المقدس عدة زوايا و ربط منها:

(۵۲۹) «الزاوية المعظمية» و قد مر ذكرها فى المدارس بقى منها غرفتان و الباقى دارس.

(۵۳۰) «الزاوية الحنفية» بجوار المسجد الأقصى خلف المنبر وقفها صلاح الدين سنة (۵۸۷) على جلال الدين الشاشى، ثم من بعده على من يحذو حذوه، و قد وقف صلاح الدين نصف دار الأسبتار رباطا للمتصوفة و للوافدين من أهل الطريقة و المعرفة، و نصفها مدرسة للمتفقهة، و للطلبة المتعففة المتنزهة، فجمع بين العلم و العمل، و كتب الرزق لهم إلى كتاب الأجل- قاله العماد الكاتب، و دار الاسبتار اليوم أو هذا الرباط الآن خراب بلقع.

(۵۳۱) «الخانقاه الفخرية» داخل سور الحرم، و بجوار جامع المغاربة، واقفها أبو عبد اللّه محمد بن فضل ناظر الجيوش الإسلامية، و

كانت له أوقاف كثيرة و بر و إحسان لأهل العلم (۷۳۲) و لا تزال عامرة إلى يومنا هذا و هى زاوية و دار سكن.

(۵۳۲) «الرباط الزمنى» بباب المتوضإ تجاه المدرسة العثمانية. واقفه الخواجا شمس الدين محمد بن الزمن و كان بناؤه فى سنة إحدى و ثمانين و ثمانمائة.

(۵۳۳) «رباط كرد» بباب الحديد بجوار السور تجاه المدرسة الأرغونية، واقفه المقر السيفى كرد فى (۶۹۳) استحال الآن دار سكن.

(۵۳۴) «الزاوية الوفائية» بباب الناظر تجاه المدرسة المنجيكية و علوها

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۴۹

دار من معاليما تعرف بدار الشيخ شهاب الدين بن الهائم، ثم عرفت ببنى الوفا لسكناهم بها، و تعرف قديما بدار معاوية، و هى الآن دار سكن.

(۵۳۵) «الزاوية الشيخونية» بالقرب من الصلاحية عند سويقة باب حطة، واقفها الأمير قطيشا بن على من رجال حلقة دمشق، جعل نظرها لنفسه ثم من بعده لولده شيخون، فسميت بالشيخونية تاريخ وقفها (۷۶۱).

(۵۳۶) «الرباط الماردينى» بباب حطة مقابل الكاملية و هى بجوار التربة الأوحدية، وقفه منسوب لامرأتين من عتقاء الملك الصالح صاحب ماردين، و شرطه أن يكون لمن يرد من ماردين تاريخ وقفه (۷۶۳) و هو موجود.

(۵۳۷) «الزاوية المهمازية» غرب المدرسة المعظمية من الغرب، منسوبة للشيخ كمال الدين المهمازى، و وقفت على مربع من الملك الصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون فى (۷۴۵) و هى معروفة.

(۵۳۸) «الرباط المنصورى» بباب الناظر، وقف قلاوون الصالحى (۶۸۱). كان سجنا فى عهد الأتراك و اليوم ينزله فقراء السودان.

(۵۳۹) «رباط علاء الدين البصير» تجاه الرباط المنصورى واقفه، علاء الدين آيدغدى (۶۶۶).

(۵۴۰) «الزاوية المحمدية» بجوار البارودية من جهة الغرب، واقفها محمد بن زكريا الناصرى سنة (۷۵۱) و هى خراب.

(۵۴۱) «الزاوية اليونسية» مقابل البارودية، و نسبتها للفقراء اليونسية، مجهول واقفها و هى موجودة.

(۵۴۲) «زاوية الطواشية» بحارة الشريف و تعرف قديما بحارة الأكراد، واقفها محمد بن جلال الدين عرب سنة (۷۵۳).

(۵۴۳) «زاوية المغاربة» بأعلى حارتهم، وقف عمر بن عبد اللّه المصمودى المجرد سنة (۷۰۳).

(۵۴۴) «زاوية البلاسى» بظاهر القدس من جهة القبلة، و هى قديمة نسبتها لأحمد البلاسى.

(۵۴۵) «زاوية الأزرق» بظاهر القدس من جهة القبلة شرقى زاوية البلاسى، نسبتها لإبراهيم الأزرق (۷۸۰) و تعرف أيضا بزاوية السرائى.

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۵۰

(۵۴۶) «زاوية الدركاه» بجوار البيمارستان الصلاحى، و كانت فى زمن الفرنج دار الاسبتار، و هى من بناء هيلانة أم قسطنطين التى عمرت كنيسة القيامة. واقفها الملك المظفر شهاب الدين غازى صاحب ميافارقين و ذلك فى سنة (۶۱۳) قسم منها داخل فى كنيسة الألمان (الدباغة) و الباقى خراب.

(۵۴۷) «زاوية الشيخ يعقوب العجمى» بالقرب من القلعة، و هى كنيسة من بناء الروم تلاشت أحوالها.

(۵۴۸) «الخانقاه الصالحية» علو كنيسة القيامة وقف صلاح الدين على الصوفية (۵۸۵) و هى موجودة.

(۵۴۹) «زاوية الجثنية» كانت بجوار المسجد الأقصى، وقفها صلاح الدين على جلال الدين الشاشى الزاهد و لا يعرف عنها شىء.

(۵۵۰) «الزاوية الحمراء» بالقرب من الخانقاه الصلاحية بجوار جامع عمر، منسوبة للفقراء الوفائية و هى باقية.

(۵۵۱) «الزاوية الميمونية» بجوار باب الساهرة، و هى كنيسة من بناء الروم، واقفها ميمون القصرى (۵۹۳) دخلت فى المدرسة المأمونية.

(۵۵۲) «الزاوية اللؤلؤية» بباب العمود أحد أبواب المدينة و هى وقف بدر الدين لؤلؤ غازى واقف اللؤلؤية المتقدم ذكرها.

(۵۵۳) «الزاوية البسطامية» بحارة المشارقة واقفها عبد اللّه البسطامى و كانت موجودة قبل (۷۷۰).

(۵۵۴) «زاویة الصمادیة» بجوار البسطامیة من جهة الشمال، و هی بلصق درج البراق سد بابها فی المئة التاسعة.

(۵۵۵) «زاویة الهنود» بظاهر باب الأسباط، و هی قدیمة کانت للفقراء الرفاعیة ثم نزل بها طائفة الهنود فعرفت بهم.

(۵۵۶) «زاویة الجراحیة» بظاهر القدس من جهة الشمال، نسبة لواقفها الحسین بن شرف الدین عیسی الجراحی (۵۹۸).

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۵۱

(۵۵۷) «تکیة خاصکی سلطان» أنشأتها أم السلطان سلیمان، و لا تزال عامرة تفرق الحساء و الخبز، و لا یزال یأخذ قسم من وجهاء القدس و أشرافها هذه الصدقة و الإحسان.

الربط و الزوایا فی المدن الصغری:

فی خلیل الرحمن لعهدنا ثلاث تکایا و زوایا و هی:

(۵۵۸) «تکیة سیدنا الخلیل» لها مخصصات من دائرة الأوقاف و تعمل الحساء و الطعام.

(۵۵۹) «زاویة الأشراف» تقوم الأوقاف بالإدرار علیها.

(۵۶۰) «زاویة أبی بکر الشبلی» تدر علیها الأوقاف معاوناتها.

(۵۶۱) «الزاویة القادریة».

(۵۶۲) «زاویة الشیخ سعید».

(۵۶۳) «زاویة المجاهد».

(۵۶۴) «زاویة حارة قیطون».

(۵۶۵) «زاویة الشیخ الجعبری».

(۵۶۶) «زاویة الشیخ الخیری».

و فیها زوایا خاصة لإقامة الذکر و وضع أنواع الأعلام و ما یتبعها و یجلسون فیها و یضیفون.

و کان فی الخلیل علی عهد مجیر الدین الحنبلی (۵۶۷) «زاویة الشیخ عمر المجرد» و (۵۶۸) «زاویة المغاربة» بجوار عین الطواشی و (۵۶۹) «زاویة الشیخ علی البکا» و (۵۷۰) «زاویة القواسمة» نسبة لأحمد القاسمی الجنیدی من ذریة أبی القاسم الجنید و هو مدفون بها و (۵۷۱) «الرباط المنصوری» تجاه باب القلعة، وقف الملک منصور قلاوون. و (۵۷۲) «زاویة الشیخ إبراهیم المزی» بین حارتی الأکراد و الداریة و (۵۷۳) «زاویة الشیخ عبد الرحمن الأرزرومی» فی حارة الأکراد. و (۵۷۴) «زاویة البسطامیة» بجوار المسجد الجاولی من جهة الشمال و (۵۷۵) «زاویة السمانیة» بجوار زاویة الشیخ عمر المجرد. و (۵۷۶) «زاویة أبی عقافة» و (۵۷۷) «رباط الطواشی» و (۵۷۸) «زاویة شیخون» و (۵۷۹) «رباط مکی» و (۵۸۰) «زاویة الشیخ رضوان» و (۵۸۱) «زاویة الشیخ خضر» و (۵۸۲) «زاویة الصلاطقة»

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۵۲

بجوار البرکة، و هی داخل زاویة الأدهمیة و (۵۸۳) «زاویة الرامی» و (۵۸۴) «زاویة الشیخ علی کنعوش الأدهمی» و (۵۸۵) «زاویة الشیخ محمد البیضة» و (۵۸۶) «زاویة الموقع» و (۵۸۷) «زاویة الشیخ إبراهیم الحنفی» و (۵۸۸) «رباط الجماعیلی» و (۵۸۹) «زاویة الخضر» بالقرب من متوضإ المسجد و (۵۹۰) «زاویة الحدابنة» و (۵۹۱) «زاویة القادریة» بظاهر البلد.

و من ربط فلسطین (۵۹۲) «الخانقاه الصلاحی» فی قریة حطین، إنشاء السلطان صلاح الدین و لم یبق منه الآن إلا مطبخه و أنقاضه.

و منها (۵۹۳) «خانقاه الرملة» مهدم غیر معلوم أثره.

و فی أنطاکیة ۵ تکایا و فی إدلب و عملها ۱۵ تکیة و زاویة، و فی کل من حارم و بیلان و الجسر تکیة، و فی کل من جبل سمعان و منبج تکیتان. و فی حماة الزاویة الکیلانیة، بنی الجامع القبلی منها یاسین الکیلانی (۱۱۱۸) و لم یعرف اسم بانیها الأول. و فیها رباط

مرتضی الکیلانی و رباط محمد الحریری و رباط السبسبی و رباط الکیالی. و مما کان فی حماة و یصح أن یعین فی جملة الربط دار الإکرام، کانت معدة للضیافة و سکنی الملوک، خربت و صار محلها مدابغ و أنشأ فیها مبارز الدین أقوش دارا لضیافة الملوک و هی مما خرب. و کان فیها دار الضیافة المسماة بالطیارة الحمراء علی سور باب النقفی و الطیارة الحمراء کانت فوق القبو، و الباسطیة شرقی الجامع النوری. و کان فی حماة أیضا دار الفرح کانت وقفا للأفراح، فمن أراد أن یتزوج مثلا یأخذها من متولیها و کان فیها ۳۵ بیتا و هی الیوم بیوت السادة الکیلانیة. و فی ربض حمص زاویة قام بإنشائها أبو الهدی الصیادی و لکنها لم تتم و هی حسنة البناء و الطراز.

و کان فی حمص (دار صدقة) لأبی عبد اللّه صالح بن ثوبان من عبید الرسول و هو الذی روی فی مسجد دمشق: أنا الذی صببت الماء علی یدی رسول اللّه صلی اللّه علیه و سلم و أعطیته قدحا فأفطر.

و فی طرابلس ۸ تکایا و زوایا للخلوتیة و القادریة و الرفاعیة و الشاذلیة و النقشبندیة. و فی عکار تکیة واحدة، و فی اللاذقیة ۴ تکایا و زوایا.

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۵۳

مراقد العظماء ربط و خوانق:

هذه أسماء من هلک فی أرض الشام من الصحابة الکرام: أبی بن کعب.

أبو الدرداء. أبو أمامة. أبو عبیدة. أبو هاشم بن عتبة. أوس بن أوس. بلال الحبشی. تمیم الداری. جعفر بن أبی طالب. جبارة بن مالک. الحارث بن هشام. الحباب بن منذر. حرملة بن زید. خالد بن الولید (؟). خزیمة بن ثابت زید بن حارثة. سعد بن عبادة. سبرة بن فاتک. سهیل الأنصاری.

سهیل بن عمرو. شرحبیل بن حسنة. و شمعون و صهیب الرومی. الضحاک ابن قیس. ضرار بن الخطاب. ضرار بن الأزور. عبد اللّه بن حوالة. عبدون ابن السعدی. عبد المطلب الهاشمی. عبد اللّه بن سعد. عبد اللّه بن رواحة.

عبد الرحمن بن أبی بکر الصدیق. محمد بن أبی حذیفة. مدرک الفزاری.

معاویة بن أبی سفیان، المقدام بن معدی کرب. معاذ بن جبل. واثلة بن الأسقع.

عبد الرحمن بن عوف. فضالة بن عبید.

أکثر مراقد العظماء من الصحابة و التابعین و العلماء العاملین و الزهاد أشبه بزوایا و تکایا یقصدها الناس للزیارة و التبرک و إن کان منها ما لم یثبت أن فلانا بعینه دفنت تجالیده فی البقعة التی یعنونها. فمن المقامات و المزارات قبر یحیی بن زکریا و الحسین بن علی فی الجامع الأموی بدمشق، و قبر صلاح الدین یوسف بن أیوب شمالی هذا الجامع، و مقام ذی الکفل و هود فی سفح جبل قاسیون بدمشق، و مقام زین العابدین و بلال الحبشی و بلال بن حمامة و خدیجة و رقیة و أم کلثوم و أم حبیبة و زینب الکبری و السیدة سکینة و غیرهم فی مقبرة باب الصغیر بدمشق. و مقام أبی الدرداء فی قلعة دمشق. و مقام حجر بن عدی فی مسجد الأقصاب بدمشق. و مقام شریح بن حسنه و خولة و أبی و ضرار و بنت الأزور و البدر الغزی و الشیخ رسلان فی باب توماء و باب شرقی بدمشق. و زید بن ثابت فی باب السریجة. و شمعون ابن خناقة فی حی الشاغور. و صهیب الرومی و تقی الدین الحصنی و غیرهما فی المیدان. و عدی بن مسافر فی بستان الورد، و الشیخ السروجی فی الشاغور.

و عبد الرحمن الکردی فی حی العمارة. و عبد الرحمن بن أبی بکر و کمال

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۵۴

الدین الحمزاوی و عبد الرحمن الدحداح و الشهاب المنینی و الشهاب العطار فی مقبرة مرج الدحداح. و مقام محیی الدین بن عربی و عبد الغنی النابلسی و أصحاب الکهف و عائشة الباعونیة بصالحیة دمشق. و نور الدین الشهید و الإمام ابن دقیق العید فی سوق

الخياطين. و مقام سعد بن عبادة فى المنيحة.

و عبد اللّه بن سلام فى سقبا. و الشيخ حرملة فى جوبر. و مقام حزقيل فى داريا.

و دحية الكلبى فى المزة. و هذه القرى الخمس من قرى غوطة دمشق. و تميم الدارى فى قرية الطيبة. و الشيخ حسن الراعى فى قطنا. و معاذ بن جبل فى القصير. و الشيخ جندل فى منين. و مقام السلطان أبى يزيد البسطامى فى المرج.

و مقام أيوب و سعد الأسود فى قرية الشيخ سعد فى حوران. و سلمان الفارسى فى قرية السهوة. و مقام عكاشة فى الجولان. و المقداد بن الأسود فى تل المقداد.

و سعد الدين الجباوى فى جبة. و عمار بن ياسر فى اللجاة. و قبر أبى عبيدة ابن الجراح و معاذ بن جبل فى الغور. و مقام جعفر بن أبى طالب و عبد اللّه ابن رواحة و زيد بن حارثة قرب قرية مؤتة فى المزار من عمل الكرك.

و مقام الإمام الأوزاعى فى بيروت، و مقام يوشع و شمعون فى صور، و مقام هرون و يعقوب فى صفد، و مقام الخضر و الياس فى حيفا. و مقامات شعيب و السيدة سكينة و معاذ بن جبل و نصر الدين الطيار فى طبرية. و مقامات صالح و أبى عتيبة فى عكا. و مقامات العزير و لوط و يونس فى الناصرة. و مقامات يعقوب و أولاده و الخضر و الشيخ مسلم و بشير و مسعود و رجال العمود و الشيخ بدر و السلطان عماد الدين فى نابلس. و مقامات دانيال و يامن و معاوية و إسكندر ذى القرنين و ابن سيرين و الشيخ حمدان و غيرهم فى جينين.

و مقامات يامن و شمعون و يعقوب و الياس و أبى خميس و أبى شعير و عامر و عمار و عدنان فى بنى صعب. و مقامات يحيى و ذى الكفل و يوشع و ناتون و إبراهيم و شيث و الشيخ أبى الجود و أبى رماح و أبى عابد و الجنيد و الدجانى فى جماعيل. و مقامات زكريا و يوسف و أنبياء بنى إسرائيل و الشيخ حاتم و غانم المقدسى فى المشاريق. و مقامات الشيخ زين و نصر اللّه فى الشعراوية.

و مقامات إبراهيم بن أدهم و أبى يزيد البسطامى فى وادى الشعير. و مقامات خالد بن الوليد و عمر بن عبد العزيز و أبى أمامة الباهلى و أبى ذر الغفارى

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۵۵

و النعمان بن بشير فى حمص و المعرة و ما إليهما. و مقام الشيخ أبى الليث السمرقندى و الشيخ علوان فى حماة.

ذكر مجير الدين قبة راحيل والدة يوسف الصديق إلى جانب الطريق بين بيت لحم و بيت جالا. و بظاهر الرملة من جهة الغرب بالقرب من البحر مشهد يقال له روبيل بن يعقوب. و بظاهر لدّ من جهة الشرق مشهد عبد الرحمن ابن عوف الصحابى، و بظاهر القدس فى قرية العازرية مشهد العازار. و قبر شمويل بقرية ظاهر القدس من جهة الشمال على طريق الرملة فى قرية رامة.

و للشيعة عدة مقامات فى حلب و أرجائها و فى غيرها نسبت لعلى بن أبى طالب و للحسن و للحسين. كما أن للخضر عدة مقامات فى كثير من الأرجاء و يشترك فى تعظيمها النصارى و المسلمون غالبا.- و مما ذكره ابن الشحنة من المقامات القديمة فى حلب مسجد النور بالقرب من باب قنسرين كان أبو نمير عبد الرزاق بن عبد السلام (۴۲۵) يتعبد فيه تنذر له النذور و يزار.

و مسجد الغضايرى و يعرف بمسجد شعيب و قبر كليب العابد و مسجد الأنصارى و المشهد الآخر فى رأس جبل جوشن و مشهد قرية براق و مقام إبراهيم الخليل فى قرية نوابل و كلتاهما من عمل حلب.

و بقرية روحين من جبل سمعان مشهد فيه ثلاثة قبور: الأوسط منها قبر قس بن ساعدة الأيادى، و القبران الآخران قبرا سمعان و شمعون من الحواريين، و قيل: كانا من المتوحدين الرهبان. و بجبل برصايا من عمل اعزاز قبر برصيصا أى مقصورة العابد. و بقورس قبر أوريا. و بمنبج مشهد خالد ابن سنان العبسى صاحب الأخدود. و بجبل بزاعا من غربى الباب مشهد يطل على الباب. و بجبل الطور المجاور لقنسرين مقام يقال: إنه مقام النبى، و بدير سمعان من عمل المعرة قبر عمر بن عبد العزيز و وراءه قبر الشيخ أبى زكريا يحيى بن منصور. و بجبلة قبر إبراهيم بن أدهم الزاهد. و معظم هذه المزارات ما زالت معروفة يختلف إليها الناس و قام عليها شبه زوايا أو تكايا.

و فى عبيه من شوف لبنان مزار الأمير جمال الدين عبد اللّه التنوخى يزوره معظم الطوائف الإسلامية و عليه مدرسة.

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۵۶

المستشفيات و البيمارستانات

[مستشفيات دمشق:]

إقامة دور للبائسين و مآوى للضعفاء و أصحاب العاهات و الزمانات من أمارات الحضارة و دلائل ارتقاء الإنسان فى العطف على من خانتهم الطبيعة.

روى البلاذرى أن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه مرّ عند مقدمه الجابية من أرض دمشق بقوم مجذمين من النصارى فأمر أن يعطوا من الصدقات و أن يجرى عليهم القوت. و وقف عثمان بن عفان محلة سلوان فى ربض القدس على ضعفاء البلد. و أول من اتخذ المستشفيات صدر الإسلام الوليد بن عبد الملك، فإنه أقام فى دمشق على ما يروى مستشفى للمجذومين بالقرب من الباب الشرقى فى محل يسمى الآن بالأعاطلة، ذلك لأن فى ماء دمشق على ما قالوا خاصية دفع مرض الجذام عن أهلها فلا يصيبهم إلا فى الندر، و إذا حل الغريب المصاب به تكسر عنه عاديته أو يتوقف سيره فى جسمه. قال ابن عساكر:

كان الوليد عند أهل الشام من أفضل خلفائهم، فرض للمجذومين و قال:

لا- تسألوا الناس، و أعطى كل مقعد خادما و كل أعمى قائدا. و ذكر بعضهم أن الوليد لما ولى إسحاق بن قبيصة الخزاعى ديوان الزمنى بدمشق قال: لأدعن الزمن أحب إلى أهله من الصحيح، و كان يؤتى بالزمن حتى توضع فى يده الصدقة. و فى سنة (۱۶۲) أمر المهدى أن يجرى على المجذمين و أهل السجون فى جميع الآفاق. و بذلك عرفنا أن القوم يخصون المجذمين بأماكن خاصة لئلا تسرى العدوى منهم إلى غيرهم. أما المستشفيات فللأمراض الأخرى.

و لقد كان بدمشق ثلاثة مستشفيات أو بيمارستانات- و البيمارستان

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۵۷

كلمة فارسية مركبة معناها محل المرضى- الأول (۵۹۵) أنشأه نور الدين محمود بن زنكى كما أنشأ غيره فى الشام. و كان بيمارستان دمشق أعظمها و أكثرها خرجا و دخلا. قال صاحب الروضتين بلغنى فى أصل بنائه نادرة و هى أن نور الدين رحمه اللّه وقع فى أسره بعض أكابر ملوك الإفرنج فقطع على نفسه فى فدائه مالا عظيما فشاور نور الدين أمراءه فكل أشار بعدم إطلاقه لما كان فيه من الضرر على المسلمين، و مال نور الدين إلى الفداء بعد ما استخار اللّه تعالى فأطلقه ليلا، فلما بلغ الفرنجى مأمنه مات، و بلغ نور الدين موت الفرنجى فبنى بذلك المال هذا البيمارستان و منع المال الأمراء لأنه لم يكن عن إرادتهم. تولى بناءه كمال الدين الشهرزورى و كان الحاكم المتحكم فى الدولة النورية بدمشق، و هو الذى تولى بناء أسوارها و سنّ دار العدل لتنفذ أحكامه بحضرة السلطان فلا يبقى عليه مغمز و ملمز.

و ذكر ابن جبير أنه كان فى القرن السادس بدمشق مارستانان قديم و حديث، و الحديث أحفلهما و أكبرهما و جرايته فى اليوم نحو الخمسة عشر دينارا و له قومة بأيديهم الأزمة المحتوية على أسماء المرضى و على النفقات التى يحتاجون إليها فى الأدوية و الأغذية و غير ذلك، و الأطباء يبكرون إليه فى كل يوم و يتفقدون المرضى و يأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية و الأغذية حسبما يليق بكل إنسان منهم، و المارستان الآخر على هذا الرسم لكن الاحتفال فى الجديد أكثر. و أغلب الظن أن البيمارستان الكبير هو النورى، و الآخر غيره (۵۹۶) كان فى باب البريد و خدم فى هذا رشيد

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۵۸

الدين بن على بن خليفة و عز الدين السويدى من الأطباء المشهورين.

و فى شذرات الذهب أن المارستان الصغير بدمشق أقدم من المارستان النورى كان مكانه فى قبلة مطهرة الجامع الأموى و أول من عمره بيتا و خرب رسوم المارستان منه أبو الفضل الاخنائى ثم ملكه بعده أخوه البرهان الأخنائى و هو تحت المأذنة الغربية بالجامع الأموى من جهة الغرب، و ينسب إلى أنه عمارة معاوية أو ابنه.

أما المستشفى الثالث (۵۹۷) فهو المستشفى القيمرى فى الصالحية بجوار جامع محيى الدين بن عربى نسبة لمنشئه أبى الحسن القيمرى المتوفى سنة (۶۵۳)، و واجهة الباب من أجمل الأبواب هندسة، و قد رمّه حسن باشا المعروف بشور يزى حسن و نظر إلى أوقافه و أقام شعائره كما فعل فى البيمارستان النورى، و قد رمم فى العهد الأخير و أعيد إلى ما كان عليه.

و قرأت فى كتاب الجوامع و المدارس صورة وقف البيمارستان القيمرى فإذا فيه: هذا وقف أبى الحسن بن أبى الفوارس القيمرى على بيمارستانه فى الصالحية على معالجة المرضى و المعاجين و الأشربة و أجرة الطبيب، يصرف إلى الطبيب فى كل شهر لواحد سبعون درهما و نصف غرارة من قمح، و الأدنى ستون درهما و نصف غرارة قمح، و للمشارف فى كل شهر أربعون درهما و نصف غرارة قمح، و للكحال فى كل شهر خمسة و أربعون درهما و نصف غرارة قمح، و للحوائج فى كل شهر ثلاثة عشر درهما و ربع غرارة قمح، و إلى ثلاثة رجال يقوم لكل من الرجال فى كل شهر ثلاثة عشر درهما و سدس غرارة قمح، و لمن يقوم بمريضات النساء و المجنونات فى كل شهر لكل واحدة عشرة دراهم و سدس غرارة قمح، و إلى الشراب و بائعه لعمل الأشربة و المعاجين فى كل شهر ستة و عشرون درهما و ثلث غرارة قمح، و لأمين المشارفين و المتولين فى الوقف إلى كل واحد فى كل شهر ستون درهما و غرارة قمح و غرارة شعير، و للإمام فى كل شهر أربعون درهما و ثلث غرارة قمح، و للمعمار المرتب لعمارته فى كل شهر ثلاثة عشر درهما و سدس غرارة قمح، و يكون بوابا، و للحوايج فى كل شهر ثمانية دراهم و سدس غرارة، و للناظر العشر عن المغل، و ريع الوقف و يصرف إلى رجلين اثنين

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۵۹

بخدمة البيمارستان عن ثمن قدور و نحاس و فرش و لحف و مخدة، و فى كل شهر إلى قيمه و المؤذن بالمسجد بقرب البيمارستان خمسة و عشرون درهما، فإن فضل يصرف إلى فكاك الأسارى من الكفار، و بعد ذلك عاد وقفا على الفقراء.

و تاريخ الوقفية سنة (۶۵۲) و تاريخ المسجد سنة (۸۸۰) ثم ذكر القرى و البساتين و الحوانيت و الطواحين التى وقفها على بيمارستانه.

و ظل المستشفى النورى عامرا إلى سنة (۱۳۱۷ ه) و كان أطباؤه و صيادلته لا يقلون عن عشرين رجلا حتى قامت بلدية دمشق بإنشاء مستشفى للغرباء (۵۹۸) فى الجانب الغربى من التكية السليمانية المطلة على المرج الأخضر، و جمعت له إعانات و أخذ مبلغ من واردات البلدية و أوقاف المستشفى النورى و احتفل فى ۱۵ ذى القعدة (۱۳۱۷) بافتتاح المستشفى الجديد و خصصت أوقاف المستشفى النورى و مبلغ خمسمائة ليرة تؤخذ مسانهة من ريع البلدية تصرف على المستشفى الذى سمى بادئ بدء بالمستشفى الحميدى نسبة إلى السلطان الذى بنى فى عهده. أما بناية المستشفى النورى فقد جعلت مدرسة و واجهتها لا تزال بحالها و فيها بعض الحجر و النوافذ من البناء القديم، و الغالب أن الأيام سطت على بقية البناء فتغيرت معالمه. و قد رمت واجهته مؤخرا.

و زاد المستشفى الجديد رونقا و رواء مقبرة الصوفية التى ضمت إليه و جعلت حديقة للمستشفى. و قد سمى المستشفى على عهد الحكومة العربية بالمستشفى الوطنى و أقيمت مدرسة الطب بجانبه و الحكومة متكفلة بالإنفاق عليه.

و فى دمشق لهذا العهد عدة مستشفيات، الأول:

(۵۹۹) «المستشفى العسكرى» و هو من بناء إبراهيم باشا المصرى فى القرن الماضى.

(۶۰۰) «المستشفى الأسكتلندى» و فى ۱۱ ذى القعدة ۱۳۱۵ (۲۴ أيار ۱۸۹۹) احتفلت جمعية اسكتلندا الإنكليزية بافتتاح المستشفى الذى أسسته فى أرض الزينبية على طريق بغداد و هو على غاية من حسن الهندسة و جمال الحديقة وسعتها.

(۶۰۱) «المستشفى اللعازرى» بنته أخوية اللعازريين الإفرنسية قبالة المستشفى الاسكتلندى و هو حسن البناء و النظام أيضا.

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۶۰

(۶۰۲) «مستشفى الراهبات اللعازريات» و هو قديم قرب مدرسة اللعازرية.

«المستشفى الوطنى» أو مستشفى مدرسة الطب و قد مر ذكره.

(۶۰۳) «المستشفى الطليانى» فى الصالحية قبل الجسر.

(۶۰۴) «مستشفى المجاذيب» المسمى بمستشفى ابن سينا أنشئ له مكان فى قصير دومة.

مستشفيات حلب:

(۶۰۵) «بيمارستان بنى الدقاق» كان يعرف بهذا الاسم ثم دخل فى دار سودون الدوادار غربى المدرسة الحلاوية لا أثر له اليوم.

(۶۰۶) «بيمارستان بنى الدقاق» على باب الجامع الكبير، كان له بوابة عظيمة ينسب لابن خرخان، لما تعطل كان يجلس فيه الكحالون فعرف بدار الكحالة. بقى منه ثلاثة مخادع صغيرة يسكنها بعض الفقراء.

(۶۰۷) «بيمارستان نور الدين» هو فى الزقاق المعروف الآن بزقاق البهرمية من محلة الجلوم الكبرى، مكتوب على بابه أنه أمر بعمله محمود بن زنكى بتولى ابن أبى الصعاليك. و يظهر أنه حصل فيه إصلاحات كثيرة، فإنه كان فيه قاعة للنساء مكتوب عليها أنها عمرت فى دولة صلاح الدين يوسف سنة (۶۵۵) و مكتوب على إيوانه أنه عمر أيام الأشرف شعبان المتوفى سنة (۷۷۹) و على الشباك الذى على بابه أنه أحدث سنة (۸۴۰) و كانت قاعة المنسهلين سماوية فسقفها القاضى شهاب الدين بن الزهدى. أما الآن فقد صارت حجراته تلالا و لم يبق إلا بضع منها يسكنها بعض الفقراء. و قد جاء فى بعض التواريخ أن هذا البيمارستان كان فى الأصل من وضع ابن بطلان الطبيب البغدادى المتوفى سنة (۴۵۸) ثم جدده نور الدين و وقف عليه أوقافا كثيرة و هو فى أصح بقعة هواء. حدثنى الثقة أنه اطلع على صك وقف أحد المستشفيات فى حلب قال: جاء فيه أن كل مجنون يخص بخادمين يخدمانه فينزعان عنه ثيابه كل صباح و يحممانه بالماء البارد، ثم يلبسانه ثيابا

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۶۱

نظيفة و يحملانه على أداء الصلاة و يسمعانه قراءة القرآن يقرأه قارئ حسن الصوت، ثم يفسحانه فى الهواء الطلق و يسمع فى الآخر الأصوات الجميلة و النغمات الموسيقية الطيبة.

(۶۰۸) «بيمارستان أرغون الكاملى» هو فى محلة اسمها الآن باب قنسرين، أنشأه أرغون الصغير الكاملى نائب حلب سنة سبعمائة و خمس و خمسين، رتب كل ما يحتاج إليه من رزق و آلات و أدوية و خدام، شرط واقفه أن التولية لكافل حلب فكان فى كفالة تغرى برمش على أتم الوجوه، فيه حجر و أروقة و محابس للمجانين مظلمة، يروى أنه كانت توضع فيه الرياحين و يؤتى بآلات الطرب و المغنين لتكون هذه المشاهد و الأنغام من تمام العناية بالمداواة، ثم فى أواخر عهد الأتراك نقل من كان فيه من المجانين إلى مستشفى الغرباء و أصبح هو مأوى لبعض الفقراء. و فى مدخله أفاريز و نقوش من أجمل ما نقش النقاشون تزينه.

(۶۰۹) «مستشفى الرمضانية» أنشأه إبراهيم باشا المصرى، و هو مخصص لمرضى العسكر.

(۶۱۰) «المستشفى الوطنى» بدئ به سنة ثلاثمائة و ألف و بعد بلوغه نحو النصف ترك، ثم أكمل بعد نحو عشر سنين و جعل للمرضى الغرباء و الفقراء.

(۶۱۱) «المستشفى الزهرى» أنشأته إدارة الصحة للأمراض الزهرية بعد تأليف الحكومة العربية.

بقية المستشفيات:

المارستان النورى هو المستشفى الوحيد فى حماة، بناه نور الدين محمود و كانت التولية عليه سنة ألف للشيخ صفا العلوانى و كان مجموع نفقته كل يوم ثمانية و ثمانين عثمانيا (العثمانى أو السلطانى نحو سبعة قروش)، و هو الآن شبيه بالمندرس يستعمله بعضهم للسكنى و ذهبت أوقافه إلا قليلا. و قد وجد على حجر فى المارستان بالجانب الغربى من أعلى البيان كتابتان الأولى سنة خمس و سبعمائة و هى: رسم الملك لأمر بخشاى الكافلى بحماة بإبطال ما كان

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۶۲

يؤخذ من البيمارستان بغير طريقه و أن وقفه يصرف على ما وقفه الواقف على السكر و الأشربة و ذلك بأمر السيفى. و الثانى: لما كان بتاريخ الشهر المحرم سنة ثلاث و ثمانمائة حضر الجناب العالى السيفى المارستان النورى بحماة المحروسة داود بن المقر السيفى درداس الخاصكى كافل المملكة الحموية أعز اللّه أنصاره و تبرع بمعلومه على الضعفاء المقيمين به و هو فى كل شهر مائة درهم لاغتنام الأجر و الدعاء اه.

و فى حماة اليوم مستشفى واحد، و مثله فى حمص، و آخر فى درعا، و رابع فى القنيطرة، و خامس فى يبرود، و سادس فى دير الزور، و فى إسكندرونة مستشفى و ذلك ما عدا المستوصفات فى كثير من الأقاليم، و كل هذه المستشفيات و المستوصفات بإدارة الصحة و الإسعاف العام و يقوم بإدارتها و تمريض مرضاها أطباء و طنيون.

و كان فى طرابلس «مارستان» أنشأه بدر الدين محمد بن الحاج أبى بكر أحد الأمراء بحلب المتوفى سنة (۷۴۲). و فى طرابلس اليوم مستشفى كان سمى مستشفى عزمى بك أحد عمالها الذى قام بتنشيطه.

و قبل ۵۵ سنة جاء نابلس مبشر إنكليزى و أسس فيها مستشفى، و أخذ يعالج المرضى بأجور طفيفة و يكرههم على استماع وعظه فتحسس المسلمون و أسسوا سنة (۱۳۲۶) شرقية المستشفى الوطنى و هو إلى اليوم سائر سيرا حسنا يقوم بأموالهم و ريع البلدية.

أسس البرتستانت عدة مستشفيات و مستوصفات فى الشام منها فى طبرية و الناصرة و صفد و الصلت و صيدا و القدس و يافا و حيفا و بيروت و دمشق و غيرها من البلدان، و لا تكاد تخلو المدن المهمة من مستشفى أو شبه مستشفى مثل اللاذقية و طرطوس و منها مستشفى خاص بمرض السل و مستشفى العصفورية للمجاذيب فى لبنان، و كان فى الخليل مستشفى جميل اسمه المنصورى وقفه الملك المنصور قلاوون، و مستشفيات الصهيونيين فى القدس و حيفا و يافا و غيرها مهمة فى بابها.

و قد أقام الصليبيون فى المدن التى احتلوها بعض مستشفيات منها واحد فى صور و كان لهم فى القدس مارستان و هو من الأماكن التاريخية كان عبارة

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۶۳

عن ۱۵۵ مترا طولا و ۱۳۷ مترا عرضا و عليه قامت فى القرون الوسطى الملاجئ و المستشفيات الخاصة بزوار الغرب و لا سيما رهبنة فرسان القديس يوحنا و مستشفياته. و حوّل ابن أخت صلاح الدين كنيسة الملجإ إلى مستشفى و بقى اسمه العربى الفارسى أى المارستان يطلق منذ ذاك العهد على مجموع تلك الأماكن. و فى سنة (۱۸۶۹ م) أعطى سلطان العثمانيين النصف الشرقى من المارستان إلى تاج بروسيا بمناسبة زيارة ولى عهد بروسيا للقدس. و قد كان صلاح الدين جعل دار الأسقف فى القدس لما فتحها بيمارستان المرضى.

و مستشفيات القدس اليوم كمستشفيات بيروت مهمة لكثرتها و وفرة ريعها و تنافس المبشرين فى تجويدها و تخيرهم لها أحذق الأطباء، و فى بعض قرى لبنان مستشفيات صغيرة و مصاح منها مصح بحنس و مستشفى جمعية الفرندس فى برمانا، و مصح ضهر الباشق و غيرها، و فى عمل دومة من دمشق مستشفى ابن سينا لأصحاب الأمراض العقلية.

لهفة على المدارس و غيرها:

أرأيت أيها الناظر فى هذا الكتاب، كيف كان عمل الأجداد فى إنشاء المدارس و الربط و الخوانق و المستشفيات، و كيف تساوى فى تأييدها و الوقف عليها الملوك و العظماء و جمهور الناس من الرجال و النساء. و كيف جودوا بناءها و أحكموا وقوفها الدارة، و مع هذا لم تقو على مقاومة المخربين و الغاصبين فعاد أكثرها دورا و حوانيت. أزهرت فى أربعة قرون و استصفيت فى أربعة، استصفاها من ارتكبوا العار فى الاستيلاء عليها من دون حرج، عملوا هذا و هم متنمسون بالدين يصلون و يصومون، و يقال عنهم: إنهم المسلمون، و ربما كان على أبدان بعضهم شعار العلماء و ما هم فى الواقع إلا من أهل الرسم لا من أهل العلم، و قد يكون أقرب الناس إلى مخالفة الشرع القائمون عليه.

ترى هل تلام الحكومات على هذا العبث بالمدارس و انتهاك حرمتها أم تلام الأمة؟ لا شك أن الحكومات ينالها قسط كبير من الملامة لأنها هيأت سبل السرقات، و ربما كانت مشتركة بالسرقة أحيانا، و لكن اللوم كل اللوم

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۶۴

على الجماعة و المدارس مدارسهم و الدين دينهم. و منذ عبث العابثون بالمدارس، و سرق السارقون عينها و مغلها، تراجعت دروس الدين و تراجعت معها دروس العلوم الأخرى ففشا الجهل المطبق فى الأمة، و كادت تعود سيرتها الأولى من الجاهلية الجهلاء، و أصبح من وسموا بالعلم إذا سئلوا أفتوا بغير علم، و جوزوا ما حرمه الشرع و حرموا ما جوزه، و من مساويهم أكل أموال الأوقاف و استصفاء أعيانها، و معدهم تهضم خصوصا المساجد و المدارس.

أضاع الخلف ما أبقاه السلف معمورا زاهرا من المدارس التى كانت فى العصور الغابرة غاية ما وصل إليه العقل البشرى ظرفا و مظروفا، و بها أثبت أجدادنا أنهم كانوا شيئا مذكورا فى إتقان الهندسة و البناء، و أنهم على جانب من سلامة الذوق، و أنهم حراص على مجد أمتهم، و أن الأعمال العظيمة لم تقم بنفسها لو لم يفكر فيها عقول كبيرة، و ما كانت تلك المدارس تعمر لو لم يدرس فيها نوابغ من رجال العلم و الآداب، و لو لم تكن ذات قانون معقول. نعم لم نعرف سر هذه الصناعة التى مثلتها لنا هذه المدارس، و لعله يقوم فى الجيل المقبل من أبنائنا علماء بالآثار و البحث يكشفون سر أعمال الأجداد كما توفر علماء الآثار فى أوربا مائة سنة حتى كشفوا لأممهم أسرار البيع العظمى التى قامت خلال القرون الوسطى، و عسى أن يبرهن الباحثون منا أنه لم يقم فى الأرض شيء من العظمة إلا كان إلى جانبه عظماء يتعهدونه و يغذونه بعقولهم، و يفيضون عليه من معين قرائحهم.

قلت مرة من محاضرة ألقيتها فى الشهباء فى ربيع سنة (۱۳۴۱ ه ۱۹۲۳ م) و قابلت فيها بين مدارس حلب و دمشق: من تأمل مدارس أرباب الخير من المسلمين فى الشهباء و الفيحاء، و قرأ ما كتب عليها بتأمل، و زارها المرة بعد المرة على تغير معالمها، و تشويه طرأ على محاسنها، و فساد عرا أذواق الأبناء و الأحفاد، إذا قيس إلى سلامة ذوق الأحداد، و جعل نسبة بين عدد ما عمر منها و ما بقى فى البلدتين الشقيقتين يؤكد معنا أن الفساد استحوذ عليها فى دمشق أكثر من حلب، و أن من تجردوا من الوجدان فاستحلوا استصفاء تلك المدارس كانوا فى الفيحاء أكثر من أمثالهم فى الشهباء. و لذلك كان عدد الباقى فى حلب أكثر و أجود من المدارس فى دمشق.

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۶۵

و لا ينكر أن مادة البناء قد تختلف فى بلد عن آخر. و قد كان الاعتماد فى تلك القرون على الحجر الصلد، و فى دمشق عدة مقالع جميلة منوعة منه كما فى حلب، و لم يكثر الآجر و الطوب و الخشب إلا فى القرون الحديثة، و لذلك لم تخرب المدارس الدمشقية لعدم متانة فى بنائها، فإن الأمثلة الظاهرة منها إلى اليوم لا تجعلها تختلف فى شيء عن مدارس حلب. و لكن القائمين على هذه المدارس فى هذه المدينة كانوا يعتدلون فى العبث بها، و متانة الأخلاق من جملة ما امتاز به الحلبيون، يضاف إليها حب الاحتفاظ بتراث الأجداد على صورة كانت ظاهرة فى قرون الارتقاء، كامنة فى عصور الشقاء و الرجوع إلى الوراء.

و الناظر إلى مدارس دمشق و حلب و هى لا تقل عن ثلاثمائة مدرسة، منها زهاء مائتين فى دمشق يدرك أنها من عمل السلاطين و العمال و قليل من التجار و أهل الخير. و كان منهم من يتوخى منها أن تكون توليتها لبنيه من بعده ليعيشوا منها إذا صودرت أملاكهم.

بنى قليل من التجار المدارس لأن الشعب كان يفنى فى أغلب العصور فى كبرائه، فلم يكن شأن فى مظاهر النعمة و الغبطة مدة قرون لغير أرباب الدولة أو من كان يعد فى جملتهم، و كان الناس يحاذرون أن تنشأ لهم شهرة فى الثروة، و الثروة تتجلى فى الدار و الفرش و الدابة و اللباس، و فى بذل المال لإقامة دور العلم و إيواء اليتامى و المحاويج، فكانوا يتظاهرون بالفقر لينجوا من مخالب العمال.

و قلّ أن رأينا جماعة اتفقوا على إقامة عمل من هذا القبيل يفتخر به اللهم إلا قليلا من المساجد، و لو فعلوا لأمنت أعمال الجماعات من اعتداء المعتدين أكثر من عمل الأفراد، و لما استصفيت و استحل هدمها، و لا غير خططها و معالمها من لا يخافون اللّه و لا عباده، و لجاءت ممثلة للعظمة الحقيقية فى الأمة، على نحو ما قامت البيع و الأديار و المدارس فى الغرب، بإرشاد رجال الدين من كرادلة و أساقفة و قساوسة، فكانوا يجمعون قليلا من صدقات الملوك و الأغنياء و الفرسان و الشعب، فيجيء مجموعها عظيما يدار بأيدى هيأة منظمة على كل حال، و يختطون خطة لا يخرج عنها الخلف إلا قليلا.

للأثر القديم من الموقع فى النفس ما ليس للأثر الحديث، فإن الأول

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۶۶

يذكر بأمور كثيرة، يذكر بمجد السلف و أياديهم البيضاء و إرادتهم الصحيحة، يذكرنا بأن فلانا الذى تحترمه الأمة بنى ذاك المصنع و تلك الدار، و أن فلانا العالم درّس هناك أو كان يألف المكان الفلانى، و كم من أثر تاريخى أو مصنع من مصانعنا نمر به دون أن نحفل بما فيه من عبر، و لو كنا على شيء من مدنية أجدادنا ما زهدنا هذا الزهد البشع فى تراثهم، و لو اقتبسنا المدنية الحديثة بمحاسنها و مساوئها لرأيتنا أسرع إلى التقاط آثار الجدود و الاحتفاظ بها من الماء إلى الحدور.

لا- تستطيع أمة أن تقطع الصلة بينها و بين ماضيها، خصوصا إذا كانت ذات غابر عظيم كغابر الأمة العربية، قام على أساس متين، و تقاليد جميلة، و مقدسات متسلسلة، أما و نحن لا نرقى بدون القديم و الأخذ من نافع الحديث، فواجب العقلاء أن يفكروا فى أقرب الطرق إلى هذه الغاية، و هذا لا يتم بغير إحياء دور العلم و معاهد الفضل، و إحياؤها موقوف على قليل من العناية.

ليس للمدرسة الحديثة التى ننشئها اليوم تلك النضارة، و لا- تتجلى فيها معانى الحسن و الإحسان التى نشعر بها و نكاد نلمسها فى المعاهد القديمة مثل مدرسة ضيفة خاتون رحمها اللّه فإنك إذا رأيتها تمثلت أمامك صفحة من تاريخ هذه الأمة المجيد، تمثلت بيت بنى أيوب و أفضالهم على ربوع الشام، و كفى بهم و بصلاح الدين حسنة عقم الدهر أن يلد مثلها. كثير من المصانع بناها الملوك بالسخرة و إرهاق الرعية، و إعنات الأسرى و المعتقلين، و لم نقرأ فى التاريخ أن أحدا من آل البيت الصلاحى عمر مدرسة أو جامعا أو مستشفى أو رباطا من مال مشبوه، أو سخرة ممقوتة، فأكرم و أنعم بكل فرد أصيلا كان فى هذا البيت الشريف أو دخيلا عليه ....

عمر أهل الخيرات من سلف هذه الأمة هذا القدر العظيم الذى نعجب به من معاهد التعليم الدينى دع المساجد و الجوامع، و لو كتب البقاء لبعضها لأغنت القوم بعض الشيء بمعارفها و نشرت النور بينهم. و كانت المدارس و الجوامع فى تلك القرون المظلمة فى الغرب المستنيرة فى هذا الشرق هى المتكفلة بتعليم الناس و إخراجهم من الأمية، و كان لمعظم المدارس و الجوامع كتاتيب مرتبطة بها و خارجة عنها لتعليم الأطفال تؤهلهم لتلقى دروس

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۶۷

المدارس و الجوامع، و لا- غالى إذا قلنا: إن عدد الأميين كان فى تلك العصور أقل مما هو الآن فى هذه الديار. و لو اطرد العمل اطراده فى مدارس الغرب مثلا لأصبحنا فى هذا القرن و الأميون أقل مما هم فى ممالك المدنية الحديثة.

و لكن الجهل قضى على تلك المدارس و أكل المتولون أوقافها فخربت و تغيرت معالمها. و كم من وقف يستمتع به النظار عليه يصرفون ما وقف على الخير فى سبيل شهواتهم بدون محاسب من ذممهم و لا رقيب من أصحاب السلطان. و لو كتب لهم أن يأكلوا منها بالمعروف و يصرفوا حقوق تلك المعاهد أو بعض مغلها على رمها و إجراء الرزق على ساكنيها و الدارسين فيها لأتت بثمرات جنية، و لما أكلوا فى بطونهم النار، و ركبوا متن العار و الشنار، و كم من بيت كان موسوما فى القديم بالعلم و التقى فخلف من بعد

السلف خلف عبثوا بالحرمات فاستحلوا أموال المدارس و المعابد فدثر البيت و انقرضت الأسرة و ذهبوا و ما يملكون جملة. لم يرحموا لأنهم لم يرحموا.

ضبطت الحكومة السابقة أكثر أوقاف الملوك و السلاطين و كان ريعها كثيرا جدا فى هذه الديار، فلم تصرفها فيما خصصت له و لم تنجح فى الغاية التى توختها منها، و استقل بعض أرباب النفوذ بالأوقاف التى ائتمنوا عليها أو انتهت إليهم بحكم الوارثة فأساؤوا الاستعمال إلا من عصم اللّه. فالسبب إذا فى خراب مدارسنا الجميلة سوء إدارة الحكومات السالفة و عبث المتولين عليها و إخراجها عما وضعت له من عمل الخير بصنع أولئك الذين يعدون أنفسهم فى جملة حماة هذا المجتمع و هم أعدى عداته اه.

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۶۸

دور الآثار

[المتاحف و العرب:]

المتاحف العامة على الصورة التى نراها فى الغرب لعهدنا ليست مما عهد فى هذا الشرق. فإن آثينة منذ الزمن الأطول كان لها متحف دعته رواق الصور.

و عرضت رومية أجمل ما أخذته من الصور من آثينة. و لم يكن حتى فى القرون الوسطى فى أوربا متاحف. و كانت بدائع الصنائع البشرية تحفظ فى دور الملوك و فى قاعات البيع و الأديار. حتى إذا كانت القرون الحديثة و نشأ كبار المصورين فى إيطاليا و غيرها كثرت المتاحف التى تعرض فيها التصاوير العجيبة و مبدعات العقول و الأنامل، بحيث كاد أن يكون لكل مدينة معرض منها. و أخذت تغص بما يهديها إياه الكبراء و الملوك، و لما كثر الإحصاء عمّ المتاحف أيضا. فصار للأمم العظمى متحف لغرائب الصناعة فى النقش، و آخر فى الرسم، و غيرها فى أدوات الحرب، و آخر فى أدوات الزينة، و غيره فى أدوات الموسيقى إلى غير ذلك.

و لا نعلم إن كانت للعرب متاحف أيام مدنيتهم على الصورة التى هى اليوم فى كل بلد تذوّق الحضارة، بل كانت متاحفهم فى جوامعهم و قصورهم التى اختاروا لنقشها و تزويقها أمهر صناع أيامهم على نحو ما كان فى جامع بنى أمية فى دمشق، و الأقصى فى القدس، و بعض جوامع بغداد و القاهرة، و فى الحمراء و الزهراء فى الأندلس، و فى قصور الخلفاء ببغداد و قصورهم فى الأندلس و قصور الفاطميين فى القاهرة. و كانت دور العظماء فى الشرق كما كانت فى الغرب تتنافس فى بدائع الصناعة و تجعلها بحيث يراها من يختلفون

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۶۹

إلى قصورهم، و لا تزال البيوت القديمة إلى اليوم فى الشام تفاخر بما عندها من مجموعات الصينى و القاشانى و السلاح القديم و الحلى و الأوانى الفضية و الذهبية القديمة على كثرة ما طرأ على القطر من الحوادث التى عزت فيها الحاجيات دع الرغبة فى الكماليات. و كان اقتناء هذه البدائع فى هذه الديار من دلائل الظرف و آيات التعين و الرياسة، كما كان اقتناء الكتب فى قرطبة بل فى حلب و دمشق إلى عهد قريب.

كان الفاتحون يغنمون فى جملة ما يغنمون الطرائف البديعة و أدوات الزينة و التحف. هكذا فعل تيمور فحمل معه من دمشق صناع هذه البدائع و ما أبدعوه، و هكذا فعل سليم العثمانى فاتح مصر فنهب منها أجمل آثارها التى استطاع حملها و زين بها قصره و قصور جماعته فى القسطنطينية. و ذكر المؤرخون أن بعض ملوك الأندلس من العرب كانوا يعرضون فى قصورهم التماثيل الجميلة من غير نكير، و فيها صور الآدميين و غيرهم.

و كان أهل أوربا زمن الحرب الصليبية و بعدها يتنافسون فيما يجلبونه من الأقمشة و البسط و أدوات الزينة من الشام، و لما جاء القرن

الأخير أخذوا ينقلون إلى متاحفهم ما أبقته صنع الأيدى من أهل المدنيات القديمة من تماثيل و نصب و أحجار زبر عليها رقم، و فى بعض متاحف أوربا و لا سيما فى متحف اللوفر فى باريز و المتحف البريطانى فى لندرا و متحف برلين و متاحف إيطاليا و غيرها كثير مما عثر عليه الباحثون من العاديات الحجرية فى اليمن و الشام و مصر و لا سيما من الديار الشامية. و قد أخذت عادياتنا تسافر من أرضنا منذ أخذ علماء الآثار يبحثون فى سهولها و جبالها، و ما كتبه كثير من علماء المشرقيات و العاديات فى القرن التاسع عشر دليل يؤيد ذلك، و قد نشروا أبحاثهم فى كتب خاصة و مقالات لهم فى المجلات الأثرية و العادية و العلمية.

أما نحن سكان هذه الديار فلم تكن لنا عناية بهذا الشأن بل قلّ جدا من اهتدى إلى الاحتفاظ بما خبأته الأيام فى بطون هذا الصقع. و كنا أزهد الناس فيها حتى نقلت آثارنا و نفائسنا أمام أعيننا كما نقلت مخطوطاتنا و نحن ضاحكون مستبشرون، و انتفع بها القوم هناك و أكملوا بها تاريخ المدنية، و لما وقع الانتباه فى الحكومة العثمانية أخذت تمانع بعض الشيء فى نقل هذه التحف

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۷۰

و الطرف، و نقلت بعض ما عثر عليه من المصانع فى خرائب صيدا و تدمر و غيرها فزينت بها متحف الاستانة. و قد ندب بعض علماء الآثار من الإنكليز و حفروا بطرق عجيبة مغارة الصخرة فى المسجد الأقصى فذهب ما فيها و لم يعلم عنه شيء.

و كم من بعثة أثرية قامت بحفريات و أخذت ما عثرت عليه و لم تأخذ الدولة العثمانية حقها منه و لسان حال الباحثين ما ورد فى الأمثال العربية «لا يحزنك دم ضيعه أهله». و قد طلب منها فى مؤتمر الصلح بباريز إعادة ما أخذته هى و ألمانيا خلال الحرب العامة من هذه الديار من الآثار. و فى ذلك برهان على مكانة العاديات فى نظر الغربيين.

و لقد كنا نزين للحكومة التركية منذ ست و أربعين سنة أن تنشئ لدمشق متحفا صغيرا تجعل فيه العاديات و بدائع الصنائع، فكان عمالها يتشاغلون عن ذلك لأنهم يحبون أن يكون كل فضل فى الاستانة، و أن تكون سائر الولايات قرى و مزارع للاستعمار على طريقتهم، حتى إذا نادت سورية بالحكومة العربية صحت عزيمة هذه على إنشاء متحف فاتخذت له سنة (۱۳۳۷ ه- ۱۹۱۹ م) دار المدرسة العادلية من أجمل قصور الفيحاء، و أخذت تجمع بعناية المجمع العلمى ما بقى من الآثار النفيسة. فهو أول متحف عربى فى هذه الديار، سار القائمون به على قدم الغربيين فى نظامه، ثم بنى له بناء خاص فى غربى المدينة فى المرج الأخضر و اغتنى فى أسرع مدة غنى يغبط عليه بما اكتشف المنقبون عن العاديات من علماء الغرب.

حياة المتحف العربى بمعاضدة الأمة له. و لم يقصر بعض من لديهم مثل هذه التحف و الطرف فى إهدائها لتجعل فى دار آثار الأمة عنوان ارتقائها و نموذجا على معرفتها بتاريخها. لا جرم أن هذا المتحف هو البذرة الأولى التى ألقيت فى هذه التربة المخصبة المهيأة لأنواع النماء و الإثراء يستفيد منه أهل الأجيال الخالفة ما يغنى غناءه فى تربية عقولهم و عيونهم و أناملهم و يعتبرون بماضى الصناعة عند الأقدمين، و ما كان لأجدادنا من الأيادى البيضاء فى الفنون الجميلة بين المحدثين.

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۷۱

نشأة علم الآثار :

عنيت الأمم منذ القديم بالفنون الجميلة، و كان حظ كل أمة من هذا الشأن بحسب رقيها و حضارتها. كان الأفراد يجمعون الآثار و يتنافسون باقتنائها لا لغاية علمية بل للزينة و التفاخر. و دام هذا حالهم حتى سنة (۱۷۶۴ م) لما ظهر كتاب تاريخ الفن عند الأقدمين لمؤلفه و انكمان الألمانى، و هو أول من وضع أسس هذا العلم الحديث.

إن علم الآثار القديمة فرع من فروع التاريخ، و من أصعبها مراسا، إذ يحتاج صاحبه إلى قوة انتباه و ذوق سليم. فإن هذا العلم لا يقتصر فيه فقط على جمع الآثار القديمة فى المتاحف و وصفها، بل يتطلب حل رموزها و فهم كنهها، و استجواب تلك الشهود الصامتة، و استنتاج الحقائق منها.

و لقد أصبح النظر فى أبحاث علماء الآثار و تحقيقاتهم محتما على كل مؤرخ و محقق، و يستنير بها كل لغوى و مفسر. و كم معضلة تاريخية و لغوية حسمت بفضل هذا العلم. و ها هى كلمة فرعون التى لا يجهل اليوم الأحداث معناها، ذهب المتقدمون من علماء اللغة فى تفسيرها مذاهب حتى قام علماء الآثار فأظهروا وثائق تثبت أنها لقب كل من ملك مصر. و كم من حوادث جاءت فى كتب السلف و فى الكتب المنزلة فذهب الناس فى تأويلها، و شك بعضهم فى صحتها، و لو لا علم الآثار الذى أماط عنها اللثام، و أظهرها للعيان ملموسة محسوسة، لقالوا: إنها أساطير الأولين. أليست جهود الذين اكتشفوا آثار آشور و الكلدان و مصر و فارس و يونان و بعثوا ذكرها بعد أن كانت نسيا منسيا ألوفا من السنين، شاهدا عدلا على أخبار تلك الممالك.

لم يدون الأقدمون غير النزر اليسير الذى وصلهم من أخبار الشعوب القديمة، و أغفلوا ذكر أكثر الأمم البائدة التى ذهبت أخبارها بزوال أصحابها، و لو اكتفينا بهذه النصوص المشوهة لما كنا أوفر حظا ممن تقدمنا بمعرفة أخبار السلف، و بفضل هذا العلم نعرف اليوم أخبار أكثر هذه الأمم، كما نعرف حوادث الأمم فى القرون الوسطى، و قد توصلوا لمعرفة ما كان عليه الإنسان

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۷۲

قبل عشرات الألوف من السنين، يوم كان يأوى إلى الكهوف، و يقتات بالنبات، و يفترس الوحوش، مع أننا نجهل و نحن فى القرن العشرين كثيرا من عقائد بعض الشعوب الضاربة فى مجاهل إفريقية و هى معاصرة لنا.

و من الإنصاف أن لا ننكر فضل من نقلوا إلينا أخبار القدماء لأن هذا الشىء اليسير هو الذى أثار فى فئة من الناس حب الاستطلاع، و كانت هذه النصوص نورا يستضاء به، و مرجعا يستأنس به. و علماء الآثار أصدق الناس فى هذه الروايات، و هم و إن لم ينكروا وقوعها فلا يجزمون بصحتها إلا متى عثروا على دليل من ذلك العصر يؤيدها. و لأبحاث علماء الآثار ميزة جديرة بالاعتبار فإنها تكون فى أكثر الأحايين منزهة عن الأغراض و الغايات النفسانية. و قد يخطئ الأثرى فى استنتاجه، و لكنه لا يعتمد تشويه الحقائق، لأن همه الوحيد أن يحيى هذا الماضى البعيد، و يصبح معاصروه كأنهم يعيشون فى ذاك العصر و ذاك المحيط. و من منا لا يشعر بمثل هذا الشعور عندما يزور متحفا أو معبدا أو أطلالا قديمة. و كيف يمكنه أن ينكر الحقيقة و لسان حال هاته الأمم البائدة يقول:

إن آثارنا تدل علينافانظروا بعدنا إلى الآثار

لقى هذا العلم الحديث إقبالا عظيما فى الغرب فعنيت حكوماتها به، و أرصدت للمشتغلين به أموالا طائلة، و أنشأت له المدارس و المجامع العلمية أسوة ببقية العلوم. و قد أبدى الأثريون على قلة عددهم نشاطا عظيما، و وضعوا فى برهة قصيرة كثيرا من المؤلفات المفيدة. و قد نال الشام قسط وافر من هذه الأبحاث، فهى أول بقعة اتجهت نحوها الأنظار و خصوصا فلسطين، لمكنة الشعوب التى استوطنتها منذ الزمن الأطول، و أهمهم الشعب الإسرائيلى، لعلاقة الأمم الغربية بكتابهم المقدس.

البعثات الأثرية الغربية:

أوفدت أكثر حكومات الغرب بعثات علمية للتنقيب عن آثار الشام نخص منها بالذكر البعثة الإفرنسية التى رافقت حملتها فى سنة (۱۸۶۰ م) و الجمعية الإنكليزية للبحث عن آثار فلسطين. ثم تضاعفت الهمم فجاء من

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۷۳

الفرنسيين رنان و الدوق دولوين و دوسلسى و دوفوكوين و كلرمون غانو و دوسو و فانزان و غيران، و من الإنكليز روبنسون و مادن و سايس و ويلسون و فارين، و من الألمان أوتوتينيوس، و من السويسريين ماكس فان برشيم.

و أهم الأمكنة التى نقبوا فيها هى تل الحسى و تل زكريا و تل الصافى و تل الجديدة و تل الجزر و تل تعناك و تل المتسلم و عكا و يافا و القدس و صيدا و صور و جبيل و عمريت و جزيرة أرواد و بعلبك إلى عدة أصقاع فى الشام الشمالية.

و بينا هذه البعثات مجدة فى عملها، كانت الدولة العثمانية فى سبات عميق مكتفية بمراقبة هذه البعثات لاقتسام الغنيمة و إيداعها

متحف الاستانة الوحيد. و لم تفكر بعمل حفريات قط، كما أنها كانت تأبى إنشاء فروع لمتحفها فى الشام أو فى غيرها من السلطنة العثمانية، و حجتها فى ذلك أن الآثار إذا جمعت فى مركز واحد، و ضم بعضها إلى بعض نتجت من ذلك فوائد علمية و عملية لا ترجى من تعدد دور الآثار، و ذلك أسوة بمتاحف أكثر الأمم الغربية، و عملا برأى أكثر علماء الآثار. و لكنها تجاهلت بأن ما يصلح لأرض لها وحدة تاريخية لا يعمل به فى أرض ضمت تحت لوائها شعوبا مختلفة و مدنيات متباينة كالامبراطورية العثمانية.

و لذلك كان جل اهتمام الدولة العثمانية مصروفا إلى إنماء متحف الاستانة فأهملت أمر الآثار القديمة فى ديارها، و لم تعهد إلى أناس يتعهدونها أو يراقبون سيرها، فدرس كثير من البنايات الأثرية البديعة، و أقبل الأهلون فى كل ناحية ينقبون عن الآثار القديمة بغية الاتجار بها. فأصبحت هذه التجارة ذات شأن فى القطر، و غصت متاحف أوربا بآثار الشام، و اقتنى غواة العاديات الأجانب كثيرا منها. و بهذه الصورة و بفضل الامتيازات الأجنبية تمكنت كل من الجامعة الأميركية و الكلية اليسوعية فى بيروت و غيرهما من المعاهد من إنشاء متحف خاص، و جمع الدكتور فورد فى صيدا، و غيره فى حلب من الأجانب مجاميع مهمة من آثار الشام. و لم يعرف من الشاميين من اشتهر بجمع الآثار، القديمة و كانوا لا يعبأون بها، و لا يقيمون لها وزنا. و من كان منهم يملك طرفة أو أثرا يتنازل عنها مقابل دريهمات معدودة، حتى تجردت أكثر البيوت و الأسر من نفائسها.

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۷۴

آثارنا و آثار جيراننا:

و لقد تبين من الحفريات التى أجريت فى الشام و من الآثار التى اكتشفت فيها أن آثارها تختلف كثيرا عما وجد من نوعها فى الأقطار المجاورة، و لا يرجى أن نعثر فى هذه الديار على آثار تثير بجسامتها إعجاب العامة قبل الخاصة، كما هو شأن آثار مصر و آشور و فارس. و السذاجة فى الصناعات تغلب على الشاميين منذ القديم، و هذا ناشئ عن طبائعهم و معتقداتهم. فالشامى فى جميع أدواره التاريخية يميل إلى الساذج، و هذا يظهر فى صناعته و فلسفته الدينية، و تتجلى فى هذه البساطة مواهبه الفنية، جمع بين الساذج و الجميل فأحسن الصنع و أبدع. و تقل الآثار المنقولة النفيسة التى اكتشفت فى الشام بالنسبة لما وجد فى غيرها من الأقطار، و هذا القليل يشهد ببراعة الصانع الشامى و ذوقه السليم، حاز بهما مكانة بين أقرانه من فنانى بقية الشعوب.

و ليس معنى قلة العاديات عدم انتشارها فى القطر، بل لأنها لم تصل إلينا لأسباب و عوامل شتى. ذلك أن تربة الشام رطبة لا تحفظ ما يودع فيها. و أن الشاميين قلما يجعلون فى مدافن موتاهم نفائسهم، كما هو شأن المصريين و غيرهم من الأمم القديمة. بل يكتفون بالأشياء الساذجة المنوعة. فإذا أضفنا إلى خلو القبور من الأعلاق، و ما قد كتبه اشمونزار ملك صيدا على تابوته مخاطبا به نابشى القبور، ناصحا لهم أن لا يهتكوا حرمته، مؤكدا أن لا ذهب و لا فضة فى قبره- ندرك من هذا سرّ ندرتها بين أيدينا. فإذا كان هذا حال ملوكهم فما بالك بالرعية. و خلو القبور منها هو حجة للشام لا عليها، و دليل على سمو عقيدة سكانها، و نضج فكرتهم منذ القديم، لأن الشامى كبقية الشعوب السامية يغلب عليه الاعتقاد بأن الجسم مادة تتلاشى مع الزمن ليست جديرة بالإكرام الذى يبالغ به غيرهم من الشعوب. و مع هذا فقد انتشرت فى الشام عادة وضع بعض الأشياء فى القبور و ذلك بمؤثرات خارجية، و اقتباس عادات الغالب، و الشام فى أكثر أدوار تاريخها خضعت لسلطان أجنبى.

الشام معهد ثلاث ديانات يدين بها اليوم معظم البشر. و هذه الديانات

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۷۵

لم تكن ابنة ساعتها، بل هنالك عوامل مهدت لها السبيل مدة قرون عديدة قبل ظهورها. و لذلك يهم كلّا منا معرفة تطورها.

و هذا ما يزيد فى مكانة آثار الشام و يجعل إقبال العلماء عليها أكثر من سواها لعلاقتها الكبيرة بنظامنا الاجتماعى الحاضر. و قد أدركت جمعية الأمم هذا الأمر و احتاطت له خوفا من المزاحمة و استئثار دولة بهذه الآثار دون سواها، فاشترطت فى المادة (۱۴) من

صك الانتداب أن القانون الذى سيسن لحماية العاديات يجب أن يستمد روحه مما يدعو إلى التنشيط أكثر منه إلى التثبيط، كما أنها اشترطت على الحكومة المنتدبة عند منحها إجازات بالحفر أن لا تتصرف بشكل يرمى إلى حرمان علماء أى شعب كان تلك الإجازات دون أسباب موجبة، و هكذا أصبح الباب مفتحا لجميع الأمم.

تأسيس دور الآثار:

و قد تضاعف نشاط البعثات الأثرية الأجنبية عقب الهدنة فى سنة (۱۹۱۸)، و أظهرت قيادة جيوش الحلفاء فى الشرق عناية كبرى بالآثار، و عهدت للإخصائيين فى جيوشها بدرس آثار الشام و رفع التقارير عنها، و شددت النكير على العابثين بها. و من جملة مقررات المؤتمر الفرنسى الذى عقد فى مرسيليا سنة (۱۹۱۹) للبحث بشؤون الشام العامة اقتراح على الحكومة الفرنسية بإنشاء ديوان للآثار القديمة، و التشبث باسترجاع ما أخذته الحكومة العثمانية من آثار الشام، و قد حققت المفوضية الفرنسية فى الشام الاقتراح الأول، فأنشأت لها ديوانا للآثار القديمة، و حذت المفوضية الإنكليزية حذوها فى فلسطين و شرق الأردن.

و لم تكن الشام فى عهد الملك فيصل أقل عناية من تينك الدولتين. فقد اغتنم هذه الفرصة بعض المفكرين و فى مقدمتهم الأستاذ مؤلف «خطط الشام» فاقترحوا على الملك إنشاء متحف فى دمشق، فقوبل هذا الاقتراح بارتياح عظيم. و ما لبث الملك أن أصدر أمره بذلك إلى الأستاذ بأمر تحقيقه على أن يكون فرعا للمجمع العلمى العربى الذى أسسه الرئيس أيضا. و أنشأت الحكومة السورية متحفا آخر فى حلب، و أنشأت حكومات لبنان و جبل الدروز و العلويين

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۷۶

متاحف فى بيروت و السويداء و طرطوس، و كذلك أنشأت كل من حكومتى فلسطين و الشرق العربى متحفا جعلته الأولى فى القدس و الثانية فى عمان.

و جميع هذه المتاحف نمت بسرعة عظيمة بفضل ما اشترته و استهدته من الآثار، و ما نالها مما اكتشفته البعثات الأثرية فى مناطقها فأصبحت الشام بتشجيع الحكومات المحلية و السلطات المنتدبة ساحة عمل دولى كبير.

و قامت البعثات الفرنسية بالبحث عن الآثار فى صيدا و أم العواميد و كفر الحرة و بيروت و جبيل و القرية و لبيا فى منطقة الحكومة اللبنانية، و فى السويداء و قنوات و الشهباء، و فى تل النبى مند (قدش القديمة) و فى المشرفة (قطنا القديمة) و النيرب و أرسلان طاش و القصر الأحمر، و قامت بعثتان مختلطتان باعمال التنقيب فى قلعة الصالحية (دوراسا أو روبوس القديمة) على شاطئ الفرات، و فى مدينة تدمر. و تحرت البعثة التشكوسلوفاكية آثار الشيخ سعد و تل أرفاد، و نقبت بعثة ألمانية فى رأس العين شمالى الشام. و حصرت البعثات الإنكليزية و الأميركية أعمالها فى منطقة فلسطين و الشرق العربى، فنقبوا عن الآثار فى تل (مجدو القديمة) و بيسان و سبسطية (سمرة القديمة) و سيشم و بيت جبرين و القدس و التابغة و جرش.

متحف دمشق:

تختلف مجموعة دار الآثار فى دمشق عن مجاميع متحف الشام للعناية التى بذلتها بآثار القطر الشامى على اختلاف أدواره التاريخية و خاصة العهد الإسلامى. و حرىّ بدمشق عاصمة الأمويين، و مهد الحضارة العربية، أن يكون لها متحف يحيى ذكرى هذا الماضى المجيد. و رغم ندرة العاديات الإسلامية المنقولة فى ربوع الشام و أسعارها الباهظة، تمكنت دار الآثار من جمع أعلاق قيمة. منها مجموعة نقود إسلامية، و مجموعة خزف عربى، و مجموعة مصاحف مخطوطة و مذهبة. و مجموعة خشبية أخص بالذكر منها جانبا من سدة جامع من خشب الحور الرومى آية فى جمال الصنع و حسن الذوق، مزينة بنقوش عربية بديعة، و كتابات قرآنية كوفية مزهرة متناسقة جميلة جدا، و قد كتبت فى أعلاها هذه الفقرة: «بن محمد بن الحسين بن

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۷۷

على صفى أمير المؤمنين تقبل اللّه منه و ذلك فى شهور سنة سبع و تسعين و أربعمائة» و تابوت مزين مجموع بشكل حشوات صغيرة منقوشة نقشا بديعا و قد كتب على جوانبه «هذا ضريح الست الجليلة الكبيرة المعظمة الملكة فخر الخواتين عصمة الدنيا و الدين، بختى خاتون ابنة السلطان الملك معز الدين قيصر شاه ابن السلطان السعيد الشهيد ملك ملوك الروم و الأرمن قليج أرسلان قدس اللّه روحه و نور ضريحه، و ذلك فى مستهل ربيع الأول سنة ثمان و أربعين و ستمائة» و بين مجموعة الكتابات الحجرية لوحتان سلجوقيتان كتب عليهما تاريخ ترميم جانب من جامع بنى أمية فى شهور سنة (۴۷۵) و أخرى أيوبية تاريخها سنة (۵۷۵) و مجموعة وافرة من شواهد قبور أمراء الشام و علمائها فى القرن السابع و الثامن ه. و مما يلفت النظر جرة من رخام أبيض، و على القسم الأسفل منها نقوش عربية و عهدها من القرن الثامن للهجرة.

و أخرى من الفخار عليها نقوش أشخاص و حيوانات و طيور و زهور محكمة الصنع و كتب فى وسطها هذه العبارة (عز و إقبال و سلامة و سعادة و كرم و غبطة و رفعة)، و هذه الجرة فريدة فى بابها و هى من صنع العراق فى القرن الثالث عشر (م).

و من أهم الآثار غير الإسلامية مجموعة زجاجية و هى أجمل مجموعات العالم، و مجموعة مهمة من الآثار التدمرية و هناك رأس تمثال أحد عظماء الحثيين يرجع عهده للألف الثانية قبل الميلاد. و نصب الفرعون سيتى الأول و عليه ذكر انتصاره على الحثيين، و طائفة من الآثار الرومانية و اليونانية.

متاحف بيروت و السويداء و حلب و طرطوس و القدس و عمان:

و جمع فى متحف بيروت كثير من الآثار الفينيقية و غيرها أهمها الأوانى و الحلى التى عثر عليها فى مدافن جبيل و فى أقبية معبدها. و يرجع عهد بعضها إلى الألف الثالثة و بعضها إلى ۱۸۰۰ سنة قبل الميلاد منها ناووس الملك أحيرام المتوفى فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد. و قد نقشت على جوانبه صورة الملك يتناول القرابين من أتباعه و بعض الشعائر الدينية، و هو قائم على أربعة

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۷۸

أسود. و مما يزيد فى شأن هذا الأثر الكتابة الفينيقية التى زبرت عليه و هى أقدم كتابة عرفت من نوعها حتى اليوم و هذه ترجمتها «عمل هذا الأران (التابوت) افسبعل بن احرام ملك جبيل لأبيه كى يكون مقره الأبدى، فإذا نصب ملك من الملوك أو حاكم من الحكام العداء لجبيل و أخرج هذا التابوت من تحت التبليط فيكون خاتور خصمه فيدك عرش ملكه و يعم الخراب جبيل إذا محا هذه الكتابة .....» و بين هذه الآثار آنية خزفية نقش عليها اسم الفرعون امنمعحت الثالث (۱۸۵۰- ۱۸۰۰) قبل المسيح.

و آنيتان عليهما اسم امنمعحت الرابع و آنية من الرخام جميلة الصنع مع غطائها، و كتب عليها بالهير و غليفية ما يأتى: «خدام الإله ابن الشمس فليعش امنمعحت إلى الأبد» و صندوق صغير للحلى من حجر كريم أسود محلى بالذهب و شكله على طراز الناووس و على الغطاء كتابة هيرو غليفية هذه ترجمتها: «فليعش الإله بون سيد الأرضين ملك مصر البحرية و القبلية مع حرون راع المحبوب من ثوم سيد هيليوبوليس الممنوحة له الحياة الأبدية». و جمع فى هذا المتحف مقدار كبير من الفخار أهمه الأوانى التى عثر عليها فى كفر الجرة و يرجع تاريخ صنعها إلى الألف الثانى قبل الميلاد. و لآثار جبيل مكانة تاريخية عظيمة و هى من أهم ما عثر عليه حتى الآن فى الشام.

و كان فى متحف السويداء مجموعة حجرية نفيسة أكثرها من العهد اليونانى و الرومانى ضاع معظمها مع الأسف إبان الثورة السورية. و متحف طرطوس حديث العهد ليس فيه إلا مجموعة صغيرة ليست ذات شأن كبير. و أما متحف حلب فلم يخصص له مكان بعد، و لكن مجاميعه جاهزة ستحفظ فيه متى هيئ لها المكان. و أكثر هذه الآثار حثية و أشورية من التى استخرجت فى حفريات أرسلان طاش و تل الأحمر و تل أرفاد و النيرب.

و فی متحف القدس مجامیع خزفیة و معدنیة تبین تطور نهضة فلسطین و الأدوار التی مرت علیها فی أهم عصورها التاریخیة، کما أنه یحنوی علی عدد من النواویس من العهد الیونانی و الرومانی و أجملها مما نقش علیه صورة معرکة بین الیونان و النساء المترجلات (أمازون) و طائفة آثار من الحجر البرکانی من عهد الفرعون سیتی الأول و رعمسیس الثالث التی وجدت فی

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۷۹

بیسان. و قد حفظت قطع الجمجمة التی وجدت فی التابغة و یرجع عهدها إلی ما قبل التاریخ. و أما مجموعة متحف عمان فأکثرها مما یرجع تاریخه إلی العهد الرومانی و البیزنطی.

و بعد فقد عرفنا بما تقدم مقدار العنایة التی بذلتها البعثات الأجنبیة بآثار الشام غیر الإسلامیة و إعراضهم عن هذه الأخیرة. لا جرم أن معظم الآثار الإسلامیة فی القطر محفوظة فی الجوامع و المساجد و المدارس تحت إشراف دیوان الأوقاف. و لذلک یتحاشی الأجانب ما أمکن أن یثیروا عواطف عوام المسلمین حتی إن السلطات المنتدبة ترکت لدوائر الأوقاف حریة التصرف بهذه الأماکن المقدسة. و قد اکتفت بأن تسدی إلیها من حین إلی آخر النصائح لبذل العنایة بهذه الآثار. و لکن أکثر هذه الدوائر فی شغل شاغل عنها. فکل یوم نسمع بضیاع أثر أو تشویهه لا عن قصد منهم بل لأنهم لا یقدرون قیمة ما هو تحت أیدیهم، حتی أصبحت أکثر هذه الأمکنة الأثریة فی حالة یخشی علیها من الاندراس، و بذلک یفقد القطر هذه المفاخر التی تشهد بمدنیة السلف العظیمة فی أزهی العصور الشامیة. فعسی أن تحذو الشام حذو شقیقتها مصر و تؤلف لجنة للآثار الإسلامیة تعنی بجمعها و تتفقد شؤون الأبنیة منها.

و قد أنشأت الجمهوریة الفرنسیة فی دمشق معهدا إفرنسیا لدرس الآثار و خاصة منها الإسلامیة علی منوال المعهد الإفرنسی فی القاهرة. و قد سبق للبعثات الأجنبیة أن أسست فی القدس معاهد لدرس الآثار مثل المدرسة الأثریة الفرنسیة، و المدرسة الأثریة الإنکلیزیة، و المدرسة الأمیرکیة للأبحاث الشرقیة، و لهذه المعاهد فضل کبیر بکشف غوامض تاریخ الشام القدیم.

لم تدع السلطتان الفرنسیة و الإنکلیزیة فی منطقتی سوریة و فلسطین بابا إلا و طرقتاه لنشر الدعایة فی الممالک الأجنبیة عن آثار الشام و مکانتها. و قد تجلی ذلک فی دعوتهم لمؤتمر الآثار الدولی الذی عقد فی سوریة و فلسطین فی شهر نیسان سنة (۱۹۲۶) فکانت نتائجه مرضیة. و بفضل هذه الدعایة نری عدد السیاح بازدیاد فی کل سنة. و لا شک أن الشام إذا صرفت العنایة بفنادقها و طرق مواصلاتها تصبح مقصد السیاح من أهل الأرض، و تجنی من ذلک فوائد مادیة و أدبیة لا تقدر.

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۸۰

دور الکتب

[نشأة الکتب:]

عرفنا من سیر القدماء أنهم کانوا یقیدون علومهم و مآثرهم و تواریخهم و أیامهم فی صنوف من المواد، تکون علی مقربة منهم، و تکثر فی أرضهم و دیارهم. فالبابلیون کتبوا کتبهم علی الآجر أی بالطین المشوی، و کتب الهنود علی النحاس و الحجارة و الحریر الأبیض و الطومار المصری، و العرب عمدوا إلی أکتاف الإبل و اللخاف، أی الحجارة البیض الرقاق و عسب النخل.

و بقی الأمر علی ذلک حتی شاع الورق المعمول من الکتان فی خراسان و سمرقند و بغداد و دمشق، منذ القرن الأول للهجرة علی ما یظهر.

و لما شاع الورق قضی علی الرّق لسهولة تناول القرطاس و المهرق، و هی الصحیفة البیضاء یکتب فیها. و کان من الحریر الأبیض ما یسقی الصمغ و یصقل ثم یکتب فیه، و قد اعتمدوا علیه قبل القراطیس بالعراق، و کتب بعض أهل الغرب فی صفائح من معدن رقیق. و کان أهل فرغامة فی الروم أول من استنبطوا الرّق، کانت له تجارة رابحة بارت بظهور الورق، و کانت الکتب فی العراق تجعل فی

جلود دباغ النورة أى الكلس، و هى شديدة الجفاف، ثم كانت الدباغة الكوفية، تدبغ الجلود بالتمر و فيها لين و لا رائحة لها و لما فتح الإسكندر فارس كان العلم منقوشا مكتوبا فى صخور و خشب، فأخذ حاجته منها و أحرق الباقى. و لما تولى أردشير بابك و ابنه سابور على فارس و العراق تجمع ما تفرق من الكتب فيهما، و استنسخ من الهند و الصين و الروم

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۸۱

كتبهم. و لما ملك بطلميوس (بطولوماوس) فيلادلفوس من ملوك الإسكندرية فحص عن كتب العلم فعهد إلى رجل اسمه زميرة فجمع من ذلك على ما حكى أربعة و خمسين ألف كتاب و مائة و عشرين كتابا. و قال له: قد بقى فى الدنيا شىء كثير فى السند و الهند و فارس و جرجان و الارمان و بابل و الموصل و عند الروم. و ذكروا أن النعمان ملك الحيرة أمر فنسخت له أشعار العرب فى الطّنوج أى الكراريس فكتبت له ثم دفنها فى قصره الأبيض، فلما كان المختار ابن عبيد قيل له: إن تحت القصر كنزا فاحتفره فأخرج تلك الأسفار. قالوا: فمن ثم كان أهل الكوفة أعلم بالأشعار من أهل البصرة.

و بلغ من عناية ملوك الفرس بصيانة العلوم، و حرصهم على بقائها على وجه الدهر، و إشفاقهم عليها من أحداث الجو و آفات الأرض، أن اختاروا لها من المكاتب أصبرها على الأحداث، و أبقاها على الأيام، و أبعدها عن التعفن و الدروس، فكتبوا فى لحاء شجر الخدنك، و لحاؤه يسمى التّوز، و كانت تعمل منه القسى، و بهم اقتدى فى ذلك أهل الهند و الصين و من يليهم من الأمم.

و لما حصل الفرس العلوم طلبوا لها من يفاع الأرض أصحها تربة و أقلها رطوبة، و أبعدها من الزلازل و الخسوف، و أعلكها طينا، و أبقاها على الأيام بناء، يقيمون فيها خزائنهم و دور كتبهم فاختاروا مدينة جىّ من عمل أصفهان جعلوها فى قهندرز أى حصن، فانهارت هذه المصنعة فى الإسلام فظهروا فيها على أزج معقود من طين الشقيف، أى بيت مستطيل من الخزف، فوجدوا فيها كتبا كثيرة من كتب الأوائل مكتوبة كلها فى لحاء التوز بالكتابة الفارسية القديمة، و قالوا: إن الفرس كانوا يودعون كتبهم فى سارويه، أحد الأبنية الوثيقة القديمة المعجزة البناء، و تشبه الأهرام فى الجلالة و إعجاز البناء، و كانت الكتب تكتب على صفحة صفحة أى من وجه واحد.

هذا ما يؤخذ من كلام ابن النديم و غيره فى منشإ الكتب عند القدماء، و مع هذا لم تحفظ لغات الأقدمين لو لا ما وجد منها مكتوبا على الأحجار، و كان بعض تلك اللغات اندثر فى القرون الأخيرة حتى لا يحلها إنسان، مثل اللغة الهيروغليفية لغة قدماء المصريين المقدسة فعثروا فى رشيد من ثغور مصر

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۸۲

فى سنة (۱۸۲۶) على حجر كان مكتوبا بالهيروغليفى و الديموطيقى و اليونانى، فحل شمبوليون الخط الهيروغليفى، و هو الخط الخاص بالآثار عند قدماء المصريين، و كان الخط المعتاد عندهم الخط الهيراطيقى يكتبون به حاجاتهم العادية و فنونهم و آدابهم. و هذا يكتب على البردىّ بقلم من البوص المعروف بالغاب، يغمس فى مداد أسود أو أحمر و منه أدراج طويلة قد يبلغ طول الواحدة منها ثلاثين مترا، و منها نماذج حفظت فى متاحف الغرب و متحف مصر، و كذلك ما عثروا عليه فى رسائل تل العمارنة فى المنيا بمصر فى سنة (۱۸۸۸) و قد كتبت بالآجر بالحروف المسمارية البابلية، و فيها سجلات الدولة فى عهد فرعون مصر أمينوفيس الرابع و أبيه أمينوفيس الثالث، و انحلت بهذه الآجرّات عقد من التاريخ القديم استدل بها على علاقة الشام بمصر.

و مثل ذلك يقال فى الأثر النفيس الذى اكتشفه أحد أمراء روسيا فى تدمر سنة (۱۸۸۲) و انحلت به مشاكل كثيرة من الحضارة التدمرية. و قد حل الخط التدمرى بارتلمى، و اكتشف دوسو فى الجنوب الشرقى من النمرة فى الصفا حجرا مكتوبا بالخط الآرامى و هو بالعربية، و حل لغة الصفا بيمان و هاليفى. و اكتشفت فى البتراء المصانع المكتوبة بالآرامية، و حلّ علماء الآثار اللغة الحميرية السبئية فى اليمن. و حلّ لغة البابليين دى مورغان، و من أهم ما عثر عليه من آثارهم مسلّة عظيمة عملت بمسحوق الحجر البركانى و قد زبرت عليها شريعة حمورابى أحد أعاظم ملوك البابليين، و كان من أصل عربى كما يقول هومل.

و أهم الكتابات الفينيقية التى ظهرت ما وجد مزبورا على ناووس أحد ملوك صيدا سنة (۱۸۵۵)، و الخط الفينيقى أشبه بالخط العبرانى، و الخط المسند هو الذى كتبت به مصانع الفرس القدماء و مصانع أشور و بابل و أرمينية و خوزستان و ما إلى ذلك من أرض العراق. و لا يزال العلماء يكتشفون الآثار و العاديات فى أرض الشام، و إلى اليوم لم ينحل خط الحثيين أقدم شعوب هذه الديار، و لا يزال علماء الآثار منذ عثر بروكهار فى حماة على حجر مكتوب بهذا الخط سنة (۱۸۱۲) متوفرين على حل هذا القلم و قد ظفروا بكثير من آثار الحثيين فى هيرابوليس أو قرقميش عاصمة الحثيين و فى طرابلس

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۸۳

و حلب و أرفاد و حمص و غيرها.

و معنى كل هذا أنه لم يصل إلى أهل العلم الحديث بعد تطاول الأعصار من تلك اللغات القديمة إلا ما كان مزبورا على الأحجار و الآجر، ثم ما كان على الخشب و الرّق ثم الورق، و كانت للعرب فى الكتابة على الرّق و الورق يد طولى نقلوا بواسطتهما ما أمكن من علوم القدماء، و أعطوه لأهل الحضارات الحديثة بأمانة و إخلاص. فالقدماء إذا وضعوا الكتب أيام عرفوا الكتابة، فكان لبعضهم كالفرس و اليهود و الهنود كتب مقدسة، و خلف الرومان و اليونان تواريخ و قصائد و خطبا و مقالات فلسفية. قال سنيوبوس: و قلما نجد فى الكتب المواد اللازمة لمباحثنا إذ ليس لدينا كتاب أشورى و لا فينيقى.

أما ما بقى من أسفار الشعوب الأخرى فتافه جدا. و كان القدماء يكتبون و لكن أقلّ منا، و لذلك كانت تآليفهم أندر، و لم يكن لهم من كل مصنف غير نسخ قليلة لما أن الحال كانت تقضى باستنساخها كلها باليد، و قد دثر غالب هذه النسخ أو ضاع و تعذرت قراءة ما بقى منه، و يسمى علم حلها باليوغرافيا أى علم الخطوط و الكتابات القديمة.

نشأة الخزائن و العناية بحفظها:

عرفنا بما تقدم أننا لا نستطيع أن نحكم على العصور التى سبقت الإسلام فى الشام فى أمر الكتب و الخزائن فلا أنطاكية نطقت بما كان فيها من علوم القدماء، و انتقلت إليها من حران و الإسكندرية، و لا بيروت و لا مدرسة الفقه التى كانت فيها قبل الإسلام، اطلعتانا على ما كان فيهما من خزائن و أسفار، فإن أخبار هاتين المدينتين أنطاكية و بيروت انطمست منذ القديم كما انطمست معالمهما بالزلازل المدهشة التى قضت على دور العلم فيهما، و أتت أيضا على مدن برمتها فى العصور الأولى للإسلام، و الزلازل كالحريق تتلف الكتب و تدمر دورها.

ثبت أن العرب لم يدونوا فى الجاهلية شيئا من مآثرهم بالعربية، لأن الخط العربى محدث انتقل إليهم من الأنبار قبيل الإسلام، و لكنهم كانوا أول من أسرع إلى التدوين خارج جزيرتهم، و لا سيما فى العراق و الشام أوائل الإسلام.

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۸۴

و من أهم الكتب القديمة فى الشام مصحف سيدنا عثمان الذى أرسله عام ثلاثين للهجرة إلى دمشق ليكون الاعتماد عليه كما أرسل مثله إلى الأمصار الكبرى فى الأقطار الأخرى. و الغالب أنه نقلت عنه عدة مصاحف عدّت من الأمهات منها ما جعل فى طبرية، و منها ما وضع فى قنسرين. و كثرت النسخ بعد ذلك، لكن هذه المصاحف ذهبت فى الحريق الذى أصيبت به الجوامع فى عصور مختلفة، و كلما حرق مصحف قديم قال القوم: إنه مصحف عثمان، و الأصح أن يقال المصحف المنقول عن مصحف عثمان. و حدثنى الشيخ مسعود الكواكبى أنه تشرف غير مرة بزيارة مصحف كتب عليه حرره عثمان بن عفان و هو محفوظ فى مكتبة جامع أياصوفيا فى الاستانة.

ثبت أن أول خزانة كتب فى الإسلام أنشئت فى دمشق أو فى حلب أنشأها حكيم آل مروان خالد بن يزيد الأموى المتوفى سنة خمس و ثمانين، و لم يصل إلينا من أخبارها شىء، و لا شك أنها كانت تحوى بعض العلوم التى نقلها من القبطية و اليونانية و السريانية، فى

الكيميـاء و الطب و النجوم و غيرها، و ربما كان فيها شـيء من كتب الجغرافيا لأنه ثبت مما قاله ابن السـنبدى الـذى زار خزانـة الكتب بالقاهرة فى سنة (۴۳۵ ه) أنه كان فيها كرة من نحاس من عمل بطلميوس، كتب عليها حملت هـذه الكرة من الأمير خالـد بن يزيد ابن معاوية. و قال: إنه كان فى تلك الخزانة من كتب النجوم و الهندسة و الفلسـفة خاصة ستة آلاف و خمسمائة جزء. و لا شك أن خزانة خالـد بن يزيـد كان فيها أيضا كتاب عبيـد بن شـرية الجرهمى الـذى كان استحضـره جده معاوية من صـنعاء اليمن و سأله عن الأخبار المتقدمـة، و ملوك العرب و العجم، و سـبب تبلبل الألسـنة، و أمر افتراق الناس فى البلدان. فأجابه إلى ما أراد، فأمر معاوية أن يدوّن و ينسب إلى عبيـد بن شـرية. و لعبيـد كتـاب الأمثـال و كتاب الملوك و أخبار الماضـين. و هـذا من أول التـدوين فى النصف الأول من القرن الأول.

و لوهب بن منبه المتوفى سنة (۱۱۰) أو ۱۴ أو ۱۶ تصنيف ترجمه بذكر الملوك المتوجة من حمير و أخبارهم و قصصهم و قبورهم و أشعارهم، رآه ابن خلكان فى القرن الثامن و قال: إنه من الكتب المفيدة.

و جاء القرن الثانى و الشام تهتز أعصابها بانتقال الملك من بنى أمية إلى

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۸۵

بنى العبـاس فلم يؤثر عنها أنه كان فيها خزانـة كتب، و لا عرف أحـد من الخاصـة بأنه كان مولعا بجمع الأسـفار، فكانت الكتب القليلة التى لهم تجعل فى الجوامع أو فى بعض دور الخاصة على ما كانت الحال فى أكثر المدن الإسلامية.

و إذ وقع التدوين فى القرن الأول لم يدخل القرن الثانى حتى كثرت الكتب، و قد ورد فى سـيرة الزهرى المتوفى سنة (۱۲۴ ه) أنه كان إذا جلس فى بيته وضع كتبه حوله مشـتغلا بها عن كل أحـد، فقالت له زوجته: و اللّه لهـذه الكتب أشـد علىّ من ثلاث ضـرائر. و هـذا دليـل على تكاثر الكتب حتى صارت للزهرى مجموعـة منها ينصـرف إليها بكليته، و امرأته تريـده على أن يكون لها فقط. و كل هـذه الكتب لم تبق الأيام عليها. و الغرب كان أمهر منا فى الاحتفاظ بما دون فإن أقدم كتاب فى أوربا يرد إلى القرن الثانى للمسيح.

و لم يعرف قبل عهد الرشيد و المأمون أن جمعت الكتب فى خزانة و سميت دار الحكمة أو بيت الحكمة أو بيت المعرفة. و كانت دار الحكمـة أشـبه بجامعـة فيهـا دار كتب يجتمع فيها رجال يتفاوضون و يطالعون و ينسـخون. و يـدير شؤون تلك الـدور من يثق الخليفة بعقلهم و أمـانتهم و علمهم. كـان هـذا فى القرن الثانى و اعتوره فى القرن الثالث بعض الفتور، و ظل بيت الحكمـة فى القرنين الرابع و الخامس فى بغـداد مفتـح الأبواب. و أنشأ أحـد وزراء العباسـيين أبو نصـر سابور بن أردشـير فى القرن الخامس دارا بالكرخ فى بغـداد سماها دار العلم، وقفها على العلماء و نقل إليها كتبا كثيرة. و أنشأ الفاطميون فى القاهرة دار العلم فى القرن الرابع تشـبها بالعباسيين فى بغداد، أنشأها الحاكم بأمر اللّه سنة (۴۰۰) و فرشـها و نقل إليها الكتب العظيمة و أسكنها من شيوخ السنة شيخين. قال ابن قاضى شهبة: و بقى الحاكم كذلك ثلاث سنين ثم أخذ يقتل أهل العلم و أغلق دار العلم. و لم تعهد الشام دار حكمة إلا فى القرن الخامس أنشأها بنو عمـار فى طرابلس. و كـان فى كـل من كفر طـاب و المعرة فى زمن أبى العلاء المعرى خزانـة كتب و قـد زارهمـا كمـا زار خزانة طرابلس.

و هـذه الخزانة كانت قبل خزانة بنى عمار بمدة خلافا لما وهم بعض المؤلفين المعاصـرين، لأن بنى عمار لم يسـتولوا على طرابلس إلا بعد الأربعين و أربعمائة.

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۸۶

و كان أبو العلاء زار طرابلس قبل هذا التاريخ أى فى أواخر القرن الرابع، و انتفع بخزانتها و كتبها الموقوفة.

و كانت فى الشـرقية التى بجامع حلب خزانـة كتب مهمـة اسـمها خزانة الصوفية. و اتفقت فتنة فى بعض أيام عاشوراء بين أهل السـنة و الشـيعة و نهبت خزانة الكتب، و لم يبق فى خزانة الكتب إلا قليل. قال ابن العديم: وجدد الكتب بعد ذلك الوزير أبو النجم هبة اللّه بن بديع وزير الملك رضوان ثم وقف غيره كتبا أخر. و قد ذكر ابن سـنان الخفاجى (۴۶۶) هذه الخزانة فى قصيدته اليائية التى كتبها من

القسطنطينية يداعب أحد أصدقائه قال فيها:

أبلغ أبا حسن السلام و قل لههذا الجفاء عداوة الشيعة

فلأطرفن بما صنعت مكابراو أبثّ ما لاقيت منك شكية

و لأجلسنك للقضية بينافى يوم عاشوراء بالشرقية

حتى أثير عليك فيها فتنةتنسيك يوم «خزانة الصوفية»

و قد ظلت هذه الخزانة فى حلب عامرة إلى القرن السابع و هى مسبلة على المطالعة، و لم يعلم هل كانت الخزانة المهمة التى أنشأها فى حلب سيف الدولة بن حمدان و جمع فيها الأمهات الجيدة عامة للناس أيضا كخزانة الصوفية أم هى خاصة به و بجماعته فى قصره، و قد اشتهر عنه و لوعه بالكتب إلى الغاية. و ناهيك بخزانة كان من جملة خزانها الخالديان الشاعران المشهوران.

و ربما ذهبت هذه الخزانة فى هجمة الروم على حلب و تخريبهم قصر سيف الدولة.

و قلّت عناية الملوك بخزائن الكتب، لما كثرت المدارس فى هذه الديار فى القرن الخامس «اكتفاء بخزائن كتب المدارس التى أثبتوها من حيث أنها بذلك أمسّ» و لم تكد تخلو مدرسة من المدارس فى الشام من خزانة كتب. و كان لحلب و دمشق و القدس الحظ الأوفر من ذلك، لو لم تنازعها طرابلس التى كان يراد من إنشاء دار الحكمة فيها نشر التشيع على ما يقال، و ساعد على كثرة الكتب فى طرابلس ما كان فيها من معمل الورق الجيد.

و قد عرفنا أن معامل الورق كانت تخرج الكاغد و القراطيس و الطوامير الجيدة فى طرابلس و دمشق و حلب و منبج و طبرية و غيرها من المدن. و من أشهر خزائن الملوك و الأمراء فى القرن السادس و السابع خزانة الكتب التى

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۸۷

وقفها بحلب نور الدين محمود بن زنكى على مدرسته و سلمت إلى محمد بن على ابن ياسر الجيانى الأندلسى، زميل ابن عساكر مؤرخ دمشق، و أجريت عليه جراية ثم وقف كتبه على أصحاب الحديث توفى سنة (۵۵۳) و وقف نور الدين على البيمارستان الذى أنشأه بدمشق جملة كثيرة من الكتب الطبية كما وقف كتبا كثيرة على أهل العلم فى أرجاء مملكته.

و أعطى صلاح الدين يوسف لمؤدب ولده الأفضل أبى سعيد البندهى (أو البنجديهى) كتبا كثيرة من خزانة كتب حلب، أباح له أن يأخذ منها ما شاء، و هذا جمعها و حصل من الكتب التى لم تحصل لغيره، و وقفها بخانقاه السميساطى بدمشق. و كثيرا ما كان صلاح الدين يبيح لرجاله أن يأخذوا ما شاءوا من الكتب التى وقعت إليه، كما فعل فى مصر و أعطى وزيره القاضى الفاضل من خزانة الفاطميين قدرا كبيرا من كتبها، و أعطى عماد الدين الكاتب أيضا بعض أسفارها، و كان فى هذه الخزانة على ما قيل ألف ألف كتاب و فيها من تاريخ الطبرى فقط ألف و مائتا نسخة. فبيعت خزانة الفاطميين و تشتتت على هذه الصورة و لم يكن فى ديار الإسلام أعظم منها.

و وهب صلاح الدين القاضى الفاضل ما شاء من كتب خزانة آمد لما فتحها و كان فيها ألف ألف و أربعون ألف كتاب فانتخب منها الفاضل سبعين حملا. و هذه الألوف من الكتب التى ملكها القاضى الفاضل وقفها بعد على إحدى مدارس القاهرة و كان هو و ابنه من غلاة الكتب.

و من الخزائن التى كانت بالشام خزانة على بن طاهر السلمى النحوى (۵۰۰) كانت له حلقة بالجامع بدمشق و وقف فيه خزانة كتب. و كان لتاج الدين الكندى فى الجامع الأموى خزانة كتب فيها كل نفيس. و وقف شرف الدين بن عروة الموصلى المنسوب إليه مشهد ابن عروة فى الجامع الأموى خزائن كتبه فيه. و من الخزائن خزانة بنى جرادة العلماء فى حلب فقد كتب أحدهم أبو الحسن ابن أبى جرادة (۵۴۸) بخطه ثلاث خزائن من الكتب النفيسة و خزانة لولده أبى البركات و خزانة لابنه عبد اللّه. و مات موفق الدين ابن المطران (۵۸۷) و فى خزانته من الكتب الطبية و غيرها ما يناهز عشرة آلاف مجلد خارجا عما استنسخه. و كان فى خدمته ثلاثة نساخ يكتبون

له أبدا و لهم

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۸۸

منه الجامكيۀ و الجرايۀ. و مات أمين الدولۀ السامرى و قد اجتمع عنده نحو عشرين ألف مجلد لا نظير لها فى الجودۀ. و كان مهذب الدين الدخوار صاحب مدرسۀ الطب بدمشق من أهل القرن السابع اقتنى كتبا كثيرۀ، و اقتنى من آلات النحاس التى يحتاج إليها فى علم الهيأۀ و النجوم ما لم يكن عند غيره أى إنه كان عنده مرصد فلكى و خزانۀ كتب.

و جمع جمال الدين بن القفطى (۶۴۶) فى حلب ما لا يوصف من الكتب، و كانت خزانته تساوى خمسين ألف دينار. و كانت خزانۀ قطب الدين النيسابورى مهمۀ وقفها على إحدى المدارس بدمشق. و كان الملك الناصر ابن الملك المعظم عيسى (۶۵۶) معنيا بتحصيل الكتب النفيسۀ، و كان جمع قبله محمد بن عمر ابن شاهنشاه صاحب حماۀ و ابن صاحبها من الكتب ما لا مزيد عليه، و كان فى خدمته ما يناهز مائتى متعمم من الفقهاء و الأدباء و النحاۀ و المشتغلين بالحكمۀ و المنجمين و الكتاب (۶۱۰) و وقف الملك الأشرف موسى (۶۳۵) كتبه بالمدرسۀ الأشرفيۀ بدمشق، و اشتهرت فى هذا القرن خزانۀ ابن أبى أصيبعۀ و تلميذه ابن القف بدمشق. و من خزائن القرن الثامن و التاسع و العاشر التى بلغنا خبرها خزانۀ أبى الفداء صاحب حماۀ فإنه جمع من الكتب سبعۀ آلاف مجلد وقفها على جامع الدهشۀ. و لم يقم فى هذا القرن بعد الملوك من بنى أيوب أحد من الأمراء عنى بالكتب و تسبيلها على المطالعۀ، فالقرن الثامن كان خاتمۀ هذه الحركۀ المباركۀ فى الشام.

و من الخزائن فى هذه الحقبۀ خزانۀ ناصر الدين العسقلانى (۷۲۳) فقد خلف ثمانى عشرۀ خزانۀ مملوءۀ كتبا نفيسۀ. و اقتنى ابن قيم الجوزيۀ تلميذ ابن تيميۀ خزانۀ مهمۀ. و ملك عمر القرشى الدمشقى (۷۹۲) من نفائس الكتب شيئا كثيرا. و وقف تقى الدين اليلدانى أكثر كتبه و مجاميعه بالخزانۀ الفاضليۀ بالكلاسۀ بدمشق سنۀ (۶۵۵) و حصل شمس الدين البعلى كتبا و كتب بخطه المليح شيئا كثيرا (۷۷۴)، و خلف الفتح الفارقى (۶۹۴) ألفى مجلدۀ و مائتى مجلدۀ. و كانت خزانۀ ابن رواحۀ الحموى (۶۲۲) فى مدرسته بدمشق. و خلف بدر الدين ابن غانم الدمشقى ألفى مجلدۀ. و اجتمع لشرف الدين البارزى الحموى (۷۳۸) من الكتب ما لم يجتمع لأهل عصره. و كانت

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۸۹

خزانۀ أرغون نائب حلب (۷۳۱) عامرۀ بالكتب النفيسۀ. و من الخزائن المشهورۀ خزانۀ ابن فضل اللّه العمرى و ابن مالك النحوى و ابن خلكان المؤرخ.

و اقتنى بعض ولاۀ العثمانيين فى الشام كتبا نفيسۀ بطرق مختلفۀ و منهم سنان باشا صاحب الجامع خلف مائۀ و ستين مصحفا مرصعا بالدر و الجوهر و خمسۀ و ثلاثين صندوقا مملوءۀ بالكتب التى لا تقدر بثمن، و كانت الصناديق مرصعۀ باليواقيت و المعدن. و كل هذا أخذه صاحبه من اليمن و الشام و غيرها و نقل إلى الاستانۀ. و كان فى القرن العاشر فى الجامع الأموى بدمشق خزانۀ كتب خاصۀ بالمالكيۀ و الأمين عليها مفتى أهل هذا المذهب. و وقف على الدفترى من أهل القرن الحادى عشر كتبا نفيسۀ غاليۀ بدمشق. و كان لبولس الزعيم اللبنانى من أهل القرن السابع عشر للميلاد خزانۀ مخطوطۀ.

و لم يبلغنا أن قامت للكتب سوق فى وراء جنوب دمشق من الأرجاء إلى أقصى حدود الشام، مع أن بعض أقاليمها أنجبت علماء أجلاء مثل قمرا و امتان و عرّمان و نجران و شهبۀ و صرخد و بصرى و الصلت و وادى الأردن و جبل الشراۀ و عمّان و معان و الشوبك و عجلون و أذرعات و جرش و السويداء.

و بعد فقد كانت الوراقۀ أو صنعۀ الكتب من نسخ و تجليد و تذهيب صناعۀ رائجۀ و من أهم الصناعات فى العهد القديم، و الناسخ يرزق بقدر إجادته الخط أو الخطوط التى يعرفها و يحسنها. و كذلك المجلد و المذهب يكافأ كل واحد منهما بحسب غنائهما. و كان كثير من العلماء يكتبون الخط المنسوب أى الخط ذا القاعدۀ و ينسخون نسخا لا بأس به و يعيشون من نسخهم. و منهم من كانوا

يتعففون عن القضاء، أو تولى شيء من أمر الأمة، و يؤثرون أن يعيشوا بالنسخ أو الوراقة أو الاتجار بالكتب، و منهم من أثروا منها. و كان فى كل حاضرة سوق لبيع الكتب يختلف إليه العلماء و الأدباء. و من العلماء من نسخوا المئة بل المئات من الكتب، و منهم من نسخ ألف مجلد فى حياته.

و لم يكد الكتاب يخرج من يد مؤلفه خصوصا إذا كان من المشاهير الثقات حتى تتعاوره الأيدى بالنسخ، و يتنقل من قطر إلى قطر، و يتداول فى الأيدى، و يجلد و يوضع فى القماطر.

و قد جاء زمن على دمشق (من القرن السابع إلى القرن الحادى عشر)

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۹۰

و كل مدرسة من مدارسها الكثيرة لا تخلو من خزانة وافية بغرض الأساتيذ و التلاميذ. و من أهم المدارس التى حوت خزائن ذات شأن العمرية و العروية و الناصرية و العادلية و الأشرفية. جاء فى فتاوى التقى السبكى صك وقف دار الحديث الأشرفية هذا: و يصرف إلى خازن الكتب ثمانية عشر درهما فى كل شهر و عليه الاهتمام بترميم الكتب، و إعلام الناظر أو نائبه ليصرف فيه من مغل الوقف ما يفى بذلك، و كذلك إذا مست الحاجة إلى تصحيح كتاب أو مقابلته. و جاء فيه: و جعل جزءا من الوقف يصرف على مصالح المدرسة النورية و من ذلك أن يصرف فى شراء ورق و آلات نسخ من مركّب (حبر) و أقلام و دوىّ و نحو ذلك ما يقع به الكفاية لمن ينسخ فى الديوان الكبير أو قبالته الحديث أو شيئا من علومه أو القرآن العظيم أو تفسيره، و يصرف إلى من يكتب فى مجالس الإملاء، و إلى من يتخذ لنفسه كتبا أو استجازة، و لا يعطى من ذلك إلا لمن ينسخ لنفسه لغرض الاستفادة و التحصيل دون التكسب و الانتفاع بثمنه. قال: و للشيخ الناظر أن يستنسخ للوقف أو يشترى ما تدعو الحاجة إليه من الكتب و الأجزاء ثم يقف ذلك أسوة ما فى الدار من كتبها. و كتب سنة ستمائة و اثنتين و ثلاثين اه.

و كان رهبان الموارنة فى لبنان منذ القرن الخامس عشر يصرفون أوقات فراغهم فى نسخ المخطوطات الدينية و العلمية و كان بعض بطارقتهم و أساقفتهم يحملون الشمامسة الرهبان و غيرهم على نسخ الكتب يزيدون بها مجاميع الأديار و البيع فى الجبل و يتقيلون فى ذلك مثال إخوانهم علماء المسلمين فى المدن. و بهذه الطريقة كانت تنمو الكتب و الأيدى تتناولها على أيسر وجه كأنها بعض المقدسات. و كأن القوم كانوا يتعبدون اللّه بحفظها و إماطة الأذى عنها و تجليدها و تخليدها، و خدمتها بالتعليق عليها و معارضتها بالنسخ الصحيحة و وضع الفهارس لها بحسب عرفهم فى تلك الأيام، يتخيرون لها ما يبقى و يخلد طويلا من الورق المتين و المركب الجيد و الجلد النفيس المجود الدبغ لندرتها، و النادر موضع العناية و هو خليق بأن تشد عليه يد الضنانة و تحتفظ النفوس به و تغتبط بتعاور الأيدى عليه من دون أن يناله سوء من عوادى الدهر.

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۹۱

مصائب الكتب و دورها:

ما برحت خزائن الكتب تزيد على الزمن بازدياد الحضارة فى الإسلام و تنتقل الكتب من مصر إلى الشام، و من الشام إلى العراق، و من الحجاز إلى الشام مثلا و يعنى بها العلماء و الأدباء، و يتنافس فى اقتنائها الملوك و الأمراء، و يضعف الغرام بها يوم تضعف الحركة العلمية و يرغب عن الفضائل، ما برحت الحال على ذلك حتى دخل الروم حلب و أحرقوها سنة (۳۵۱) ثم أحرقوا حمص و غيرها من المدن. ثم وقع الحريق الأعظم الذى فى الجامع الأموى سنة (۴۶۱) و دثر ما كان فيه من الكتب و المصاحف. و ربما حرق فيه المصحف العثمانى القديم. و من أهم النكبات التى أصيبت بها الكتب نكبة طرابلس لما فتحها الصليبيون و إحراق صنجيل أحد أمرائهم كتب دار العلم فيها، و أخذ الصليبيون بعض ما طالت أيديهم إليه من دفاترها و كتب الخاصة فى بيوتهم. و اختلفت الروايات فى عدد المجلدات التى كانت فى خزانة بنى عمار أو دار حكمتهم فى طرابلس، و على أصح الروايات أنها ما كانت تقل عن مائة

ألف مجلد، و أوصلها بعضهم إلى ألف ألف و بعضهم إلى أكثر. وقفها الحسن بن عمار و جاء بعده على بن محمد بن عمار الذى جدد دار العلم سنة (۴۷۲) ثم عمار بن محمد حتى صارت طرابلس كما قال ابن الفرات فى زمن آل عمار جميعها دار علم، و كان فى تلك الدار مائة و ثمانون ناسخا ينسخون لها الكتب بالجرايهٔ و الجامكيهٔ، فضلا عما يشترى لها من الكتب المنتخبهٔ من الأقطار. و ابن الفرات هو ممن يقول بأن عدد ما كان فى دار العلم هذه من الكتب نحو ثلاثهٔ ملايين كتاب عند ما أحرقها الصليبيون سنة (۵۰۳ ه).

و الغالب أنه كان فى طرابلس من الكتب الموقوفهٔ غير دار العلم وقفت قبل بنى عمار، و أراد ابن الفرات بهذه الثلاثهٔ آلاف الألف عدد الكتب التى كانت فى مكاتب طرابلس كلها.

و لا ينبغى أن يذهب عن الخاطر أن ما كانوا يسمونه جزءا أو مجلدا أو مجلدهٔ لا يتجاوز بضع كراريس من كراساتنا، و الكراسهٔ قد لا تكون أكثر من ثمانى صحائف بمعنى أن ألف المجلدهٔ أو المجلد لا تبلغ فى مصطلحنا

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۹۲

أكثر من خمسين كتابا أو ستين أو سبعين كتابا، فكان المجلد فى تلك العصور قليل الأوراق، لأن الورق أو الرّق غليظ فإذا جعل كل مجلد مئتين أو ثلاثمائهٔ أو أربعمائهٔ أو خمسمائهٔ ورقهٔ يصعب تناوله و حمله و نقله و لا يصح ما قاله ابن الفرات من أنه كان فى دار العلم فى طرابلس ثلاثهٔ آلاف ألف يوم نكبتها إلا على هذه الصورهٔ، أى إن كتبها كانت بين المائتين و ثلاثمائهٔ ألف و منها أجزاء صغيرهٔ و رسائل، و قد يكون الجزء من كتاب لا تتجاوز سطوره سطور مقالهٔ من مقالاتنا أو إملاءهٔ من أمالينا أو محاضرهٔ أو مسامرهٔ من محاضراتنا و مسامراتنا.

فالمصيبهٔ الأولى العظمى التى أصابت الكتب فى الشام كانت على عهد الصليبيين و المصيبهٔ الثانيهٔ ما حمله منها التتر فى نوبهٔ هولاكو و ما أحرق فى مدارس دمشق و جوامعها من أمهاتها، فقد ذكر المؤرخون أنه امتلأت خزانهٔ الكتب بمراغهٔ بما نهبه هذا الطاغيهٔ من الشام و العراق و غيرهما. و قدر ما حمله بأربعمائهٔ ألف مجلد، و منها ما حرق فى فتنهٔ غازان سنهٔ (۶۹۹) و فى وقعهٔ تيمور سنهٔ (۸۰۳) فان النار ظلت تحرق دور دمشق و مدارسها و جوامعها فى الفتنهٔ التيموريهٔ ثلاثهٔ أيام، فذهب فى هذين الحريقين و غيرهما كتب المدرسهٔ الضيائيهٔ و المدرسهٔ العادليهٔ و غيرهما من المدارس.

و من الخزائن التى دمرت فى الخروب الصليبيهٔ خزانهٔ أسامهٔ بن منقذ أحد أصحاب قلعهٔ شيزر فإنها كانت أربعهٔ آلاف مجلد من الكتب الفاخرهٔ أرسل بها بعد أن أخذ عهدا من الصليبيين من دمياط إلى عكا فى بطسهٔ فنهبت و نهب معها ثلاثون ألف دينار قال: إن ذهابها حزازهٔ فى قلبه ما عاش. و من مصائب الكتب ما وقع من حريق فى دار صاحب حماهٔ سنهٔ (۶۸۷) ذهب فيه من الكتب مقدار عظيم.

و منذ دخل الصليبيون الشام أخذوا على ما يظهر يقتنون الكتب العربيهٔ و لكن على صورهٔ ضعيفهٔ لأن العلم بها كان معدوما عندهم، يبتاعونها على أنها عاديات قديمهٔ غريبهٔ الشكل، و لما لمعت فى القرن السادس عشر شعلهٔ النهضهٔ فى إيطاليا أراد الباباوات اقتناء الكتب العربيهٔ، فندبوا لذلك بعض العارفين من رهبان الموارنهٔ و حملوا إلى روميهٔ من أديار لبنان ما كان محفوظا فيها

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۹۳

من كتب الدين و العلم بالعربيهٔ و السريانيهٔ. و حمل يوسف السمعانى من لبنان (۱۷۶۸ م) كتبا فى ثلاثهٔ مراكب إلى روميهٔ ملأها بالمخطوطات العربيهٔ و غيرها فغرق منها مركبان.

و من المصائب التى أصيبت بها الكتب أن بعض دول أوربا و منها فرنسا و جرمانيا و بريطانيا العظمى و هولاندهٔ و روسيا أخذت تجمع منذ القرن السابع عشر كتبا تبتاعها من الشام بواسطهٔ و كلائها و قناصلها و الأساقفهٔ و المبشرين من رجال الدين، و كان بلغ الجهل ببعض من اتسموا بشعار الدين و من كان يرجع إليهم أمر المدارس و الجوامع أن يفضلوا درهما على أنفس كتاب فخانوا الأمانهٔ و استحلوا بيع ما تحت أيديهم أو سرقهٔ ما عند غيرهم و التصرف به تصرفهم بملكهم. حدثنى الثقهٔ أن أحد سماسرهٔ الكتب فى القرن

الماضی کان یغشی منازل بعض أرباب العمائم فی دمشق، و یختلف إلی متولی خزائن الکتب فی المدارس و الجوامع، فیبتاع منها ما طاب له من الکتب المخطوطة بأثمان زهیدة و کان یبیعها علی الأغلب، و أکثرها فی غیر علوم الفقه و الحدیث، من قنصل بروسیا إذ ذاک بما یساوی ثمن ورقها أبیض، و بقی هذا سنین یبتاع الأسفار المخطوطة من أطراف الشام حتی اجتمع له منها خزانة مهمة رحل بها فأخذتها حکومته منه و کافأته علیها، و الغالب أن معظم الکتب العربیة المحفوظة فی خزانة الأمة فی برلین هی من هذا القطر. و فهرس هذه الخزانة فقط فی عشرة مجلدات ضخمة ما عدا الملحق. یتألف من فهارس الکتب العربیة فی خزائن الغرب الیوم خزانة برأسها. و إن بعیدا یحسن القیام علی هذا التراث الوافر لأحری به من قریب یبدده جزافا. و إن أمما عرفتنا أکثر مما عرفنا أنفسنا حتی قال أحد علمائهم: إن العرب وضعوا من المصنفات ما لا یستطیع أحدنا أن یقرأه طول عمره، لجدیرون بإرث الشرق فی مادیاته و معنویاته کما قلنا من فصل فی مجلة المقتطف منذ أربع و أربعین سنة. نعم إن کتبا تترک للأرضة تعیث فیها، و العفن یعبث بجمال جسمها و رسمها، و تحرم النور و یعفّی أثرها الغبار و الأوساخ، و یحرم النظر فیها علی من یحسن الاستفادة منها، أو تفضّل علیها دریهمات معدودة حریة بأن تکون فی ملک من یستفید منها و یفید.

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۹۴

و من الخزائن المشهورة التی بعثرت فی عهدنا و لم نعرف متی جمعت خزانة قبة صحن الجامع الأموی، و کانت مملوءة برقوق نفیسة فتحت سنة (۱۳۱۷ ه) بأمر السلطان عبد الحمید الثانی إجابة لمقترح الامبراطور غلیوم الثانی الألمانی فعثروا فیها علی قطع من الرقوق کتبت فیها سور من القرآن الکریم بالخط الکوفی، و منها قطع مهمة من مصاحف و ربعات و قطع من الأشعار المقدسة بالآرامیة الفلسطینیة و کتابات دینیة و أدبیات دینیة و قصص رهبانیة و مزامیر عربیة مکتوبة بالحرف الیونانی و مقاطیع شعریة لأومیروس، و کراریس و أوراق بالقبطیة و الکرجیة و الأرمنیة فی موضوعات دینیة، و جذاذات عبرانیة و سامریة فیها نسخ من التوراة و تقاویم أعیاد السامریین و صلوات و صکوک للبیع و الأوقاف و عهود زواج و بینها مقاطیع لاتینیة و إفرنسیة قدیمة و قصائد شعریة یرتقی عهدها إلی أیام الصلیبیین و نسخ إنجیل برقوق. فأهدی السلطان بعضها لعاهل ألمانیا و وزع قسم منها علی بعض رجال الاستانة و رجال دمشق و استخلصت بعض قطع منها حفظت الآن فی دار الآثار فی دمشق و أهمها تلک القطعة الکوفیة المکتوبة علی رق من ربعة شریفة وقفها عبد المنعم بن أحمد سنة (۲۹۸) و علی الوجه الثانی نقش مذهب باسم واقفها. و رأی شیخنا طاهر الجزائری فی تلک القبة جزءا مکتوبا علیه أنه حبس علی مشهد زین العابدین صلوات اللّه علیه و علی أبنائه الأئمة سنة نیف و سبعین و أربعمائة.

و کانت فی دیر صیدنایا من جبل قلمون خزانة کتب حافلة بالمخطوطات النادرة و لا سیما السریانیة، فحاذر وکلاء الدیر من کثرتها (المشرق ۲ ص ۵۸۸) أن تکون حجة بید السریان یتقوون بها علی إثبات حقوقهم فی الدیر، فأجمع رأیهم علی إخراجها و إتلافها تخلصا منها، فجمعوها و معظمها من النفائس المخطوطة علی رق و بدأوا یحرقونها وقودا للفرن خبزوا علیها خبزتین و کان هذا من نحو عشر سنین و مئة سنة. و هو عمل مثّل الجهل المطبق و التعصب الممقوت. و کم وقع من حوادث إفرادیة من مثل هذه فضاعت فیها الکتب و لم تبلغنا تفاصیلها. و مما أعان علی تشتت الکتب أن بعض من أولعوا فی العهد

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۹۵

العثمانی بتسنم ذری المناصب و القضاء، و کان لهم مشاکل و قضایا یریدون حلها فی المراجع العلیا أو لمجرد التقرب و التظرف کانوا یمعنون فی مهاداة من یتوقعون الخیر منهم بالکتب، و بذلک رحلت إلی الاستانة و غیرها أحمال من المخطوطات علی هذا الوجه أیضا فعدت هذه الهدایا فی جملة مصائب الخزائن.

خزائن الیوم و أهم ما حوت:

من أهم الخزائن فی الشام خزانة المسجد الأقصی فی القدس و فیها نصف مصحف قدیم بخط کوفی کتب علیه «کتبه محمد بن

الحسن بن الحسين ابن بنت رسول اللّه» و إحدى ثلاث نسخ من مصحف مجزإ ثلاثين جزءا كتبها بيده أحد ملوك المغرب ابن عبد الحق على رق و هى مجلدة على الطريقة المراكشية و موضوعة فى صندوق مزخرف بالميناء على الطريقة الأندلسية.

و مصاحف كبيرة جدا و صغيرة كتبت فى عهد المماليك و ملوك بنى عثمان.

و من كتبها «نشق الأزهار» لابن إياس و «حوادث الجو» لمؤلف مجهول و «كتاب المعرفة و التاريخ» رواية ابن درستويه عن ابن القطاف.

و من خزائن القدس مكتبة القبر المقدس و دير الروم و مكتبة دير الدومنيكان و مكتبة الآباء البيض و مكتبة دير الفرنسيسكان و دير الأرمن و خزانة الآثار الأميركية و الآثار الإنكليزية و مكتبة المجمع العلمى الأثرى البرتستانتى و الجامعة العبرية و المكتبة الحنبلية و مكتبة الشيخ الخليلى و مكتبة البديرى، و أهمها المكتبة الخالدية العمومية أنشأها فى القدس راغب الخالدى من أعيان تلك المدينة بمشورة أستاذنا طاهر الجزائرى و معاونته و قد بلغت نحو أربعة آلاف مجلد، منها نحو ثلثيها من المخطوط و زادت زيادات كثيرة بما أضيف إليها من خزانة الأسرة الخالدية. جعلت سنة (۱۳۱۸ ه ۱۹۰۰ م) على مقربة من المسجد الأقصى فى مقبرة أحد الأمراء.

و من نوادرها «أنموذج العلم» للمولى شمس الدين محمد بن حمزة الفنارى المتوفى سنة (۸۳۴ ه) ذكر فيه أصول مائة علم. «الطبقات السنية فى تراجم الحنفية» عليه خط مؤلفه تقى الدين بن عبد القادر المضرى التميمى الدارى المتوفى سنة (۱۰۱۰ ه). «الشعور بالعور» للصلاح الصفدى المتوفى سنة (۷۶۴)

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۹۶

فى ذكر العلماء الذين أصيبوا بفقد إحدى عينيهم. «منادح الممادح و روضة المآثر و المفاخر فى خصاص الملك الناصر» و هو المعروف بالمدبجات لعبد المنعم الجليانى (۶۱۳). «مختصر حياة الحيوان» لجلال الدين السيوطى (۹۱۱).

«قهوة الإنشاء لابن حجة الحموى» (۸۳۸) و هو مجموع رسائله. «اختصار السيرة النبوية» لمحيى الدين بن عربى (۶۳۸). رواية ولده أبى سعيد و ولده أبى بكر بن أبى المعالى محمد و ابنته فاطمة عنه. «نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء و السلاطين» لمرعى الحنبلى (۱۰۳۳). «رونق الحفاظ بمعجم الألفاظ» للحافظ يوسف سبط أحمد بن على بن حجر و عليه خط الحافظ قاسم بن قطلوبغا (۸۷۹) و هو المجلد الثانى و يرجح أنه بخط مؤلفه.

«مثير الغرام بفضائل القدس و الشام» لسرور المقدسى (۷۶۵) و فى آخره حواش فيها أسماء بعض تواريخ القدس. «إتحاف الأخصا فى فضائل المسجد الأقصى» لمحمد أبى شرف الشافعى المصرى (۹۰۶). «شاناق فى السموم و الترياق» لشاناق الهندى نقله من لغته الهندية إلى الفارسية منكه الهندى نقل للمأمون على يد العباس بن سعيد الجوهرى مولاه و هو فى معرفة السموم و الترياق و هى نسخة ملوكية. «الوسيط» للواحدى (۴۶۸) الجزء الثالث منه.

«عيون الأثر فى فنون المغازى و الشمائل و السير» لابن سيد الناس اليعمرى (۷۳۴). «أرجوزة محمد بن أحمد الباعونى» (۸۷۱) فى التاريخ وقعت فى نحو ألف بيت من الهجرة إلى الملك برسباى. «تعاليق شهاب الدين أحمد بن الهائم» على الخصائص النبوية بخط أحمد الشهير بابن الهائم (۸۱۵). «تقويم أصول الفقه و تحديد أدلة الشرع» للدبوسى (۴۳۰). «مجموعة رسائل لابن كمال باشا» (۹۴۰). «تأويل مشكل الأحاديث و الرد على الملاحدة و المعطلة و أهل الأهواء المبتدعة» من إملاء أبى بكر محمد بن حسن بن فورك (۴۰۶).

«إيضاح الإشكال فى من أبهم اسمه من النساء و الرجال» أى رواة الحديث للحافظ محمد بن المقدسى (۵۰۷). «كتاب الأربعين الأبدال التساعيات» للبخارى و مسلم للحافظ عبد المؤمن الدمياطى (۷۱۷). «ارتياح الأكباد بأرباح فقد الأولاد» للسخاوى. «كتاب قصص الأنبياء عليهم الصلاة و السلام» لأحمد بن محمد بن عمر القدسى الشهير بابن زوجة أبى عذيبة.

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۹۷

«کتاب التبیان فی إعراب القرآن» لأبی البقاء العکبری (۶۱۶). «دمیة القصر و عصرة أهل العصر» للباخرزی (۴۶۷) ذیل یتیمة الدهر للثعالبی.

و من الخزائن المهمة فی غزة خزانة المفتی، و فی یافا الخزانة الإسلامیة و خزانة أبی نبوت و فی أرباض حیفا خزانة دیر الکرمل و فیها صکوک قدیمة لها علاقة بالدیر. و من الخزائن الخاصة فی القدس خزانة عبد اللّه مخلص و فی عکا خزانة جامع الجزار و فی نابلس خزانة آل الجوهری و خزانة آل صوفان و فی صفد خزانة آل النحوی و فی جبل عامل خزانة آل خاتون و إبراهیم یحیی و الشیخ زین الدین و آل الصغیر و أحمد رضا.

و أهم خزائن لبنان خزانة آل أرسلان فی عبیه و خزانة جرجس صفا فی دیر القمر و خزانة دیر الشرفة و دیر السیر و دیر المخلص و دیر البلمند و عین تراز و قزحیا و بزمار و اللویزة و مار أشعیا و دیر یوحنا مارون بکفرحی. و کان فی بعض أدیار الیسوعیین فی لبنان مخطوطات نقلوها إلی دیرهم فی بیروت کما نقلت المخطوطات المهمة فی القرون الماضیة من أدیار الموارنة فی الجبل إلی رومیة العظمی.

و من خزائن بیروت الخزانة الشرقیة للآباء الیسوعیین و خزانة الجامعة الأمیرکیة معظمها بالإنکلیزیة و مجموعة دار الکتب الکبری فی بیروت قلیلة المخطوطات کثیرة المطبوعات و کان فی بیروت مجموعة البارودی من المخطوطات فبیعت کما بیعت مجموعة حیدر أحمد الشهابی و مجموعة جمیل العظم و مجموعة رشید الدحداح فی بیروت و غیرها من مجامیع الأفراد التی بعثرت لقلة العنایة بالعلم أو لأسباب مادیة قاهرة أحیانا. و من خزائن الساحل خزانة آل کرامة و آل الجسر و آل المغربی و آل السمین فی طرابلس، و خزانة آل الأزهری فی اللاذقیة و خزانة سلیمان أحمد فی جبل العلویین و خزائن بعض المدارس فی أنطاکیة. و أشهر الخزائن العامة فی حلب خزائن المدرسة الأحمدیة و المدرسة الخسرویة و المدرسة العثمانیة و المدرسة القرمانیة و جامع الناصریة و الخزانة المارونیة و الأرثوذکسیة و الکاثولیکیة و خزائن آل الکواکبی و الغزی و الملاح و الزرقا و الکتخدا و منش و الأنطاکی و العینتابی و قطر أغاسی و مجموعة سباط. و فی الخزانة الأحمدیة بحلب «المباحث المشرقیة» للفخر الرازی. و «الوافی» للصفدی و «مختصر

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۹۸

تاریخ الذهبی المسمی بالعبار» و «تاریخ الذهبی» فی سبعة مجلدات و «در الحبب فی تاریخ حلب» لابن خطیب الناصریة فی مجلدین و «التفسیر المهمل» للفیض الهندی و «مثیر الغرام لزیارة القدس و الشام»، و من مخطوطات المدرسة العثمانیة المعروفة بالضیائیة بحلب «عمدة الحفاظ فی تفسیر أشرف الألفاظ» للحلبی السمین و «المقدمة السنیة للصفدی» و «الدر الثمین فی أسماء البنات و البنین» و «الحدائق الأنسیة فی الحقائق الأندلسیة». و کتاب «الناسخ و المنسوخ للحازمی، و فی خزانة المولویة بحلب «اختلاف الفقهاء» للوزیر ابن هبیرة المسمی بشرح معانی الصحاح. و خزانة الجامع الکبیر بحلب غنیة بالکتب الفلکیة و آلات علم الفلک و کان واقفها محمود الجزار و أبوه من علماء هذا الفن. و فی المدرسة البهائیة «عیون السیر» لابن سید الناس فی السیرة النبویة و حاشیة علیه فی ثلاثة أجزاء لإبراهیم بن محمد بن خلیل سبط ابن العجمی الحلبی. و فی بعض المدارس الحلبیة الأخری کتب متفرقة لکنها غیر ذات بال.

و فی الکنیس الکبیر فی حلب توراة مخطوطة قدیمة الخط جدا. و فی حماة خزانة نوری الکیلانی فی جامع الشیخ إبراهیم و مجامیع الکیلانی. و فی حمص مجامیع آل الأتاسی و خزانة القدیس الیان الحمصی و خزانة الخوری عیسی أسعد و خزانة بنی الجندی و کامل لوقا. و فی المعرة مجموعة آل الحراکی.

و کان فی دمشق عدة خزائن بعثرت منها خزانة آل حمزة، و خزانة الحضرة و آل الحسنی و خزانة آل عبد القادر الحسنی هدت أسرته کثیرا منها للمجمع العلمی فجعلها فی الخزانة الظاهریة. و حرقت خزانة بدر الدین الحسنی و خزانة الشمعة و آل مردم بک و خزانة آل القوتلی. و تشتتت خزائن آل الحسیبی و العطار و الحلبی و الغزی و بایزید و الأیوبی. و خزانة آل السقطی وزعت، و إلی الیوم لا تزال محفوظة خزانة کل من آل الأسطوانی و کان أحرق قسم مهم منها فی دار سعید الأسطوانی و ذلک فی حریق سوق الحمیدیة، و

حفظت خزائن كتب آل البيطار و آل القاسمى و عابدين و المبارك و آل النابلسى و آل المنير و آل المرادى و دخل قسم مهم من كتب المتيّر و المرادى إلى دار الكتب الظاهرية. و حملت خزانة طاهر الجزائرى و كان فيها الأمهات المحررة إلى مصر فأباعها من دار الكتب المصرية و الخزانتين التيمورية

خطط الشام، ج۶، ص: ۱۹۹

و الزكية. و مما حفظ من المجاميع مجموعة البطريركية الأرثوذكسية و مجموعة كنيسة السريان و هما مجموعتان جديدتان جمعتا بعد فتنة سنة (۱۸۶۰) التى ذهبت فيها مجاميع الكنائس و الأديار فى دمشق و بعض لبنان و لا سيما زحلة.

و فى بعض البيوت القديمة فى دمشق و حلب و القدس بل فى معظم المدن القديمة مجاميع قليلة يحتفظون بها ورثوها من أجدادهم و منهم من لا- يرجعون إليها و لا- عرفوا مضامينها و يتغالون بحفظها و يتنوقون فى رصفها كأنها بعض الآنية اللطيفة و العروض التى يتنافس فيها و نعم الهوى هواها. و أهم الخزائن العامة فى الشام خزانة دار الكتب الظاهرية و ليست مكانتها منبعثة من كثرة أعداد كتبها بل من النوادر المحفوظة فيها و ربما كانت مجموعتها أندر مجموعة فى الشام، فيها بضعة آلاف كتاب و رسالة و فيها ما هو بخط مؤلفيه أو مقروء عليهم و منها القديم جدا بل فيها أقدم كتاب فى الشام من القرن الثالث.

أنشئت هذه الخزانة سنة (۱۲۹۶) بمساعى طاهر الجزائرى و سليم البخارى و معاونة غيرهما من العلماء و كان؟؟؟ لدحت باشا و حمدى باشا واليى سورية يد فى جمعها، و أهم رجل من عمال الدولة عطف على هذا المشروع و ساعده مساعدة فعلية بهاء بك مدير ديوان الرسائل فى ولاية سورية. فجمع ما تفرّق من الأسفار فى الخزانة العامة التى أبقت عليها الأيام و بعد ممانعات شديدة ممن يرومون كتم العلم و إبقاء الناس فى عماية جمعوا مقدارا من الكتب جعلوها فى شطر من مدرسة الملك الظاهر بيبرس قبالة العادلية الكبرى و نصبوا عليها قواما و وضعوا لها مثل شرائط المكاتب الكبرى فجاءت مؤلفة من ۲۴۵۳ كتابا منوعة عدا الدشت و الكراريس و الأوراق المتفرقة. أخذت من عشر خزائن و هى:

(۱) خزانة المدرسة العمرية بالصالحية و هى قديمة العهد وقفها بعض أهل الخير و لكن كان الناظر قد سرق جانبا عظيما منها لا تزال عند أبنائه و منها ما فى الظاهرية الجزء الأول أو الثانى و التتمة أو الأول فى دار السارق.

(۲) خزانة مدرسة عبد اللّه باشا العظم وقفها سنة (۱۲۱۱) و ضم إليها كتبا وقفها والده محمد باشا العظم سنة (۱۱۹۰). (۳) خزانة سليمان باشا العظم وقفها سنة (۱۱۹۶) كانت بمدرسته بباب البريد. (۴) خزانة الملا عثمان الكردى

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۰۰

كانت بمدرسة السليمانية أيضا. (۵) خزانة مدرسة الخياطين وقفها أسعد باشا العظم بعد سنة (۱۱۶۵) و كان مقرها بمدرسة والده إسماعيل باشا العظم.

(۶) خزانة المرادية بمدرسة مراد المرادى. (۷) مدرسة السميساطية و هى قديمة وقفها بعض أهل الخير. (۸) خزانة الياغوشية كانت موضوعة فى مدرسة سياوش باشا بالشاغور. (۹) خزانة الأوقاف و هى مؤلفة من عدة خزائن حفظت بقاياها. (۱۰) خزانة بيت الخطابة كانت بحجرة الخطابة بالجامع الأموى. و من كتب أخرى موقوفة.

و فى زمن رءوف باشا والى دمشق أوائل هذا القرن جمع لها نحو خمسمائة ليرة و ابتاع لها مقدارا من الكتب المطبوعة فى الغرب و غيرها و جلد بعض كتبها حتى إذا كانت سنة (۱۹۱۹ م) و تألف المجمع العلمى العربى على يد كاتب هذه السطور بذلت العناية بابتياع أو استهداء الكتب المخطوطة و المطبوعة و قليل منها بغير اللغة العربية فناهز عدد الكتب المخطوطة الأربعة آلاف كتاب عدا المجاميع، و عدد المطبوعة الأربعين ألفا عدا الخزانة التى أعدها المجمع لأعماله فى الفروع التى يبحث فيها و هى تربو على أربعة آلاف، و حصلت الفائدة من تنوع الأسفار و المجلات و الصحف حتى قدر معدل الداخلين للاستفادة منها كل يوم بمئة إنسان و ما زالت عناية المجمع بتكثير كتبها متوفرة، و من الكتب المخطوطة التى حفظت فى دار الكتب الظاهرية «الكواكب الدرارى» لابن عروة الحنبلى و

هو فی أکثر من مئة و عشرین مجلدا فی فن التفسیر و الحدیث و الفقه و علم الکلام و الرد علی الفلاسفة و أسماء الرجال و علوم شتی و الموجود منه ۴۲ جزءا. و «الغریب فی الحدیث» کثیر منها أجوبة الإمام أحمد عن أسئلة أبی داود السجستانی کتب سنة مائتین و ست و ثمانین و هو أقدم کتاب عرف فی الدیار الشامیة.

و «البحر المحیط» فی أصول الفقه للبدر الزرکشی فی خمس مجلدات و الجزء الأول من «التذکرة» لأمیرک من علماء المعتزلة فی علم الکلام. و الأول أیضا من «الاشارات الإلهیة» لأبی حیان التوحیدی فی مخاطبة النفس. و الأول من «سر الصناعة» لابن جنی فی أسرار العربیة و «شعب الإیمان» فی التصوف و الأخلاق لعبد الجلیل الأندلسی. و «الرسالة الجامعة» من جمع أصحاب

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۰۱

رسائل إخوان الصفا تقرأ عندهم بعد الرسائل المعروفة. و «الصحائف الیونانیة فی مخاطبة النفس الإنسانیة» و «الضوء اللامع» للسخاوی فی تراجم أهل القرن التاسع فی خمس مجلدات کبیرة (طبع). و الثانی من «مناقب الخلفاء الأربعة» لأبی بکر ابن الطیب الباقلانی. و «جامع بیان العلم و فضله» لابن عبد البر الأندلسی (طبع). و الثالث من «الجلیس و الأنیس» لأبی الفرج المعافا بن زکریا. و کتاب «الأحکام السلطانیة» للقاضی أبی یعلی (طبع) و «تفضیل السلف علی الخلف» لإبراهیم بن هبة اللّه و «دیوان خالد الکاتب» (المتوفی فی حدود السبعین و المائتین). و «الطب الروحانی» لابن الجوزی فی علم الأخلاق (طبع). و «الأطراف فیما یتعلق بالمحدثین» سبع مجلدات للحافظ جمال الدین المزی. و «کتاب الأموال» لأبی عبید بن سلام الأزدی (طبع). و «تاریخ دمشق» لابن عساکر (المتوفی سنة ۵۷۱) فی عشرین مجلدا. و الجزء الخامس من «الفتاوی المصریة» شیخ الإسلام ابن تیمیة و هی فی علوم شتی.

و «أخبار الأذکیاء» لیوسف بن عبد الهادی (المتوفی ۹۰۹) بخط مؤلفه.

و «فهرس الکتب الموقوفة» بخط یوسف بن عبد الهادی بعضها من تصنیفه و بخط یده. «المناقب و المثالب» تألیف هبة اللّه بن عبد الواحد الخوارزمی.

«مساوئ الأخلاق و مذمومها و مکروه طرائقها» لأبی بکر محمد بن جعفر الخرائطی فی خمسة أجزاء. «شذرات الذهب فی أخبار من ذهب» لابن العماد الدمشقی المتوفی سنة (۱۰۸۹) (طبع). «الدرر الکامنة فی أعیان المئة الثامنة» لابن حجر العسقلانی المتوفی سنة (۸۵۲) بخط إبراهیم البقاعی (طبع). «عقد الجمان فی مختصر أخبار الزمان» المنسوب للمسعودی المتوفی (۳۴۳) و هو للشاطبی المتوفی (۸۷۲). (إرشاد السالک إلی مناقب الإمام مالک) لیوسف بن عبد الهادی بخط المؤلف. (طبقات النحاة و اللغویین) لابن قاضی شهبة الأسدی ویلیه (مختصر النحاة للزبیدی). (المدهش) لأبی الفرج بن الجوزی المتوفی سنة (۵۹۷). (طبع) (اللطف و اللطائف) لأبی الفرج بن الجوزی. (أدب السلوک) لأبی الفضل عبد المنعم بن عمر ابن عبد اللّه الأندلسی (۶۰۳) مشتمل علی مشارع کلمات الحکمة و الأدب و الأخلاق. (قاموس الأطباء و ناموس الألباء.) لمدین بن عبد الرحمن القوصونی

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۰۲

المصری من أطباء القرن الحادی عشر للهجرة فی المفردات الطبیة. (ما لا یسع الطبیب جهله) لیوسف بن إسماعیل المعروف بابن الکبیر من أهل القرن الثامن. (منهاج البیان فیما یستعمله الإنسان) لأبی العباس یحیی بن عیسی الکاتب الملقب بالرئیس الأجل المتوفی (۴۹۳) و هو فی جزئین دخلا فی مجلد واحد. (خلاصة تحقیق الظنون فی الشرح و المتون) تألیف محمد بن مصطفی الصدیقی و هو ذیل لکشف الظنون أتمه (۱۱۸۰). (مجمع الزوائد و منبع الفوائد) لأبی الحسن علی بن أبی بکر الهیثمی (۸۰۷) جمع فیه مؤلفه زوائد الکتب الستة من مسند أحمد بن حنبل و البزاز و أبی یعلی الموصلی و المعاجم الثلاثة للطبرانی نسخة فی مجلد کبیر. (المجمل فی اللغة) لأبی الحسین أحمد بن فارس بن زکریا المتوفی (۳۹۰) اقتصر فیه مؤلفه علی الألفاظ المهمة المستعملة أخذ أکثرها بالسماع عمن تقدمه و اختصر الشواهد و رتبه علی الأبجدیة منه جزء یبتدئ من حرف العین إلی آخر الکتاب بخط أبی بکر محمد بن محمد بن خلف فی سنة (۵۸۹). (جنی الدانی فی حروف المعانی) لحسن بن قاسم المرادی المتوفی (۷۴۹) و هو کما فی کشف الظنون من

مآخذ المغنى لابن هشام. (شرح الإيضاح) لأبى على حسن بن أحمد الفارسى (۳۷۷) و الشرح للجرجانى (۴۷۱) شرحه أولا شرحا مبسوطا فى نحو ثلاثين مجلدا و سماه المغنى ثم لخصه فى مجلد واحد و سماه المقتصد و هو فى مجلد ضخم (۹۰۴ صفحات) بخط نفيس من القرن العاشر. (مجمع الآداب فى معجم الأسماء و الألقاب) لعبد الرزاق الفوطى المتوفى (۷۲۳) منه الجزء الرابع يبتدئ من حرف العين إلى القاف بخط مؤلفه. (الكواكب السائرة فى أعيان المئة العاشرة) للنجم الغزى المتوفى (۱۰۶۱) و ذيله المسمى (لطف السمر و قطف الثمر) من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادى عشر. (طبقات الحنابلة) لابن رجب (۷۹۵). (نشر المحاسن اليمانية فى خصائص و نسب القحطانية) لأحد أفاضل و صاب من بلاد اليمن. (أجزاء من عيون التواريخ) للصلاح الكتبى (۷۶۴).

و فى خزانة المجمع العلمى الخاصة عدة مخطوطات نادرة أخذت بالتصوير الشمسى منها نسخة من (الدارس) للنعيمى (أبى المفاخر محيى الدين) المتوفى

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۰۳

(۹۲۷) منقولة عن نسخة لابن المؤلف محفوظة فى خزانة مونيخ. و (تراجم الأعيان) للبورينى (۱۰۲۴). (الذيل على الروضتين) لابن أبى شامة (۶۶۵).

(حكماء الإسلام) للبيهقى المتوفى فى حدود سنة (۵۷۰). (رحلة الأمير يشبك) بن مهدى الدوادار (۸۸۵). (كتاب الإنصاف و التحرى فى دفع الظلم و التجرى عن أبى العلاء المعرى) لكمال الدين ابن العديم الحلبى المتوفى سنة (۶۶۰) ناقص من آخره. (مجموع فيه نقش خواتم الحكماء و آدابهم، و اجتماعات الفلاسفة فى بيوت الحكمة و غير ذلك. (التيسير و الاعتبار و التحرير و الاختبار) فيما يجب من حسن التدبير و النصيحة فى التصرف و الاختيار لمحمد بن محمد بن خليل الأسدى صاحب كتاب لوامع الأنوار و مطالع الأسرار فرغ من تصنيف كتابه سنة (۸۵۴). (المثالث و المثانى فى المعالى و المعانى) لصفى الدين الحلى (۵۷۰) و معه مجموعة أخرى للشاعر نفسه. (نظم درة الغواص) للسراج الوراق بخط محمد بن الصالحى الهلالى المتوفى سنة (۱۰۰۴).

(تحفة ذوى الألباب) للصفدى سنة (۷۶۴). و فى المجاميع عشرات من الرسائل النادرة الجديرة بالنشر.

هذا ما أمكن استيعابه من الكلام على خزائن الكتب المخطوطة فى هذا القطر عرفنا بها فى الجملة كيف نمت و جمعت و كيف مزقت و تشتتت، و كان القوم يعتقدون أن اقتناء الكتب يورث الغنى و بيعها يورث الفقر، و لذلك احتفظت بعض البيوت بكتبها و ربما زادت عليها. و شوهد أثر هذه العناية فى البيوتات القديمة فإن المخطوطات على كثرة ما أصابها من التفريق ما برحت محفوظة فى المدن بل فى القرى فى بيوت أفراد من الشعب قد لا يخطر فى البال أنها تعنى بمثل هذه الكنوز. و منهم من يتبرك بها و يفاخر باقتنائها، و منهم من يرتقب الزمن ليبيعها بالأثمان الغالية. و قد ابتاعت مصر فى العهد الأخير مقادير عظيمة منها، لغنى مصر و شيوع العلم فى بنيها، و تفانيهم فى إحراز آثار السلف. و قد يبتاعون السفر المخطوط بثمن فاحش و ربما كان مما مثّل بالطبع مرات، لأن للمخطوط روعة غير روعة المطبوع، و قيمة تاريخية يدركها من يعانى هذه الصناعة و يقدر العاديات قدرها.

و من الأسف أن صناعة النسخ ماتت من قطرنا و ضعف بذلك التنافس

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۰۴

فى الخطوط الجيدة المنسوبة و غيرها كما قضت الآلة الكاتبة فى الغرب و فى الشرق على الخط أيضا. و من المؤلفين و الكتاب اليوم من يملون على كتّابهم على تلك الآلة مباشرة أو يكتبون هم بأنفسهم عليها دون أن يتعبوا أناملهم بتنميق السطور و وضع الصفحات مما يفيد فى الإسراع بالأعمال، و يقضى على الفن و الجمال. و لو لا الحرص المغروس فى الفطر ما بقيت هذه البقايا التى نفاخر بها من عمل الأجداد، و هى فى نظر العقلاء أغلى من التبر و العسجد، و لا سيما بعد أن سطت عليها كل يد أثيمة و أبيع من كتب الجوامع و المدارس بالألوف فسافرت عنا تنزل على الرحب و السعة على من يعرف قيمتها و يحسن تعهدها. و الكتب كما قال أحد المولعين بها كالطيور لا تطلب إلا الهواء الطلق السالم من الشوائب. و لطالما انتقلت من يد إلى يد و من جيل إلى جيل كما تتنقل الأعلاق

النفيسة أو كما تتداول النقود و الحليّ و لكن بتجلة و حرمة.

هذا و خير طريقة تحفظ بها ثمالة تركة السلف الصالح أن يعمد كل من حوت رفوفهم و قماطرهم كتبا إلى كتبهم المخطوطة فيودعوها في الخزائن العامة لأنها أقل عرضة للحريق و التلف و لكارث و وارث، و أن يستعاض عنها بالكتب المطبوعة في الخزائن الخاصة، و تجعل المخطوطات ملك الجماعات يرجع إليها العلماء و الباحثون، و تسبّل عليهم فتكون منهم على طرف الثمام، و بذلك يزيد النفع منها و يحيا بالطبع و النشر ما لم تساعده الحال أن يعرف حتى الآن، و بذلك تجتمع فائدتان فائدة الانتفاع و فائدة الحفظ، كما فعل المصريون و حفظوا بقايا كتبهم في دارى الكتب المصرية و الأزهر و خزانة المجلس البلدى في الإسكندرية و الجامع الأحمدى في طنطا. و اللّه يرث الأرض و من عليها.

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۰۵

الأديان و المذاهب

[أديان القدماء:]

اهتدى الفينيقيون بفطرتهم إلى الاعتقاد بالتوحيد على ما يظهر. و دعوا معبودهم البعل أى الرب و السيد و قد يسمونه أدون و معناه السيد أيضا. و لقبوه بملوك أو ملوخ أى الملك أو ببعل شمائيم أى رب السماء، ثم أخذوا يصورون الرب و يجسمونه على الصورة التي يختارونها، خصوصا لما جابوا الأقطار و مصروا الأمصار، فأصبحت كل مدينة تخص الرب بها، فكان أهل صور يطلقون على معبودهم بعل صور، و أهل صيدا يقولون عن معبودهم رب صيدون، و أهل بيروت يعرف ربهم ببعل بيروت و هكذا يقولون بعل حرمون و بعل جاد و بعل تامار.

و تفننوا بعد في أربابهم فأخذوا ينسبونها إلى النار و عبادة الطبيعة و أنشأوا يؤلهون قوات الوجود و مظاهره الرائعة و الأفلاك و النجوم. و كما جعل الفينيقيون لأربابهم أندادا اخترعوا لهم أزواجا سموها عشتروت و قد عبدت في سواحل الشام خاصة. ثم أخذت بعض المدن بالطبع تطلب لمعبوداتها زوجات و تنشئ لها معابد. و كان معبد بعلة جبيل يحج إليه الناس من أنحاء القطر كما يحتفلون في الربيع بمقتل الرب أدونيس أو نهر إبراهيم. و كان من كهنة الفينيقيين أن أقاموا في أوقات مخصوصة من السنة حفلات دينية تجرى فيها أمور غريبة من الرقص و الفحش و من تضحية البنات و الأسرى على مذابح الهياكل التي كانت أشبه بمواخير يأوى إليها الفاحشات فيختلف إليهن من يريد الفجور باسم الدين.

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۰۶

و يقال على الجملة: إن الفينيقيين عبدوا في كل بلد مجموعة من الأرباب، فأهل صور عبدوا عشتروت و ملكوت و بعلا، و أهل صيدا أشمون و عشتروت و بعلا، و أهل بيروت عشتروت و عطارد و بعل مرقد. و تجيء بعد هذه الطبقة من الأرباب طبقة أخرى منها كالرب أبيس و الرب سلمان. و مجموع الأرباب الكبرى عند الفينيقيين كمجموعة ما عبده الرومان بعد قرون في بعلبك من عطارد و المشترى و غيرهما.

و كانت ديانة الآراميين كديانة الأشوريين و البابليين يعبدون الرب العظيم و رب الفكر و رب السماء و الرب الأسد. و يجسمون رب الأرباب عندهم، على صورة إنسان في نصفه الأعلى، و نصفه الأسفل على صورة سمكة. و ذكروا أن شيما كانت ربة أهل حماة. و عبد الآراميون النيازك و الشمس و القمر و السيارات السبع و الهواء و الرياح و النيران و عبدوا أترعطى الربة السورية و دعوها دركيتو نصفها إنسان و نصفها السفلى سمكة. و كان عابدوها إكراما لها يمتنعون عن تناول السمك و يتوفرون على فتح أحواض يربون الأسماك فيها. و من معبودات الآراميين هدد و سميسوس زوج الربة شيما و أترعطى زوج الرب هدد.

و كان الحثيون على مثال من تقدمهم من الأمم عباد أوثان أيضا، فقد عبدوا الرب تيشوبو و هو مثل هدد الآراميين و بعل الكنعانيين. و روى أنهم عبدوا الشمس و أخذوا عن الكنعانيين عبادة عشتروت و غيرها من الأرباب و ألهّوا مظاهر الطبيعة فعبدوا جمالها و جلالها. و عبد الكلدان و الأشوريون أولا رب السماء و رب الأرباب و رب الأرض و رب البحر، و جعلوا لكل رب من هذه الأرباب ربة تكون قرينته.

و بعد حين عبدوا القمر و الشمس و الزهرة. و الزهرة هذه ينظرون إليها أنها قد تجسدت فيها الحياة و الحرب ففيها اللطف و الهمجية، و قد بنوا لها فى مدينة أركك هيكلا للفحش حتى دعيت هذه المدينة بمدينة العاهرات. و عبد البابليون على عهد حمورابى مردوك رب الأكوان و عبدوا رب الحكمة و العلوم و الحرب و الصيد و الزراعة و الموت و الزوابع و الأنواء و الأوبئة. و اقتبس الأشوريون عامة معبودات البابليين و زادوا عليها ربهم أشور رب الأرباب عندهم،

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۰۷

ينزهونه عن الوالد و الولد و الزوج، و يعتقدون بحشر الأجساد أو ما يشبه ذلك فى يوم الجزاء. و يرمزون إلى أربابهم بحيوانات و دواب كرمزهم بالأفاعى و الطير و السمك و الغزلان و البقر و الخرفان.

أما قدماء المصريين فقد اهتدوا إلى عبادة رب الأرباب و تمثلوه فى الشمس الحاكمة على الأكوان. و قدسوا معبودهم على صور شتى ثم أصبح لكل مدينة ربها يعتقدون بأنه واحد يظهر فى مظاهر مختلفة من مظاهر الطبيعة من نبات و حيوان و جماد و كواكب و أنهار و لا سيما النيل، و أقاموا لكل واحد من أربابهم الهياكل يخدمها الكهنة و السدنة و من أهم معبوداتهم أوزيريس و إيزيس و هوروس أى الوالد و الوالدة و الولد. و اعتقد المصريون بالآخرة و الجزاء فى العالم الثانى و حشر الأجساد، و لذلك عنوا بتحنيط موتاهم على ما لم يصل إليه أحد قبلهم، علّ الميت يأنس بصورته.

و عبد الفرس قوى الطبيعة التى وقعت تحت حسهم من شمس و قمر و نار و ماء و هواء، ثم عبدوا ميترا التى هى الزهرة، ثم كان من مجوسهم على عهد زرادشت و أخلافه أن عبدوا رب الخير و الشر، و اسم رب الخير يزدان أو رب النور و هو الرب الأعظم مبدع الكائنات، و اسم رب الشر أهرمن و هو رب الظلمة و أصل كل بلاء. قال مانى: مبدأ العالم كونان أحدهما نور و الآخر ظلمة كل واحد منهما منفصل من الآخر، فالنور هو العظيم الأول ليس بالعدو و هو الإله ملك جنان النور و له خمسة أعضاء الحلم و العلم و العقل و الغيب و الفطنة، و خمسة أخر روحانية و هى الحب و الإيمان و الوفاء و المروءة و الحكمة، و زعم أنه بصفاته هذه أزلى و معه شيئان اثنان أزليان أحدهما الجو و الآخر الأرض، و أعضاء الجو خمسة الحلم و العلم و العقل و الغيب و الفطنة و أعضاء الأرض النسيم و الريح و النور و الماء و النار، و الكون الآخر و هو الظلمة و أعضاؤها خمسة الضباب و الحريق و السموم و السم و الظلمة، و من تلك الظلمة كان الشيطان. و الصابئة هم القائلون بالأصنام الأرضية للأرباب السماوية أى الكواكب متوسطون إلى رب الأرباب، و ينكرون الرسالة فى الصور البشرية عن اللّه تعالى و لا ينكرونها عن الكواكب.

هذا و قد دان اليونان كما دان كثير من الأمم القديمة قبلهم بتأليه الجمال

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۰۸

على اختلاف مظاهره، عبدوا الجمادات لأول أمرهم ثم ترقوا إلى غيرها من تأليه الأشجار و الرجوم و الأحجار، و أنشأوا يكرمون الأفعى فى هياكلهم كما يكرمون بعض حيوانات البحر و طيور البر. و كانوا يبالغون فى إكرام الموتى من عظمائهم حتى ألحقوهم بأربابهم، و نسبوا إليهم كل صفات البشر و أبشع رذائلهم. و يقدمون فى المذابح ذبائح من الطيور و الحيوانات و البشر مما كان عند الفينيقيين. و هكذا كثرت أربابهم إلى التى ليس بعدها، و كلما فتحوا أرضا أضافوا إلى أربابهم بعض الأرباب التى وجدوها تعبد فى الأقاليم المغلوبة على أمرها، و كثرت خرافاتهم حتى كان يستهدف للموت كل من يريدهم من عقلائهم على أن يقلعوا عن تخريفهم. هذا غاية ما يشار إليه من أديان قدماء الدول التى طال أمرها فى هذه الديار.

و من أجيال العرب التى حكمت هنا أجزاء مهمة قبل الإسلام النبطيون فى الجنوب و الايطوريون فى بعض الساحل و قد عبد النبطيون اللات و العزّى، و كانت البتراء مركز عباداتهم قبل العهد اليونانى بستة قرون على الأقل. و عبد الايطوريون الكواكب و الشمس و الزهرة و ذا الشرى، و ربما تشابهت معبوداتهم و معبودات النبطيين. و كان لهم فى بعلبك مذبح قالوا: إنه بيت من بيوتهم عظيم عندهم جدا. و صنم الأقيصر كان فى مشارف الشام لقضاعة و لخم و جذام و عاملة و غطفان يحجون إليه و يحلقون رؤوسهم عنده و كلما حلق رجل منهم رأسه ألقى مع كل شعره قرة من دقيق أى قبضة. و عرف من الآثار أن أهل صرخد كانوا يعبدون اللات على ما اكتشف على باب كنيستها. و معظم هذه الأصنام كان مما ينحت من الأحجار و منها ما كان من الشبه (البرونز)، و قد نقلوا هذه الأصنام إلى الغرب خصوصا منذ أوائل القرن الثالث قبل المسيح لما قبض على زمام الامبراطورية الرومانية أباطرة من الشاميين، و قد عثروا على بعضها فى فرنسا و النمسا و إيطاليا. و كان ياهو المشهور فى تاريخ الإسرائيليين حفيد يهو شافاط الذى قتل جميع أنبياء بعل و عبدته يعبد العجول فى بيت ايل. و بيت ايل إلى شرقى خط يمتد من أورشليم إلى نابلس على بعد واحد من كلتا المدينتين و كانت قديما عاصمة الكنعانيين.

و قد عبد الرومان قوى الطبيعة من الأفلاك و الشمس و الأرض و النبات

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۰۹

و الحيوان و أكرموا الينابيع و الأشجار العظيمة و الحجارة، ثم عبدوا المشترى و أظهروه فى مظاهر عديدة و كانوا يقولون رب البرق و رب الرعد و رب النور. و جعلوا للمشترى ربة اسمها جونون و عبدوا المريخ رب الحرب يقدمون له ضحايا من الخنازير و البقر و الغنم بل يقدمون له الذبائح البشرية يختارونهم من أسرى الحرب على الأكثر. و لهم أرباب أخرى كرب البيت و حارسه و رب نار البيت و جعلوا لها هياكل أقاموا على حراستها بنات عذارى يتعهدن نارها حتى إذا غفلن عنها فأطفئت و أدوهن على ما كان أهل الجاهلية يئدون بناتهم خشية العار. و لما اختلط الرومان بالأمم الأخرى اقتبسوا منها ما راقهم من أربابهم و منها عشترت المعبود الشامى.

قال كلرمون غانو: لم تكد تظهر الوثنية اليونانية الرومانية حتى أصبح الناس يحبونها فى أصقاع الشام كافة و يقبلونها راضين. و ذلك لأنها قائمة على أساس التسامح القابل للظهور فى كل مظهر و صورة. تلتئم بمرونة عجيبة مع أشكال الديانات التى تدين بها الشعوب الأخرى. و ذلك بأن تمزج هذه الديانات بنفسها أو تمزج نفسها بها. و لم تدخل فى ذاك المحيط الخاضع المدهوش إلا إصلاحا واحدا و هو معرفة الأشياء الحسنة، و لم تقض إلا بقضاء واحد و هو الابتعاد عن البشاعة، و لم تضع إلا نظاما واحدا و هو نظام السرور، و لا تعليما واحدا غير تعليم الذوق، و لم توح بغير الجمال. و كانت ترفق بالأديان التى لا تستطيع الدفاع عن نفسها و لا تشتدّ إلا على الأديان التى تحاول مقاومتها. فالعبادات القديمة التى عرفت عند الكنعانيين استقت من هذا النبع الصافى البارد مأخوذة بشىء من الجنون اه.

لما جاء كسرى إلى حلب و عمر بيتا للنار كان فى الشام أربعة أديان أمهات، و هى: اليهودية و النصرانية و عبادة الأوثان و النيران. و لما جاء الإسلام كان الناس يدينون بهذه الأديان. و كانت النصرانية قبل الإسلام على رواية اليعقوبى فى ربيعة و غسان و بعض قضاعة، و اليهودية فى حمير و بنى كنانة و بنى الحارث بن كعب و كندة، و المجوسية فى تميم، و الزندقة فى قريش أخذوها من الحيرة. و كان بنو حنيفة اتخذوا فى الجاهلية إلها من حيس،

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۱۰

و الحيس تمر يخلط بالسمن و الأقط فيعجن، فعبدوه دهرا طويلا ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه. و لما مرض عمرو بن لحى و كان يلى أمر الكعبة فى الجاهلية قيل له: إن بالبلقاء من الشام حمّة إن أتيتها برأت فأتاها فاستحم بها فبرأ و وجد أهلها يعبدون الأصنام فقال: ما هذه؟ فقالوا: نستسقى بها و نستنصر بها على العدو، فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا فقدم بها مكة و نصبها حول الكعبة.

اليهودية:

یرجع البشر علی اختلاف مذاهبهم و أدیانهم إلی جد واحد و هو آدم و إلی أبناء سیدنا نوح الذین تناسلوا و تکاثروا و انتشروا علی سطح الأرض و معلوم أنّ عرب الجاهلیة و الیهود هم أبناء سام و لذلک سموا بالسامیة و استوطنوا فی الأصل الدیار الکنعانیة المعروفة الیوم بفلسطین و مشوا؟؟؟ إلی حدود مصر جنوبا و إلی العراق ثم إلی منتصف آسیا شرقا. و الحامیون أبناء حام سکنوا مصر و الحبشة و انتشر القسم الثالث أی أبناء یافث فهم فی القارة الأوربیة و الأرض الترکیة.

و لما ظهر الأب الأول سیدنا إبراهیم علیه الصلاة و السلام، من بلدته الرّها (أورفة) من دیار الکلدان جاء منقادا بمشیئة اللّه إلی الأرض الکنعانیة و أقام فی بلدة حبرون أی خلیل الرحمن رمزا لمودّة الخالق له. و هنا نغضی عن سرد ما أوتی من المعجزات و نغفل أیضا عن ذکر من جاء بعده من الآباء و الأنبیاء الکرام و ما أوتوا هم أیضا من المعجزات. و الکتب المقدسة حافلة بکل ما یراد معرفته بهذا الشأن. و لا نری بدا من الإشارة فقط إلی أن سیدنا إسماعیل بن الخلیل الأکبر قد نزح و أمه هاجر من الأرض الکنعانیة إلی شبه

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۱۱

جزیرة العرب و بقی أخوه إسحاق فی تلک الأصقاع الموصوفة بأرض المیعاد، إشارة إلی العهد الذی أعطاه الخالق سبحانه و تعالی خلیله إبراهیم القائل بإعطاء الأرض الکنعانیة علی رحبها إلی نسله. و قد سمیت بالأرض المقدسة أیضا عندما بدأ الیهود یحجون إلی الهیکل المقدس الذی بناه سلیمان الحکیم. و قد کان بناء هذا الهیکل مدعاة لتمسک الیهود بهذه الدیار و لعدم النزوح عنها إلّا لتعاطی التجارة لمن کان مکرها بحکم الضرورة علی الإقامة موقتا فی الأقطار المجاورة. و قد وجدت فی الدهر الغابر آثار تاریخیة کثیرة تدل علی نزول الیهود حوران و دمشق و بلاد الفینیقیین الواقعة علی شاطئ البحر المتوسط.

و مما لا ریب فیه أن الیهود قد أقاموا عصورا فی القطرین اللذین دوختهما جیوش النبی داود و أعنی بهما سوریة و شمال ما بین النهرین. و لمّا أعمل نبوخد نصّر ملک بابل (۶۰۰ ق م) سیفه بالیهود هاجر قسم منهم إلی فارس و آسیا الوسطی و آب قسم آخر إلی دمشق. و عادت البقیة و علی رأسها نحمیا و دانیال وجددوا بناء الهیکل المقدس و لم یلبث أن جاء تیطوس الرومانی (۷۰ ب م) و هدمه. و قد أعمل هو أیضا السیف برقابهم و اضطرهم إلی النزوح إلی الأمصار البعیدة کالیونان و الأندلس و شمال إفریقیة. و قد روی عن بولس الرسول أنه حاول اقناع الیهود القاطنین فی الشام لاتباع السید المسیح و التدین بدین النصرانیة، و هذا مما یدل علی وجودهم فی تلک الأزمنة فی هذه الدیار.

ثم إن قائدی عساکر سیدنا عمر عندما فتحا الشام انتقیا نفرا غیر قلیل من الیهود و المسلمین الدمشقیین أرباب الصناعات و الفنون الجمیلة و جیء بهم بعد إلی بلاد بخاری فتوفروا علی البناء المماثل تمام المماثلة للنسق الدمشقی من حیث طرز البناء و رسومه و أشکاله و أدواته حتی یخیل لمن یزور تلک الأصقاع أنه فی سوق أو دار من أسواق الشام و دورها.

ثم إن نزول الیهود فی دمشق منذ أمد بعید مشهود و محسوس من کنیس قریة جوبر التی تبعد بضع دقائق عن شرقی دمشق و قد جاء ذکره فی التلمود الموضوع منذ أکثر من ألفی سنة و ذلک بقوله بالحرف الواحد: «کنشتادیبه جوبر» و معناه کنیسة جوبر القائمة إلی یومنا هذا و التی کانت مقرا للنبیین

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۱۲

إیلیا (الخضر) و تلمیذه الیشاع (الیسع). و فی بعض دور الکتب العبریة فی دمشق إلی الیوم آثار مخطوطة یرجع عهدها الی القرن الحادی عشر للمیلاد.

و صفوة القول أن الیهود لم ینقطعوا عن الشام لا سیما عند فتح المسلمین لها إذ ثبتت أقدامهم فیها و توفرت لهم أسباب الهناء و الرخاء.

و لم تؤثر التطورات و الفتوحات التی وقعت فی هذا القطر فی اعتقاد الیهود الدینی و لا غیرت شکلا من مراسمهم، بل کانت بالعکس

سببا قويا لتضافرهم و تحفزهم لدرء كل ما من شأنه أن يفسد لهم معاملاتهم و عاداتهم. و ما زالوا منذ الخلقة كسائر اليهود يعبدون اللّه عزّ و جلّ و يوحّدونه و يعرفونه بيهوه كما تسمى إلى آدم و إلى الآباء و الأنبياء بقوله لهم باللفظ العبرى:

«إنى ى ه و ه» أى أنا يهوه.

و قد فصل المجتهدون من علماء اليهود اسمه المقدس تفصيلا وافيا خلاصته باللغة العبرانية: «هيا، هيو، يهيه» و معناه كان (فى الماضى) و كائن (فى الحال) و سيكون (فى المستقبل) أى إنه تعالى حى قيوم دائم إلى الأبد. و كان يرفق أحيانا اسمه الكريم فى التوراة كلمة «إلوهيم أو شدّاى» و معناهما الجبروت و الشدة. و يحترم اليهود أيضا الأنبياء الذين أوحى اليهم فى زمن ملوكهم و عددهم ۴۸.

يتآلف اليهود مع مواطنيهم مهما اختلفت نزعاتهم. فهم فرنسيس فى فرنسا، و روس فى روسيا، و إنكليز فى بريطانيا، و هنا أيضا لا يختلفون عن الشاميين من حيث الأخلاق و الزى. و لأسمائهم دخل قوى فى الألفة مع مسلمى الشام. فهم يتسمون بأسماء لا يسمى بها غيرهم من اليهود كصبحى و صبرى و عارف و مراد و يحيى و عبده و بهية و عائشة و جميلة إلى ما هنالك من الأسماء العربية المحضة، و مما يزيد ائتلافهم مع المسلمين أنهم مضطرون بحكم الدين الموسوى أن يراعوا مثلهم أحكام الختان و الغسل و الطهارة.

و لغة اليهود «العبرية» أينما حلّوا و رحلوا يتعرف بها بعضهم إلى بعض و بها يؤدون فروض صلواتهم اليومية و شعائرهم الدينية، و لغتهم هذه هى شقيقة اللغة العربية. فإن الصرفيين العرب لا يتعذر عليهم معرفة دقائق الصرف العبرانى و كذلك العبرانيون لا يصعب عليهم تعلم اللغة العربية و التعمق

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۱۳

فى دقائقها. و هى كما قلنا لغة سامية تكتب كالعربية من اليمين إلى الشمال و أغلب كلماتها هى كشقيقتها لفظا و معنى. و عدد حروفها ۲۲ حرفا و هى:

ا ب ج د ه و ز ح ط ى ك ل م ن س ع ف ص ق ر ش ت أى أبجد هوز حطى كلمن سعفص قرشت.

و قد كان للغة العبرانية الفضل الأكبر فى حفظ حياة اليهود إلى هذا الزمن فهى التى جمعت شملهم فى البلدان المختلفة و هى التى ذبت عن حياضهم و حافظت على كيانهم. و قد حث العلماء المعاصرون على رفعها إلى مصاف اللغات الحية مما حدا بهم على تأسيس الجامعة العبرية فى القدس الشريف فى ۱ نيسان سنة (۱۹۲۵) و بدأوا بترجمة الآثار النفيسة و الكتب المفيدة إليها.

و لا يمضى زمن حتى يكون لهذه اللغة على ما أرى شأن عظيم و مركز سام.

و رب قائل يقول: إنه قد يحول دون توسع علماء اليهود فى الترجمة و الإنشاء فقدان الكلمات الفنية الحديثة من اللغة العبرانية، فالجواب، أن التلمود أتى على ذكر بعض المخترعات التى نظنها وليدة القرن الغابر أو الحاضر كالمناطيد و الكهرباء و سمّاها بأسمائها المخصوصة. و قد أعيدت إلى اللغة فى هذا العصر و مع هذا لم يحجم علماء اللغة فى القرن الماضى عن استعمال الكلمات الدخيلة المحتاج إليها و التى تفى بالمعانى المقصود إدخالها على اللغة العبرانية.

السامرة:

ينسب السامريون أنفسهم إلى سبط يوسف و ينسب كهانهم أنفسهم إلى سبط لاوى و يقررون أن هذا السبط هو بيت الكهنوت الإسرائيلى حصرا.

و «السامرية» نسبة إلى إقطاع شمرونيم الذى كان فى ملك سامير الأشورى الشمرونيمى. و ذلك إن الأشوريين لما غزوا فلسطين غزوتهم الأولى انتشروا فى الأقاليم و امتلكوا كثيرا من الإقطاعات. و كانت فرقة شمرونيم تملكت

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۱۴

إقطاع سبسطية و أخذوا يستغلون أرضه بعد أن خربوا المدينة المذكورة.

ثم آل هـذا الإقطاع إلى سامير أمير الفرقـة فجاء إليه أحد ذوى اليسار من آل يوسف و اشترى إقطاعه و أخذ يعمره هو و آله، فلبستهم نسبة الأرض ثم ابتنوا أخيرا مدينتهم التى تسمت بالسامرية نسبة إلى أصل تسمية الإقطاع و مالكه الأشورى.

و يعزو السامريون سبب انشقاقهم عن سائر أسباط إسرائيل إلى خلاف دينى نشأ بينهم و بين هذه الأسباط. و ذلك أن الإسرائيليين ظلوا إلى القرن الثالث من دخولهم أرض كنعان يقـدسون جبل جرزيم الـذى هو جبل «نابلس» الجنوبى و يقربون عليه قرابينهم اعتقادا منهم أن يوشع أقام هيكل العبادة الأول فى هـذا الجبل. و كان إلى ذلك التاريـخ مركز حجهم و مقام إمامهم الأكبر و كاهنهم الأعظم. فلما ورث الإمامة الكبرى الإمام عزى ابن بحقى و كان حديث السن فحسده الكاهن الأعظم عالى و أنف أن يكون له مرءوسا و أخذ يدس الدسائس حتى نجح فى استمالة فريق من الإسـرائيليين فهجروا جرزيم و انتقلوا إلى سـيلون- قرب القدس- و كان ماهرا فى الشعوذة و أعمـال السـحر، فعظم حوله الجمع فأقام هيكلا و صـندوقا للشواهـد و ادعى أنهما الأصـليان و أوجب تقديسـهما و صـرف الوجوه عن جرزيم.

و قـد ساعده فى عمله اختفاء الهيكل و صـندوق الشواهد اللذين أقامهما يوشع على جرزيم بأعجوبة ربانية انتقاما من اليهود لمخالفتهم الشريعة و انغماسهم فى المعاصى. فاعتبر سائر اليهود قول عالى و أخذوا يقدسون هيكل سيلون.

أمـا سـبطا يوسف و لاوى فإنهما ظلا على عهـدهما من نصـر الإمام عزى و تقـديس جرزيم و اعتباره المحل المختار الـذى اختاره اللّه للهيكل و الذبيح.

و من هـذا الحين أصـبح الإسـرائيليون فرقتين: فرقـة عزى و مركزهم جرزيم و حـدوده، و فرقة عالى و مركزهم سـيلون. و قد اسـتحكم العـداء بين الفرقتين فأخـذتا تبتعدان إحداهما عن الأخرى و طفقت كل فرقة تلصق بالأخرى التهم، و جرت بينهما مناقشات و منازعات كانت تؤدى فى بعض الأوقات إلى إراقة الدم.

يقول السامريون: إن عالى الكاهن بعد أن عظم أمره أخذت مطامعه تظهر

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۱۵

و أسـاء السـيرة فى اليهود هو و أولاده و أخـذوا يخالفون أوامر اللّه و شـريعته، و قـد تبنى ولـدا اسـمه صـمويل أتقن الشـعوذة. و اغتنم الفلسطينيون فرصة انشقاق الإسرائيليين فزحفوا على اليهود و نكلوا بهم، فلما مات الكاهن خلفه صمويل فلم ير إلا أن يدعى النبوة ربطا لقلوب اليهود به، فصدقه هؤلاء لقوة شـعوذته و دهائه و لكنهم طلبوا منه أن يقيم عليهم ملكا يدير شؤونهم و يجمع شـملهم دفعا لخطر الفلسـطينيين فأقام عليهم شاول الملك. و كان من أعمال هـذا الملك إشـهار الحرب على سـبطى يوسف و لاوى لعـدم اتباعهم لهم و عـدم اعتبارهم هيكل سـيلون و ذبحهم معهم فى مذبح سـيلون. و قد كبس شاول السـبطين فى عيد المظال فقتل منهم كل من وجده و ذبح إمامهم الأكبر شيشى بن عزى و خرب محل عبادتهم فى جرزيم و نقض حجارة الهيكل.

و احتل منطقتهم فتشتت قسم كبير من الذين سلموا من القتل منهم. و ظل آل يوسف و لاوى اثنين و عشرين عاما لا يقدرون على أداء فريضـة الحج و لا يجرأون على التظاهر بشـعائرهم الدينية. و قد حاول كاهنهم الأكبر باير إقناع داود حينما ملك باحترام جرزيم و بناء الهيكل فيه فلم ينجـح، و أخـذ يقيم الهيكل فى يابيس «القدس الآن» و ادعى هو و ابنه سـليمان من بعده أنه المحل المختار و أناطوا به جميع المقدسات المنوطة بجرزيم دون أن يكون لى أسفار التوراة الخمسة دليل على ذلك فى زعم السامريين.

و لما غزا بختنصـر فلسـطين أجلى فى من أجلاه آل يوسف إلى بابل و أسكن محلهم أمما غريبة فسبب ذلك انحباس الأمطار و عطب الزيتون، فالتمس القاطنون من الملك أن يسأل آل يوسف عن سبب ذلك فأجابه هؤلاء أن لنا جبلا مقدسا نحج إليه و نتقرب إلى اللّه فيه بـالقرابين لا نرى فيه حبسا و لا عطبا، فعزم على إعادتهم إلى أرضـهم ليقيموا شـعائرهم. و قـد وقع فى هـذا السـياق بينهم و بين آل يهوذا خلاـف على المحـل المختـار و لكن آل يوسف أقنعوا الملك بقوة نصوصـهم فرجحهم و أعادهم و جعل لهم شـيئا من السـلطة فجـاءوا و أقاموا هيكلهم و زحفوا على يابيس و هـدموا هيكلها. فكان نجاحهم هـذا عاملا جديـدا فى ازدياد النفرة بين الفريقين أولا و

تحریف الیهود نسخ التوراة الموجودة فی أیدیهم ثانیا.

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۱۶

و قد طعن الیهود فی أصلهم فقالوا عنهم کوتیین و نعتوهم بأنهم و ثنیون و أن لهم صنما اسمه أشیما نکایة و تغرضا و انتقاما. و قد کان الیهود فی عهد الحکم الرومانی و الفارسی کثار العدد. و کان لهم ید کبری فی الثورات الوطنیة التی کانت تنشب من حین إلی آخر، و قد أفنت هذه المنازعات عددا کبیرا.

فلما دخل العرب فلسطین أخذ السامریون یدینون بالإسلام فیقل عددهم رویدا رویدا إلی أن أصبحوا طائفة قلیلة جدا ربما لا یتجاوز عددها الآن مائتی نفر ذکورا و إناثا کبارا و صغارا. و قد اقتبسوا من المسلمین و اقتبس المسلمون منهم فی نابلس علی توالی الأیام کثیرا من العادات و اللهجات.

و هم الآن یتکلمون بالعربیة النابلسیة العامیة. و قلیل منهم یعرف العبرانیة کما أن عبرانیتهم قدیمة بینها و بین عبرانیة الیهود اختلاف بین و إن؟؟؟

اللغتان إلی أصل واحد. و لا یزال أصل بعض الأسر المسلمة فی نابلس م؟؟؟

النسبة و الأرومة فی الطائفة السامریة.

ینعت السامریون أنفسهم بالمحافظین لأنهم حافظوا و لا یزالون یحافظون علی أدق شعائر العبادات و الشریعة دون تأویل و لا انحراف. و یزعمون أن التوراة التی فی أیدیهم أصدق و أقدم توراة و أنها بخط أبیشع بن فینحس ابن العزر بن هرون نقلها أبیشع عن المدرج الذی کتبه بیده موسی علیه السلام. و توراتهم هذه مدرج طویل من الرق له أسطوانة مفضضة محفوظة فی معبدهم تکاد تکون سلوتهم الوحیدة فی هذا العالم الذی أصبحوا فیه غرباء عن کل أممه و أثرا تاریخیا أکثر مما هو شعب حی. و هم یزعمون أن توراة الیهود قد فقدت مرارا و حرقت کثیرا و أن التوراة التی بین أیدی الیهود ملفقة بالظن و الحدس علی غیر أساس، و أن الیهود عدا ذلک قد تسامحوا بکثیر من مظاهر الدین و أولوا نصوص الشریعة فصار بینهم فروق کثیرة. و فی أیدی السامریین کتب جدلیة کثیرة فی تثبیت طریقهم و الطعن فی طریقة الیهود و تفسیراتهم و تأویلاتهم.

و أول خلاف نشأ بینهم و بین الیهود خلاف القبلة. فالسامریون یعتبرون جبل جرزیم الجبل المقدس و المحل المختار الذی أمر إبراهیم علیه السلام بذبح ولده علیه و الذی أمر یوشع من قبل موسی بإقامة الهیکل فیه و یقررون أن عید

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۱۷

الفسح و قرابینه لا تجوز إلا فی هذا الجبل و حدود منطقته التی لا تتعدی منطقة نابلس الآن. و من الخلافات بینهم و بین الیهود وقت الختان. فالسامریون لا یقبلون عذرا لتأخیر یوم الختان إلی ما بعد الیوم الثامن من الولادة علی حین یتجوز الیهود فی ذلک. و بین الفریقین خلاف فی مواعید الأعیاد و شعائرها و فروعها و فرضیة القرابین و الطبقات الملزمة بها. و للسامریین أصول فلکیة دقیقة یستندون إلیها فی حساب تولد الأهلّة و تعیین مواعید الأعیاد و الشعائر.

و یخالف السامریون الیهود فی تجویز بعض الأنکحة فهم یحرمون نکاح امرأة الأخ الشقیق و بنت الأخ و زوج الأخت و امرأة العم و امرأة الخال و الیهود یحللونها. و کذلک هم یختلفون فی بدء عید الفطیر و الطقس الخمسینی ذوی الأسابیع السبعة المقدسة التی یحیی بها الإسرائیلیون ذکری أسابیع الخروج من مصر و دخول أرض کنعان. و السامریون یتشددون فی شعائرهم الدینیة لا سیما یوم السبت، و یزعمون أنهم یطبقون أوامر التوراة حرفیا.

و یتشددون فی أحکام الدم و النجاسات و مواعید الطهارة و کیفیاتها و یحملون أنفسهم عبئا لا یملک الإنسان نفسه من الشفقة علیهم من أجله. و هم الیوم لا یغسلون موتاهم و لا یحملونهم و إنما یستأجرون لهذین الغرضین أناسا من المسلمین لأن للمیت و غسله و مائه نجاسات یتعذر طهر السامری منها فی الحال الحاضر. و یقولون: إن السامری لا یطهر منها إلا إذا رش بعد عزلة الأیام السبعة برماد بقرة

مقررة الصفات. و قد نفد هذا الرماد الذى كانوا يتوارثونه منذ أمد طويل و لم يمكنهم تعويضه. و للسامريين صلوات مفروضة يوم السبت و غيره. ففى غير السبت لهم صلاتان مفروضتان هما صلاة الصبح و صلاة المغرب. و فى يوم السبت صلاتان زائدتان على تينك الصلاتين هما صلاة الظهر و صلاة الصرفة. و صلاتهم ذات ركوع و سجود و انتصاب يتلون فيها سورا من التوراة. و هم يتوضأون قبيل الصلاة وضوءا يقرب من وضوء المسلمين.

و أهم أعيادهم عيد الفسح فى آخر أسبوع الفطير. و يكون فى الرابع عشر من الشهر القمرى الذى يجتمع مع شهر نيسان. و هو عيد سنوى جامع يشبه الحج. يصعد السامريون فيه كبارهم و صغارهم جبل جرزيم. و يوجبون

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۱۸

حضوره على كل سامرى و لا يقبل للمتخلف عذر. فإذا كان يوم العيد و أخذت الشمس بالزوال تهيأوا للعيد فى ثياب بيضاء و جبب زاهية و اعتموا بعمائم بيضاء أو حرير (أغبانية) مطرزة و هيأوا سبعة أكباش سالمة من كل عيب و نقص و حفروا تنورا عميقا يبنونه بحجارة مرصوفة من دون طين. فإذا آن وقت الغروب يأخذون بتلاوة التوراة و قراءة التراتيل مصطفين على شكل إمام و مؤتمين، فحينما يأزف الوقت المقرر و هو بين الغروبين يعطى الكاهن الأكبر إشارته فيذبح الذباحون الأكباش بسرعة البرق، ثم ينتهون من هذه الصلاة الأولى و يبادرون جميعا لتحضير الذبائح ينتفها أناس و يملحها آخرون، و بعضهم يوقدون النار و يحمون التنور و هم فى كل أعمالهم هذه فى صلاة لا يفترون عن التلاوة و الترتيل. ثم يحرقون شحوم القرابين و أطرافها على مذبح يصنعونه من الحجارة و يلقون بعد ذلك الذبائح فى التنور، و يقضون بعد ذلك ثلاث ساعات فى الصلاة ريثما تنضج القرابين فيرفعون عنها الحجارة و يخرجونها و يأكلونها، و بعد أن ينتهوا من الأكل يحرقون الفضلات و العظام، إذ أنه لا يجوز لغريب أن يمس الذبيحة و لا أثرا منها. و قد اعتاد المسلمون فى نابلس أن يصعدوا الجبل فى هذا اليوم للتفرج أولا و لزيارة شيخ لهم اسمه الشيخ غانم يظن أنه من شهداء الحروب الصليبية اه.

و فى كتاب ولاية بيروت أن شروط العقيدة الأصلية عند السامريين خمسة و هى الاعتقاد بوحدانية اللّه، و نبوة موسى، و أن التوراة كتاب منزل، و أن جبل جرزيم هو مقدس، و أن الساعة آتية لا ريب فيها. و يعتقدون أن اللّه منزه عن جميع الصفات و لا يؤمنون بنبوة أحد من الأنبياء سوى موسى و يوشع و يعتقدون أن البشر يحاسبون على أعمالهم فى اليوم الآخر و يؤمنون بمجيء المهدى و يطلقون عليه أسماء مختلفة فيسمونه «حاشا حيب» و «حاطا حيب» و «مرجع» و أن لظهوره علائم فيظهر كلمة اللّه و ينقل عصا موسى و ألواحه العشرة و يجيء بقدرة المن و هى الحلوى الإلهية. و يعتقد السامرة بالملائكة و يفرض على كل سامرى أن يصلى و يزكى، فالصلاة صلاتان: إحداهما صلاة الصبح، و الثانية صلاة الغروب، و كل صلاة إحدى عشرة ركعة،

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۱۹

جماعة أفضل، و الصلاة مفروضة على الرجال و النساء و لكن النساء لا يخالطن الرجال خلال الصلاة، و يشترط أن يكون المصلى طاهرا و الطهارة عندهم على نوعين الغسل أولا- و الوضوء ثانيا، فالطهارة من الحدث شروط أولى على كل موسوى حتى إن لمس الحائض موجب للغسل، و على الحائض أن تحضر ثلاثا من النساء يقفن على رأسها حين اغتسالها، و أما الوضوء فيغسل المتوضئ أولا يديه، و إذا كان من أصحاب الأعمال اليدوية فيغسل يديه إلى المرفقين و الساعدين ثلاث مرات. ثم يتمضمض و يستنشق ثلاثا ثم يغسل وجهه و يمسح أذنيه و يغسل رجليه ثلاثا. و يتلون التوراة فى الصلاة باللسان العبرى القديم و تجوز تلاوتها باللغة السامرية. و الحج عند السامريين هو عبارة عن زيارة جبل جرزيم و هو ثلاثة أشكال حج الفطير و حج العنصرة و حج المظال.

و يمسكون فى صومهم أربعا و عشرين ساعة قبل حج المظال بخمسة أيام، فلا يدخل السامرى كبيرا كان أو صغيرا شيئا إلى فمه حتى الطفل الرضيع إنه يمنع من الرضاعة طول هذه المدة، و لا ينامون مطلقا فى هذه الأربع و العشرين ساعة، بل يقضونها بالطاعة و العبادة. أما الزكاة فهى عبارة عن إعطاء واحد فى العشرة من الأرباح إلى الكاهن و الفقير. و يحجب السامريون نساءهم و يجوز الزواج ثانية إذا

كانت المرأة عاقرا أو مريضة أو ذات عيب شرعى. و أصول مواريثهم لا تخالف أصول الشريعة المتبعة عند جميع الموسويين.

الأرثوذكسية:

ليس من دين يدين به أبناء آدم إلا فيه مذاهب متباينة بتباين منازع زعمائه.

فقد خاصم أهل الختان المنتصرون رسل المسيح ليقنعوهم بوجوب اختتان الوثنيين الراغبين فى التدين بالنصرانية. و لكن الرسل و الكهنة اجتمعوا فى أورشليم فى السنة الخمسين بعد الميلاد «و حكموا بألّا يثقل بهذا الناموس على من يرجع إلى اللّه من الأمم» (ا ع ۱۱: ۲- ۳ و ۱۵: ۱- ۳۱ و ۱۶:

۱- ۳).

و فى القرن الثانى نشأت فى الدين المسيحى بدع اليهود الناصريين و الأنيونيين و الكلساعيين و الشمشونيين و الفنوستيين على تفرق نحلهم فانتبذتهم الكنيسة

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۲۰

و عاجلهم سهم القضاء. و قام بعدهم مبتدعون كثيرون اشتهر منهم فى القرن الرابع قس كنيسة الإسكندرية آريوس، إذ كفر بألوهة المسيح فجمعت عليه الكنيسة سنة (۳۲۵) مجمعا مسكونيا فى مدينة نيقية حضره أول ملوك المسيحيين القيصر قسطنطين الكبير و ثلاثمائة و ثمانية عشر أسقفا ما عدا الكهنة و الشمامسة و العلماء و حكمت عليه فعرى من الكهنوت و نفى و قطع السبب بأتباعه.

و بتأثير ضلال آريوس كفر مكدونيوس أسقف القسطنطينية بالروح القدس فحكمت عليه الكنيسة و على بدع آفنوميوس و أبوليناريوس و صباليوس و ماركلوس و آفدوكسيوس و فوتينوس بالمجمع الثانى المسكونى الذى التأم سنة (۳۸۱) فى القسطنطينية على عهد القيصر ثيوذوسيوس الكبير و حضره مائة و خمسون أسقفا أثبتوا صلاحية المجمع الأول الشرعية و أكملوا دستور الإيمان الذى وضعه، قاضين بإقامته على كل أورثوذكسى فهو شعار إيماننا إلى يوم القيامة و مطلعه «أومن بإله واحد آب ضابط الكل خالق السماء و الأرض ...» و حطوا مكدونيوس من رتبته الكهنوتية فسكن نسيس مشايعيه.

و أولع نسطوريوس أسقف القسطنطينية بعشق الإمامة نافرا إليها فى شاكلة من «خالف ليعرف» فكفر بالمسيح و أمه مريم فرمته الكنيسة بإقحاف رأسه فى مجمعها الثالث المسكونى الذى اجتمع فى مدينة أفسس سنة (۴۳۱) على عهد القيصر ثيوذوسيوس الصغير و حضره نحو مئتى أسقف قرعوا ضلال نسطوريوس بالحق فأسقط من الكهنوت و نفى إلى مصر و باتت بدعته تذمى فى الكلدان كالخنفساء إلى اليوم.

و ركب أوطينما الراهب رأسه فى محاربة ضلال نسطوريوس حتى انتشر عليه رأيه فى طبيعتى المسيح ففسد إيمانه بهما و أغرق فى غوايته حتى انتصفت منه الكنيسة بحكمها عليه و على بدعته بمجمعها المسكونى الرابع الذى اجتمع فى خلكيدون سنة (۴۵۱) و حضره القيصر مركيانوس و ستمائة و ثلاثون أسقفا.

و ضرب الدهر بين القائلين بالطبيعة الواحدة فتشردوا قددا رنّقت عليها المنية لو لا زعيمهم أسقف أرفا يعقوب الزنزلى المشهور بالبرادعى. فإنه لأم صدعهم بتجديده لهم مركز البطريركية فى أنطاكية فتسموا «باليعاقبة» إكراما له و انقسموا إلى سريان و أرمن و مصريين.

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۲۱

و فى سنة (۵۵۳) اجتمع المجمع المسكونى الخامس فى القسطنطينية على عهد القيصر يوستنيانوس الكبير و كان أعضاؤه مائة و خمسة و ستين أسقفا حكموا على غوايات أوريجانوس الشهير و ما يعرف فى التاريخ الكنسى «بالقضايا الثلاث» و أثبتوا أحكام المجامع المسكونية الأربعة.

و فی سنة (۶۸۰) إلتأم المجمع المسکونی السادس فی القسطنطینیة و حضره القیصر قسطنطین اللحیانی و مائة و سبعون أسقفا و فی روایة أخری مائتان و تسعة و ثمانون أبا حکموا علی القائلین «بالمشیئة الواحدة» فی المسیح، منهم سرجیوس بطریرک القسطنطینیة و أونوریوس بابا رومیة و أقاموا المجامع المسکونیة الخمسة فباتت هذه البدعة تعالج النزع فی شیعة الراهب یوحنا مارون التی عرفت «بالمردة» و انحصرت علی قنن لبنان و تسمی الآن «بالمارونیة نسبة إلی الراهب المذکور الذی صار أسقفا أول علیها حتی استوفت أنفاسها أیام حملات الفرنج الصلیبیین علی الشام سنة (۱۱۸۲) فإنهم جذبوا الموارنة إلی الخضوع لکنیسة رومیة فثبتوا فیه بعد أن طرد المسلمون الصلیبیین، إلا أنهم أبدلوا بدعة «المشیئة الواحدة» بما ابتدعته رومیة بعد أن قطعتها الکنیسة من شرکتها فی القرن الحادی عشر.

و فی سنة (۷۲۶) بدأ القیصر لاون الإیصوری محاربة صور الأولیاء (الأیقونات و بقایاهم و شایعه أساقفة کثیرون فتأذت الکنیسة من هذه البدعة حتی حکمت علیها فی مجمعها السابع المسکونی الذی اجتمع فی مدینة نیقیة سنة (۷۸۷) علی عهد القیصرة ایرینی الوصیة علی ابنها قسطنطین السادس و حضره ثلاثمائة و سبعة و ستون أبا. إلا أن هذه البدعة تجددت فی الشیع البرتستانتیة فی أوائل القرن الخامس عشر و لا تزال ترهقها بأضرار جمة عاملة علی تشعث إلفتها و تمزق شملها.

و فی سنة (۸۷۹) إلتأم المجمع المسکونی الثامن فی کنیسة أجیّا صوفیا و حضره القیصر باسیلیوس المکدونی و عماله لیحافظوا علی النظام جریا علی عادة أسلافه العواهل العظام و ثلاثمائة و ثلاثة و ثمانون رئیس کهنة أثبتوا دستور الإیمان الذی وضعه المجمعان الأول و الثانی علی ما مرّ قاضین بانتباذ من یزید فیه أو ینقص منه. و لا یحصی هذا المجمع رسمیا مع المجامع السبعة

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۲۲

المذکورة، مع أن الکنیسة کلها شرقا و غربا اشترکت فیه و قررت أحکامه بالاتفاق التام جریا علی عادتها فیها. و سبب ذلک أنه لم یلتئم بعده مجمع مسکونی تام الشروط لیثبت صلاحیته الشرعیة اتباعا لنظام المجامع.

و نشرت کنیسة رومیة الدین المسیحی فی شعوب أوربا أیام کان اللّه خاتما علی قلوبهم، فبذلوا لها مقادتهم و خشع ملوکهم أمام أساقفتها فعصفت فی رؤوس الباباوات زوابع المجد العالمی و استرسلوا فی سعیهم وراء السلطة المطلقة علی الممالک و الکنائس، فنزل جهل الغرب المطبق علی مقترحهم و أسدر عیونهم نور الشرق- و الشرق مبعث النور- فنصح لهم البطریرکان المسکونیان أن یتّزعوا، فما کان منهم إلا- أن غلوا فی طغیانهم فنبذتهم الکنیسة بمجمع التأم علی عهد القیصر قسطنطین مونوماخس و البطریرک میخائیل المذکور، فعمدوا بعد یأسهم إلی القوة البدنیة توصلا إلی ما اشرأبت إلیه أطماعهم فسیروا علی الشرق الحملات الصلیبیة التی سوّدت بإفحاشها فیه مجلدات برمتها حتی محقها المسلمون و طهروه منها و ردوا علی الکنیسة الأرثوذکسیة حقوقها التی منحها إیاها الخلیفة عمر بن الخطاب و خلفاؤه. فمقت الروم اللاتین حتی آثروا أن یروا عمامة السلطان محمد الثانی (الفاتح) فی کنیسة أجیا صوفیا علی أن یروا فیها کمة البابا.

و لما انحجب نور الشرق عن رومیة تاهت کنیستها فی شعاب الباطل فأجفل منها معظم أمم أوربا متعوذین بالمذهب البرتستانتی، فأنشأت لهم «دیوان التفتیش» المشهور بفظائعه. ثم لما سطع فجر العلم فی أوربا و امتنع علیها إکراه الناس علی التدین بما تملیه علیهم عمدت إلی دهاء الرهبانیات کالجزویت و الکبوشیین و غیرهم فاستغوت بالمال حزائق من الطوائف الشرقیة القدیمة، منها حزیقة الروم الکاثولیک الذین استغوتهم من الملة الأرثوذکسیة فانتحلوا لأنفسهم وصف «الملکیین» لیوهموا الناس أنهم الأصل و لکنهم لم یوهموا إلا أنفسهم فصدق فیهم قول المتنبی:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونهو صدق ما یعتاده من توهم

أما الحقیقة التاریخیة فهی أن القائلین «بالطبیعة الواحدة» من أقباط مصر

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۲۳

نعتوا الأرثوذكسيين «بالملكيين» لتمسكهم بإيمان ملوك القسطنطينية.

فمن هذه الحقائق التاريخية التى أيدتها شواهد العقل و النقل المثبتة فى المطولات يعلم المطالع:

۱ أن الحقيقة الإنجيلية حفظت فى الكنيسة الأرثوذكسية مصونة عن كل شائبة بدعة و ضلال و ستحفظ إلى منتهى الدهر (مت ۱۶: ۱۸ و ۲۸:

۲۰ يو ۱۴: ۱۶).

۲ و أن المملكة البزنطية التى عاشت زهاء ألف و مئة و خمسين عاما قد ناصرت الكنيسة على صيانة هذه الحقيقة مؤثرة أياها على المصلحة المادية.

۳ و أن أمر الكنيسة الأرثوذكسية شورى لأنها تعمد فى حل المشكلات إلى المجامع اقتداء برسل المسيح المخلص فلا يستبد فيها شخص واحد برأيه (مت ۱۸: ۱۵- ۱۷ واع ۱۵: ۶).

۴ و أن السلطة العليا فيها منحصرة فى المجامع المسكونية وحدها فهى تؤمن بما حددته من عقائد الإيمان المقررة فى الكتاب المقدس و تأتمر بأوامرها و تحفظ قوانينها و تنبذ كل بدعة نبذتها و تحكم على من يتجاسرون على نقض أحكامها و العبث بقراراتها أيا كانوا.

۵ و أن الشرق كان موطن أحبار الدين المحققين، و جهابذة اليقين الراسخين، الذين حددوا العقائد المسيحية تحديدا لا يحتمل التأويل و التبديل بما أقاموا عليها من البينات الواضحة و الحجج الدامغة مما اضطر الغرب أن يجعل قياده فى يده و ينزل على حكمه فى جميع الأمور الدينية.

۶ و أن الروم الأثوذكسيين كانوا أصحاب البلاد و كان معتقدهم سائدا فى من توطنها من العباد حتى افتتحها المسلمون و أمّنوهم على دينهم و أموالهم فعاش بوجاهتهم فى الممالك الإسلامية حتى اليوم بقية الطوائف النصرانية التى حكمت عليها الكنيسة قبلا، و قد قال القرآن الشريف فى الروم «غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ» (سورة الروم).

الكثلكة:

الكثلكة أو الدين الكاثوليكى أو الكنيسة الكاثوليكية اسم واحد للمذهب

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۲۴

الدينى المعروف الذى يدين به اليوم نيّف و ثلاثمائة مليون من البشر كما ورد فى أضبط الإحصاءات الحديثة. يعلن أصحابه و يثبتون قولهم بالبرهان أنه هو الدين الوحيد الذى بشر به السيد المسيح قبل تسعة عشر قرنا و أخذه عنه رسله الحواريون لينشروه بأمره فى كل العالم (متى ۲۸: ۱۸- ۲۰ مرقس ۱۶: ۱۵) تحت رئاسة الأساقفة الخاضعين للحبر الأعظم بابا رومية و خلف القديس بطرس المقام من السيد المسيح كالمتقلد الرئاسة العامة المطلقة على كنيسته و كراعى نعاجه و خرافه (متى ۱۶: ۱۸- ۱۹ يوحنا ۲۱: ۱۵- ۱۷) و أما اسمها فمشتق من لفظة يونانية معناها الجامعة و المنتشرة فى كل الأرض لأن الكنيسة الكاثوليكية منذ عهد الرسل انتشرت فى جميع أنحاء المعمور حتى ما وراء حدود المملكة الرومانية.

و أصل الكثلكة تلك الجماعة الأولى التى أنشأها السيد المسيح بذاته و دعاها كنيسة (متى ۱۶: ۱۸) ألفها من الاثنى عشر رسولا (متى ۱۰: ۲- ۵) ثم من الاثنين و السبعين تلميذا (لوقا ۱۰: ۱) و أنبأهم بتبشير إنجيله فى كل العالم (متى ۲۶: ۱۳) و أوصى تلامذته قبل صعوده أن يتلمذوا كل الأمم و يعمدوهم باسم الأب و الابن و الروح القدس و يعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصاهم به (متى ۲۸: ۱۹- ۲۰) فما مر عليهم بضعة أيام حتى حل عليهم البارقليط أى الروح القدس الذى وعدهم بإرساله (يوحنا ۱۵: ۲۶) فأنطقهم بألسنة جميع الأمم التى كان حضر بعض أبنائها أورشليم لعيد العنصرة و وقفوا بذلك على الدين الجديد (أعمال ۲: ۱- ۱۲) فاعتمد فى ذلك اليوم ثلاثة آلاف من اليهود (أعمال ۲: ۴۱) ثم بلغ عددهم خمسة آلاف بعد أيام (۴: ۴) ثم شاع اسمهم فعرفوا بالمسيحيين (۱۱: ۲۶)

ثم صار التخصيص بظهور بعض الشيع فدعوا بالكاثوليك و كنيستهم بالكنيسة الكاثوليكية قريبا من عهد الرسل كما ورد فى كتاب القديس أغناطيوس تلميذهم و الفيلسوف يوستنيوس النابلسى المستشهد سنة (۱۶۵ م) و لم يزل مذ ذاك الوقت اسمهم الخاص دون سواهم.

يؤمن الكاثوليك بكل العقائد التى أوحى اللّه فى الكتب المنزلة و فى التقليد.

و تقسم الكتب المنزلة إلى قسمين أسفار العهد العتيق و أسفار العهد الجديد.

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۲۵

و أسفار «العهد العتيق» منها أولية و منها ثانوية. فالأولية هى التى كتبت فى الأصل باللغة العبرانية و هى: أسفار موسى الخمسة (التكوين و الخروج و الأحبار و العدد و تثنية الاشتراع) ثم الأسفار التاريخية (يشوع و القضاة و راعوت و الملوك الأربعة و أخبار الأيام الاثنان و عزرا و نحميا و أستير) ثم الأسفار النبوية: أربعة كبار (أشعيا و أرميا و حزقيال و دانيال) و اثنا عشر صغار (هوشع و يوئيل و عاموس و عوبديا و يونان و ميخا و ناحوم و حبقوق و صفنيا و حجّاى و زكريا و ملخيا) ثم الأسفار الحكمية (مزامير داود و أمثال سليمان و أيوب و نشيد الأناشيد و الجامعة).

أما الأسفار (الثانوية) فهى التى كتبت بالكلدانية أو اليونانية و نقلت فى الترجمة المعروفة بالسبعينية و هى: طوبيا و يهوديت و ابن سيراخ و المكابيون (اثنان).

و هذه كتب «العهد الجديد»: الأناجيل الأربعة القانونية للرسولين متى و يوحنا و للتلميذين مرقس و لوقا. ثم سفر أعمال الرسل للقديس لوقا. ثم رسائل القديس بولس الأربع عشرة ثم رسالة القديس يعقوب و رسالتا بطرس و ثلاث رسائل يوحنا و رسالة يهوذا و رؤيا يوحنا.

و فى الكنيسة الكاثوليكية معتقدات أخر ليست مدوّنة فى الأسفار المنزلة و إنما أخذتها بالتعليم الحى بسلسلة متواصلة من عهد الرسل إلى يومنا و أعلنت بها فى مجامعها أو فى براءات أحبارها و فى تعليمها اليومى. و خلاصة هذه المعتقدات المدوّنة فى أسفار العهد العتيق و لا سيما فى أسفار العهد الجديد مرجعها إلى ما يلى:

أولا عقيدة التوحيد: أى اعتقاد وجود إله واحد روح بسيط أزلى لا أول له و لا آخر لا يحصر جوهره المكان، قائم بذاته ذو صفات و كمالات لا حدّ لها من قداسة و حكمة و قدرة و رحمة و عدل. و هو خالق كل الكائنات الروحية و الهيولية من العدم بجوده و اختياره.

ثانيا عقيدة التثليث: هذا الإله الصمد ذو الجوهر الفرد و الطبيعة الإلهية الواحدة له ثلاثة أقانيم هى صفات جوهرية نسبية متساوية بكل كمال و كل

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۲۶

قدرة لا يفرقها شىء سوى نسبة بعضها إلى بعض. فندعو الأقنوم الأول «أبا» و هو أصل اللاهوت غير مولود و غير منبثق. و الثانى «ابنا» مولودا من الآب منذ الأزل ليس ولادة جسدية بل ولادة عقلية روحية بمعرفة الآب لذاته و لكمالاته يصدر بهذه المعرفة ابنه الشبيه به و ضياء مجده و صورة جوهره (عبرانيون ۱: ۳ كولوسّى ۱: ۱۵) فهو إله من إله نور من نور إله حق من إله حق من جوهر الآب (دستور نيقية). و الثالث (روحا قدسا) منبثقا من الآب و الابن ليس بطريق الولادة العقلية، بل بتبادل حب الآب لابنه و حب الابن لأبيه المولود منه. و هذا الحب ليس عرضيا بل جوهريا ندعوه الروح القدس. و هذه عقيدة تثليث الأقانيم فى اللّه أوصى بها اللّه بنوع خفى فى العهد العتيق كما يؤخذ من بعض آياته، ثم صرّح به السيد المسيح فى نصوص عديدة فى الإنجيل و قرره تلاميذه فى رسائلهم بما لا يبقى فى الأمر أدنى ريب و إن كان سرا يفوق الإدراك البشرى.

ثالثا عقيدة التجسد: هو سر الأقنوم الثانى من الثالوث الأقدس الذى تأنّس و اتخذ فى أحشاء مريم العذراء دون زرع بشرى طبيعتنا البشرية بكل خواصها ما عدا الخطيئة ليفدى بنى آدم من تبعة الخطيئة الأصلية التى ارتكبها الأبوان الأولان بمخالفتهما لأوامره تعالى

فی جنة عدن و خلّفاها لسائر نسلهما و بها حصل هلاک الجنس البشری ففقد البرارة الأصلیة التی منحها قبل خطیئته فلم یعد أهلا للتمتع بالنعیم الأبدی و مشاهدة اللّه فی السماء. و إذ کان الإنسان غیر قادر علی الوفاء عن خطیئته لجلال اللّه فإنه تعالی رحمه و وعده بمخلّص یعید له بفدائه ما فقده من تلک النعم (تکوین ۳: ۱۵) و لیس هذا المخلص إلّا السید المسیح منتظر الآباء و الأنبیاء و جمیع الشعوب و هو الإله المتجسّد ذو الأقنوم الإلهی الواحد و ذو الطبیعتین الإلهیة و الإنسانیة (یوحنا ۱: ۱۴ و ۳:

۱۶ لوقا ۱: ۲۶- ۳۶) فهذا الإله المتأنس قضی علی الأرض ثلاثا و ثلاثین سنة یعمل و یعلّم و أنشأ کنیسة و أسلم نفسه اختیارا للعذابات و للموت ثم قام بقوّة لاهوته من قبره فی الیوم الثالث و تراءی مرارا لتلامیذه ثم صعد إلی السماء بعد أربعین یوما. و بکل ذلک أتمّ جمیع ما تنبّأ عنه الأنبیاء دون أن یخلّ من نبوّاتهم حرفا.

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۲۷

و لما کانت أعماله سواء صدرت من طبیعته الإلهیة کالمعجزات التی صنعها أو من طبیعته الإنسانیة کمولده و موته ذات قیمة غیر متناهیة لصدورها عن شخصه الوحید الإلهی شخص ابن اللّه فقدّمها لأبیه و لا سیما موته علی الصلیب تکفیرا عن خطایا البشر الذین یستطیعون بعد ذلک أن ینالوا نعمة البرارة و الخلاص الأبدی بواسطة المعمودیة و الأعمال الصالحة و التوبة عن الزلّات.

رابعا عقیدة القیامة: یؤمن الکاثولیک بخلود النفس فعند انفصالها عن الجسد بالموت تدخل السماء إن کانت طاهرة من کل خطیئة ثقیلة أو خفیفة و تعاقب بعقوبات جهنم إن کانت فی حال الخطإ المیت دون توبة عند الموت.

أما إن کانت مدنّسة ببعض الخطایا الخفیفة أو لم تکفر تماما عن خطایاها السابقة المغفورة فیحکم علیها بعذابات موقتة و ذلک ما یدعونه المطهر ریثما تفی لعدل اللّه الوفاء التام. و فی آخر الأزمنة سیبعث اللّه الموتی من قبورهم فیعوذون إلی أجسادهم لیحضروا الدینونة الأخیرة التی یتولاها السید المسیح فیحکم نهائیا علی البشر فیجازی الأبرار بالنعیم الأبدی و یعاقب الأشرار بالعذاب الدائم (یوحنا ۵: ۲۶- ۲۹).

خامسا المعتقدات التقلیدیة: ما عدا المعتقدات السابقة التی وردت فی الأسفار المقدسة یؤمن أیضا الکاثولیک ببعض الحقائق التی لم تصرح بها الکتب المنزلة و إن أمکن إثباتها من بعض آیاتها کعقیدة عصمة الخبر الأعظم عن الغلط فی أمور الإیمان و الآداب إذا علّم کنائب المسیح و کخلیفة هامة الرسل و کعقیدة حبل العذراء مریم بلا دنس و کعقیدة وجود المطهر و هلّم جرّا.

فهذه العقائد یمکن ترقیتها بسلسلة متواصلة إلی زمن الرسل تشهد علیها نصوص الآباء و المجامع جیلا بعد جیل و یعلن بها أرباب الکنیسة فی تعلیمهم الیومی بالإجماع. لما کانت الکنیسة الکاثولیکیة تعلن بکونها هی کنیسة المسیح و یعارضها فی ذلک غیرها من الکنائس المنفصلة عنها کان لا بدّ أن تمتاز الکنیسة الحقیقیة عن سواها ببعض العلامات الخاصة. و هذه العلامات قد سبق الرسل و دوّنوها فی دستور الإیمان المنسوب إلیهم و تکرر ذکرها فی کل دساتیر الإیمان المتقررة بعدهم و هی أربعة: أن تکون الکنیسة واحدة

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۲۸

مقدسة جامعة رسولیة. و هذه العلامات لا تستطیع أن تثبتها لنفسها أی کنیسة کانت إلا الکنیسة الکاثولیکیة.

فهی «واحدة» باتفاق جمیع أعضائها فی خضوعهم لرأس واحد منظور هو نائب المسیح و خلیفة بطرس هامة الرسل ثم فی اعتقادهم کل ما تعلمه الکنیسة دون خلاف و أخیرا فی اشتراکهم بالأسرار عینها.

و هی «مقدسة» لأن منشأها السید المسیح هو القداسة بالذات ثم لأن کل تعالیمها و آدابها صالحة مقدسة و لأنها أیضا تقدم لذویها وسائط جمة لتقدیس نفوسهم لا سیما بالأسرار السبعة التی رسمها المخلص أعنی المعمودیة و المیرون و التوبة و القربان الأقدس و مشحة المرضی و الکهنوت و الزواج بقرینة واحدة دون طلاق. و لذلک قد أولدت عددا لا یحصی من القدیسین فی کل أنحاء العالم تشهد علی قداستهم أعمالهم العجیبة و فضائلهم السامیة التی لا تزال آثارها ظاهرة لکل ذی عینین. و کفی دلیلا علیه وجود الرهبانیات

الساعية وراء الكمال بنذورها و المتفانية فى عمل كل خير دون غاية زمنية.

و هى «جامعة» لأنها وحدها قد نشرت تعاليمها فى جميع أقطار العالم المعروف فقام دعاتها بأمر الرب الموصى بنشر إنجيله بين كل الأمم و من ثم لا يكاد يخلو قطر من بعض تبعتها. و هى أعظم عددا من أى مذهب كان إذا قيس بها منفردا منقسما كالروم و الشيع البرتستانية و البوذية و البرهمانية و هلم جرّا. و فى اسمها دليل على هذه السمة فإن الكاثوليكية معناها الجامعة.

و قد ظهرت هذه العلامة منذ عهد الرسل إذ يقول القديس بولس فى رسالته إلى أهل رومية (۱: ۸) «إن إيمانكم يبشر به فى العالم كله».

و هى «رسولية» لأن سلسلة أحبارها الأعظمين تتصل دون انقطاع برأس الكنيسة الأول القديس بطرس هامة الرسل. و بيوس الحادى عشر الجالس اليوم سعيدا على كرسى رومية إنما هو خلفه المائتان و السادس و الستون.

هذه علامات الكنيسة الكاثوليكية الأصلية. أما ما يرى فى بعض بلاد الشرق من الاختلافات فى الطقوس و اللغات و العادات الدينية فكل ذلك ثانوى:

عرضى يمكن تغييره مع الزمان دون أن يمس جوهر الكنيسة الكاثوليكية لا بل يزينها و يزيدها جمالا.

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۲۹

و معلوم أن الكنيسة الكاثوليكية انتشرت بكل سرعة فى العالم كله منذ عهد الرسل الحواريين حتى تجاوزت حدود المملكة الرومانية. و لوقوع بلاد الشام فى جوار فلسطين لا يستغرب انتشار النصرانية فيها قبل سواها. و ذلك ما تثبته أقدم الشواهد التاريخية و أولها سفر أعمال الرسل الذى منه يلوح إنشاء الدين المسيحى فى أنطاكية (۱۱: ۲۶) و فى سائر سواحل الشام ذكر منها صور و عكة و قيصرية (۲۱: ۳- ۸).

و يمكننا أن نتتبع تاريخ الكنيسة الكاثوليكية فى الشام جيلا بعد جيل على الرغم مما حلّ بها من اضطهادات الوثنيين و على الرغم مما شاع من البدع كالأريوسية و اليعقوبية و النسطورية و المنوثلية فلم يكن بين الطوائف الشرقية ما يفصلها عن الكنيسة الرومانية فى إيمانها و خضوعها لرأس الكنيسة الرومانية و آدابها غير الأعراض السابق ذكرها. و الدليل على ذلك إكرام كنائس الشرق لقديسى الغرب و إكرام الغربيين للقديسين الشرقيين. و فى طقوس الشرقيين القديمة ما يشهد إلى اليوم بتلك الوحدة و الاتفاق. و كذلك سير القديسين الشرقيين تثبت ذلك الأمر. و كثيرون منهم أزهروا فى الشام كالقديس يوحنا فم الذهب و القديس أفرام السريانى و القديس مارون الناسك.

غير أن تملك العرب على الشام و استفحال الشيع المضادة لتعاليم الكنيسة و صعوبة طرق المواصلات بين الشرق و الغرب أضعفت الدين الكاثوليكى كثيرا فى الشام، إلى أن عاد فتعزّز بقدوم الصليبيين إلى الشرق ثم بدخول المرسلين منذ القرن الثالث عشر فى هذا القطر، فظهرت آثاره الطيبة أولا بين الموارنة ثم بعد ذلك بزمن بين الروم و الأرمن، ثم بين الكلدان و السريان حتى قامت لكل هذه الطوائف كنائس منظمة لها بطاركتها و أساقفتها و رعاياها، و لكل طائفة تاريخها الخاص يترجم عن أعمال بنيها و مشاهير ملتها و ارتباطها مع الكرسى الرومانى.

و اليوم يبلغ إحصاء الكاثوليك فى الشام نيفا و ستمائة ألف معظمهم الموارنة (۰۰۰، ۳۰۰). ثم الروم الكاثوليك (۰۰۰، ۱۲۰). ثم الأرمن (۰۰۰، ۸۰).

ثم السريان (۰۰۰، ۲۰). ثم اللاتين (۰۰۰، ۱۰). ثم الكلدان (۲۰۰۰) هذا ما عدا المهاجرين منهم إلى أميركا و غيرها.

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۳۰

و قد تعززت الكثلكة فى الشام بدخول الرهبان و أقدمهم الفرنسيون فى القرن الثالث عشر. ثم فى القرن السابع عشر الكرمليون و الكبوشيون و اليسوعيون.

ثم فى أواخر القرن الثامن عشر اللعازريون، و فى القرن التاسع عشر أخوة المدارس المسيحية و الأخوة المريميون مع راهبات من رهبانيات مختلفة كراهبات الزيارة و راهبات المحبة و اليوسفيات و راهبات القلبين الأقدسين و راهبات السجود و راهبات العائلة المقدسة و راهبات العجز الخ. و لكل من هؤلاء الرهبان و الراهبات من المشروعات الجليلة ما يكفى وحده لتشريف الكنيسة الكاثوليكية.

و للّه الحمد على كل حال.

المارونية:

الموارنة طائفة من النصارى الكاثوليكيين الشرقيين يعرف من تواريخهم أنهم ينتسبون إلى الناسك البار القديس مارون القورسى النشأة على ما يرجح.

اعتزل هذا الفاضل الدنيا فى أواخر القرن الرابع و لجأ إلى صومعة فى قمة جبل غير بعيد عن أنطاكية فما لبث عرف فضائله أن فاح فى تلك الأنحاء فجذب إليه جماعات قصدوه ليلتمسوا منه بركته و صلواته و يسترشدوا بتعاليمه و يقتدوا بسيرته. و قد زهد قوم منهم بالدنيا و اختاروا العزلة و التفرغ لخدمة اللّه فى المغاور و أعالى الجبال ليقيموا بعيدين عن ضوضاء العالم، على أن أريج حياتهم الطاهرة لم يمكن إخفاؤه فتقاطر المجاورون حول تلك المناسك و تألفت منهم طائفة عرفت فيما بعد باسم الطائفة المارونية، و كان أهم المراكز التى التفوا حولها دير القديس مارون المبنى على ضفاف النهر العاصى فى نواحى أفامية.

و لما توافر عددهم مسّت الحاجة إلى تنظيم أحوالهم الروحية فأقيم لهم بطريرك هو البار يوحنا مارون و به تبتدئ سلسلة بطاركة الموارنة، و عاش هذا البطريرك الأول فى أواخر القرن السابع فى حين كان للموارنة أمراء يديرون شؤونهم الزمنية، ثم أخذ الموارنة يهجرون إلى الأقطار المجاورة، فنزل قوم منهم فى جبال عكار و عمروا فيها القرى، و سارت فئة نحو الجنوب إلى لبنان الشمالى فما عتموا أن قويت شوكتهم فيه فبلغ فى القرن العاشر عدد

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۳۱

رجالهم الصالحين للقتال أربعين ألفا على ما ذكر مؤرخو الحروب الصليبية.

و قصد فريق منهم سورية الداخلية فاستوطن جوار دمشق و استغل الأرض فيها و بنى الدساكر و المرابط. و فريق أمّ القدس و آخر نزح إلى قبرس فى أيام الصليبيين و بعض الأسر سكنت حلب فى أواسط القرن الخامس عشر و هبط بعضهم مصر و رودس و مالطة. على أن الأغلب فضلوا الإقامة فى جبال لبنان فاعتصموا بها و نموا و كثروا رغم ما أصابهم من النكبات فى أوقات مختلفة. و لما ضاق بهم جبلهم رحل قسم منهم إلى بلاد المهجر كأميركة و إفريقية و أوقيانية حيث ألفوا جاليات لها مقامها المعتبر فى عالم التجارة و الصناعة و الأدب كسائر إخوانهم اللبنانيين و السوريين، و بلغ عدد الموارنة و يدخل فيه المهاجرون خمسمائة ألف نسمة.

أما فى الدينيات فيتفق الموارنة مع الكاثوليكيين بمعتقدهم و شرائعهم الدينية و الأدبية و هم مثلهم خاضعون لسلطة بابا رومية، إنما لهم و للسريان لغة طقسية واحدة هى السريانية لكنهم يختلفون عن سائر الطوائف بترتيباتهم و نظام إدارتهم الروحى المبينة كلها فى دستورهم المجمع اللبنانى الذى عقد سنة (۱۷۳۶) و فى عاداتهم المشروعة، و يرأس الطائفة بطريرك يعرف ببطريرك أنطاكية مستقل عن سائر البطاركة الشرقيين مركزه الشتوى دير سيدة بكركى فوق جونية و مقره الصيفى جديدة قنوبين فى لبنان الشمالى فوق طرابلس.

و يخضع لإدارته مطارنة يقيم بعضهم نوابا له و بعضا على أبرشيات معينة مستقل بعضها عن بعض، و يعهد إليهم فى تدبير هذه الأبرشيات الروحى و الزمنى و إدارة أوقافها مباشرة أو بواسطة وكلاء يسمونهم لذلك و يراقبون أعمالهم، و فى الأبرشيات كهنة يعنون بخدمة الرعايا. و فى الطائفة جمعيات رهبانية يقيم أعضاؤها فى أديارهم و مدارسهم و يتفرغون لخدمة اللّه و النفوس.

و كان للموارنة شرع خاص يتقاضون بموجبه أقره لهم جميع الذين حكموا القطر من نصارى و غيرهم، و لا تزال أغلب قوانينه مرعية الإجراء عندهم حتى اليوم.

و نبغ منهم فى رجال الدين كثيرون نذكر منهم البطاركة جرجس عميرة الذى ألف أول غراماطيق سريانى و وضع قواعده باللغة اللاتينية ليسهل على خطط الشام ؛ ج۶ ؛ ص۲۳۲

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۳۲

المستشرقين درس هذه اللغة، ثم العلامة أسطفانوس الدويهى المؤرخ المشهور، و يوسف حبيش و بولس مسعد و يوحنا الحاج، و البطريرك الحالى الياس الحويك صاحب المواقف المشهورة فى القضايا الوطنية.

ثم الأساقفة كالمطران جرمانوس فرحات و السيد يوسف سمعان السمعانى و يوحنا حبيب و يوسف الدبس و غيرهم كثيرون من رجال الدين ممن خدموا اللغة العربية و القانون و التاريخ.

و بين العلمانيين أمراء شهاب و بيت أبى اللمع و أناس امتازوا بخدمة وطنهم و أعمالهم المبرورة كآل خازن و دحداح و حبيش و السعد و كرم و الظاهر و نبغ غيرهم فى خدمة العلم كآل البستانى و الشدياق و النقاش و الباز.

و لا يمكن فى عجالة سرد أسماء جميعهم.

البرتستانتية:

التأم فى أوائل سنة (۱۵۲۹) فى إحدى مدن جرمانيا مؤتمر بأمر الأمبراطور كارلس الخامس قرر عدم السماح بإحداث تغيير فى الرسوم الدينية و كان هذا القرار موجها ضد الإصلاح و المصلحين. و فى ۱۹ نيسان من نفس السنة أرسل كثيرون من الأمراء و الأشراف و أربع عشرة مدينة امبراطورية احتجاجا قالوا فيه: إنهم مستعدون أن يطيعوا الامبراطور و المؤتمر فى كل القضايا الواجبة و الممكنة و لكنهم لا يخضعون لأحد فى ما يعتقدونه مخالفا لكلمة اللّه و ضميرهم.

فسموا من ذلك برتستانت أو محتجين، و من هذا الوقت أطلق هذا الاسم على كل المسيحيين من غير اللاتين و الكنائس الشرقية بفروعها. و هم يدعون أنفسهم غالبا إنجيليين و يدعون غيرهم تقليديين نسبة إلى التقليد كما سترى.

و البرتستانتية بمعناها اللغوى لا يخلو منها دين أو مذهب، ففى كل زمان و مكان أفراد و جماعات يحتجون على رسوم فى الدين أو المذهب الذى ولدوا فيه قد ينجحون أو لا ينجحون، أما البرتستانت فقد نجحوا نجاحا لم يقدره أحد لهم فعددهم الآن يتجاوز مئتى مليون فى الدرجة الأولى عددا بعد اللاتين و كل من انضم إليهم من الكنائس الشرقية، و فى الدرجة الأولى فى الرقى وسعة الملك.

ثم إن البرتستانت و إن افترقت أكثر فرقهم فى أمور أكثرها عرضية

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۳۳

فهم مجمعون على أمور كثيرة، و إليك التفصيل فى ما هم مجمعون عليه و ما هم مختلفون فيه: أهم ما تجمع عليه أكثر فرق البرتستانت (عدا ما هم مجمعون عليه مع غيرهم مما يأتى بيانه):

(أ): أن الكتاب المقدس هو القانون الوحيد فى كل ما يلزم للخلاص.

(ب): أن المسيح هو المخلص الوحيد و ليس بأحد غيره خلاص.

(ج): أن الخلاص كله نعمة مجانية من اللّه.

(د): أن الإيمان هو السبيل الوحيدة لنيل الخلاص.

(ه): أن الأعمال الصالحة هى ثمر الإيمان الحى فنعمل لأننا مخلصون لا لكى نخلص.

و البرتستانت إجمالا قسمان كبيران- الأول الايسكوبيليان أى الأسقفيون و هم الذين يقولون: إن درجات الأكليروس ثلاث: الأسقف

و القسیس و الشماس- الثانی البرسبتیریان أی القسوسیون و هم الذین لیس عندهم رتبة أساقفة. و أکثر فرق البرتستانت هذا القسم. فالأسقفیون مثلا- یجرون العبادة غالبا بموجب کتاب صلاة أی صورة معینة تتلی وقت عبادة الجماعة. و أما العبادة العائلیة و الاجتماعات الأخری الروحیة فیترکونها لحریة القسیس أو من ینوب عنه.

أما القسوسیون فالحریة مفوضة للخادم فی کل الأوقات. و عندهم بعض صلوات و إرشادات مکتتبة لمساعدة القسیس فی أحوال خصوصیة.

علی أن هذا النظام لا یعد جوهریا فهذه الکنیسة الانکلیکانیة و هی تجری عبادتها بموجب کتاب صلاة تقول فی العقیدة ۳۴ «لا یلزم أن تکون التقالید و الطقوس فی جمیع الأماکن واحدة متساویة إذ قد اختلفت فی کل الأزمان و یصح تغییرها علی مقتضی اختلاف المکان و الزمان و عادات الناس بحیث لا یرتب منها شیء مضاد لکلام اللّه ... و کل کنیسة تختص بأمة فلها سلطان أن تثبت و تغیر و تبطل طقوسها و رسومها التی رتبت بسلطان الناس فقط».

و کل الأسقفیین و الأکثریة العظمی من غیرهم یجرون السرین المعمودیة و الشرکة و یعمدون الأطفال و البالغین الذین لم یعمدوا أطفالا- أما بعض القسوسیین فلا- یعمدون إلا- البالغین و یسمون بالمعمدانیین، و بعضهم لا یجری السرین مطلقا و هم المعروفون بالفرندس أو الکویکرس.

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۳۴

یتفق البرتستانت مع غیرهم فی أمور کثیرة جوهریة و یخالفونهم فی أمور أخری و إلیک التفصیل: أهم الأمور الجوهریة التی یتفق فیها البرتستانت مع غیرهم. یتفقون فی قانونی الإیمان- أولا- القانون المعروف بقانون إیمان الرسل و هو یرجع إلی أواخر القرن الأول المسیحی بل قیل: إن الرسل أنفسهم وضعوه- ثانیا قانون الإیمان النیقاوی وضعه المجمع المسکونی الأول الذی التأم سنة ۳۲۵ فی مدینة نیقیة مع ما أضیف إلیه فی ما بعد سوی عبارة واحدة بخصوص انبثاق الروح من الابن أضیفت فیما بعد لا- یقبلها الروم الأرثوذکس.

و یوجد قانون إیمان ثالث مجمع علیه یسمی قانون مار أثناسیوس و لکنه أقل شهرة و أقل استعمالا من الأولین. و یمکن تلخیص الأمور الجوهریة التی یتفقون فیها فی ما یأتی: (۱) التوحید و التثلیث (۲) الخلق و السقوط و الفداء (۳) تجسد الکلمة الأزلیة المسیح ابن اللّه من مریم العذراء بالروح القدس و کل ما یتعلق بتاریخ فداء المسیح من میلاده إلی مجیئه الثانی للدینونة (۴) القیامة و الدینونة (۵) وجوب التبشیر بالمسیح و دعوة الغیر إلی الإیمان به (۶) عدم تحریف الأسفار التی یتفقون علی قانونیتها من الکتاب المقدس.

و أهم الأمور المختلف فیها سلطان الکتاب المقدس. و یعتقد البرتستانت أنه المرجع الوحید المعصوم الذی یجب الرجوع إلیه فی عقائد الإیمان. و یعتقد غیرهم أن للکتاب و التقلید سلطانا متساویا و من هذا یدعوهم البرتستانت تقلیدیین. و التقلید عند المسیحیین کالتلمود عند الیهود و الحدیث عند المسلمین.

و بعد فلا خلاف بین البرتستانت و غیرهم فی عدد أسفار العهد الجدید إنما الخلاف فی عدد أسفار العهد القدیم. فالبرتستانت لا یقبلون إلا- الأسفار التی یقبلها الیهود و ذکر عددها یوسیفوس. و غیرهم یضیف إلیها أسفارا تسمی أبو کریفا وجدت فی الترجمة السبعینیة مضمومة إلی باقی الأسفار. و مع تسلیم البرتستانت بلزوم المجامع و فائدتها فهم لا یحسبون لما تقرره قوة و لا سلطانا إلا إذا أثبت من الکتاب المقدس. أما المجامع عند الروم الأرثوذکس و المجامع و البابا عند البابویین فهم معصومون من الخطإ فی ما یقررونه من عقائد الإیمان.

و یعتقد البرتستانت أن فرصة الخلاص تنتهی بالموت و به یتقرر حال کل

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۳۵

نفس إما فی النعیم أو فی الجحیم. و یتفق معهم غیرهم فی حال أهل الجحیم و یخالفون فی حال أهل النعیم فعندهم مکان عذاب

وقتى غير الجحيم يسمى عند الباباويين المطهر و عند الروم الأرثوذكس عقالات الجحيم تذهب إليه الأنفس لتكفر عن ذنوب صغيرة، و تصرف فيه مدة تطول و تقصر بحسب عدد تلك الذنوب و صفتها، و يمكن تقصير هذه المدة بالصلوات و الصدقات.

يحصر البرتستانت الشفاعة و طلب الخلاص بالمسيح، و غيرهم يطلبهما منه و من الملائكة و القديسين.

عند البرتستانت سران فقط هما المعمودية و الشركة و غيرهم يضيف إليهما خمسة فيصير العدد سبعة و المضافة هى: (۱) التثبيت عند اللاتين و الموارنة. و الميرون عند غيرهم. (۲) الكهنوت. (۳) الاعتراف للكاهن.

(۴) الزواج. (۵) المسحة الأخيرة قبل الموت. أما الإفاضة فى تعريف السر و فاعليته و ما يحدث فيه و ما يحدثه هو من التغيير و فى سبب هذا الخلاف فإنها تخرجنا كثيرا عن المقصد.

و البرتستانت يعترفون للّه وحده و للشخص الذى أخطأوا إليه، و للّه وحده عندهم السلطان على مغفرة الخطايا. و غيرهم يوجب الاعتراف للكاهن.

و للكاهن سلطان مطلق على غفران الخطايا.

و لما كان البرتستانت فى هذه الديار ثمرة الإرساليات نرى من الواجب أن نشير إلى الداعى إلى الإرساليات، فالداعى إليها أوامر الكتاب المقدس الكثيرة، و أهمها أمر المسيح الأخير الصريح «اذهبوا و تلمذوا جميع الأمم و عمدوهم باسم الأب و الابن و الروح القدس». و قد أطاع رسله أمره و تفرقوا فى أنحاء العالم المعروف حينئذ و ليس لهم ما يستندون عليه أمام قوات هذا العالم سوى إيمانهم وثقتهم بوعده. و عدوا مخالفة أمره هذا جرما عظيما فقال الرسول بولس: «إذ الضرورة موضوعة علىّ فويل لى إن كنت لا أبشر». و لا يزال هذا التبشير من مميزات الكنيسة الحقيقية ففى العقيدة ۱۹ الانكليكانية «كنيسة المسيح المنظورة هى جماعة المؤمنين التى فيها يبشر بكلمة اللّه النقية».

و قد وجه البرتستانت قواهم إلى هذا الواجب حالما تمكنوا من تنظيم

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۳۶

شؤونهم، فتألفت الجمعيات هنا و هناك، و ربما كان أقدمها جمعية المورافيين نسبة إلى موراقيا على ضفاف الدانوب، و تعرف بجمعية الأخوة المتحدين، و قد كانوا و لا يزالون فى المقدمة بالنسبة إلى عددهم الذى لا يتجاوز ۰۰۰، ۰۰۰، ۳. و فى أواخر القرن الثامن عشر زاد عدد الإرساليات البرتستانتية و زاد نشاطها. و قد طلبت من أمين سر الجمعية(L. M. S.) المستر هاردمان فى القدس بعض إحصاءات لهذه الإرساليات فأسل آخر ما عرفه منها أعربه بالشكر قال: عدد إرساليات البرتستانت فى العالم ۳۸۰، عدد المرسلين رجالا و نساء ۲۹۰۴۹ و المال الذى صرفته خمسة عشر مليون ليرة إنكليزية.

«هذا عدا ما جمع فى حقول الإرساليات نفسها و صرف عليها أيضا».

و عدد الإرساليات فى فلسطين ۱۷ و عدد المرسلين فيها ۱۶۰.

و عمل بعض هذه الإرساليات عام و بعضها خاص محصور فى قارة أو مملكة أو إقليم أو دين أو مذهب أو رتبة من الناس أو الذكور أو الإناث أو الطب العام أو الخاص أو طبع الكتب أو نشرها أو التبشير مجردا أو فتح المدارس فقط. و هذا الاختصاص فى الغرب حتى فى الأمور الدينية هو أساس نجاحه.

و من المبادئ الأساسية لهذه الإرساليات أن تنظم المهتدين جماعات تشرع بإدارة شؤونها بنفسها، و تسير نحو الاستقلال الإدارى و المالى. و منها عدم التدخل فى سياسة البلاد التى يرسلون إليها، و وجوب إطاعة أوامر حكوماتها، و المحافظة على قوانينها و نظاماتها فى كل ما لا يخالف الضمير بناء على قول المسيح «أعطوا ما لقيصر لقيصر و ما للّه للّه» و بناء على أوامر رسله المتعددة بالصلاة و الطاعة للحكام. و مع ذلك فقد أوقعت السياسة الأوربية تهمة المداخلة فى السياسة على المرسلين، لأنها استعملت الإرساليات على غير قصد من المرسلين جسرا عبرت عليه إلى مقاصدها الاستعمارية فشوهت سمعة المرسلين.

و لقد كان من الطبيعى أن توجه الإرساليات أفكارها إلى هذه الديار مهبط الوحى و مهد المسيحية لإنعاش المسيحية و تبشير غير المسيحيين بها.

و فى إحصاء بتاريخ سنة (۱۹۱۳) أن عدد الإرساليات فى هذا القطر أكثر من

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۳۷

۳۰ أميركية و إنكليزية و اسكوتلاندية و إيرلندية و ألمانية و دانماركية و موراقية و أسوجية. و يقوم بأكثرها أفراد أو مدينة أو جماعة صغيرة، و أعمالها غالبا محصورة فى العواصم كالقدس و بيروت و دمشق أو بعض المدن و القرى كيافا و حيفا و الناصرة و بيت لحم و الخليل و رام اللّه و صفد و الشويفات و برمانا و بيت مرى و الشوير و شملان و بعلبك و النبك و دير عطية و غيرها. و ليس بين كل هذه الإرساليات سوى إرساليتين عموميتين كبيرتين لهما طائفة منظمة بمجامع و قوانين و ميزانية مالية مستقلة عن ميزانية الإرسالية، الأولى أميركية قسوسية فى الشمال، و الثانية إنكليزية أسقفية فى الجنوب.

إرسالية الشمال أميركية قسوسية أسست سنة (۱۸۱۰). و فى سنة (۱۸۲۱) نزل أول مرسليها من ميناء يافا و شرعت بعملها فى القدس و جوارها، و لكن قضت الأحوال أن ينحصر عملها فى الجزء الواقع شمالى رأس الناقورة، و قام مرسلوها بمبادئ الإرساليات البرتستانتية بكل أمانة و نشاط و كان لهم اليد الطولى و فضل السبق فى نشر العلم و المدنية لا بما عملوه فقط بل بتحريض غيرهم أيضا.

و دائرة عمل إرسالية الجنوب من رأس الناقورة شمالا إلى حدود مصر جنوبا، و هى إنكليزية أسقفية أعضاؤها من كنيسة إنكلترا المثبتة. أسست فى لندن فى ۱۲ نيسان سنة (۱۸۹۹) و اسمها جمعية المرسلين الكنيسة و يعبر عنها بالأحرف(C .M .L .) و للإحاطة بعمل إرسالية فلسطين لا بد من ذكر لمحة من تاريخ الأسقفية الإنكليزية فيها. فى سنة (۱۸۴۱) أسست أسقفية انكليكانية فى القدس بالاشتراك مع بروسيا. و كان من مبادئ المرسلين الأولية أن لا يشقوا من الطوائف الأخرى المسيحية طائفة برتستانتية و خصوصا من طائفة الروم الأرثوذكس التى يعتبرونها أم الكنائس. بل قصدوا أن يعملوا بالاتفاق مع رؤسائها لإنعاش المسيحية من الغفلة التى استولت على معظم مسيحيى الشرق. و لكن مقاومة هؤلاء الرؤساء و هيجهم طوائفهم على المرسلين و على كل من يقترب منهم، اضطرتهم بعد تردد طويل إلى تأليف طوائف. و قد دان بالمذهب البرتستانى من كل الطبقات، و ارتقى كثيرون من أولاد الفقراء و الفلاحين إلى أسمى ما يمكن الوصول إليه من المراتب. على أن تأثير المرسلين

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۳۸

لم يقتصر على العدد القليل من البرتستانت العرب، بل عم القطر بل هم كانوا من أول عوامل الرقى.

إن لكل من الإرساليات المذكورة عمالا و أفرادا متعلقين بها و عددهم بحسب سعة عملها. و لكن للإرساليتين السابقتين فقط طوائف برتستانتية منظمة بمجامع و قوانين و ميزانية مستقلة عن ميزانية الإرسالية كما مر.

ليس لطائفة البرتستانت العرب كما مر قسوسية مشيخية، و ليس لها كتاب صلاة تجرى بموجبه عبادة الجماعة سوى بعض إرشادات مطبوعة ضرورية لإرشاد القسيس فى بعض الواجبات و هو مع ذلك غير مقيد بها. و تستعمل كتاب ترتيل فيه الآن (۴۳۲) ترتيلة بأنغام مختلفة غربية و بعض أنغام شرقية، و إنما العلامات الموسيقية كلها غربية. و هذا الكتاب مشترك بين سورية و فلسطين و مستعمل للعبادة فى الكنيستين.

و عدد نفوس الإنجيليين فى لبنان ۱۰ آلاف نفس. بقى الكنائس الأخرى غير المشيخية منها كنيسة الفرندس فى برمانا و رأس المتن و الكنيسة المعمدانية فى راشيا الوادى و جوارها و الكنيسة الإنجيلية فى دمشق للكنيسة المشيخية الاسكوتلاندية و الكنائس الإنجيلية فى جهات القلمون و هى تابعة للإرسالية الدانمركية و لها عدة مراكز فى النبك و دير عطية و يبرود و صدد و غيرها.

أما طائفة البرتستانت العربية فى فلسطين فهى أسقفية انكليكانية تجرى عبادتها بموجب كتاب الصلاة العامة المترجم عن الإنكليزية مع عقائد الدين التسع و الثلاثين و كتاب الترتيل المشترك مع كنيسة سورية. رسم أول قسوسها الوطنيين سنة (۱۸۷۱) فى الناصرة و كانت

طائفة الناصرة فی مقدمة کنائس فلسطین فی إقامة الأوقاف و السعی نحو الاستقلال و کان أحد أفرادها عودة عزام المستوطن القدس فی الربع الثالث من القرن الماضی وقف أملاکه کلها لکنیسة القدس و أصبحت الآن ذات قیمة کبیرة. و تبعه غیره فی الوقف علی الکنائس. و یبلغ مجموع البرتستانت فی فلسطین و شرقی الأردن نحو ثمانیة آلاف إنسان.

و بعد فإن فی العالم أجمع الآن حرکتین متضادتین نعبر عنهما بالجذب و الدفع، فبینما أنت تری الشعوب تتحرک بدفع بعضها عن بعض فتتألف

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۳۹

کتلا متفرقة تجدها فی نفس الوقت تنجذب و تتقارب و تتفاهم و تسعی لتوحید هذه الکتل أو ربط بعضها ببعض علی الأقل، و علی الرغم مما نجده من التباعد بحرکة الدفع و التمرکز نجد الناس یقرب بعضهم من بعض بحرکة الجذب، و العامل الأقوی فی حرکة الجذب سرعة المواصلة و انتشار العلم، فسرعة المواصلة قربت الناس بعضهم من بعض فأخذوا یتفاهمون، و العلم جعلهم یحکمون العقل أکثر من العواطف فرأوا أن کثیرا من الفوارق إما و همیة أو عرضیة أو مبالغ فیها. و ما یجری فی الدائرة البشریة الاجتماعیة یجری فی الدائرة الدینیة. فعلی الرغم من بعد مسافة الفوارق الدینیة و المذهبیة نجد أهل هذه الأدیان و المذاهب أکثر تسامحا و أسرع سعیا نحو الاتفاق، حتی فی الأدیان التی نراها علی أعظم مسافة من البعد، فلا تکاد تمر سنة حتی یعقد مؤتمر الأدیان یجتمع فیه نواب معظم الأدیان الإلهیة کالمسیحیة و الإسلام و الیهودیة و غیر الإلهیة کالبوذیة و غیرها. و قد عقد أول مؤتمر رسمی فی ۱۶ أیلول سنة (۱۹۲۴) فی سوق الغرب اجتمع فیه نواب الجهتین للسعی فی زیادة الاتحاد و توحید النظام.

أصل السنة:

لا یخفی أن الأحکام الشرعیة التی علمت من الکتاب و السنة ثلاثة أقسام: الأول الأحکام الاعتقادیة و أصولها المجملة ستة الإیمان باللّه و بالملائکة و بالکتب و بالرسل و بالیوم الآخر و بالقدر. و یقال لجمیع هذه الأحکام دین الإسلام و هی ما جاء به جمیع الأنبیاء. و هذه و إن کانت فی تعیینها مذاهب عدیدة إلا أن ما عدا مذهب السنة باطل.

القسم الثانی الأحکام العملیة و هی عشرة: الفرض، الواجب، السنة، الاستحباب، الإباحة، الحرمة، الکراهة التحریمیة، الکراهة التنزیهیة، الصحة، الفساد. و لا یخلو فعل العاقل البالغ عن حکم منها، فالشرائع المتعلقة بأفعال المکلفین ثلاثة أنواع إجمالیة: الأول العبادات و هی عبارة عن الصلاة و الصوم و الزکاة و الحج و سائر الفرائض و الواجبات. الثانی المعاملات کالنکاح و الطلاق و الهبة و الوصیة و البیع و الشراء و الکفالة و الوکالة. الثالث العقوبات کالدیة

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۴۰

و الکفارة و الفدیة و القصاص، و فی تعیینها مذاهب کثیرة إلا أنه تقرر فیها المذاهب الأربعة، و أصحابها أبو حنیفة النعمان بن ثابت، و محمد بن إدریس الشافعی، و مالک بن أنس، و أحمد بن حنبل، فما اتفق علیه هؤلاء الأئمة الأربعة هو حق و صواب، و ما اختلفوا فیه یحتمل الخطأ و الصواب، لأن کل مجتهد یخطئ و یصیب، و الحق واحد لا یتعدد، و کل مؤمن مأمور باتباع مذهب منها إذا لم یکن بلغ مرتبة الاجتهاد، و یلزمه الاعتقاد بصواب متبوعه، إذ لا یجوز له تقلیده إن اعتقد خطأه.

القسم الثالث الأحکام الشرعیة المتعلقة بأحوال القلوب، و المتکفل بذلک علم الأخلاق و التصوف. و القصد هنا بیان اعتقاد أهل السنة و الجماعة فی القسم الأول. و ینبغی أن نبین أولا من هم أهل السنة و الجماعة ثم نذکر عقائدهم إذ ربما یظن بعض الناس أن کل من یطلق علیه اسم المسلم هو من أهل السنة و الجماعة، و لیس الأمر کذلک، فإن أهل البدع و الأهواء مخالفون لأهل السنة و الجماعة، و الحال أن فیهم من یعد من أهل ملة الإسلام، لذلک رأیت من اللازم أولا بیان من هم أهل السنة و الجماعة، ثم بیان عقائدهم التی اتفقوا علیها، و لم أتعرض للمخالفین لهم و لا لذکر حجج الطرفین، و سرد المسائل التی وقع فیها اختلاف بین الأشعریة و الماتریدیة

لما أن ذلك خارج عن موضوع الخطط و إنما هو من خصائص كتب الكلام، فاقتصرت على أهم المسائل الاعتقادية التى يكلف كل مؤمن باعتقادها.

و قد ألّف العلماء كتبا لبيان الفرق الإسلامية و مقالاتها كالشهرستانى و ابن حزم و عبد القاهر البغدادى و غيرهم. إذا أطلق أهل السنة و الجماعة يراد بهم الأشعرية و الماتريدية، أما الأشعرية فهم أصحاب الإمام أبى الحسن على بن إسماعيل من ذرية أبى موسى عبد اللّه بن قيس الأشعرى الصحابى الجليل. أخذ علم الكلام أولا عن شيخه محمد بن عبد الوهاب الجبائى شيخ المعتزلة و تبعه فى الاعتزال حتى صار للمعتزلة إماما، ثم رجع عن مذهبه و صنف كتبا فى الرد عليهم، و أجمع على عقيدة الأشعرى المالكية و الشافعية و بعض الحنفية و فضلاء الحنابلة، و لم يكن أبو الحسن أول متكلم بلسان أهل السنة، إنما جرى على سنن غيره أو على نصرة مذهب معروف فزاد المذهب

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۴۱

حجة و بيانا، و ليس له فى مذهب السلف أكثر من بسطه و شرحه و تآليفه فى نصرته. ولد سنة ستين و مائتين و توفى سنة أربع و عشرين و ثلاثمائة.

و أما الماتريدية فهم أصحاب الإمام أبى منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدى نسبة إلى قرية بسمرقند، الحنفى المتكلم ناصر السنة و قامع البدعة و محيى الشريعة، كان إماما جليلا مناضلا عن الدين موطدا لعقائد أهل السنة قطع المعتزلة و ذوى البدع فى مناظراتهم، و له مصنفات منها كتاب التوحيد و كتاب بيان و هم المعتزلة و كتاب تأويلات القرآن و هو كتاب لا يوازيه فيه كتاب.

و ليس هو من أتباع الأشعرى لكونه أول من أظهر مذهب أهل السنة كما ظن. لأن الماتريدى مفصل لمذهب الإمام أبى حنيفة و أصحابه المظهرين قبل الأشعرى مذهب أهل السنة. و كانت وفاته بسمرقند سنة ثلاث و ثلاثين و ثلاثمائة.

و الحاصل أن كلا من هذين الإمامين الجليلين أبى الحسن و أبى منصور لم يبدعان من عندهما رأيا و لم يشتقا مذهبا إنما هما مقرران لمذاهب السلف مناضلان عما كان عليه أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم. أحدهما قام بنصرة مذهب الشافعى و ما دل عليه، و الثانى قام بنصرة مذهب أبى حنيفة و ما دل عليه. و ناظر كل منهما ذوى البدع و الضلالات حتى انقطعوا.

و مما ينبغى أن يعلم أنه ليس بين هاتين الطائفتين اختلاف فى أصول الدين، و إنما اختلفوا فى بعض مسائل متفرعة عن الأصول لا تستلزم تضليلا و لا تفسيقا.

ثم إن عقائد أهل السنة و الجماعة تنحصر فى أربعة أركان هى مبنى الإيمان: الإلهيات و الصفات و الأفعال و السمعيات.

(الركن الأول فى ما يجب للّه تعالى و ما يجوز و ما يستحيل)- العالم بجميع أجزائه حادث وجد بعد أن لم يكن، و هو قابل للفناء و له صانع واجب الوجود لذاته ممتنع العدم بالنظر لذاته، واحد لا شريك و لا مثيل له فى ذاته و صفاته و أفعاله، قديم لا بداية له، أبدى لا نهاية له، متصف بصفات الكمال، منزه عن سمات النقص، ليس بجسم و لا جوهر و لا عرض، و لا تحله الجواهر

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۴۲

و لا الأعراض، و لا يحل فى غيره و لا يتحد بغيره، و لا يقوم بذاته حادث، منزه عن التحول و الانتقال، استوى على العرش على الوجه الذى عناه و بالمعنى الذى أراده، استواء يليق بجلال ذاته، و هو فوق سمواته فوق عرشه، مباين لخلقه لا يحمله العرش بل العرش و حملته محمولون بقدرته، و مع ذلك فهو قريب من كل موجود بل هو أقرب إلينا من حبل الوريد، و هو تعالى مرئى للمؤمنين بالأبصار فى دار القرار، فيرونه لا فى مكان و لا على جهة من مقابلة و اتصال شعاع أو ثبوت مسافة بين الرائى و المرئى.

(الركن الثانى فى العلم بصفاته تعالى) اللّه تعالى متصف بالعلم و القدرة و الإرادة و السمع و البصر و الكلام و الحياة، و هى صفات له أزلية و نعوت له أبدية، فهو تعالى قادر على جميع الممكنات، و جميع الحوادث واقعة بقدرته تعالى، و قدرة اللّه على المقدورات كلها قدرة واحدة، يقدر بها على جميع المقدورات على طريق الاختراع دون الاكتساب، و مقدوراته تعالى لا تفنى.

و هو سبحانه مريد لأفعاله فلا وجود إلا و هو مستند إلى مشيئته و صادر عن إرادته، لا يقع شيء فى العالم إلا بإرادته و مشيئته، فالخير و الشر و الطاعة و المعصية واقعة بإرادة اللّه تعالى و قضائه و قدره و مشيئته، ما شاء اللّه كان و ما لم يشأ لم يكن، و إرادته تعالى قديمة و هى فى القدم تعلقت بإحداث الحوادث فى أوقاتها اللائقة بها على وفق سبق العلم الأزلى، و الإرادة غير الأمر لأنه قد يأمر بالشيء و لا يريده، و يريد الشيء و لا يأمر به، و يريد الشيء و يأمر به، و لا يريد الشيء و لا يأمر به. و غير الرضا أيضا فإن الإرادة قد تتعلق بما لا يرضى به اللّه تعالى كالكفر الواقع من الكفار فإنه تعالى أراده و لم يرض به و لا يرضى لعباده الكفر، و ليست عين العلم لأن العلم يتعلق بالواجب و المستحيل و الجائز، و الإرادة لا تتعلق إلا بالجائز.

و هو تعالى عالم بجميع الموجودات كلياتها و جزئياتها، و محيط بكل المخلوقات لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض و لا فى السموات، و علمه واحد يعلم به جميع المعلومات على تفصيلها من غير حس و لا بداهة و لا استدلال عليه، و علمه قديم لم يزل عالما بذاته و صفاته و ما يحدثه من مخلوقاته، و مهما حدثت

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۴۳

المخلوقات لم يحدث له علم بها بل حصلت مكشوفة بالعلم الأزلى. و هو تعالى حى و حياته بلا روح و لا اغتذاء، و جميع الأرواح مخلوقة، و الحياة شرط فى العلم و القدرة و الإرادة و الرؤية و السمع، فمن ليس بحى لا يصح أن يكون عالما قادرا مريدا سامعا مبصرا. و هو سبحانه سميع بصير يسمع و يرى لا يعزب عن سمعه مسموع و إن خفى، و لا يغيب عن رؤيته مرئى و إن دق، و لا يحجب سمعه بعد، و لا يدفع رؤيته ظلام، لم يزل رائيا لنفسه، و سامعا لكلام نفسه، و أن الانكشاف بالسمع غير الانكشاف بالبصر، و أن كليهما غير الانكشاف بالعلم، بل لكل منها حقيقة يفوض علمها للّه تعالى. و هو تعالى متكلم بكلام قائم بذاته ليس بحرف و لا صوت هو به آمر ناه مخبر و أن القرآن كلام اللّه غير مخلوق.

(الركن الثالث فى الأفعال) اللّه تعالى لا خالق سواه و كل حادث فى العالم حدث بقدرته و خلقه لا محدث له غيره، و جميع أفعال العباد اختيارية و اضطرارية، مخلوقة له تعالى و متعلقة بقدرته، و إنما اللّه تعالى خلق فى العبد قوة تسمى الإرادة الجزئية و أقدر عبده على صرف هذه القوة إلى ما شاء من جزئيات المأمورات و المنهيات باختياره، و هذا الصرف هو الذى يسمى بالكسب تارة و بالميل و الجزء الاختيارى تارة أخرى. و يسمى أيضا بقدرة العبد. و قد جرت عادة اللّه تعالى أنه لا يخلق القدرة على المعصية فى أعضاء العبد حتى يصرف العبد إرادته الجزئية إليها، فإذا صرفها إليها بأن مال قلبه و عزم عليها فهناك يخلق اللّه تعالى القدرة فى أعضائه على فعلها فيفعلها، فقدرة العبد التى هى الميل المذكور مقارنة لإيجاد اللّه تعالى ليس لها تأثير فى إيجاد الفعل بل مجرد مقارنة.

و هو تعالى لا يجب عليه شيء من فعل الأصلح لعباده، و رعاية الحكمة و المصلحة فى فعله، فله أن يعذب على الطاعات و يثيب على المعاصى، و أن يبتلى عبده بضروب الآلام من غير جرم سابق و من غير ثواب لا حق، و لا يعد ذلك منه قبيحا و لا ظلما لأنه يتصرف فى ملكه لا فى ملك غيره، يفعل ما يريد، و لا حاكم عليه بل له الحكم، و إنما يثيب على الطاعة بحكم الكرم و الوعد لا بحكم الاستحقاق و اللزوم، و يعاقب على المعصية عدلا منه تعالى،

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۴۴

و قد راعى الحكمة فيما خلق و أمر تفضلا منه و رحمة و لا باعث له على الفضل.

بعثة الأنبياء ممكنة عقلا و واقعة قطعا، و فى وقوعها حكمة بالغة و رحمة للعالم شاملة، و احتياج الناس إلى الأنبياء كاحتياجهم إلى الأطباء، النبوة إنما تحصل بمجرد اصطفاء إلهى لا باستحقاق من المبعوث و اجتماع شروط فيه، بل اللّه يختص برحمته من يشاء و هو تعالى أعلم حيث يجعل رسالته، و قد أرسل اللّه تعالى رسلا من البشر إلى البشر مبشرين و منذرين، لئلا يكون للناس على اللّه حجة، و أيدهم بالمعجزات الخارقة للعادات المقرونة بالتحدى، و كلهم جاءوا بتوحيد اللّه تعالى و النهى عن الشرك و إخلاص العبادة له تعالى، و هم صادقون فيما جاءوا به مصونون عن التحريف و التبديل، معصومون من كل نقص حسى أو معنوى مبلغون أممهم جميع

ما أمروا بتبليغه، و أولهم آدم و آخرهم نبينا محمد صلوات اللّه و سلامه عليهم أجمعين.

إن اللّه سبحانه أرسل نبينا محمدا صلى اللّه عليه و سلم إلى الخلق كافة بشيرا و نذيرا، و جعله خاتم النبيين فلا نبى بعده و أيده بالمعجزات الباهرة، و البراهين الظاهرة، و أنزل عليه القرآن الكريم الذى هو له معجزة باقية إلى يوم الدين، فنسخ بشريعته الشرائع التى كانت قبله إلا ما قرر منها، و فضله على سائر الأنبياء، و جعل الشهادة له بالرسالة شطر الإيمان، و ألزم الناس تصديقه فى جميع ما أخبر به عنه، و أمره بتبليغ ما أنزل عليه فقال تعالى:

«يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ» فبلغ صلوات اللّه و سلامه عليه الرسالة و أدى الأمانة و نصح الأمة حتى أتاه اليقين.

إن للّه تعالى ملائكة هم عباد اللّه المكرمون و رسل اللّه بينه و بين أنبيائه و أمناؤه على وحيه لا يعصون اللّه ما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون، لا يوصفون بذكورة و أنوثة، و لا يأكلون و لا يشربون، و لا يعلم حقيقتهم و لا عددهم إلا خالقهم اللّه؟؟؟ و هم أجسام لطيفة نورانية يروننا و لا نراهم بصورهم الأصلية.

(الركن الرابع فى السمعيات) إن لهذه الدنيا أجلا محدودا فإذا جاء أجلها يتبدل نظام هذا الكون، فتبدل الأرض غير الأرض و السموات غير السموات،

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۴۵

و يعيد اللّه تعالى الأرواح إلى الأجساد، ثم يجازى اللّه تعالى كل نفس بما كسبت إما بنعيم أبدى أو عذاب سرمدى، و جميع ما أخبر به الصادق من عذاب القبر و نعيمه، و سؤال الملكين و وزن الأعمال، و المرور على الصراط، و الشفاعة لمن أذن له الرحمن، جميع ذلك حق يجب الإيمان به.

الشيعة:

الشيعة لفظ معناه الأتباع و الأنصار يطلق على الواحد و المثنى و الجمع و المذكور و المؤنث، تقول هو شيعة و هما و هم و هن شيعة و جمعه شيع و أشياع، ثم صار علما بالغلبة على أتباع على بن أبى طالب عليه السلام.

عرف جماعة من كبار الصحابة بموالاة على فى عصر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم مثل سلمان الفارسى القائل: بايعنا رسول اللّه على النصح للمسلمين و الائتمام بعلى بن أبى طالب و الموالاة له. و مثل أبى سعيد الخدرى الذى يقول: أمر الناس بخمس فعملوا بأربع و تركوا واحدة. و لما سئل عن الأربع قال: الصلاة و الزكاة و صوم شهر رمضان و الحج قيل: فما الواحدة التى تركوها؟ قال: ولاية على بن أبى طالب قيل له: و إنها لمفروضة معهن قال: نعم هى مفروضة معهن.

و مثل أبى ذر الغفارى و عمار بن ياسر و حذيفة بن اليمان و ذى الشهادتين خزيمة بن ثابت و أبى أيوب الأنصارى و خالد بن سعيد بن العاص و قيس ابن سعد بن عبادة و كثير أمثالهم. و من أرادهم فليراجع كتاب الدرجات الرفيعة لابن معصوم.

عرف هؤلاء باسم شيعة على ثم غلب فأطلق فقيل لهم شيعة. ذكر أبو حاتم الرازى فى كتاب الزينة فى الألفاظ المتداولة بين أرباب العلوم على ما نقل فى كتاب الروضات أن أول اسم ظهر فى الإسلام على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم (الشيعة) و كان لقب أربعة من الصحابة و هم أبو ذر و سلمان و عمار و المقداد إلى أن آن أوان صفين فاشتهر بين موالى على عليه السلام. و مهما تكن منزلة هذه الرواية من الثقة فالأمر الذى لا خلاف فيه أنه لما استقل الأمويون بالأمر و ناهضوا الهاشميين و أتباعهم تلك المناهضة الشديدة كان اسم الشيعة على إطلاقه علما على أتباع آل البيت.

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۴۶

أما ما ذهب إليه بعض الكتاب من أن أصل مذهب التشيع من بدعة عبد اللّه ابن سبإ المعروف بابن السوداء فهو و هم و قلة علم بحقيقة مذهبهم. و من علم منزلة هذا الرجل عند الشيعة و براءتهم منه و من أقواله و أعماله و كلام علمائهم فى الطعن فيه بلا خلاف بينهم فى

ذلک، علم مبلغ هذا القول من الصواب.

لا ریب فی أن أول ظهور الشیعة کان فی الحجاز بلد المتشیع له. و کان التشیع هناک ضعیف الحول و لکنه مکین فی قلوب أهله. ثم استفحل أمره فی العراق زمن خلافة علی علیه السلام. أما فی الشام فالمعروف بین الشیعة فی جبل عامل خلفا عن سلف أن الذی دلّهم علی هذا المذهب أبو ذر الغفاری لما سیّر إلی الشام و لا یزال فی قریة الصرفند (بین صیدا و صور) له مقام معروف باسمه اتخذ مسجدا معمورا و هو غیر مسجد القریة الجامع، و فی قریة میس الجبل له مقام آخر. و میس هذه قریة فی جبل عامل علی طریق القادم من دمشق. و روی الحر العاملی فی کتابه أمل الآمل أن أبا ذر لما أخرج إلی الشام تشیع فیها جماعة ثم أخرجه معاویة إلی القری فوقع فی جبل عامل فتشیعوا من ذلک الیوم.

ثم ذکر روایة عن الإمام أبی عبد اللّه جعفر بن محمد الصادق علیه السلام و قد سئل عن أعمال الشقیف فقال: أرنون و بیوت و ریوع و تعرف بسواحل البحار و أوطئة الجبال هؤلاء شیعتنا حقا.

و فی کتاب الروضة و الفضائل لشاذان بن جبرئیل القمی روایة مسندة إلی عمار بن یاسر و زید بن أرقم تدل علی أنه کان زمن خلافة علی علیه السلام قریة فی الشام عند جبل الثلج تسمی أسعار أهلها من الشیعة، و أسعار هذه قریة خربة بین مجدل شمس و جباتا الزیت و هناک نهر یعرف بنهر أسعار.

المتاولة جمع متوالی مأخوذ من الموالاة و هی الحب، لموالاتهم أهل البیت و اتباعهم طریقتهم. و الظاهر أن تلقیبهم بهذا اللقب فی جبل عامل لم یتقدم عن القرن الثانی عشر للهجرة لأن کل المؤرخین قبل هذا القرن لم یعرفوا لهم هذا اللقب و لم ینبزهم به أحد منهم، و کانوا إذا أرادوا ذلک تجنبوا الشیعة و قالوا: الرافضة کما فعل المحبی فی خلاصة الأثر. و لکن من تأخر عن القرن الحادی عشر لم یلزمهم بترک نبزهم به کما فعل المرادی فی سلک الدرر فإنه لم یذکرهم فی جبل عامل إلا باسم المتاولة وفاقا للشهرة فی عصره.

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۴۷

و قد جاء فی إحدی «السالنامات» الترکیة أن ابتداء ظهور المتاولة سنة (۱۱۰۰) للهجرة. و علی الجملة إن هذا اللقب أطلق علیهم لما أظهروا وجودهم السیاسی و خلعوا طاعة أمراء لبنان و اجتمعوا جملة واحدة فی جبل عامل تحت قیادة آل نصار الوائلیین، و فی بعلبک تحت لواء بنی حرفوش، و فی شمالی لبنان بزعامة المشایخ آل حمادة.

کانوا یومئذ (ینتخون) باسم بنی متوال فعرفوا به و اشتهر عنهم، و یدلنا علی ذلک أن هذا اللقب لم یکن إلا للذین دخلوا فی غمار تلک الفتن فعرف به شیعة جبل عامل و بعلبک و شمالی لبنان، و لم یعرف لشیعة حلب و حمص و حماة، و لا لشیعة دمشق إلا الذین تدیروا الصالحیة و أطراف المیدان و هم من مهاجرة بعلبک و جبل عامل.

الشیعة فی الشام هم فی جبل عامل، و هو البلد الواقع بین صفد جنوبا، و نهر الأولی شمالا، و غور الحولة و ما حاذاه إلی أرض البقاع شرقا، و البحر المتوسط غربا. و فی مدینة بعلبک و أعمالها و زمنهم فیها قدیم.

و فی أعمال حمص قری قلیلة لهم و فی نفس المدینة جماعات ظاهرة و مستترة، و فی أعمال ادلب قری الفوعة و نبّل و غیرهما و کلها شیعة، و فیهما إلی الیوم السادة بنو زهرة نقباء الأشراف فی مدینة حلب فی الزمن السالف.

و کل هؤلاء من بقایا زمن الحمدانیین و من فلول شیعة حلب یوم تشتت شملهم.

و فی دمشق و یرجع عهدهم إلی القرن الأول للهجرة، و فی أکناف حوران و هم من مهاجرة جبل عامل، و فی شمالی لبنان و المتن و البترون و هم من مهاجرة بعلبک. و لا یقل عدد نفوس الشیعة فی الشام عن مائتی ألف من الإمامیة.

معتقدات الشیعة، و هم فرقة من المسلمین، اعتقادات المسلمین العامة عینها و لکنهم فی الأصول یخالفون أهل السنة بالإمامة، و هی عندهم ریاسة عامة فی أمور الدین و الدنیا لشخص من الأشخاص بحق النیابة عن النبی، و هی واجبة عقلا علی اللّه لأنها لطف و کل

لطف واجب عليه تعالى، و لذلك خالفوا المعتزلة القائلين بوجوبها على الخلق عقلا، و الأشاعرة القائلين بوجوبها على الخلق شرعا.

و يجب عندهم أن يكون الإمام معصوما و انفرد بهذا الشرط الإمامية

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۴۸

و الإسماعيلية من الشيعة، و أن يكون منصوصا عليه و أن يكون افضل أهل زمانه.

و إن الأئمة اثنا عشر أولهم على بن أبى طالب المنصوص عليه من الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم و آخرهم محمد بن الحسن العسكرى الذى اختفى عام (۲۶۰) فى سرمن رأى و هو حى يرزق و لا يعلم الناس مقره و سيظهر فى آخر الزمان فى مكة المكرمة، و قد قال بقولهم هذا فريق من أهل السنة. و أما القول بأنه يخرج من سرداب سرمن رأى فلم يقل به أحد من الشيعة و إن نسبه إليهم من لا يعرف مذهبهم جهلا بحقيقة الحال.

و يخالفون الأشاعرة فى بعض صفاته تعالى فالأشاعرة تقول فى كونه تعالى متكلما: إن الكلام معنى قائم بذاته تعالى ليس بحرف و لا صوت و لا شىء من أساليب الكلام و هو قديم. و الشيعة و المعتزلة يقولون: إن الكلام قائم بالغير يراد من كونه متكلما فعل الكلام لا أن الكلام قائم به و لذلك فالكلام حادث.

و الأشاعرة تقول: إن أفعاله تعالى لا لغرض و إلا لكان ناقصا مستكملا بذلك الغرض. و عند الإمامية أن أفعاله معللة بالعلل و الأغراض و إلا لكان عابثا. و الغرض عائد لغيره إما لمنفعة العبد أو لاقتضاء نظام الوجود ذلك الغرض.

و الأشاعرة تقول: إن الأفعال كلها واقعة بقدر اللّه و أنه لا فعل للعبد أصلا. و قال بعضهم: إن للعبد من ذلك الكسب أى كونه طاعة أو معصية.

و قال آخرون: إن العبد إذا صمم خلق اللّه الفعل عقيب التصميم و أنه تعالى فاعل للكل حسنا أو قبيحا. و الشيعة إمامية أو زيدية يقولون بقدرة العبد و اختياره و أنه ليس بمجبر على فعله، بل له أن يفعل و له أن لا يفعل و أن الفعل منسوب إليه نفسه و أنه يستحيل عليه تعالى فعل القبيح. و قالت الإمامية بوجوب اللطف عليه تعالى و هو ما يقرب من الطاعة و يبعد عن المعصية و لا حظ له فى التمكين و لا يبلغ درجة الإلجاء.

و قالوا بجريان المسببات عن أسبابها فالشبع مثلا شىء حادث عن الأكل لا أنه شىء يحدثه اللّه عند الأكل.

و قالت الأشاعرة بإمكان الرؤية البصرية يوم القيامة على اللّه تعالى. و قالت الشيعة و المعتزلة باستحالتها مطلقا.

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۴۹

و قالت الأشاعرة فى الحسن و القبح بأنهما شرعيان أى أنه ليس فى العقل ما يدل على الحسن و القبح، بل ما حسنه الشرع فهو حسن و ما قبحه فهو، قبيح، و قالت الشيعة الإمامية بأن الحسن حسن فى نفسه يستحق صاحبه المدح، و القبيح قبيح بنفسه يستحق صاحبه الذم و لا يتوقف ذلك على حكم الشارع.

و يقولون: إن العدل صفة من صفاته تعالى واجبة الثبوت له. هذه أمهات المسائل الأصولية التى يخالفون فيها بعض فرق المسلمين كالأشاعرة، و ربما وافقهم فى أكثرها غيرهم كالمعتزلة. و أما فى الفروع فلا تكاد تجد لهم قولا مخالفا لا يكون قائلا به غيرهم من فرق المسلمين اليوم.

نعم انفردوا اليوم بالقول بالمتعة و إن كان أثرها فى العرب منهم قليلا بل أندر من النادر. و هى متعتان متعة النكاح و متعة الحج، فالأولى هى الزواج إلى أجل مسمى تحل عقدته بانقضاء الأجل، و على الزوجة المتمتع بها بعد انقضاء الأجل أن تعتد العدة الشرعية فلا تنكح زوجا غيره حتى تنقضى عدتها، و لا بد فيها من ذكر المهر و الأجل، و لا توارث بينها و بين الزوج للدليل الخاص إلا مع الاشتراط، و لكن الولد منها ولد شرعى لا فرق بينه و بين إخوته. و أما متعة الحج فهى الطواف الأخير المعروف بطواف النساء فلا تحل للمحرم النساء حتى يأتى به.

و منها فی المیراث مسألة العول و التعصیب فهم ینکرون العول. و یقول إمامهم جعفر بن محمد الصادق علی أن الذی أحصی رمال عالج یعلم أن المواریث لا تعول، و یجرون فیما جاء من ذلک علی قاعدة من له الغنم فعلیه الغرم.

و لا یقولون بالتعصیب بل یرثه أقرب الناس إلیه، و طبقات الإرث فی النسب ثلاث: الآباء و الأبناء، و الإخوة و الأجداد، و الأخوال و الأعمام.

فالمتقدمة من هذه الطبقات تحجب ما بعدها، فإذا کان ذو فرض أخذ فرضه و ردّ الباقی علی نفس الطبقة لا یتعداها سواء کان المردود علیه ذکرا أو أنثی.

فإذا مات المیت عن بنت و أب أخذت البنت النصف و الأب السدس بالفرض ورد الباقی علیهما کل بقدر سهمه لأنهما من طبقة واحدة، فلو لم

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۵۰

یکن له أب بل جد أو أخ کان الرد علی البنت لأنها من الطبقة الأولی و الجد و الأخ من الطبقة الثانیة فهی أولی منه بآیة و أولو الأرحام.

و یقولون بالجمع بین صلاتی الظهر و العصر، و بین المغرب و العشاء سفرا و حضرا و لکن التفریق أفضل.

و إذا قال القائل لزوجته أنت طالق ثلاثا فإن کانت جامعة لشروط الطلاق وقعت واحدة و إلا کان الطلاق باطلا. و شرط صحة الطلاق أن تکون الزوجة طاهرة فی طهر لم یواقعها الزوج فیه و أن یکون الطلاق بشهادة ذوی عدل.

و تجتمع الشیعة فی أیام عاشوراء فتقیم المآتم علی الحسین بن علی شهید کربلاء علیه السلام، و عهدهم بذلک بعید یتصل بعصر الفاجعة و أول من رثاه أبو دهبل الجمحی بقصیدة یقول فیها:

تبیت النشاوی من أمیة نوّماو بالطفّ قتلی ما ینام حمیمها

و الظاهر من سیرة دیک الجن الحمصی فی کتاب الأغانی أن هذه الاجتماعات للمآتم کانت معروفة فی زمانه. ثم إن بنی بویه أیام دولتهم عنوا بها مزید العنایة. و لا تزال إلی الیوم تقام فی جمیع أقطار الشیعة، و لیست هی من الفروض کما یتوهم بل یستحبونها لأنها تصدر عن ولاء و محبة. و قد تطرف بعض العجم فأبدعوا فیها بدعا یمقتها اللّه و الناس من ضرب أنفسهم بالمدی و إسالة الدماء علی أثوابهم و عمل ما یسمونه (الشبیه) و قد مقته العلماء من الشیعة و لم تذعن لهم به العامة فی کثیر من البلدان التی استحکمت فیها هذه العادة.

الباطنیة:

أطلق هذا اللقب علی فرق خالفت الإسلام مدعیة بأن لکل ظاهر باطنا و لکل تنزیل تأویلا. و لهم ألقاب کثیرة سوی هذه علی لسان قوم قوم.

فبالعراق یسمون الباطنیة و القرامطة و المزدکیة، و بخراسان التعلیمیة و الملحدة، و هم یقولون: نحن إسماعیلیة لأنا تمیزنا من فرق الشیعة بهذا الاسم و هذا الشخص، ثم إن الباطنیة القدیمة قد خلطوا کلامهم ببعض کلام الفلاسفة و صنفوا کتبهم علی ذلک المنهاج- هذا ما قاله الشهرستانی. و قال عبد القاهر

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۵۱

البغدادی: إن الذین وضعوا أساس دین الباطنیة کانوا من أولاد المجوس، و کانوا مائلین إلی دین أسلافهم، و لم یجسروا علی إظهاره خوفا من سیوف المسلمین، فوضع الأغمار منهم أساسا من قبله صار فی الباطن إلی تفضیل أدیان المجوس، و تأولوا آیات القرآن و سنن النبی علیه الصلاة و السلام علی موافقة أساسهم. و لما تأولت أصول الدین علی الشرک احتالت أیضا لتأویل أحکام الشریعة علی

وجوه تؤدى إلى رفع الشريعة أو إلى مثل أحكام المجوس.

و ذكر أنه خرج منهم أناس بالبحرين و القطيف و الأحساء و منهم من ظهر فى طريق الحجاز و استولى على مكة. و منهم من ظهر بالقيروان و استولى بأتباعه على بلاد المغرب. و منهم من استولى على هجر. و منهم من ظهر باليمن و قتل الكثير من أهلها. و منهم من خرج بالشام و هو أبو القاسم بن مهرويه.

و أن زعيمهم الأول ميمون بن ديصان كان مجوسيا أولا. و منهم من نسب الباطنية إلى الصابئين الذين هم بحرّان، و استدل على ذلك بأن حمدان قرمط داعية الباطنية بعد ميمون بن ديصان كان من الصابئة الحرانية. و استدل على ذلك أيضا بأن صابئة حران يكتمون أديانهم و لا يظهرونها إلا لمن كان منهم.

و الباطنية أيضا لا يظهرون دينهم إلا لمن كان منهم، بعد إحلافهم إياه على أن لا يذكر أسرارهم لغيرهم. قال عبد القاهر: الذى يصح عندى من دين الباطنية أنهم دهرية زنادقة يقولون بقدم العالم و ينكرون الرسل و الشرائع كلها لميلهم إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع. و الأرجح أن المحور الأعظم الذى تدور عليه الباطنية هو مسائل الملك و السلطان و هى أشبه من بعض الوجوه بالطريقة الماسونية.

و على الجملة فإن منشأ هذه المذاهب خلافة على بن أبى طالب، و طلب شيعته باسمه الملك فغالوا فيه مغالاة عظيمة حتى أخرجه بعضهم عن البشرية.

و قد كان أكثر أهل الشام فى القرون الثلاثة الأولى للإسلام على ما يظهر من مذاهب النصارى، و المسلمون أقل منهم. و لقد انتهى الحال بجميع القبائل القديمة فى الشام مثل بنى كلاب و بنى جذام و بنى عاملة أن دانوا بالإسلام و لم يتخلف عنهم بادئ بدء سوى تنوخ فى حلب و تغلب فى شمالى شرقى تدمر. و لما مرّ السائح ويليبالد فى القرن الأول للهجرة بحمص كانت نصف

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۵۲

مسلمة و قويت حركة الإسلام فى القرون التالية لما سكنها العباس من قواد المروانيين فى خمسين من أولاده.

و كانت الشام فى الإسلام توالى عليا و أصحابه تارة و توالى غيره أخرى.

و كان أهل حلب سنية حنفية حتى قدم الشريف أبو إبراهيم الممدوح فصار فيها شيعية و شافعية. و أتى صلاح الدين و خلفاؤه فيها على التشيع كما أتى عليه فى مصر. و كان المؤذنون فى جوامع الشهباء يؤذنون بحى على خير العمل.

و حاول السلجوقيون مرات القضاء على التشيع فلم يوفقوا إلى ذلك. و كان حكم بنى حمدان و هم شيعة من جملة الأسباب الداعية إلى تأصل التشيع فى الشمال. و لا يزال على حائط صحن المدفن الذى فى سفح جبل جوشن بظاهر حلب ذكر الأئمة الاثنى عشر و قد خرب الآن. و فى سنة (۱۴۱) ظهر فى حلب قوم يقال لهم الراوندية خرجوا بحلب و حيران و كانوا يزعمون أنهم بمنزلة الملائكة، و صعدوا تلا بحلب فيما قالوا و لبسوا ثيابا من حرير و طاروا من التل فكسروا و هلكوا.

وصف المقدسى مذاهب الشام فى القرن الرابع للهجرة فقال: إن السامرة فيه من فلسطين إلى طبرية و لا تجد فيه مجوسيا و لا صابئا، مذاهبهم مستقيمة أهل جماعة و سنة. و أهل طبريا و نصف نابلس و قدس و أكثر عمان شيعة و لا ماء فيه لمعتزلى إنما هم خفية، و ببيت المقدس خلق من الكرّامية لهم خوانق و مجالس و لا ترى به مالكيا و لا داوديا، و للأوزاعية مجلس بجامع دمشق و العمل كان فيه على مذهب أصحاب الحديث، و الفقهاء شفعوية و أقل قصبة أو بلد ليس فيه حنفى، و ربما كانت القضاة منهم قال: و اليوم أكثر العمل على مذهب الفاطمى.

و وصف ابن جبير المذاهب المتغلبة على الشام فى القرن السادس فقال:

و للشيعة فى هذه البلاد أمور عجيبة و هم أكثر من السنيين بها و قد عموا البلاد بمذاهبهم، و هم فرق شتى منهم الرافضة و هم السبابون و منهم الإمامية و الزيدية و هم يقولون بالتفضيل خاصة. و منهم الإسماعيلية و النصيرية يزعمون الإلهية لعلى رضى اللّه تعالى عنه. و

منهم الغرابیة و هم یقولون: إن علیا (رض) کان أشبه بالنبی صلّی اللّه علیه و سلّم من الغراب بالغراب، و ینسبون إلی الروح

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۵۳

الأمین علیه السلام قولا تعالی اللّه عنه علوا کبیرا. إلی فرق کثیرة یضیق عنهم الإحصاء. قال: و سلط اللّه علی هذه الرافضة طائفة تعرف بالنّبویة سنیون یدینون بالفتوة و بأمور الرجولة کلها، و کل من ألحقوه بهم لخصلة یرونها فیه منها یحرّمونه السراویل فیلحقونه بهم، و لا یرون أن یستعدی أحد منهم فی نازلة تنزل به، لهم فی ذلک مذاهب عجیبة، و إذا أقسم أحدهم بالفتوة برّ قسمه و هم یقتلون هؤلاء الروافض این ما وجدوهم. و شأنهم عجیب فی الأنفة و الائتلاف.

قال شیخ الإسلام ابن تیمیة فی رسالته الرد علی النصیریة أیام استولی هؤلاء علی جانب کبیر من الشام: إن للقرامطة فی معاداة الإسلام وقائع مشهورة و کتبا مصنفة، فإذا کانت لهم مکنة سفکوا دماء المسلمین و قد قتلوا من علماء المسلمین و مشایخهم و أمرائهم و جندهم ما لا یحصی عدده إلا اللّه تعالی، و هم دائما مع کل عدو للمسلمین، فهم مع النصاری علی المسلمین، و من أعظم المصائب عندهم انتصار المسلمین علی التتار، و من أعظم أعیادهم إذا استولی النصاری علی ثغور المسلمین، و بسببهم استولی النصاری علی القدس الشریف و غیره، فإن أحوالهم کانت من أعظم الأسباب فی ذلک. و اتفقوا بعد صلاح الدین و نور الدین مع النصاری فجاهدهم المسلمون حتی فتحوا البلاد. و قال: إن لهم ألقابا معروفة عند المسلمین تارة یسمون الملاحدة و تارة یسمون القرامطة و تارة یسمون الباطنیة و تارة یسمون الإسماعیلیة و تارة یسمون النصیریة و تارة یسمون الخرمیة و تارة یسمون المحمرة. و هذه الأسماء منها ما یعمهم و منها ما یخص بعض أصنافهم. و هم کما قال العلماء فیهم، ظاهر مذهبهم الرفض و باطنه الکفر المحض. و حقیقة أمرهم أنهم لا یؤمنون بنبی من الأنبیاء و المرسلین لا بنوح و لا إبراهیم و لا موسی و لا عیسی و لا محمد صلوات اللّه و سلامه علیهم أجمعین و لا بشیء من کتب اللّه المنزلة لا التوراة و لا الإنجیل و لا القرآن، و لا یقرون بأن للعالم خالقا خلقه و لا بأن له دینا أمر به، و لا أن له دارا یجزی الناس فیها علی أعمالهم فی غیر هذه الدار، و هم یبنون قولهم علی مذاهب الفلاسفة تارة و علی أقوال المجوس الذین یعبدون النور. و قال: إن إخوان الصفا و نحوهم هم من أئمتهم

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۵۴

و ینکرون علی الرسل و دعوی أنهم من جنسهم طالبون للرئاسة فمنهم من أحسن بطلبها و منهم من أساء فی طلبها حتی قتل، و یجعلون محمدا و موسی من القسم الأول و المسیح من القسم الثانی و یستهزئون بالصلاة و الزکاة و الصوم و الحج الخ اه.

الإسماعیلیة:

هم القائلون بانتقال الإمامة بعد جعفر الصادق إلی ابنه الأکبر إسماعیل، انتقلت إلیه بعد أبیه دون أخیه موسی الکاظم. و هم یوافقون الإمامیة فی سوق الإمامة من أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب إلی جعفر الصادق ثم یعدلون بها عن موسی الکاظم الذی هو الإمام عند الإمامیة إلی إسماعیل هذا. ثم یسوقونها فی بنیه فیقولون: إن الإمامة انتقلت بعد أمیر المؤمنین علی إلی ابنه الحسن ثم إلی أخیه الحسین ثم إلی ابنه علی زین العابدین ثم إلی ابنه محمد الباقر ثم إلی ابنه جعفر الصادق ثم إلی ابنه إسماعیل الذی تنسب إلیه هذه الفرقة بالنص من أبیه. ثم یقولون: إنها انتقلت من إسماعیل إلی ابنه محمد المکتوم ثم إلی ابنه جعفر الصادق ثم إلی ابنه محمد الحبیب ثم إلی ابنه عبید اللّه المهدی أول خلفاء الفاطمیین ببلاد المغرب، و هو جد الخلفاء الفاطمیین بمصر، ثم إلی ابنه العزیز باللّه أبی منصور نزار ثم إلی ابنه الظاهر لإعزاز دین اللّه أبی الحسن علی ثم إلی ابنه المستنصر باللّه أبی تمیم معدّ خامس خلفائهم بمصر.

و من ها هنا افترقت الإسماعیلیة إلی فرقتین مستعلویة و نزاریة. فأما المستعلویة فیقولون: إن الإمامة انتقلت بعد المستنصر باللّه إلی ابنه المستعلی باللّه أبی القاسم ثالث خلفائهم بمصر ثم إلی ابنه الآمر بأحکام اللّه أبی علی منصور إلی آخر من جاء بعدهم و هو حادی عشر خلفائهم بمصر. و أما النزاریة فإنهم یقولون: إن الإمامة انتقلت بعد المستنصر إلی ابنه نزار بالنص من أبیه المستعلی. ثم

الإسماعيلية فى الجملة من المستعلوية و النزارية يسمون أنفسهم أصحاب الدعوة الهادية تبعا لإمامهم إسماعيل المذكور، و كان يسمى صاحب الدعوة الهادية- و فى القرن التاسع كانوا يسمون فى ديوان الإنشاء بالقصاد و بين العامة بالفداوية- و هم يرون أن الأرواح مسجونة فى هذه

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۵۵

الأجسام المكلفة بطاعة الإمام المطهر، فإذا انتقلت على الطاعة كانت قد تخلصت و انتقلت للأنوار العلوية، و أن انتقلت على العصيان هوت فى الظلمات السفلية.

و ذكر فى العبر أن منهم من يدعى ألوهية الإمام بنوع الحلول، و منهم من يدعى رجعة من مات من الأئمة بنوع التناسخ و الرجعة، و منهم من ينتظر مجيء من يقطع بموته، و منهم من ينتظر عود الأمر إلى أهل البيت. و يتفق المستعلوية و النزارية فى بعض المعتقدات و يختلفون فى بعضها. و لدعاة الأئمة المستورين عندهم مكانة عظمى لا- سيما الداعى القائم بذلك أولا و هو الداعى إلى محمد المكتوم أول أئمتهم المستورين، فإن له من الرتبة عندهم فوق ما لغيره من الدعاة القائمين بعده. و اشتهر من دعاتهم رمضان و ابنه ميمون و عبد اللّه القداح بن ميمون، اطلع هذا على أسرار الدعوة من أبيه و سار من نواحى أصفهان إلى الأهواز و البصرة و سلمية من أرض الشام يدعو الناس إلى أهل البيت. ثم أنشأ ابنه أحمد فأرسل هذا أحد دعاته إلى اليمن و إلى المغرب.

و من نسب أحدا من هؤلاء الدعاة إلى ارتكاب محظور أو احتقاب إثم فقد ضل و خرج عن جادة الصواب عندهم، و يرون تخطئه من مالأ على الإمام عبيد اللّه المهدى أول أئمتهم القائمين ببلاد المغرب و ارتكابه المحظور و ضلاله عن طريق الحق، و كذلك من خذل الناس عن أتباع القائم بأمر اللّه بن عبيد اللّه ثانى خلفائهم ببلاد المغرب أو نقض الدولة على المعز لدين اللّه أول خلفائهم بمصر، و يرون ذلك من أعظم العظائم و أكبر الكبائر.

و من أعيادهم العظيمة الخطر عندهم يوم غدير خم (غيضة بين مكة و المدينة على ثلاثة أيام من الجحفة) و سبب جعلهم له عيدا أنهم يذكرون أن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم نزل فيه ذات يوم فقال لعلى: «اللهم من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه، و عاد من عاداه، و انصر من نصره، و اخذل من خذله، و أدر الحق معه حيث دار». و من أكبر الكبائر عندهم و أعظم العظائم أن يرمى أحد من آل بيت النبى صلّى اللّه عليه و سلّم و لا- سيما الأئمة بكبيرة، أو ينسبها أحد إليهم أو يوالى لهم عدوا أو يعادى وليا. و يقولون: إن الإمام منهم لا يموت إلا و قد خلف ولدا ذكرا منصوصا عليه.

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۵۶

و أصل هذه الفرقة كانت بالبحرين فى المائة الثانية و ما بعدها، و منهم كانت القرامطة الذين خرجوا من البحرين حينئذ ثم ظهروا بأصبهان فى أيام السلطان ملكشاه السلجوقى، و اشتهروا هناك بالباطنية لأنهم يبطنون خلاف ما يظهرون، و بالملاحدة لأن مذهبهم كله إلحاد، ثم صاروا إلى الشام و نزلوا فيما حول طرابلس و أظهروا دعوتهم هناك، و إليهم تنسب قلاع الإسماعيلية المعروفة بقلاع الدعوة فيما حول طرابلس كمصياف و الخوابى و القدموس و المرقب و العليقة و المينقة و الكهف و الرصافة و غيرها. و هم يعظمون راشد الدين سنان، و هو رجل كان بقلاع الدعوة و انتهت إليه رياستهم فى زمن صلاح الدين.

و لما افترق الإسماعيلية إلى مستعلوية و نزارية أخذ من منهم ببلاد المشرق بمذهب النزارية عملا بدعوة ابن الصباح، و أخذ من منهم بالشام بقلاع الإسماعيلية بمذهب المستعلوية و صاروا شيعة لمن بعد المستعلى من خلفاء الفاطميين بمصر و اشتهروا باسم الفداوية لمفاداتهم بالمال على من يقتلونه.

روى هذا القلقشندى و قال ابن ساعد: و يلقب الإسماعيلية بالسبعية لقولهم بسبعة أئمة، و يرون أن فى كل دور سبعة أئمة، إما ظاهرون و هو دور الكشف، و إما مختفون و هو دور الستر، و لا بد من إمام، إما ظاهر و إما مستور، لقول أمير المؤمنين رضى اللّه عنه لن تخلو الأرض عن قائم للّه بحججه، و يلقبون أيضا بالباطنية لقولهم: إن لكل ظاهر باطنا، و بالتعليمية لقولهم: إن العلم بالتعلم من الأئمة

خاصة، و ربما لقبوا بالملاحدة لعدولهم عن ظواهر الكتاب و السنة لأنهم يتأولون سائر النصوص، و عندهم أن من مات و لم يعرف إمام زمانه و ليس فى عنقه بيعة إمام مات ميتة جاهلية اه.

و ذكر كاتب چلبى أنه كان للفداوية الذين اشتهروا فى زمن الظاهر بيبرس- هكذا كانت العامة تسمى الإسماعيلية- من طرابلس إلى صيدا إلى حلب على الساحل حتى حوران سبعون قلعة أهمها قلعة صهيون. و قد ذكر مؤرخو حلب أنه جاء إلى جبل السماق سنان بن سلمان بن محمد أبو الحسن البصرى صاحب الدعوة النزارية و متولى الحصون الإسماعيلية، و كان أديبا فاضلا عارفا بعلم الفلسفة و له شعر حسن و كلام منثور جيد، و تمكن

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۵۷

فى الحصون و انقادت إليه الطائفة الإسماعيلية ما لم ينقادوا إلى غيره.

و يقضى مذهبهم على ما قال هوار فى المعلمة الإسلامية بأن اللّه لا صفات له و لا تدركه العقول و لا تفهمه الألباب و لم يخلق العالم مباشرة، بل تجلت إرادته فى أمره و هو العقل العام و فيه تختفى جميع الخصائص الإلهية و هو اللّه المتجلى. و إذ كان لا يصلى لكائن لا يدرك فإن الصلاة تتجه نحو صورتها الخارجية و هى العقل الذى هو حقيقة معبود الإسماعيلية. فكما أنه لا سبيل إلى معرفة اللّه بل يعرف العقل فقط فهذا العقل يطلق عليه أسماء الحجاب و المكان و الأزل و العقل و الأول. و العقل يخلق الروح العام الذى هو الجوهر فى الحياة، و إذ كانت حياة العقل بالعلم و هو ناقص من هذا النظر فيرمى بالضرورة إلى تحقيق الكمال. و من هنا تنشأ حركة بمعنى آخر عن حركة أخرى تتولد منها. الروح تخرج المادة الأولى التى تتألف منها الأرض و الكواكب و هى غير عاملة بل تتجلى فى أشكال تنطوى فيها الأفكار على العقل. و هناك كائنان ضروريان و أصليان و هما الأمد و الزمان. و الكواكب و العناصر نتيجة لازمة من عمل هذه المخلوقات الخمسة مشتركة. و يفسر ظهور الإنسان بالضرورة التى يشعر بها الروح العام فى إحراز العلم الكامل حتى يرقى إلى طبيعة العقل العام و متى جرى الوصول إلى هذه الغاية تبطل كل حركة.

و للخلاص يجب على المرء تحصيل العلم الذى لا يتأتى أن يأتى إلا من تجسد العقل على هذه الأرض و يتجسد ذلك فى الرسول و خلفائه و الأئمة. و يسمى العقل المتجسد «الناطق» و الروح المتجسد «الأساس» و الأول هو الرسول الذى يتجلى فيه الكلام الموحى، و الثانى هو ترجمان هذا الكلام بما يحوى من المعانى التى تؤول. و المبادىء الثلاثة الأخيرة هى الإمام و الحجة، الذى يبرهن على رسالة الأساس، و الداعية. و كان محمد الناطق و علىّ الأساس.

و الذين يرخص لهم بالاطلاع على أسرار الدين هم طبقات كانوا أولا سبعة ثم صاروا تسعة. و يبدأ الداعية مع من يريد تلقينه أسرار الدعوة بأن يضع له مشكلات فى صعوبة فهم الشريعة و هى الطريقة التى يجرى عليها الباطنية عامة، و لا يزال به حتى يذكر له أن هذه المشاكل قد حلت على أيسر

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۵۸

وجه بتأويل القرآن و معرفة رموزه. و للحساب المستخرج من قيمة الحروف العددية شأن كبير. و متى اقتنع المدعو بقوة البراهين التى أوردها له الداعية يستحلفه بأن لا يبوح بأدنى سر من الأسرار التى سيفضى بها إليه، و يعلمه بأن الواسطة للنجاة أن يخضع خضوعا أعمى لأوامر الإمام الروحية و الزمنية.

و جمهور المؤمنين بهذه الدعوة ما كانوا يقفون على أكثر من الدرجة الأولى أو الثانية من الأسرار، و الدعاة يصلون إلى الدرجة السادسة إلا قليلا. و لا يبلغ الدرجة العالية إلا بعض الممتازين. و هذا أشبه بتعاليم الشيعة و المتصوفة فى تعيين درجة الإنسان الكامل.

و الجنة معناها مجازا حالة النفس الواصلة إلى كامل العلم، و جهنم معناها الجهل، و ما من نفس يحكم عليها بالخلود فى جهنم على الأبد، بل تعود إلى الأرض بالتناسخ حتى تعرف إمام الزمان و تأخذ عنه علوم الدين. و الشر لا بقاء له و لا بد من زواله يوما بتمثل كل الموجودات فى العقل العام تمثلا تدريجيا. و مع ما اشتهر عن الإسماعيلية من القتل يجب أن نذهب إلى أن ما اجترحوه لم ينشأ عن

عقیدة لهم بل یجب أن ینظر فیه إلی الإفراط الذی عرف به رؤساؤهم فی نیل السلطة السیاسیة. و قال رسو من السیاح: إن من عرفهم من الإسماعیلیة هم علی جانب عظیم من الکرم و لطف الأخلاق، و قلما یحبون التنقل و یعملون فی أرضهم و یتمسکون بأهداب دینهم الذی یخالف مذهبهم القدیم کل المخالفة، و هم أشداء عند الحاجة خاضعون لزعمائهم.

انتهی قول هوار.

و لم یعرف الزمن الذی نزل فیه الإسماعیلیة بعض أرجاء الشام إذ لم یجر لهم ذکر قبل أوائل القرن الخامس للهجرة. و کان الحکیم المنجم و أبو طاهر الصائغ و هما من دعاة الإسماعیلیة و أمثالهما من العجم أول من أظهر هذا المذهب بالشام فی أیام الملک رضوان بن تتش السلجوقی صاحب حلب الذی أغضی عنهم و أراد اتخاذهم حزبا له فقبل دعوتهم علی ما قیل، و استمالوا إلیهم خلقا کثیرا بسرمین و الجوز و جبل السماق و بنی علیم و جعل لهم فی حلب دار دعوة. و لم یلبثوا أن اغتالوا فی جامع حمص (۴۹۶) عمه جناح الدولة صاحب حمص، تولی ذلک ثلاثة من العجم یلبسون لباس الصوفیة

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۵۹

بینما کان یتهیأ لغزوة صنجیل أمیر طرابلس من الصلیبیین لرفع الحصار عن حصن الأکراد. و لم یلبث هذا الطبیب المنجم أن قضی نحبه عاهدا بالدعوة إلی رفیقه أبی طاهر الصائغ. و استولی الإسماعیلیة علی أفامیة من الصلیبیین ثم استرجعها هؤلاء منهم (۴۹۸) و وضع السیف فی الإسماعیلیة بحلب سنة (۵۰۷) و (۵۰۸) کما وضع فیهم فی دمشق سنة (۵۲۲) (خطط الشام ج ۱ و ج ۲) و کذلک کان حالهم فی الباب من عمل حلب. قال ابن جبیر: فداخلت أهل البلاد الحمیة فتجمعوا من کل أوب علیهم و وضعوا السیوف فیهم فاستأصلوهم عن آخرهم. و قال: إن الإسماعیلیة یبذلون الأنفس دون إمامهم سنان و حصلوا من طاعته و امتثال أمره بحیث یأمر أحدهم بالتردی من شاهقة جبل فیتردی. و فی تلک السنة أیضا قتلوا برق بن جندل أحد مقدمی وادی التیم. و فی سنة (۵۷۱) حاول أحد الإسماعیلیة من العجم اغتیال السلطان صلاح الدین یوسف بن أیوب فأنجاه اللّه و أغضی الطرف عنهم. و فی سنة (۵۸۸) قتل الإسماعیلیة کونراد أمیر صور. و بعد مدة قتلوا ریموند بن بویمند الرابع المعروف بالأعور أمیر أنطاکیة من الصلیبیین قتلوه فی الکنیسة. و فتح الظاهر بیبرس و التتار قلاعهم و خضعوا بعد ذلک لممالیک مصر.

و کان للإسماعیلیة فی بلاد العجم وقائع عظیمة و هم الذین قتلوا الوزیر نظام الملک فی بغداد و غیره من رجال الإسلام حتی ضاقت بهم الصدور.

و قد سموا أوائل دخول الصلیبیین إلی الشام بالحشاشین أو القتلة(Les assassins) لأن رؤساءهم کانوا فیما قیل یعطون الحشیشة لمن یریدونه علی قتل أحد خصومهم السیاسیین. و کان الصلیبیون یطلقون علی رئیسهم شیخ الجبل.

و قد نالوا من الصلیبیین کثیرا کما نالوا من أمراء المسلمین. و هم جمعیة سیاسیة ترمی إلی إقامة ملک. و ما کان هذا القتل منهم عن باعث مذهبی بل سیاسی. علی أنهم أخافوا رجال السیاسة فی هذه الدیار و هی فی أشد أوقات ضیقها زمن الحروب الصلیبیة و حروب التتار. و یبلغ عدد الإسماعیلیة الیوم فی الشام نحو خمسة و ثلاثین ألفا منهم جماعة فی سلمیة و فی قلاع الدعوة فی جبل النصیریة. و من الإسماعیلیة عشرات ألوف فی العجم و الهند و الأفغان و عمان و مسقط و زنجبار و إفریقیة الشرقیة. و إسماعیلیة هذه الدیار یجبون

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۶۰

الزکاة کل سنة و یرسلونها إلی إمامهم آغا خان فی الهند أما، سائر الإسماعیلیة فلیسوا مرتبطین به. و قد ذکر بعض أعیانهم أن الإسماعیلیة الیوم یقولون:

إن کل زمن لا یخلو عن رجل من السلالة الطاهرة یسمونه إماما و اعتباره اعتبار علمی دینی خال من کل غرض سیاسی.

النصیریة أو العلویة:

قال القدماء: هم أتباع نصير غلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب و هم يدعون ألوهية على رضى اللّه عنه مغالاة فيه و يزعمون أن مسكنه السحاب و إذا مر بهم السحاب قالوا: السلام عليك يا أبا الحسن و يقولون: إن الرعد صوته و البرق ضحكه، و هم من أجل ذلك يعظمون السحاب، و يقولون: إن سلمان الفارسى رسوله، و إن كشف الحجاب عما يقوله من أى كتاب بغير إذن ضلال، و يحبون ابن ملجم قاتل على و يقولون: إنه خلص اللاهوت من الناسوت و يخطئون من يلعنه. و إن لهم خطابا بينهم من خاطبوه به لا يعود يرجع عنهم و لا يذيعه و لو ضرب عنقه. و هم يخفون مقالتهم و من أذاعها فقد أخطأ عندهم. و لهم اعتقاد فى تعظيم الخمر و يرون أنها من النور و لزمهم من ذلك أن عظموا شجرة العنب التى هى أصل الخمر حتى استعظموا قلعها. و يزعمون أن الصديق و أمير المؤمنين عمر و أمير المؤمنين عثمان تعدوا على على و منعوه حقه من الخلافة.

و قال المحدثون منهم أنفسهم على ما ذكره صاحب تاريخ العلويين:

إن النصيرية رجع لهم اسمهم القديم بعد انتهاء الحرب العامة (۱۹۱۸ م) و سميت العلوية و كانت محرومته مدة (۴۱۲) سنة أى من قتال الأتراك للعلويين و إن اسم العلويين الذى كان يطلق على طائفتهم دثر عدة قرون و سمى الموجودون باسم الجبل و يظن بعضهم أن اسم النصيرية هو نسبة للسيد أبى شعيب محمد بن نصير البصرى النميرى مع أن الأصح هو لأنه تغلب اسم

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۶۱

الجبل عليهم و أصبحت كلمة النصيرى أشنع كلمات التحقير.

و قال: إن قوله تعالى الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ، معناه كمال الدين و كمال الدين هو ولاية على، و هذه هى الحكمة المقصودة من نزول القرآن بالتدريج.

و يقول العلويون: إنه لما أعلن كمال الإسلام كان لا يزال بعض العقائد مكتوما و خفيا، و لذلك بقى إلى هذا اليوم مكتوما بخصوصيته، و بتعبير أصح إن بقاء عقيدة العلويين مكتومة هو من كمال الإسلام و إعلانها مضرّ به لأن الرسول صلّى اللّه عليه و سلّم بشر المؤمنين بولاية على و بذلك كمل الإسلام، و لكنه بقى حريصا على كتمان البقية و لذلك كان كتمان البقية من كمال الإسلام أيضا. و هذا هو تعليل تكتم العلويين فى عقيدتهم. و هم يقولون أيضا: إن بنى هاشم كانوا يعرفون فى زمن النبى أحكاما ما كان يعرفها الأمويون، و إن أهل البيت تعلموا علوما لم يسمعها غيرهم. و هنا مبدأ أسرار العلويين. و من جملة أسباب تكتم العلويين أن بيعة غدير خمّ لم تكن إلا إفشاء لبعض حقوق أهل البيت و الأمر باتباعها و احترامها.

و قال: إن السلطان سليما العثمانى لما فتح الشام استدعى عشائر تركية من الأناضول إلى خراسان و قدرها تسعون ألف خيمة أى أكثر من نصف مليون تقريبا و أسكنهم فى القلاع فى جبال النصيرية و المواقع الغنية المرتفعة منه، و لم يمض أكثر من خمسين عاما حتى انقرض الأتراك فى المنطقة الضيقة التى لم تكن حاصلاتها تكفى سكانها الأصليين، و لم يبق من الأتراك سوى خمسة عشر ألفا و هم اليوم فى الباير و البوجاق و قليل منهم فى الساحل، حافظوا على جنسيتهم و لسانهم، و من نزل منهم أرجاء حماة و حمص تغلبت عليه العربية.

و ليس بين العلويين اختلاف فى المذهب بل تفرقوا عشائر و أفخاذا فمنهم الكلبية و هى من أكبر العشائر و النواصرة و الجهينية و القراحلة و الجلقية و الرشاونة و الشلاهمة و الرسالنة و الجردية و الخياطية و البساترة و العبدية و البراعنة و الفقاروة و العمامرة و الحدادية و بنو على و البشالوة و الياشوطية و العتارية و المتاورة و الحلبية و الخرزجية و السوارخة و النيلاتية و السرانبة و الصوارمة و المهالبة و الدراوسة و المحارزة و البشارغة و الجواهرة و السواحلية و الأنطاكيون

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۶۲

و الأطنويون. و النسبة فى هذه الأسماء إما إلى أشخاص منهم معروفين عندهم أو إلى قرى و مدن معروفة فى أرضهم و غيرها.

و قال أيضا: ليس للعلويين ديانة خاصة أو مذهب خاص كما يظن بعضهم، بل إن العلويين مسلمون شيعيون جعفريون، لا تفرق بينهم

و بين سائر الجعفرية قيود دينية أو اجتهادات عملية، و يعتقدون أن الأئمة الاثنى عشر هم معصومون من الخطايا، و إن أقوال الأئمة دلائل قطعية، و لا يمكن أن يخالف الإمام القرآن و الأحاديث و لا يحق لأحد أن يؤول القرآن، و لا أن يفرق بين محكمه و متشابهه سوى أهل البيت، و لا تنفع عند العلوى القواعد الصرفية و النحوية أو الأصولية فى استخراج الأحكام الشرعية، بل كل ذلك من جملة حقوق أهل البيت. و إن العلويين يمتازون على بقية الجعفرية أى الاثنى عشرية بانتسابهم فى الآداب الدينية إلى الطريقة الجنبلانية، و هذا الانتساب هو الذى أدى إلى افتراقهم عن بقية الاثنى عشرية. و يرى المؤلف أن يتحد العلويون و الشيعة المتاولة و الإسماعيلية، و ليس بين هؤلاء و بين العلويين سوى الافتراق الخاص فى اعتبار الأئمة بعد جعفر الصادق.

و قد سألنا الأستاذ الشيخ سليمان أحمد من علمائهم فأجاب معتذرا عن التوسع فى وصف مذهبهم و ختم بقوله: أمة توالت عليها النوائب السياسية و الاجتماعية خمسة أجيال فأخملتها أى إخمال، و انزوى علماؤها و صلحاؤها و عاث الجهل فى عشائرها فسادا، ليس من السهل الكتابة عنها، و ليس بالهين ضلال التاريخ، و قل من جرى فى ميدانه فلم يعثر. لا فرق بينهم و بين الإمامية إلا ما أوجبته السياسة و البيئة و عادات العشائر التى توارثها سكان الشام، أكثر الناس اختلافا، و أقلهم ائتلافا، إذ شيخ مذهبهم الذى ينتمون إليه (الخصيبى) من رجال الإمامية تقرأ ما له و ما عليه فى كتب الرجال. إنما لهم طريقة كالنقشبندية و الرفاعية و غيرهما من الطرق الصوفية بالنسبة إلى أهل السنة. و هذا مصدر التقولات الباطلة عليهم، و ما أبرّئ جهلتهم من كل ما يقال، و لكن أشهد بالغرض و التغرض على غالب المؤرخين الذين كتبوا عنهم اه.

و يسكن النصيرية أو العلويون اليوم فى جبال اللاذقية و طرابلس و حماة

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۶۳

و منهم فئة قليلة فى دمشق و صالحيتها و فى قرى عين فيت و زعورا و غجر فى الحولة، و عدد العلويين اليوم أكثر من مائتى ألف. و قد استعمل العنف معهم فى أكثر الأدوار السالفة فنفروا و قد كان الظاهر بيبرس فى القرن السابع أمر أن تبنى لهم جوامع فى قراهم فبنوا فى كل قرية جامعا و ما كانوا يدخلونها على عهد ابن بطوطة فى القرن التاسع، بل كانت حظائر للغنم و إصطبلات للدواب، و أمر السلطان قلاوون أيضا أن يبنى جامع فى كل قرية من قرى النصيرية، و هكذا فعل عبد الحميد الثانى من العثمانيين فبنى لهم جوامع لم يلبثوا أن خربوها و أهانوها. و شأن العلويين شأن سائر الطوائف الإسلامية الصغرى كلما زادوا علما و تربية رجعوا إلى الأصول الصحيحة. و فيهم كرم و شمم و شجاعة و مكارم أخلاق.

الدروز:

لما طمع الحاكم بأمر اللّه الفاطمى سادس خلفاء الفاطميين أو العبيديين بمصر فى دعوى الربوبية، أخذ يمهد لذلك المقدمات و لقب نفسه الحاكم بأمره و أمر الخطباء بأن يقرأوا بدل البسملة (باسم اللّه الحاكم المحيى المميت) و فى رواية أنهم كتبوا بسم الحاكم اللّه الرحمن الرحيم. فلما أنكروا عليهم كتبوا بسم اللّه الحاكم الرحمن الرحيم فجعلوا فى الأول اللّه صفة للحاكم و جعلوا فى الثانى العكس. و أنشأ يدعى علم المغيبات، و كان من دعاته رجلان عجميان من دعاة الباطنية يقال لأحدهما محمد بن إسماعيل الدّرزى المعروف بنشتكين، و للآخر حمزة بن على بن أحمد و هذا من أعظم دعاة الحاكم، كان يؤثره على جميع عشيرته، و كان صاحب الرسائل و المكاتبات عنده. و صنف الدرزى كتابا كتب فيه أن روح آدم انتقلت إلى على بن أبى طالب و منه إلى أسلاف الحاكم متقمصة من واحد إلى آخر حتى انتهت إلى الحاكم بأمر اللّه. و قرئ هذا الكتاب فى الجامع الأزهر بالقاهرة، فهجم الناس على مؤلفه ليقتلوه ففر منهم، و حدث شغب عظيم فى القاهرة و قتلوا

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۶۴

كثيرين من أصحابه. و كانت بلغت جريدة أسمائهم ستة عشر ألفا. و لم يسع الحاكم بأمر اللّه بعد أن وقع ما وقع إلا أن يبعث إلى

الدرزی فی السر والا و أو عز إلیه أن یخرج إلی الشام و ینشر فیها الدعوة، فنزل وادی تیم اللّه بن ثعلبة غربی دمشق، و قرأ الکتاب علی أهله و استمالهم إلی الحاکم، و أعطاهم المال فکثر مشایعوه و أنصاره.

و کان الأمراء التنوخیون سکان لبنان علی استعداد لقبول دعوة الدرزی فانقادوا إلیه فسمی جماعته بالدروز. و الدروز ینکرون هذه التسمیة و یحبون أن یدعوا بالموحدین، و کان یسمیهم أصحابهم بالأعراف. و غلب علیهم فی حوران فی العهد الأخیر لقب آل معروف دعوا به تحببا. و هذا کان من شعار الیمنیین لانقسام هذه الطائفة إلی أصلین من أمهات أصول العرب فی هذا القطر و هما القیسیة و الیمنیة. و لما أنشأ الدروز یبثون دعوتهم بین المسلمین غزوا فی عقر دارهم فی وادی التیم نحو سنة (۴۱۰) علی الأرجح و غزوا فی جبل السماق من أرجاء حلب لما جاهروا بمذهبهم أیضا و خربوا ما عندهم من المساجد فقتل دعاتهم و أعیانهم سنة (۴۲۳) (خطط الشام م ۱).

و وقع خلاف بین الداعیة الأول محمد بن إسماعیل الدرزی و الداعیة الثانی حمزة بن علی بن أحمد، فکتب التقدم لهذا و مات الدرزی فی سنة (۴۱۱) فقام بالدعوة حمزة و أصبح القوم یقدسونه و یلقبونه بهادی المستجیبین و حجة القائم و غیر ذلک. و لما هلک الحاکم کتب حمزة الرسالة المسماة بالسجل المعلق و علقها علی أبواب الجامع و فیها یقول: إن الحاکم اختفی امتحانا لإیمان المؤمنین، و شرع حمزة یزرع فی القلوب بذر الاعتقاد بألوهیة الحاکم و توحیده و عبادته، و یجتمع هو و أتباعه فی المعبد السری، حتی ثار علیهم المسلمون و طردوهم ففروا من مصر إلی الشام.

قال سلیم البخاری: إن الدروز یخالفون فی عقائدهم عقائد الفرق من أرباب الدیانات یتظاهرون بالتبعیة لمن یکونون تبعا له، و أما فی الباطن فإنهم ینکرون الأنبیاء علیهم السلام و ینسبونهم إلی الجهل و أنهم کانوا یشیرون إلی توحید العدم و ما عرفوا المولی، و یشنعون بالطعن علی جمیع أرباب الدیانات من المسلمین و النصاری و الیهود، و الدیانة الحقة عندهم هی توحید الحاکم،

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۶۵

و یفترض عندهم صدق اللسان بدل الصوم و حفظ الإخوان بدل الصلاة.

و یقرأون القرآن و یؤولونه و یذهبون إلی قدم العالم تبعا لبعض الفلاسفة و یقولون بالتناسخ معبرین عنه بالتقمص، فالجسد یسمی قمیصا عندهم، و أن المیت حین موته تنتقل روحه إلی من یولد و قتئذ، فالأرواح الإنسانیة لا تنتقل عندهم إلا إلی قوالب إنسانیة. و یقولون: الهویة الإلهیة تنتقل من قالب و تحل فی قالب آخر فی کل عصر، فتتجلی فی کل زمن بصورة و تجلت أخیرا فی الحاکم، و أن حمزة أیضا ظهر فی کل عصر بقالب، ففی زمان کان فیثاغورس الحکیم، و فی زمان کان شعیبا، و فی زمان کان سلیمان بن داود، و فی زمان کان المسیح الحق، فهو النبی الکریم عندهم، و حمزة العصر المحمدی هو سلمان الفارسی، و یزعمون أن القرآن قد أوحی حقیقة إلی سلمان الفارسی و أنه کلامه و أن محمدا أخذه و تلقاه عنه حتی زعموا بأن خطاب لقمان الذی خاطب به ولده فی معرض الوصیة بقوله: «یا بنیّ أقم الصلاة و أمر بالمعروف و أنه عن المنکر» هو خطاب سلمان لمحمد و التعبیر بالنبوة إنما هو من خطاب المعلم للمتعلم.

و إذا أراد أحد من جهالهم أن یدخل فی سلک الموحدین ینبغی له أن یستجلب رضاهم بتقدیم وسائل العطف مدة حتی تتحقق توبته، فإذا قبلوه أدخلوه علی الإمام فیوصیه بحفظ السر و عدم إشهاره، و یأمره بتحریر العهد الواجب تحریره، إذ لا یکون موحدا خالصا بدون تحریر العهد علی نفسه، فإذا حرره و سلمه إلی الإمام صار واحدا منهم. و صورة العهد و هو المعروف لأول انتشار الدرزیة بمیثاق ولی الزمان: «توکلت علی مولانا الحاکم الأحد الفرد المنزه عن الأزواج و العدد، أقر فلان بن فلان إقرارا أوجبه علی نفسه و أشهد به علی روحه فی صحة من عقله و بدنه و جواز أمره طائعا غیر مکره و لا مجبر، أنه قد تبرأ من جمیع المذاهب و المقالات و الأدیان و الاعتقادات کلها علی أصناف اختلافاتها و أنه لا یعرف شیئا غیر طاعة مولانا الحاکم جل ذکره و الطاعة هی العبادة و أنه لا یشرک فی عبادته أحدا مضی أو حضر أو ینتظر و أنه قد سلم روحه و جسمه و ماله و ولده و جمیع ما یملکه لمولانا

الحاکم جل ذکره و رضی بجمیع أحکامه له و علیه، غیر معترض و لا منکر

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۶۶

لشیء من أفعاله ساءه ذلک أم سره، و متی رجع عن دین مولانا الحاکم جل ذکره الذی کتبه علی نفسه و أشهد به علی روحه أو أشار به إلی غیره أو خالف شیئا من أوامره، کان بریئا من البارئ المعبود و حرم الإفادة من جمیع الحدود و استحق العقوبة من البارئ العلی جل ذکره، و من أقر أن لیس له فی السماء إله معبود و لا فی الأرض إمام موجود إلا مولانا الحاکم جل ذکره کان من الموحدین الفائزین. و کتب فی شهر کذا و سنة کذا و کذا من سنی عبد مولانا جل ذکره و مملوکه حمزة بن علی بن أحمد هادی المستجیبین المنتقم من المشرکین و المرشدین بسیف مولانا جل ذکره و شدة سلطانه وحده»

و لیس لأحد من الناس أن یدخل فی مذهب الدروز لأن ذلک لا یتأتی إلا إبان الدعوة الأولی، و قد سد هذا الباب بعد ذلک. و یحرص الدروز کل الحرص علی کتمان عقائدهم و لذلک یعبرون عن مرامهم فی کتبهم و رسائلهم بطریق الرمز و الکنایة فلا یفهم ما یراد منها إلا الطبقة العالیة من أرباب الدین عندهم أو مشایخ العقل. و یذکرون مباحث من علم الکلام، و بعض مقالات غلاة المتصوفة، و تأویلات الرافضة و الملاحدة، و خصوصا الإسماعیلیة من غلاة الشیعة. و لهم قضاة منهم یحکمون فی المعاملات المدنیة الجاریة بینهم علی مقتضی الشریعة، غیر أنهم یخالفونها فی بعض المعاملات بحکم العادة الموروثة و قد اصطلحوا علی التوصیة بما یشاءون لما یشاءون. و لا یجوز عندهم الجمع بین امرأتین فإن لم یطلق التی عنده لا یمکنه التزوج بغیرها. و تطلق المرأة بأدنی سبب، و لا یجوز عندهم رد المطلقة و لو کان بعد زوج آخر.

و یقسم الدروز من حیث الدین إلی ثلاثة أقسام: العقال أو الأجاوید و الشراح و الجهال. و یرخص للشراح بالاطلاع علی ما کتبه الشیخ الفاضل بشرح أحد أولیائهم الأمیر عبد اللّه التنوخی الملقب بالسید دفین قریة عبیه و هو الذی بنی المساجد وجدد الجوامع، و کان علی ما قیل یرید أن یرجع بالدروز إلی مذهب أهل السنة و الجماعة توفی سنة (۸۷۴).

و لا یباح للجهال من الدیانة غیر معرفة المسائل الأولیة من الدین. و من العقال طبقة أتقیاء یقال لهم المتنزهون و هم مثابرون علی العبادة و الورع، و منهم من لم یتزوج، و منهم من لم یأکل لحما طول حیاته، و منهم من هو

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۶۷

صائم کل یوم، و لا یذوقون شیئا من بیت أحد من غیر العقال. و العقال جمیعهم یعتقدون أن أموال الحکام و الأمراء حرام فلا یأکلون شیئا من طعامهم و لا من طعام خدمهم و لا من طعام حمل علی دابة مشتراة من مال حاکم، و قد یعتاشون من عمل لهم خاص یتعاطونه بأنفسهم من زراعة و صناعة. و ینزهون ألسنتهم عن ألفاظ الفحش و البذاءة و یتجنبون الإسراف.

و اسمع بعد هذا رأی الأمیر شکیب أرسلان (من مقالة فی جریدة الشوری (۱۵) جمادی الثانیة سنة (۱۳۴۴) فی الدروز قال: الدروز فرقة من الفرق الإسلامیة أصلهم من الشیعة الإسماعیلیة الفاطمیة، و الشیعة الإسماعیلیة الفاطمیة أصلها من الشیعة السبعیة القائلین بالأئمة السبعة، و هؤلاء هم من جملة المسلمین کما لا یخفی. و إذا قیل: إن الدروز هم من الفرق الباطنیة التی لا یحکم لها بالإسلام فالجواب أن الدروز یقولون: إنهم مسلمون و یقیمون جمیع شعائر المسلمین و یتواصون بمرافقة الإسلام و المسلمین فی السراء و الضراء، و یقولون: إن من خرج عن ذلک منهم فلیس بمسلم. و لهذا أصبح من الصعب علی المسلم الذی فهم الإسلام کما فهمه السلف الصالح و الذی سمع حدیث (فهلا شققت عن قلبه) أن یخرج الدروز من الإسلام.

و فی الشرع المحمدی قاعدة: نحن لنا الظاهر و اللّه یتولی السرائر. و قد قال اللّه تعالی: «وَ لا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقی إِلَیْکُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَیاةِ الدُّنْیا» و هؤلاء لا یلقون السلام فقط بل یلقون السلام و یقولون: إنهم مسلمون، و یحفظون القرآن، و یلقن ملقنهم المیت «إذا جاء منکر و نکیر و سألاک ما دینک و من نبیک و ما کتابک و من إخوانک و ما قبلتک فقل لهما الإسلام دینی و محمد نبیی و القرآن کتابی و الکعبة قبلتی و المسلمون إخوتی» و لیس من شعائر الإسلام شیء لا یقیمه أو لا یوجب إقامته الدروز.

و إذا قيل: إنه مع كل هذه المظاهر تحتوى عقيدتهم الباطنية التى تعرفها طبقة العقال على ما يصادم أركان عقيدة السنة و الجماعة و لا يتفق معها فى شىء فالجواب قد وجد فى الإسلام أئمة كبار يترضى عنهم عند ذكرهم و لهم قباب تزار و تعلق فيها القناديل و كانوا يقولون بوحدة الوجود! فهل وحدة الوجود مما يطابق السنة؟ كلا فهل أخرج المسلمون هؤلاء الأئمة من

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۶۸

الإسلام؟ و أما تجسد الإله فليس من عقيدة الدروز كما يتهمهم بعضهم و التجسد شىء و التراءى شىء آخر. و أما تأويل آى القرآن الكريم بحسب زعمهم فكم من فرقة فى الإسلام انفردت بتأويل للآيات الكريمة ... اه.

و بعد فإن للدروز روابط مهمة بينهم منها أنهم مهما كانت بينهم طوائل و حزازات يتخلون عنها و يصبحون جسما واحدا يوم يريدون مقاومة عدّو لهم. و هم من التسامح على جانب حتى مع من يخالفهم. و معظم عاداتهم إسلامية و أسماؤهم إسلامية و فيهم من الإسلام شىء كثير من جوهره. و قد رأينا لعهدنا أبناء هذا المذهب كلما تعلموا قربوا من الأصول الإسلامية و فيهم اليوم فئة صالحة مستنيرة تريد الجهر بالرجوع إلى مذهب أهل السنة.

و من أراد زيادة تفاصيل فى مذهب الدروز فعليه بالرجوع إلى كتبهم و رسائلهم و هى محفوظة فى دور الكتب العامة هنا و فى الغرب.

و ينزل الدروز اليوم فى شوف لبنان و جبل حوران و وادى التيم و بعض قرى الغوطة بدمشق و الجبل الأعلى فى حلب و بعض قرى عكا و لا يقل عددهم عن مئة و أربعين ألفا.

البابية:

مؤسس هذا المذهب رجل من فارس اسمه الميرزا على محمد الشيرازى ولد سنة (۱۲۳۵ ه) و توفى والده و هو حدث فكفله خاله و علمه مبادئ الفارسية و العربية و حسن الخط و اشتغل لأول أمره بالتجارة، و فى سن العشرين أخذ يكثر من الرياضة و العبادة فخاف خاله على صحته فأرسله إلى العراق و قضى أشهرا فى كربلاء و النجف اجتمع خلالها إلى علماء الشيعة و خرج من العراق بأفكار تخالف ما عرفه الناس من الإسلام، و أخذ يبث دعوته فمال إليه جماعة و حج فى تلك الأيام. و كان يقول: ادخلوا البيوت من أبوابها «أنا مدينة العلم و على بابها» يشير إلى أنه واسطة السعادة الأبدية، ثم دعا نفسه «الباب» و معنى الباب عند الشيعة نائب المهدى المنتظر و تخلى عن اسمه.

و بعد مدة أرسل إلى بوشهر و منها أرسل دعاته إلى شيراز و أصفهان يبثون دعوته. فعقد والى شيراز لهم مجالس المناظرة مع الفقهاء فأفتى هؤلاء بكفر

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۶۹

البابية و وجوب قتلهم. لكن الوالى اكتفى بقطع العصب الكعبرى من كعابهم و سجنهم. و جىء بالباب من بوشهر (۱۹ رمضان سنة ۱۲۶۱) و أنزل فى دار أبيه ريثما يهدأ روعه، ثم استقدمه الوالى سرا و بعد المفاوضة تظاهر الوالى بأنه اقتنع بصحة دعوة الباب و جعل هذا فى قصره، ثم عقد له مجلسا لمناظرته فأفتوا بكفره فلم يسع الوالى إلا أن أشار بضربه على رجليه فلما استغاث أو عزوا إليه أن يصعد المنبر و يعلن توبته ففعل. و ظهر الوباء فى شيراز و اختلت أحوال فارس فبعث والى أصفهان يستدعى الباب إليه، فلما رأى والى شيراز ذلك نفى جميع أصحاب الباب من ولايته، و لما حمل الباب إلى والى أصفهان أوعز هذا بأن يحسن القوم استقباله فاستقبلوه، ثم عقد له مجلس المناظرة فأفتى العلماء بقتله، فاعتذر الوالى عن تنفيذ فتواهم، و خبأه فى قصره مطلقا له حرية التأليف و الكتابة و بقى فى داره حتى قتل الوالى و خلفه فى الحكم ابن أخيه، فطالع هذا رجال عاصمة الملك بالأمر، فأمروا بنفيه إلى آذرباجيان فحبس فى قلعة جهريق ثم فى قلعة ماكو.

و بث الباب دعاته و ساعده المحيط و اختلال الأمن فى كثير من الولايات، فاشتد دعاته فى بث دعوته فلقيت قبولا من بعض الناس، و

فی مقدمـة أتباعه الملا حسـین بشـرویه الملقب بباب الأبواب فی خراسان، و الثانی الملا محمـد علی البار فروشـی بمازنـدران و الثالثة امرأة من قزوین اسـمها زرین تاج من عائلة عریقة فی العلم و زوجة أحد المجتهدین و هی جمیلة الصورة جمیلة الأدب، تحفظ القرآن و تعرف تفسیره و أسراره، فـاقتنعت بصـحة دعـوة البـاب، و لم تلبث أن دعت إلیه سـرا و جهرا و إن لم تجتمـع به، فمـال النـاس إلی مواعظهـا و فتنتهم بفصاحتهـا و جمالهـا و جمیـل شـعرها، و قـد حسـرت نقابها و لقبت بقرة العین، ثم خرجت إلی خراسان فالتقت فی رشت بالبار فروشی أحد الدعاة و معه جند من البابیة فبعثا مناديا ینادی «عجلوا أیها الناس فقد ظهر الإمام المنتظر» فنصبوا منبرا و وقفت قرة العین سافرة و حثت الناس علی الاعتقاد بالباب فآمن بعضـهم و أنکر الآخر، ثم انتقلت علی هودج إلی مازنـدران و الناس یتبعونها، و أخذت تطوف القری تبشر بدعوة الباب فقبضت علیها الحکومة و خنقتها و أحرقتها.

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۷۰

ثم قـام الملاـ حسـین بشـرویه و قـد کثر أنصار الباب و ألف منهم جیشا صـغیرا قاتل جیش الشاه فی مازنـدران و جعل الملا علی البار فروشی مقدسا و سماه حضرت أعلی» و حجبه عن الناس، و أصیب بشرویه فی إحدی المعارک و أوصی جماعته بأن یطیعوا «حضرت أعلی» و تغلبت الحکومـة علی قلعتهم و قبضوا علی ملا محمـد علی و حاکموهم فقتلوهم علی بکرة أبیهم. و بلغ عدد من قتل فی هذه الوقائع ألفین و خمسمائة من البابیة و خمسمائة من الجند و غیرهم.

و حـدث مثـل ذلک بقیام أحـد الـدعاة الملا محمـد علی الزنجانی فی زنجان و لکنه لم یوفق. و کـذلک وقع فی مدینـة تبریز فقاتلت حکومة فارس دعاتهم حتی أبادتهم. أما الباب فکان مسـجونا فی سجن جهریق. و لما اندلع لسان الثورة فی مازندران و زنجان و تبریز و قتلت الأـنفس، ارتـأی رئیس حکومـة فـارس قتله فقتله بمشـورة الشـاه فی ۲۸ شـعبان سنة (۱۲۶۶ ه). و وضـعت حکومـة فـارس فی أشیاعهم السیف فی جمیع مملکتها خصوصا بعد أن ثبت أن الذی حاول اغتیال ناصر الدین شاه سنة (۱۲۶۸) هو من شیعة البابیة.

و کان من جملة العلماء الذین فتنوا بدعوة الباب رجل اسمه بهاء اللّه میرزا حسین علی فلما وقعت هذه الحوادث قبض علیه و سجن ثم حوکم، و کان سـفیر روسیا یدافع عنه من تهمة الاتفاق مع الخارجین علی الشاه، ثم أفرج عنه و نفی إلی العراق فأرسل مخفورا بالجند الفارسـی مع بعض فرسان من سفارة روسیا فی طهران لئلا یغتالوه فی الطریق فأقام فی العراق ۱۲ سنة ثم حمل إلی الاستانة و منها إلی أدرنة فأقام فیها نحو خمس سـنین ثم صدر الأمر بنفیه إلی عکا سنة (۱۲۸۵ ه). و نفی أخوه مرزا یحیی نوری الملقب بعد بیحیی صبح أزل إلی قبرس و ظل البهاء فی عکا حتی وافاه أجله سنة (۱۳۰۹) فدفن فیها، و خلفه ابنه عباس أفندی و کان کأبیه علی غایة من حسن السـمت و الأخلاق و عظم النفس و بسط الید و جمال الأدب و حسن العشـرة حتی اسـتمال بأخلاقه من یعتقد بالبابیة و من لا یعتقد. و لما توفی سنة (۱۹۲۲) تفرق أمر الجماعة و انقلبوا فرقا کما کان عباس أفندی فی حیاته مع صـبح أزل متخاصـمین متشاکسین. و سرت دعوتهم إلی عدد قلیل من أبناء الشام و إلی بعض أهل أوربا و أمیرکا. و یبالغون فی عدد من دانوا بهذا المذهب

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۷۱

فی الغرب. و هم فی الشام و فی أمیرکا و أوربا بضعة آلاف علی الأغلب.

یقولون: إن من تعالیم الباب تحریم الکتب المنزلة قبله و نسخ القرآن و أحکامه.

و إنه قضـی بهـدم المزارات حتی الکعبة و قبر الرسول و فرض بناء ۱۹ مزارا باسـمه و من دخلها کان آمنا، و أبطل الحج و قسم السـنة إلی (۱۹) شهرا و جعل الشهر الواحد ۱۹ یوما فأیام السنة عنده (۳۶۱) و أضاف إلیها خمسة أیام سماها المسروقة و رمز عنها بحرف (ه) و جعل أول یوم من شـهر (فروردین ماه) الفارسـی الموافق للحادی و العشـرین من شهر مارس الإفرنجی الغربی الذی هو یوم الاعتدال الربیعی و هو یوم عید النوروز عند الفرس عیدا للفطر و خصه بنفسه و سـماه عید رضوان. و جعل الصوم (۱۹) یوما من شروق الشمس إلی غروبها و خصـص الأیام الخمسة المذکورة للهو و الطرب قبل دخول شهر الصیام. و المطهرات عنده خمسة النار و الهواء و الماء و التراب و کتاب اللّه (أی البیان کتابه) و کیفیـة التطهیر بالبیان أن یتلی ما تیسـر من اسم النقطـة أی الباب مع تلاوة آیة التطهیر (۶۶) مرة

على كل شيء نجس.

و جعل الدم و روث البهائم و غيرها طاهرا. و للباب و خليفته بهاء اللّه عدة رسائل و كتب منها ما كتباه بالفارسية و منها بالعربية، من أهمها من قلم الباب كتابه البيان و فيه شريعته و تعاليمه. و من أهم كتب بهاء اللّه كتاب أقدس نهج فيه منهج القرآن فى ترتيب الآيات و السور و دوّن فيه شريعته و أحكامها باللغة العربية. و قد أدخل البهاء عدة إصلاحات على مذهب الباب اقتضته الحال ذلك. و بعضهم يطلق على أهل هذا المذهب اسم البابية نسبة للمؤسس الأول و بعضهم يلقبهم بالبهائية نسبة لبهاء اللّه الذى زاد فى المذهب و نقص منه، و هم يسمون أنفسهم أهل البيان.

قال كليمان هوار: إن الباب أنشأ دينا جديدا بتعاليمه و عقائده و أنشأ مجتمعا جديدا تحت ستار الإصلاح فى الإسلام. فاللّه واحد و على محمد مرآته التى ينعكس فيها النور الإلهى و يتأتى لكل إنسان أن يشاهدها. و قال الباب فى كتابه البيان: عليكم أن تجعلوا من أنفسكم و من أعمالكم مرائى بحيث لا ترون فيها إلا الشمس التى تحبونها و قد برأ اللّه العالم على سبع صفات سميت حروف الحقيقة و هى القدر و القضاء و الإرادة و المشيئة و الإذن و الأجل

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۷۲

و الكتاب. و يدير شؤون الطائفة (۱۹) رجلا- و كل بابى يدفع لهم فى السنة خمسة فى المئة من قيمة رأس المال، و تلغى جميع العقوبات ما عدا الغرامة التى توضع على زوجين لا يريدان أن يتعاشرا بالمعروف. و التجارة و العقود مشروعة، و يسمح بدفع فائدة عن بضائع بيعت بالنسيئة. و الزواج إجبارى بعد الحادية عشرة و الطلاق ممقوت، و يمهل الزوجان المتخاصمان سنة لتأليف ذات بينهما، و على الأرامل من الرجال و النساء أن يتزوجوا، و عدة الرجال منهم تسعون يوما و النساء خمسة و تسعون يوما و إذا لم يفعلا يغرمان غرامة.

و لا- يضرب الولد قبل أن يبلغ الخامسة و بعد ذلك لا يضرب أكثر من خمس ضربات. و يسمح لمن يدينون بهذا المذهب أن يستعملوا الحلى و الجواهر خلافا لما أمر به الشرع الإسلامى. و يسمح لهم بالوضوء و لكن لا على أنه فرض، و يجب أن يكون فى كل حى حمام، و لا يتحجب النساء و يؤذن بالتحدث إليهن من دون إكراه، و أن يكون الكلام معهن جهرا لا سرا. و يحج أتباع الباب إلى البيت الذى ولد فيه حيث يقام له مسجد، أو إلى المكان الذى سجن هو فيه أو خاصة حواريه، و لا يسمح لمن يدينون بمذهبهم بالارتحال و السياحة إلا لمن اضطر إلى ذلك، و لا يسمح بركوب البحار منهم إلا للحجاج و التجار، و لا تقام صلاة جماعة إلا على الأموات و خطبة المسجد واجبة، و يدفن الموتى فى زجاج أو فى حجارة منحوتة مصقولة، و يجعل فى يد الميت اليمنى خاتم يكتب على فصه «لئلا- يفزع الموتى فى قبورهم». و ليس من حق أحد أن يستعمل الشدة مع إنسان و لا أن يسيء إلى أخيه، و يجيبون على كل من يكلمهم أو يكاتبهم و يفرض عليهم أن يؤدوا الرسالة التى ائتمنوا عليها إلى صاحبها من دون عبث بها. و يحظر عليهم تعاطى المخدرات و المسكرات، و يجب أن يدعو كل واحد منهم فى كل شهر تسعة عشر إنسانا، و أن يجتمع معهم و لو على شرب الماء القراح، و يحظر عليهم الكدية، و من الضلال إعطاء الشحاذين. و تقسم مواريثهم على الصورة التالية بعد صرف نفقات الدفن و الجنازة: للولد (۹) من ستين و للزوج (۸) من ستين و للوالد (۷) من ستين و للأم (۶) من ستين و للأخ (۵) من ستين و للأخت (۴) من ستين و للأستاذ (۳) من ستين، و لا يرث أحد من ذوى القربى بعد ذلك اه.

و حظر على البابية لما نزلوا عكا الدعاية إلى مذهبهم فى الشام. و لما أعلنت

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۷۳

الحرية سنة (۱۹۰۸) انتقلوا إلى عكا و زاد أشياعهم قليلا و هم هنا قلائل ربما لم يتجاوزوا المائتين و هم على غاية من حسن الأخلاق و جميل المعاملة قلما شكا منهم إنسان أو اشتكوا هم من إنسان، و لا تجد بينهم من لا يحترف حرفة و يعمل و يكد. و لا سيما رئيسهم الأخير عباس أفندى فقد كان محافظا على صلواته مع الجماعة لم يخرج فى سمته عن روح الشرع الإسلامى. فإما أن يكون صادقا فى

إسلامه أو أنه عاش فی تقیة متقنة کما یعیش کثیر من أرباب النحل الضعیفة بین المخالفین لهم من السواد الأعظم، و لا سیما الشیعة بین ظهرانی أهل السنة.

و کان عباس علی علم و أدب إذا تکلم یمزج الفلسفة بالمنقولات فیتعذر علی کل إنسان فهم کلامه، و له خطب و مواعظ انطلق بها لسانه فی سیاحة له فی أوربا و أمیرکا دامت خمس سنین، و یؤخذ من مجموع أقواله أن البهائیة أو البابیة ترمی إلی تطبیق الشرائع السماویة علی العقل و حلّ المشاکل القائمة بین أهل الأدیان السماویة الثلاثة الیهودیة و النصرانیة و الإسلام. و قال مرة:

إن الباب صاحب المذهب کان یرید التوفیق بین السنة و الشیعة. بل کان یرمی إلی وحدة العالم الإنسانی و نشر السلام العام و التألیف بین قلوب البشر بقوة الدین و تحکیم العقل و العلم، و نبذ التعصب الدینی و الجنسی و الوطنی و السیاسی، و نشر العلم و إنشاء محکمة عامة کبری تفصل الخلافات التی تحدث بین الشعوب و الدول، و إلی تربیة بنی البشر علی الفضائل الإنسانیة و إلی إقامة القواعد الاقتصادیة و تألیف لغة عامة تفهمها جمیع الأمم.

و یقال علی الجملة: إن التشیع کان منشأ البابیة و الإسماعیلیة و النصیریة و الدرزیة. و کما کانت فارس مثابة کثیر من أسباب المدنیة الإسلامیة کانت أیضا منشأ معظم ما تفرع من الإسلام من النحل و الطرق الغریبة. و لو تسامح أهل هذه المذاهب فی نشر حقائقها، لما تقول علیهم المتقولون، و لا رماهم المخالفون بما قد یکونون منه أبریاء. بقی أن یقال: إن فی الشام مذهب الیزیدیة عبدة الشیطان، و ممن ینتحلون هذه النحلة قریتان فی ضواحی حلب، و لما کانت جمهرة أهل مذهبهم فی جبل سنجار من عمل الموصل لم نخصهم بمبحث خاص لأنهم لا یسترعون الانتباه و یتمثلون علی الأغلب فی سواد الأمة و اللّه أعلم.

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۷۴

الاخلاق و العادات

اشارة

[عادات الدمشقیین:]

کان سمر الشامیین قبل نصف قرن تقریبا فی بیوتهم، تکتفی کل طبقة باجتماعها مع أهل طبقتها، فنتج عن ذلک أن تری فی المدینة الواحدة من مدن الشام الکبیرة تباینا، یکاد یوهم لأول وهلة أنهم من أقالیم مختلفة یتباینون بأزیائهم و مآکلهم و مشاربهم و سمرهم و لهجاتهم، و بالطبع بتصوراتهم و عقلیتهم إلی أن ولی الشام مدحت باشا الوالی العثمانی الشهیر و وضع أسس الإصلاح العلمی و الاجتماعی و الإداری، و بدأت النهضة الأدبیة عقب ذلک فتعارف الأولاد بالمدرسة أولا، و تقومت ألسنتهم، و اعتادوا التلفظ بالفصیح الصحیح، و فتحت الأندیة و المقاهی و دور التمثیل، ثم قاعات الصور المتحرکة، و تعارف الناس و قلت الفوارق، و قضی علی الأرستقراطیة إلا قلیلا، و حلت محلها الدیمقراطیة، فنشأ عن ذلک اعتیاد الشباب الراقی المتعلم ارتیاد المحال العامة و الاحتکاک بمن مضی وقت تعلیمهم، فمرنوا أیضا علی التخاطب بالفصیح الصحیح ما أمکن، و عم ذلک جمیع الطبقات حتی غیر المسلمة و ما نزال نری ذلک فی تقدم مستمر.

تنقسم حفلات الدمشقیین إلی مدنیة و دینیة. أما الدینیة فتنحصر فیما یلی: عید الفطر و النحر، و الرجوع من الحج، و الإیاب من زیارة مسجد الرسول علیه الصلاة و السلام، و سنة الختان، و بعض نذور للّه یقوم بها من أبلّ من مرض شدید، و آب من سفر خطر أو بعید، و عادات القوم فی تلک

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۷۵

الأعیاد إخراج الصدقات و الزکوات و التوسیع علی الفقراء، و تکثر الزیارات، و یتصافح القوم عما بینهم من سیئات، و یصلون

أرحامهم و يوسعون على عيالهم. و عادتهم فى ذلك أن يبدأ الأصغر سنا بزيارة الأكبر، و يقدّم الأكبر سنا و يحترم فى كل شيء. و منشأ ذلك على ما أعلم الأمية فإن غلبة الأمية على قوم تضطرهم إلى احترام من كان أكثر تجربة منهم، و من مرت عليه السنون، و حلب الدهر أشطره و كثرت تجاربه، كان جديرا بالاحترام. أما اليوم فحقيق بالاحترام من يقدم الخدم النافعة لأمته، و ليس للسن دخل فى ذلك.

و خير الناس كما قيل أنفعهم للناس.

و يتقدم عيد الفطر شهر رمضان، و للدمشقيين فيه عادات: منها إتمام فريضة الصيام، و الانقطاع عن بعض عادات ضارة، و يقضون نهاره فى سماع المواعظ فى المساجد، و ليله فى زيارات بعضهم بعضا، و ارتياد محال اللهو المباح، و تكثر حركة الأخذ و العطاء و البيع و الشراء، و هو من المواسم المذكورة.

أما حفلات الحج فى هذا العصر، فتتم حين رجوع أحدهم من بعد أداء فريضة الحج بأن يقدم إلى خواص ذوى قرباه و جيرانه و أصدقائه و أحبابه هدية، و تختلف هذه الهدية بحسب مقدرته المالية، و يبتدئ المهنئون بزيارته فى داره، و يقدم له خواص أصدقائه و أقربائه قبل وصوله إلى وطنه هدايا تكون غالبا من اللباس الفاخر، و يكون مثل ذلك بعد رجوع أحدهم من زيارة مسجد الرسول. و تختم هذه الزيارات غالبا بإقامة حفلة يدعونها مولدا و هى عبارة عن اجتماع يضم أصدقاء المحتفى به و ذوى قرباه و زملاءه و جيرانه فى داره، و يدعون المنشدين و يفتتحون بتلاوة بعض آيات من القرآن الكريم و ينشدون بعض قصائد فى مديح الرسول يتلون المولد النبوى فيه و تعداد بعض مآثره و نسبه و بعض أرهاصات تقدمت بعثته، و حين مولده، يقصدون من ذلك التبرك.

و مثل ذلك حفلة الختان و من المتعارف فيها أن يهدى إلى صاحب الحفلة أهله و أصدقاؤه شيئا كثيرا من السمن و الأرز و الغنم و القهوة، بل من جميع ما يلزم لتلك الحفلة، و يكون ذلك دينا عليه وفاؤه، حين إقامة حفلة مثلها

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۷۶

عند المهدين. و تختم هذه الحفلة مثل أخواتها أيضا بتلاوة المولد.

و لم يبرح بعض من لا يعتدّ بعقولهم ينذرون بعض نذور غريبة و هى ما يسمونه بالنوبة يقيمون لها حفلة هى عبارة عن دعوة بعض الفقراء المشعوذين، ممن يضربون على الطار و الطبل، و يلعبون بالشيش، و بعض قطع من السلاح الأبيض و يطفئون بأفواههم النيران فيجتمع عليهم الأطفال و بعض صغار الأحلام فقط. و هى عادة أصبحت على و شك الزوال.

و من الحفلات الدينية أيضا حفلات تكايا أو زوايا المولوية، و أرباب هذه الطريقة لهم حين إقامة هذه الحفلات لباس خاص و هو ثوب أبيض فضفاض، و يلبسون على رؤوسهم ما يسمونه «كلاها» و هو من اللباد مستطيل الشكل، و يمتاز رئيس تلك الطريقة بوضعه عمامة خضراء فوقها و يدورون على أنفسهم على نغمات موسيقية مطربة جدا من حيث الفن الموسيقى.

و هى من حيث نظامها أتقن حفلات الشرق الدينية على الإطلاق، و هى بالحفلات المدنية أليق منها بالدينية.

إذا حضرت أحدهم الوفاة تعلن وفاته إن كان من الأشراف و العلماء و أرباب الظهور فى مآذن المدينة، ثم يحضر غسل المتوفى أصدقاؤه و ذوو قرباه. و غسل الميت عند المسلمين يقوم مقام التقرير الطبى فى هذه الأيام، يثبت بها أن الميت مات ميتة طبيعية فيطلع الغاسل على عامة جسمه، فإذا كان فيه أثر ضرب أو رض أو خنق ظهر ذلك لحاضرى غسله، و هم غالبا من محبيه، فيشيع ذلك و يتصل بالحكام، و بعد غسله يشيعون جنازته إلى أحد المساجد و يصلون عليه، و يذهبون به إلى المقبرة و يمشى المؤذنون أمام جنازته يذكرون اللّه و ذلك إشهارا لموته و إعلانا له. و بعد رجوعهم من المقبرة يذهبون إلى منزل عميد الأسرة يعزونه و يحضرون على ثلاث ليال بعد العشاء أحد المساجد القريبة من دار المتوفى، يسمعون ما تيسر من القرآن الكريم، و يسمون ذلك «صباحية»، و يحضر تلك الحفلة أقرباء الراحل و جيرانه و زملاؤه، و يصرفون على الفقراء و المعوزين الدراهم و الطعام بحسب ثروة المتوفى. و هذه العادة كادت تبطل لمعرفة القوم بقيمة الوقت فأخذوا يكتفون بالتعزية فى

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۷۷

بیت آل الفقید. و عادة عیادة المریض معدودة عندهم من الواجبات یواسونه و یسلونه و یکررون الاختلاف إلیه.

من عاداتهم المدنیة أنه متی بلغ الشاب العشرین إلی الثلاثین أن یتولی عمید أسرته إرسال عمیدة العائلة مع من ترضاه من أخت و عمة و خالة و نسیبة و بعض خواص الجیران إلی بیوت المدینة و أحیائها یبحثن و ینقبن علی زوجة لذلک الشاب، و تکون قاعدتهم فی خطبتهم غالبا الکفاءة من جهة الثروة و السن و الآداب. و لا یزلن یوالین بحثهن عاما کاملا علی الأقل و متی قر قرارهن علی إحدی البنات یکررن التردد إلی دارها مرات عدیدة لیرینها بجمیع مظاهرها، یرینها فی زینتها و فی وقت الغسیل و وقت الطبخ و تنظیف المنزل. و عادة الدور التی یکون بها بنات فی سن الزواج و هی عادة من الخامسة عشرة إلی الخامسة و العشرین أن یناط بالبنات تقدیم القهوة و الشراب للخاطبات فیتأمل الخاطبات مشیتها و نقل أقدامها و أدبها فی تقدیم القهوة فی الإیاب و الذهاب و یخاطبنها فیرین غنة کلامها و فصاحتها، و متی أصبح الأمر تقریبا واقعا یذهبن إلی الحمام معا و یرین جسمها عاریة و شعرها و یشممن آذانها و فمها و تحت إبطها و رائحة عرقها و ثیابها، و ینقلن ذلک إلی الخاطب و عمید الأسرة مع وصف شکلها و جمال وجهها و طولها و غیر ذلک. هذا مما له مساس بالنساء من طرف الخاطب.

أما وظیفة النساء من جهة الخاطب فیزرن الحی القاطن فیه سرا و یرسلن من یثقن به من أقربائهن و جیرانهن فیدخلن غالب بیوت ذلک الحی باحثات عن أخلاق الخاطب و ثروته و تجارته أو وظیفته، و عن عدد آل بیته و مرکز تلک الأسرة فی الهیأة الاجتماعیة. و یجری التقصی عن آداب بیت الخاطب و أصوله و یذهبن بالمخطوبة سرا إلی مقر الخاطب أو طریق ذهابه و إیابه فتراه فإذا راق الخاطب فی أعینهن بعد تلک الاستخبارات یرفعن الأمر إلی عمید أسرة المخطوبة. و هنا تنتهی مهمة النساء، ثم یتألف شبه وفد من عمید أسرة الخاطب، و البعض من معارف عمید بیت المخطوبة، إلی دار ذلک العمید، و یطلبون منه الموافقة علی زواج تلک البنت من ذلک الشاب، بعبارات تختلف بحسب مرکز تلک الأسر فی المجتمع. و یکون الأمر مقضیا علی الأغلب

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۷۸

بعد تلک التمهیدات، و یقررون المهر و یقرأون الفاتحة فاتحة القرآن الکریم للتبرک دلیلا علی رضی الطرفین. و بعد ثلاثة أیام یقدم الخاطب خاتم الخطبة.

و بعد أسبوع غالبا یحتفل بحفلة العقد یقوم بها الخاطب، فیدعو برقاع مطبوعة علی غایة الإتقان أهله و معارفه، معینا وقت الدعوة و یومها، و یرسل إلی عمید أسرة المخطوبة بعدد من تلک الرقاع یتفقون علیه من قبل، فیدعو من أراد من أسرته و أصدقائه. فیجتمع المدعوون فی المحل المعین و یجری علی الأغلب افتتاح تلک الحفلة بقراءة المولد، و تدار المرطبات و قراطیس الحلوی علی المدعوین، بعد عقد قران الزوجین الشرعی، و ینفض المدعوون، و تنتهی حفلة العقد بعد دفع المهر المقرر، و بعد شهرین أو ثلاثة غالبا یذهب وفد نسائی من قبل العروس بعد أن یکون أهل العروس أتموا لوازم عروسهم یحملن هدیة تختلف بحسب مکانتهن، یسمینها «تعیینة» فیعین موعد حفلة العرس و عدد المدعوات من أهل العروس و تکون تلک الحفلة لیلا فی الغالب، و یرسلون بطاقات الدعوة، و لیلة الحفلة یرسل وفد من النساء فی مرکبات علی عدد المدعوات من النساء إلی دار العروس، یأتین بها من دارها مع المدعوات إلی دار العروس، و تکون هذه علی غایة الرواء و البهاء و الزینة، و یدعی عادة إلی تلک الحفلة المغنیات و المطربات و یقضین تلک اللیلة بعد دخول العروس بعرسه غرفة خلوتهما بالغناء و الرقص و سماع الموسیقی و آلات الطرب، و یمسین علی ذلک إلی الصباح، و تعود السیدات المدعوات إلی دورهن و یبقی فی بیت العروس بعض الخواص من أهلها، مثل أمها و عمتها و خالتها و مربیتها سبعة أیام.

هذه هی الحفلة النسائیة أما الحفلة الخاصة بالعروس (الرجل) فیتقدم أحد وجوه أسرته أو أصدقائه غالبا یعد داره لتلک الحفلة و یسمونها «تلبیسة» و یدعون إلیها جمیع أقارب العروس و أصدقائه و أرباب مهنته و جیرانه، فی جوقة موسیقیة تدیر هذه الحفلة نحو

ساعتین تطرب الحضور بأنغامها، و متی حان للعروس لبس ثیابه یهزج الشباب عادة عند إلباسه کل قطعة من ثیابه بأهازیج وطنیة عامیة بحسب کل عصر و مصر. یذهب به الحضور عقبی ذلک إلی دار حفلة العروس بالأهازیج، و یدخلونه الدار مع عمید الأسرة

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۷۹

فیدخله و یضع یده بید عرسه و یدخل بهما إلی غرفتهما و یذهب بسلام.

هذه حفلات الزواج و عوائد القوم قدیما، و الیوم قد زید علیها معاینة صحة الزوجین، و ینظرون إلی الکفاءة العلمیة قبل کل شیء مما یبشر الأسرة المقبلة بأعلی درجات السعادة الزوجیة، و هذا الشکل فی تأسیس الأسرة یعض علیه المحافظون بالنواجذ، و یؤیدونه بکل ما أوتوا من قوة، و یرونه أضمن لحفظ السعادة البیتیة من جمیع أشکال النظم المتبعة فی العالم.

و من عاداتهم الخروج أواخر فصل الشتاء و أوائل الربیع إلی المتنزهات العامة یوما فی الأسبوع لاستنشاق الهواء النقی، علی اختلاف عادهم و مذاهبهم، نساء و رجالا، و تکون أماکن جلوس النساء خاصة بهن غالبا، و لا یتیسر للرجال أن یخالطوهن بحکم العادة، و الشاذ قلیل. و من العادات القدیمة التی نشأت من الأمیة أیضا سماع القصاص فی المقاهی و قد تلاشت الآن هذه العادة، و کان یجتمع فی المقهی عدد یختلف بحسب المحل و القصاص، یتصدر القصاص «الحکواتی» فی صدر المکان و یقرأ لهم غالبا القصص التی یرغبون فیها مثل روایة عنترة و الزیر و أبی زید و هی روایات حماسیة، تمثل الشجاعة و الکرم و الأنفة و الحمیة و الوفاء و الصدق و المروءة و الجرأة و حفظ الذمام و رعایة الذمار و الجار، إلی آخر ما هنالک من مکارم الأخلاق ینسبونها إلی أبطال الروایة، و یجعلون نهایة النصر لهم و الدائرة علی مناوئیهم، و یصفون الخصوم بالجبن و الکذب و البخل و الریاء و الغدر و الخیانة و النکث بالعهد إلی آخر ما هنالک من مفاسد الأخلاق، مما یربی نفوس السامعین علی حب الفضائل و یحبب إلیهم العمل بها، و یبغض إلیهم النقائص و یحملهم علی البعد عنها، و غالب من یجتمعون لسماع تلک الأقاصیص من طبقة العوام، و هم متصفون ببعض تلک الفضائل.

و من ملاهیهم خیال الظل و العوام یدعونه «قره کوز»، و کان فی أول القرن الحاضر من أشد العوامل تأثیرا فی تهذیب الأخلاق و تقویمها، بما یلقیه أستاذ هذا الفن المشهور بدمشق علی بن حبیب علی ألسن تلک الخیالات من المواعظ الأخلاقیة، بعبارات ملؤها انتقاد، تفعل فی قلب أشد الناس بلادة، و کان یصور فی کلامه العادات السیئة المتفشیة فی عصره، و یظهرها

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۸۰

فی قالب ینفر الناس منها، و یصور ظلم الحکام و أصحاب النفوذ و أغلاطهم، فی صور نقد لطیف، و کان یحترمه علیة القوم و یعد أستاذا کبیرا فی الموسیقی تخرج به کل من ینتمی لهذا الفن بدمشق.

و من العادات الشائعة تعاطی القهوة و الشای فی المقاهی العامة شتاء، و أنواع المرطبات صیفا، و التدخین بالتبغ و النارجیلة علی الدوام، و تکون صورة اجتماعهم حسب طبقاتهم، و یرتادون أماکن سمرهم هذا، بعد العشاء حین الانتهاء من مزاولة الأشغال و طلب الراحة. و أحادیثهم غالبا تدور علی السیاسة و فی موضوعات علمیة و اجتماعیة یمتدحون فلانا لمکرمة أتاها، و یذمون فلانا لنقیصة بدرت منه. ارتقت أحادیثهم فی هذا القرن إلی الخوض فی هذه الشؤون العامة، و لم تکن فی القرن الماضی تتعدی أحادیث البطون و الفروج إلا قلیلا. و منهم من یقضی سمره ببعض الألعاب الشائعة کالشطرنج و البلیار و الدومینة و الداما و النرد و ألعاب الورق علی اختلاف أشکالها و أسمائها.

و قد فشت مؤخرا عادة ارتیاد بعض الشباب أماکن الشراب، و موقعها غالبا بین الریاض و الغیاض، و علی ضفاف الأنهار، و تکون أغلب تلک الاجتماعات متجانسة، فتراهم جماعات متشاکلین حول مناضد الشراب، یجتمع کل ألیف إلی ألیفه، و تجد جالسا إلی کل منضدة غالبا رجل من أرباب الصوت الحسن ینشد أصحابه الأناشید الحسان. و منهم من یختلف إلی زمرة من الموسیقیین الفنانین، یصحبون آلاتهم کالعود و الکمنجة و القانون و الدائرة و الناى. و منهم من یقتصر علی بعض تلک الآلات. و تجری غالب الاجتماعات فی أماکن خاصة. و أما المحال العامة للشراب فتحوی من کل شیء أحسنه کالمنشدین و المغنین و الآلاتیة، و تسمی

تلک الأماکن الجنائن، تضم غالبا الماء و الخضرة و الشکل الحسن، و تبتدیء وقت الغروب و تنتهی عند منتصف اللیل.

هذا مجمل عادات دمشق و لا تختلف عنها عادات سکان القطر فی الشمال و الجنوب و الغرب اختلافا یذکر ما خلا بعض عادات دینیة عند الطوائف غیر المسلمة، و فیما عدا ذلک فهم متشابهون فی أخلاقهم الاجتماعیة، و یمتاز سکان هذه الدیار من غیرهم فی المحافظة علی ما ورثوه من بعض أخلاق

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۸۱

الفاتحین العرب منذ نیف و ثلاثة عشر قرنا و هی الرزانة و الوقار و الصبر علی المصائب، و یلتزمون هذه الرزانة و هذا الوقار فی أعمالهم و مجالسهم بل و فی بیوتهم و بین ذویهم و مجالس سمرهم و شرابهم و أنسهم، و یکرهون من یتصف بالطیش و الرعونة و الشکوی الصریحة و یتجنبون مجالسته، و لکل عادة من هذه العادات شذوذ و هی قلیلة.

عادات الحلبیین :

للحلبیین المسلمین عادات یستعملونها فی أفراحهم و أتراحهم نذکر منها شیئا یحفظه التاریخ إلی ما بعد أن یجتاحه تطور الزمن فیبقی ذکره من مستغرب الأخبار و رائع الآثار فنقول:

مما یستعملونه فی قضیة الولادة أن الطفل متی تمخضت به أمه و ولدته تلمسه القابلة فإن کان غلاما صلت علی محمد و إن کان جاریة ترضت عن فاطمة الزهراء ثم یقدم إلی أحد أقاربه فیؤذن فی أذنه الأذان الشرعی ثم یسمی من قبل ولیه و یطبخ لأمه حلوی بالشونیز و الجوز لتکثیر لبنها و تقتصر بالشرب علی ماء الحمام المنقوع فیه أصول البنفسج مدة أسبوع و یرسل أحد أصدقاء الأسرة مائدة کبیرة تشتمل علی مقدار عظیم من الزلابیة معها أبالیج السکر، و یولم أهل المولود فی الیوم السابع ولیمة حافلة بین أطعمتها حلوی قوامها الدبس و الشمرة تعرف باسم «المغلی» و قد یحضر فی لیلة تلک الولیمة قیان للنساء و مطربون للرجال، و کل صدیق لأبوی المولود یقدم هدیة بعضها مأکول و بعضها مما یتحلی به و منها مسکوکات ذهبیة قدیمة تعلق فی قلنسوة الطفل و اسم ذلک «تهنایة» و بعد مضی أربعین یوما علی الولادة تؤخذ النفساء إلی الحمام مع أترابها من النساء و یکبس بدنها «بالشدود» و هو المردقوش و الخزامی المغربیة. و إذا شعرت أم الطفل بمغص فی بطنه تمضغ له لب عجو الدراقن و تعصر لفاظتها فی فمه فیسکن مغصه و تدهن مراقه بالزیت و تذر علیه مسحوق ورق المرسین، و متی بدأت أسنانه بالخروج تسلق له شیئا من

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۸۲

الحنطة تدوفه بالسکر و لب الجوز و اللوز و الفستق و تطعمه منه و تفرق باقیه علی الأهل و الجیران.

متی بلغ الطفل الخامسة من عمره یرسل إلی المکتب أو إلی الشیخة أو المعلمة إذا کان جاریة و متی ختم تعلم القرآن العظیم تعمل له حفلة تسمی «نشیدة» یحضر فیها إلی منزل الغلام جماعة الشداة و المطربین و دراویش الطریقة المولویة و بعد أن تقام نوبة سماح یطاف بالغلام و رفقائه بعض شوارع البلدة و هم ینشدون أزجالا فی المدائح النبویة ماشیا وراء الغلام حامل المبخرة و رجل آخر ینثر الشعیر علی رؤوس الناس دفعا لإصابة عیون العین ثم یعود هذا الموکب إلی منزل الغلام و تبسط له الموائد فیأکل و ینصرف و یملأ جیب کل ولد فستقا و زبیبا مضافا إلیهما شیء من النقود. و قد یختن الولد فی هذا الیوم إذا لم یکن ختن من قبل. و اعتاد کثیر من الناس ختن أولادهم فی الیوم السابع من ولادتهم کما اعتادوا ثقب شحمة أذن الأنثی فیه. و قد یفرد لختان الغلام حفلة یدعی إلیها الأحباب و الأصحاب و یولم لهم ثم یزین الغلام بالحلی و الحلل و یرکب علی برذون مزین و یرکب وراءه ردیف یقال له العریف، و یطاف به فی الشوارع یتقدمه أحد مشایخ الطرق راکبا علی برذون مجلل بسجادة الإرشاد مکللا رأسه بطیلسان أحمر فی یده عقافة یشیر بها إلی جماعته و هم سائرون أمامه یحملون أعلام طریقتهم و یضربون طبولهم، و بعد أن ینتهوا من تطوافهم یعودون إلی منزل الغلام و تتلی قصة المولد النبوی و فی ختامها یختن الولد. و قد یرافق هذا الموکب طائفة من الدارعین و لابسی الجواشن و الخوذ فی

أیدیهم السیوف و التراس یقفون فی فسحات الطرق و یلعبون بعضهم مع بعض بسیوفهم و قد سار وراء جموعهم رجل یقود جملا علی ظهره منصة مهندمة یقوم رجل یرتدی کسوة نساء عرب البادیة یقال له «عبلة» قد أمسک بیدیه صنوجا یرقص بها حتی یصل إلی دار المختون و هذا الموکب یسمی «عراضة».

للغلام فی أول یوم یصومه من رمضان طبق یملأ بأنواع الحلوی یفطر علیه. و إذا بلغ الغلام مبلغ الرجال و تاق للزواج تأخذ أمه و ذوات قرابته یلتمسن له زوجة تنطبق أوصافها علی أذواقهن. و الأغنیاء یغالون بالمهور

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۸۳

و ربما بلغت جملة المهر ألف ذهب عثمانی و زیادة، و المهر عند الفقراء لاحد لأقله و المعجل منه ثلثاه و المؤجل الثلث الباقی. و الزوجة الغنیة تضیف إلی المهر من مال أبیها قدره و ربما زادت و تصرف الجمیع علی شراء أثاث المنزل.

و عقد الزواج یکون فی بیت الزوجة باحتفال فائق یحضره المطربون و یطاف علی الحاضرین بکؤوس المرطبات و أنواع الحلوی المجففة. و بعد أن یتم العقد بأیام ینقل الجهاز الذی أعدته الزوجة إلی بیت الزوج بموکب حافل یتقدمه جماعة الحمالین و لاعبو السیوف و العصی، و شداة الأزجال، و یسبق لیلة القران لیال یسمونها «التعالیل» یحضر فیها المطربون و الموسیقیون و تحرق الألعاب الناریة، و قبل لیلة القران بلیلتین یدعو أهل الزوجة أقاربهن و یفرق علیهن الحناء و نقوشها فینلن منها علی أیدیهن ما تناله منها العروس علی یدیها و رجلیها و معصمیها و تعرف تلک اللیلة بلیلة النقش. ثم فی صبیحة الیوم الذی یکون القران فی مسائه تقام ولیمة العرس و تکون الدعوی إلیها جفلی یجلس علی سماطها من أحب. و فی هذا الیوم یأخذ أهل الزوج الزوجة من بیت أهلها فیرکبن العربات المزدانة و یأتین بها إلی بیت زوجها و کن قبل ظهور العربات یأتین بها إلی بیت زوجها ماشیات علی أقدامهن یزغردن و لا یمررن بها علی باب حمام زعما بأن جنه یخطفها. و أصل هذا ما کان یفعله الانکشاریة من اختطاف العرائس اللواتی یمررن علی حمامهن فکانوا لا یطلقون سراح العروس إلا بعد أن یأخذوا شیئا من حلیها أو نقودا من زوجها.

فی مساء هذا الیوم یأخذ الزوج زینته فی منزل أحد أصدقائه و یحضر إلی منزله بموکب حافل من المطربین و الموسیقیین و هو یسیر الهوینی بین شابین یشبهانه یقال لهما سخادیج واحدهما سخدوج. قد حملت أمامه مصابیح ضخمة علی عتلات فی مقدمتهم شداة یترنمون بموالیات کلما أتم أحدهم مواله یهتف الجمع بقولهم: «اللّه یساور جوز جوز جیز» تحریف «اللّه یصور الزوج زوج جهاز». و قد تقدم صف الزوج صفوف المطربین و أصحاب الأزجال الحماسیة و حملة المشاعل و محرقو الألعاب الناریة و المدرعون و اللاعبون بالسیوف ألعاب الفروسیة إلی أن یصل هذا الموکب منزل الزوج فیدخله و تتلقاه عرسه و یضع یدها فی یده أقرب إنسان إلیه و یدخلان الغرفة المعدة لهما

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۸۴

و یفتح علی رأسیهما طیلسان وردیّ اللون. و فی صبیحة تلک اللیلة یدخل الزوج الحمام و معه الجم الغفیر من الخلان و الإخوان، و بعد خروجه منه یعمل له أصدقاؤه الولائم علی عدة أیام و هی المسماة بالصبحیات. و فی الیوم الخامس عشر یولم الزوج لأهل زوجته ولیمة شیقة تسمی عزیمة الخامس عشر.

و مما یستغرب من عادات بعض الأهلین من قطان أطراف حلب أنهم یفرشون لیلة القران فی غرفة العروسین قطیفة یجعلون رؤوس ما التوی من ریشها إلی جهة صدر الغرفة، فإذا وجد الزوج الوردة زرا غیر باسم الثغر حول القطیفة أی جعل رؤوس ما التوی من ریشها إلی جهة عتبة البیت و إلا أبقاها علی حالها، و فی الغد یقوم الخصام سرا فإذا لم یقع التراضی بین الطرفین فإنهما یعلنان القضیة و تعلو الضوضاء و تشتد الضجة و یفتضح الحال.

و مما یستعمله الحلبیون المسلمون فی أتراحهم من العادات هو أن بعض سکان أطراف البلدة یحضر حین وفاة رجالهم الأعزاء علیهم- نائحات بدویات ینثرن علی رؤوسهن الحناء و یشددن فی أوساطهن المآزر و یخدشن خدودهن و یسودن وجوههن بسخام القدر، و

حین خروج النعش من الدار یضربن جبهة بابها بإناء خزفی زاعمة أن هذا العمل یمنع من أن یلحق بالمیت غیره من أهله، و نعش المیت یسیرون به و هم یجهرون بکلمة التوحید، و قد یکون فی مقدمته من یؤذن أذان الجوق و ینشد بعض المدائح النبویة، و قد یمشی أمام النعش جماعة الدراویش المولویة. و إذا کان المیت من مشایخ الطریق یتقدم جماعته و یحملون نعشه و یتجاذبونه و یتماسکون به کأنه یحاول الطیران و هم یمنعونه عنه و ینادونه باسمه و یضرعون إلیه بأن یعدل عن الطیران، و حملة أعلام الطریقة یفعلون بأعلامهم فعل حملة النعش به فیرکضون بها إیهاما بأنها تجرهم و تحاول أن تطیر بهم إلی غیر ذلک من الحرکات التی ینکرها الشرع. إذا وصل النعش إلی القبر حطوه إلی الأرض و أخرجوا المیت منه و لحدوه، و من الناس من یودع فی نقرة من جدار القبر قنینة فیها شیء من زیت الزیتون قصد تعتیقه لینتفع به بعد من یکون مصابا بالریح فیطلی منه بدنه فیبرأ.

فی اللیالی الثلاث الأولی من الوفاة یجتمع فی مسجد الحی بین العشائین

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۸۵

نفر من الرجال و الأطفال یکررون کلمة التوحید و فی أیدیهم سبحة کبیرة ینتظم فی سلکها خمسمائة حبة کل حبة منها فی حجم الجوزة. فإذا دارت دورا سکتوا و تلا إمام المسجد شیئا من القرآن. ثم تدور دورا آخر فی ختامه ینتهی الذکر و یفرق علی الحاضرین الحلوی المعروفة بالغریبة. فی صباح الیوم الثالث من الوفاة یجتمع الجم الغفیر علی القبر و تمد البسط علی أطرافه و توضع علیه قمام ماء الورد و تنثر فوقه الزهور و یفرق علی الحاضرین أجزاء الربعات و بعد الانتهاء من قراءتها یصطف الناس حلقة و یذکرون اللّه تعالی و یفرق علی الفقراء شیء من النقود و یعزی الناس أهل المیت و هم فی المقبرة. و هذا الیوم یسمی الثالث و فیه و فی کل من الیوم السابع و الیوم الأربعین و الیوم المتمم للسنة من الوفاة یدعی جماعة من القراء إلی بیت المیت یتلون القرآن العظیم فی نهارهم، و فی المساء تبسط الموائد و یفتح باب الدار للفقراء فیأکلون و یزودون.

و مما اعتاده الحلبیون فی أول یوم من المحرم أن یکون فطورهم من طعام حلو، و أن یخرج جماعة من العجزة یتصدق علیهم الناس بشیء من البرغل یقال لهم «فاز من صلی» سموا بلازمة زجل ینشدونه علی الأبواب و هو «فاز من صلی علی تاج العلی طه النبی المصطفی جد الحسین» و بعض الناس یسمونهم الحسینیة. و هذه العادة موروثة عن الطوائف العلویة التی کانت تقطن حلب. و فی یوم عاشوراء یوسع الناس علی عیالهم بالمطاعم و یطبخون طعام الحبوب الذی یشیر إلیه ابن منیر الطرابلسی الشاعر بقوله:

«و سهرت فی طبخ الحبوب من العشاء إلی السحر»

و فی یوم عاشوراء کانت الحکومة قبل خراب مشهد الحسین تولم فیه ولیمة حافلة یحضرها الوالی و من دونه و ینشد أحد المطربین قصیدة ابن معتوق فی رثاء الحسین التی مطلعها «هلّ المحرم فاستهل مکبرا». و تعطل الحکومة أیضا فی آخر أربعاء من صفر و فی الیوم الثانی عشر من شهر ربیع الأول و تحتفل بتلاوة قصة المولد النبوی فی الجامع الکبیر، و یستمر الناس علی تلاوة هذه القصة لیلا و نهارا إلی آخر هذا الشهر، و یولمون من أجلها الولائم العظیمة.

و تعطل أیضا فی الیوم السابع و العشرین من رجب و تحتفل بقراءة قصة المعراج

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۸۶

فی المشهد المذکور. و یجتمع الناس لیلة النصف من شعبان فی المساجد بین العشائین و یقرأون سورة یس ثلاث مرات و یلقنهم الإمام دعاء لیلة النصف المذکور فی کتاب نزهة المجالس و غیرها من الکتب، و تهجر المعاصی فی شهر رمضان و یکثر تردد الناس علی الجوامع و المساجد و یقبلون علی تلاوة القرآن و منهم من یقصد المقاهی لیلا للتفرج علی المشعوذین و المتصارعین.

و یخرج قرب السحر طبال یوقظ الناس للسحور و یعقبه شداة المدائح النبویة فی منارات الجوامع. و بعد صلاة العید یخرج الناس إلی المقابر لزیارة موتاهم، و کان یخرج قبل العید بیومین رجل سخرة معه حمار مدرع بالودع و الخرز و الأجراس یستجدی الناس بالرقص و یضحکهم بحرکات حماره یقال له جحش العید. و کان یخرج فی أیام العید ولدان قد صبغوا أجسامهم بالسواد و علی رؤوسهم

الطراطير يستدرون إحسان الناس بالرقص و القفز و يقال لهم «بيضه بيضه»، و بعد انتهاء العيد يأخذ رواد الحجاز أهبتهم و يسافرون لأداء فريضة الحج و يحتفل أحبابهم بوداعهم. و فى عيد النحر يقبل الناس على الضحايا.

و فى تاسع آذار الرومى الشرقى يخرجون صباحا إلى ضاحية البلدة لاستنشاق نسيم الصبا التى تهب فى ذلك الوقت كما يزعمه بعض المنجمين. و يكثر خروج الناس فى أوائل أيام الربيع إلى جبل الجوشن و ما قرب منه فإذا نور الشجر و أورق يترددون على البساتين. و فى شهر نيسان يحتكرون مؤوناتهم من السمن و الجبن و الفحم. و كان النساء فى يومى أربعاء الزوبعة و خميس البيض (و يكونان قبل يوم الأحد و هو أول يوم من عيد الفصح) يخرجن إلى البساتين و يمضين فيها سحابة يومين و يفعلن مثل ذلك فى يوم الاثنين الذى يلى عيد الفصح، و يزعمن أن من لم يخرج إلى النزهة فى هذه الأيام لا يأمن الصداع و وجع الرأس، إلى غير ذلك من العادات التى بعضها مستحسن و بعضها مستهجن مما هو مذكور فى كتاب نهر الذهب مسهبا مفصلا.

و أما ما يستعمله النصارى الحلبيون من العادات فى أفراحهم و أتراحهم فمنها أن مريد الزواج منهم يبدأ بتصفح وجوه النسوة فى مجامع الناس و حين خروجهن من الصلاة فمتى أعجبته أنثى سعى بإعلامها أنه يرغب أن تكون له زوجة و هذه هى الخطبة الأولى. ثم يسعى بالخطبة الثانية و هى أن يرسل

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۸۷

أحد أوليائه مع كاهن طائفته إلى ولى مخطوبته فيعلماه أن موليهما يرغب أن تكون موليته زوجة له فإذا أجاب طلبهما وضع الكاهن يد أحدهما بيد الآخر علامة على الرضى المتبادل، و بعض الكهنة يسأل المخطوبة بقوله هل رضيت أن يكون فلان زوجا لك فتطأطئ رأسها بالإيجاب و حينئذ يقدم لها قطعة من الحلى مرسلة من زوجها و بعد ذلك يشرع الخاطب بزيارة مخطوبته. و طالما نهى الكهنة عن كثرة هذه الزيارة فذهب نهيهم سدى. و بعد مدة يرسل الكاهن إلى أهل المخطوبة ليتفق معهم على ميعاد عقد الخطبة و ليقدم هدية الخاطب إلى مخطوبته. و هذا العمل يسمى المشورة و قد ينكث أهل المخطوبة و يفسخ عقد الخطبة فيقيم الكاهن الحجة على أهل المخطوبة و يغرمهم ما أنفقه الخاطب فى مدة الخطبة. أما إذا لم يفسخ عقد الخطبة فإن رقاع الدعوة ترسل بتوقيع الوليين إلى المدعوين لحضور حفلة الإكليل، فيقبل المدعوون إلى بيت الخاطب فى اليوم المعين ثم يتوجهون إلى بيت المخطوبة فيضعون عليها خمارها و أزهارها و تكون جميع ثيابها بيضاء و يأتون بها فى وقت العتمة إلى بيت خاطبها و هى تسير الهوينى بين امرأتين على شاكلتها و أمامها المصابيح و جماعة الموسيقى، حتى إذا اقتربت من بيت خاطبها خف لاستقبالها فخاصرها و دخل بها إلى منزله و انتظم عقد المدعوين، ثم يقف العروسان بين يدى مطران الطائفة و من معه من الكهنة و هم متحلون بملابسهم الكنائسية و يشرع المطران يترنم بآيات من الإنجيل مخصصة بعقد الزواج و يجرى بين العروسين الإيجاب و القبول و يلقى عليهما النصائح و يأمرهما بالتحابب و الطاعة أحدهما للآخر و يستغرق ذلك نحو ساعة من الزمن. و فى الختام يرفيهما هو و الحاضرون ثم تعزف آلات الطرب و تدور أقداح الراح فيرقصون و يمرحون إلى الهزيع الأول من الليل، فيقدم للحاضرين سفرة «الدخلة» و هى قطع من لحم الدجاج الهندى و الهضم المحمضة المعروفة بالمخللات و الخبز الحوارى و غير ذلك و بعد أن يتم الحاضرون أكلهم يعودون إلى السماع و الطرب. ثم فى منتصف الليل يقوم بعض الأدباء و يهنئ العروسين بقصيدة، و فى الصباح يقدم للحاضرين الفطور من معمولات اللوز الهندى «الشوكولاتة» مع بعض الحلاوى و اللحوم المقددة ثم يتحلق الحاضرون حلقا و يجلون العروسين بالرقص العربى و الكردى ثم ينصرفون.

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۸۸

و فى هذه الصبيحة يهدى أحد أبوى الزوج إلى الزوجة قطعة من الحلى تسمى الصبحية و فى اليوم الرابع يحضر المدعوون إلى منزل الزوج لتهنئة العروسين، ثم فى اليوم الثامن يزور العروسان أصحابهما فيحيون لهما ليلة طرب، ثم فى اليوم الثانى عشر يولم الزوج إلى كهنة الطائفة و بعد شهر يطوف العروسان منازل الألى كانوا مدعوين ليلة القران و يردان إليهم الزيارة.

المهر يدفع من الزوجة إلى الزوج عكس ما هو معروف عند المسلمين و لا حد لأكثره إذا كانت الزوجة غنية و الرغبة منها فى الزوج فوق رغبته بها و هو يسمى «دوطه» و بعض الكتبة يترجمون هذه اللفظة بكلمة «بائنة» و إذا كانت رغبة الزوجين فى الزواج متساوية فليس هناك دوطة إنما كل واحد من الزوجين يهدى الآخر قطعة من الحلى قيمتها تناسب ثروته.

بعد انتهاء هذه الحفلات يصرف بعض المتفرنجين شهرا من حياته بالتغيب عن منزله يسمونه شهر العسل يمضيه الزوجان فى موضع نزه جميل يطلقان فيه حريتهما، كأن العروسين يمضيان هذا الشهر فى وداع الحياة المطلقة المؤذنة بفراقها لحلول ذلك الضيف الثقيل بل القيد الأبدى الذى لا يحل وثاقه إلا بالموت: عادة أخذها الغربيون عن الأمم الوثنية القديمة كأنها رمز إلى سرعة انقضاء راحة الإنسان بالزواج و طول عنائه بعده، ذلك لأن الزوجين لا يلبث فرحهما بعد الاقتران سوى أيام قلائل حتى يدخلا فى العريض الطويل من تكاليف الحياة و أوصابها التى لا تنفد إلا بنفاد العمر. فما أشبه الحياة و ما فيها من الراحة و التعب بإناء مفعم من الصبر قد بسط على وجهه قليل من العسل، و كأن الإنسان لا يضطر إلى استعمال ما فى هذا الإناء اضطرارا حقيقيا إلا بعد أن يتزوج فكأن مقدار ما يناله حينئذ من الراحة و ما يعقبها من التعب كمقدار ما فى ذلك الإناء من الصبر و العسل فلا يلعق من العسل غير القليل حتى ينفد و يظهر تحته الصبر، فيجرعه مكرها ضرورة عدم إمكان الحياة إلا به و هذا مصداق قول الناس فى الزواج «فرح شهر و ترح دهر».

و مما يستعمله النصارى فى أتراحهم أنه متى احتضر المريض يحضر إليه كاهنه و يستأديه واجباته الدينية، و بعد أن يقضى نحبه يتربصون بدفنه مدة أربع و عشرين ساعة يضعونه فى خلالها فى صندوق من الصفيح، و فى هذه البرهة

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۸۹

يرسلون رقاع الدعوة لحضور الاحتفال بالجنازة، ثم فى الوقت المعين يضعون الصندوق فى نعش مزدان بالأيقونات و أكاليل الزهر فيحمل إلى البيعة ليصلى عليه، ثم يحمل إلى المقبرة و أمامه صفوف الكهنة يترنمون بآيات من الإنجيل و وراءهم عظماء الطائفة و تلامذة المكاتب و حملة الصلبان و الشموع، و قد اكتنف النعش أربعة من كبار الطائفة يمسكونه من أربع أطرافه بسفائف من الحرير الأسود، و حينما يصلون به إلى اللحد يضعه الحمالون عن كواهلهم و يتقدم أحد الأدباء فيرثيه نظما أو نثرا ثم يوارونه فى لحده، و يصطف أهل المتوفى للتعزية و يمر عليهم المشيعون لجنازته لتعزيتهم و فى مقدمتهم المطران و لفيف الكهنة. و لبعض الأسر الغنية ديماس تحت الأرض مختص بدفن موتاهم يقال له خشخاشة يودعون فيه النعش دون أن يهيلوا التراب عليه، و قد يكون هذا الديماس بناية تشبه البيت مبنية على وجه الأرض.

فى اليوم الثالث من الوفاة يحتفل للمتوفى بصلاة فى البيعة يسمونها جنازا يسرجون فيها من المصابيح قدر ما يقع عليه الاتفاق من النقود بين أهل الميت و بين كهنة طائفته، و هذه الصلاة تعاد فى اليوم التاسع و فى يوم الأربعين و فى نصف السنة و تمام السنة. و حداد الولد على أبويه ثلاث سنين و الأخ على أخيه و الزوجين أحدهما على الآخر و الأبوين على ابنيهما سنتان.

و مما يستعمله اليهود الحلبيون من العادات فى أفراحهم و أتراحهم أن يختنوا الطفل بعد يومين من ولادته، و إذا كان من سبط إسرائيل و كان بكر أبويه وجب على أبيه أن يفتديه من كاهن من سبط هرون يضع الطفل فى حجره و يقول لأبيه: هذا المولود حق سبط الكهنة فيستوهبه أبوه منه بمقدار معلوم من الفضة. و متى بلغ عمر الطفل سنة يأخذه أبواه كل سنة إلى وليمة قدوس أى زفاف يطعمانه من طعام (السيعوداه)، فإذا بلغ الثانية عشرة يؤمر بصيام ذلك اليوم، و إذا بلغ الثالثة عشرة يلبسونه «كنفوت» و هو صدرة تربط أطرافها الأربعة بفتائل من الغزل و يشد على رأسه و عضده الأيسر «تيفلين» و هو سير من الجلد يشتمل على الكلمات العشر و الإصحاح الأول

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۹۰

من سفر الوصايا، و حينئذ يعتبر رجلا متمما صلاة الجماعة التى لا تتم إلا بعشرة رجال و يرث سهمين من تركة أبيه.

و إذا بلغ الثامنة عشرة وجب عليه الزواج فيباشر الخطبة و متى انتقى مخطوبة يكتب بينهما قنيان أى عهد يسمونه شيطارا يعينان فيه مقدار المهر المدفوع من الطرفين و يذكران ما اتفقا عليه من الشروط، ثم فى اليوم المعين تنعقد جمعية يسمونها (كتبة) فيها يكون

تسلم الزوج الأمتعة و النقود التى تعهدت الزوجة بتقديمها إليه، و بعد ثلاثة أيام تكون حفلة الزفاف المعروفة باسم «قدوس» فيحضر المدعوون و تعزف آلات الطرب و تدار كؤوس ابنة العنب من وقت العصر إلى وقت الغروب، ثم يقوم رؤساء الدين و يجرون العقد بين العروسين و يقرأ أحدهم قداشين يقف الزوجان مدة قراءة الأول متقابلين و مدة قراءة الثانى متحاذيين، و يفتح على رأسيهما ملاءة من الصوف يسمونها «طليطة» أى طيلسان. و فى هذه الساعة يقدم الزوج إلى زوجته قطعة من الفضة فتأخذها منه و يشهد بذلك رجلان ليس لهما قرابة لأحد الطرفين، و حين تسلم الزوجة القطعة المذكورة من الزوج يخاطبها بقوله (هارى آت ميقديشت لى بى طباعت زكيدات موشى و إسرائيل) أى أنت مقدسة لى بهذه القطعة مثل دين موسى و إسرائيل. ثم يتقدم الحاخام الكبير و بيده كأس من الخمر فيبارك عليه بدعاء طويل باللغة العبرانية و يشرب منه جرعة ثم يدار على الحاضرين فيشرب من شفافته كل واحد منهم جرعة ثم يعاد إلى الحاخام فيرميه إلى الأرض فينكسر، و بعد ذلك يدخل الزوجان البيت المعد لخلوتهما فإذا التقى آدم مع حواء فى تلك الليلة وجب عليه أن يمسك عنها مدة خمسة عشر يوما، و أن ينطبل أى ينغمس فى حوض خصوصى، و على الزوج أن يدعو فى ثانى يوم من زواجه عشرة من رؤساء الدين و يولم لهم، و على رئيسهم قبل الأكل أن يبارك على المائدة سبع مرات كما بارك على كأس الخمر يوم الزفاف.

و مما يستعملونه فى أتراحهم أن المريض متى احتضر جلس عند رجليه رجلان يذكرانه بقولهما (شيماع إسرائيل أدونای ايلو هينو أدونای احاد) أى اسمع يا إسرائيل الديان إلهنا الديان واحد. فإذا قضى نحبه وضعوه على

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۹۱

«اللوحوت» أى المغتسل و غسلوه بالماء الفاتر و أدرجوه فى ثوب من الكتان يعيبونه بالتقريض و الخروق كيلا يطمع به نباشو القبور، ثم يضعون جثة الميت فى «الأورت» أى النعش و يحضر أحد أقربائه و يقرأ عليه قداشا أى يصلى عليه صلاة الميت، ثم يحمل النعش بين ثلاثة أشخاص و على كل من مرت به الجنازة أن يمشى معها أربعة أذرع أو أكثر و يطلب من الميت السماح، فإذا وصلوا بالنعش إلى الكنيسة قرأ عليه أحد أقربائه قديشا آخر ثم يحملونه إلى مدفنه و يوارونه فى ترابه و يقوم أحد الحاضرين و يبارك عليه بقوله: (باروخ ديان ها ايميت) أى تبارك من شرع الحق: ثم يقرأ ولده قديشا ثالثا و يعود هو و من معه من الأقارب و الأصحاب إلى بيت الميت، و فى أثناء الطريق يغسل كل واحد من الحاضرين يديه و يقول: (عينينو لو رأو و يادينو لو شافيخو بيدام هذه) أى عيوننا ما رأت و أيدينا ما سفكت هذا الدم. فإذا وصلوا إلى بيت الميت قام أحد الحاضرين إلى كل وارث له و خرق ثوبه من زيقه و هو يقول: (باروخ ديان ها ايميت) ثم تحضر مائدة عليها أطعمة متنوعة يرسلها أحد الحاضرين فيأكل منها ورثة الميت على شرط أن يضع الطعام بأيديهم أحد الحاضرين و يبارك لهم بقوله: (باروخ ميناحيم ابيليم) أى تبارك الذى يسلى الحزين. و على ورثة الميت أن يلزموا منازلهم سبعة أيام لا يعلون فيها علا مطلقا و يسمونها «التآبيل» أى الحداد. و فى اليوم السابع يصنع طعام للفقراء و هكذا فى اليوم الثلاثين و بمرور تسعة أشهر و مرور السنة اه.

عادات لبنان و أخلاقه:

كانت عادات لبنان إلى أواخر القرن الماضى، قبل أن يبدأ أهله بالهجرة إلى أميركا، كعادات معظم جبال الشام، تغلب عليها السذاجة و الفطرة السليمة، و فى أهله مضاء و وفاء و إباء. يقل الكرم و يكثر الحرص فى أهل القسم الشمالى منه و هم الموارنة و الروم، و كان العكس فى حال أهل القسم الجنوبى و هم الدروز و السنة و الشيعة و النصارى الذين كانوا من أصول عربية، فإن أخلاقهم ظلت عربية بحتة، و لهم فى باب الكرم و حفظ العهد فصول.

و قد يكون الشماليون ألين عريكة و أقرب إلى السكون فى الأحايين. و الجنوبيون

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۹۲

أشد بأسا و أقوى شكيمة. و دخل تبدل كبير فى العادات بانتشار المدارس الأجنبية فى الجبل منذ نيف و ستين سنة، و استبدلت العادات الإفرنجية ببعض العادات الوطنية إلا قليلا. و حمل الذين عادوا من المهاجر بعض عادات من نزلوا عليهم، فأصبحت عادات الجبليين مزيجا من الغربية و الشرقية.

و يكثر التقليد فى سكان الشمال أكثر منه فى سكان الجنوب. و هناك فروق ليست بقليلة بين سكان الجرود الشمالية و الجنوبية.

كان اللبنانيون من أول من نفخ فى ديارهم بوق الهجرة إلى أميركا، و لبوا دعوتها سراعا قبل غيرهم من الشاميين، لأن حاصلات أرضهم قليلة لا تكفى لعولهم. و كانوا من قبل مولعين بمواطنهم، لا يحبون أن يتنقلوا و لو فى أرجاء هذا القطر، و كان من يسافر من إحدى قرى الجبل إلى دمشق يضرب به المثل فى بعد الهمة و كثرة الشجاعة. و كثيرا ما كانوا يتغنون بقولهم:

جوزك يا مليحةراح عالشام وحده

و كان أقصى ما يبلغه تصورهم من البعد «أنطاكية» شمالى الشام و «دنقلة» فى السودان، و يقال إلى اليوم «أوصلك إلى دنقلة». و كان إذا نشط أحدهم للسفر إلى مصر أو الاستانة، يعد كمن وصل إلى المريخ، يقصدونه من القاصية ليسمعوا ما يقص عليهم من عجائب رحلته. فلما بدأوا بالهجرة و كثر عديدهم، و استسهلوا ركوب المخاطر فى بلاد المهجر، و نجحوا و ارتاشوا، تبدلت عقليتهم بعض الشىء، و هم كأكثر من يهاجرون فى طلب الرزق يعتمدون على أنفسهم و مضائهم و تضامنهم، لا- علم يحميهم و لا دولة يهمها أمرهم. حملوا فى جنوبهم عزما و حزما، و حملوا أيضا روح التحزب و الفرقة الذى امتازوا به لما نشأهم عليه رؤساؤهم. و كان المتعلمون منهم فى هذه السبيل أشد مراسا من العوام. و لما كان العائدون من طبقة الفلاحين و العاملين إلى قراهم من ديار المهجر، أكثر من الراجعين من أصحاب المعامل و المزارع و التجارات، و بعبارة ثانية أن عدد الراجعين الأميين كان أوفر من عدد الآيبين من المتعلمين و المغتنين- أصبح تسرب العادات الغربية لا يكاد يشعر به بين العامة على كثرتهم، و هو ظاهر محسوس بين الخاصة على قلتهم.

و قصارى ما يقال فى هذا الباب أن أهل لبنان أخذوا مدنية الغرب من

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۹۳

مدارسه هنا و بالاختلاط بأهله وراء البحار بلا قيد و لا شرط، على حين كان غيرهم و لا يزالون يأخذونها ببعض الحذر و الحيطة. و لبنان منذ عهد متطاول كانت علائقه بالغرب أكثر من غيره من أهل هذه الديار. و الروح اللاتينى ترفرف عليه. يحمله إلى ربوعه الرهبان الموارنة من رومية و غيرهم من دعاة النصرانية و الاستعمار. و لو مكنت طبيعة الجبل من إنشاء مدن كبرى فيه، لظهرت هذه الفروق على جليتها فى أهله، كما تتجلى مثلا فى أهل المدن الداخلية.

لم يبرح الدروز يعدون فى المحافظين على عاداتهم القديمة و أخلاقهم العربية من إباء و وفاء و حسن عشرة و كرم و حسن وفادة، يعظمون رؤساءهم و لو كانوا فى سن صغيرة جدا. و الدروز، ما خلا الطبقة المتمدنة منهم التى تلبس السراويل و المعاطف و السترات و الأقمصة الإفرنجية على الأساليب الغربية، ما زال جمهورهم يلبس لباسا واحدا فى جميع البلاد التى ينزلونها:

عمائم بيضاء و قفاطين من الأقمشة الغليظة القطنية و أعبئة قصيرة مخططة و أحذية بلدية ساذجة. كأن لباسهم لم يتبدل منذ حلوا هذه الأرض، و نساؤهم محجبات قليلا- يسبلن على رؤوسهن شاشا أبيض فإذا رأين غريبا أظهرن إحدى عينيهن فقط أى إن حجابهن الحجاب الشرعى.

كان أهل لبنان قبل حادثة سنة (۱۸۶۰) يقسمون إلى خاصة و عامة، فالخاصة هم الأمراء و المقدمون و المشايخ. و المشايخ على ثلاث طبقات، مشايخ الإقطاع، و المشايخ الذين يدلون إلى مشايخ الإقطاع بنسب، و كانوا يعرفون بمشايخ الطبق، ثم مشايخ الطبقة الثالثة. و تختلف مصطلحات هذه الطبقات باختلاف العصور، و كلامنا هذا يتناول الأخيرة منها التى ثبتت إلى ظهور الجبل بمظهر الاستقلال الداخلى بعد حادثة الستين. و لهم عادات راسخة فى خطابهم و كتابهم و مجالسهم و أفراحهم و أتراحهم، أمست عندهم بمثابة

القواعد العامة، و تختلف عن مجموع ما هو من نوعها فی سائر الأقطار، و السرّ فی ذلک أن لبنان مدین بظهوره بمظهر المنعزل المستقل منذ عهد المماليک و العثمانيين لأمراء كانوا يتولون جباية الجبل على سبيل الإقطاع مقابل مال يؤدونه، و هم ينصرفون إلى توظيف طبقات الناس، و تصنيف أهلها على

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۹۴

ما يرون. و مما أثبت هذه الأصول بين أشراف لبنان أن الأرستوقراطية فيهم كانت ثابتة لا تتحول عنهم لفقر أو غيره. و يغلب على الظن أنهم جمعوا فی عاداتهم بين العادات العربية، و شیء من العادات الغربية اكتسبوها فی مخالطتهم الصليبيين.

و فی الحق أن لبنان القديم وليد أمرائه من المعنيين و التنوخيين و الشهابيين و اللمعيين و الأرسلانيين و آل علم الدين. و قد أقر هذه العادات المشايخ الجنبلاطية و العمادية و النكدية و التلاحقة و الملكية و بنو العيد، و فی المسيحيين آل الخازن و الدحداح و الضاهر و حبيش و غيرهم. و أخذت تحتفظ كل طبقة بأصولها و عاداتها، لا يباح لأهل طبقة أن يتزوجوا من أهل طبقة أخرى، و لا أن يختلطوا بهم الاختلاط اللازم. و كان الجلال و الوقار يغلبان على أهل كل طبقة. و يعدون من أسباب السقوط أن يسفّ ابن أسرة من أسر الأمراء أو المقدمين أو المشايخ فيصهر إلى غير أهل طبقته، و لذلک غلب ضعف الأجسام على بعض هذه الطبقات، و تأصلت فيها بالوراثة الأمراض العضالة لخروجهم عن الطبيعة فی الزواج.

و كانت لهم عادات نشّأهم عليها حكامهم فی السلام و الجلوس و الخطاب.

و هم يغالون فی الحرص على كرامتهم، و يعد أكبر أعيانهم من الشرف أن يكتب إليه الحاكم و يلقبه بالأخ العزيز و يوقع له بالمحب المخلص. و يكتب الأمير الى الطبقة الثانية من الشعب و هی طبقة المشايخ «عزيزنا» أو «أعز المحبين» أو «حضرة عزيزنا» أو «جناب» بدل «حضرة». و إذا كان طبق الورق صغيرا أو كبيرا، أو كان توقيع الحاكم فی أسفل الكتابة أو فی أعلاه فإن لكل ذلک معانی عندهم. و الغالب أن القوم كانوا لقلة أشغالهم يتسلون بمثل هذه التافهات، و يضعون لها قواعد من عند أنفسهم، و يتنافسون فی رضا الحاكم و الوصول إلى مجلسه و تقبيل يده و ثوبه، تأصل هذا الداء فيهم إلى العصر الأخير، فكان من كتب له هذا الشرف تناقل خبره أهل بيته خلفا عن سلف و عدوه فی مفاخرهم. و قد كثر فيهم حب الظهور حتى إن المرء ليبيع بستانه و داره و يبذل ماله لينال عملا صغيرا فی الحكومة أو ليكتسی الحرير هو و عياله و يتعاظم على أهل قريته. و منهم من ابتعدوا

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۹۵

عن مواطن الشرف ليتزلفوا إلى من اعتقدوا أن فی أيديهم إسعادهم. و كم من بيوت خربت بسبب هذا التمجد بالباطل و التقرب من أصحاب السلطان بفساد الأخلاق.

و كانوا إلى عهد قريب يقدمون الرجال على النساء فی إعطاء القهوة أو الخمر، يرفعون مقام الرجل فوق مقام المرأة، و لا يزال أثر ذلک ظاهرا فی الطوائف الإسلامية. فلما اقتبسوا المدنية الحديثة أصبح الرجل عند المسيحيين لا شیء تقريبا فی بيته، و الحكم لامرأته تصرفه على هواها، خصوصا إذا كانت أكثر تعلما منه، أو كانت أسرتها أغنى من أسرته و جاءته ببائنة أو جهاز. و هذه الأخلاق ماثلة فی بيروت و فی بعض الأقاليم المكتظة بالسكان.

و يحترم الأولاد آباءهم كما كان ذلک فی سائر أرجاء القطر، على صورة فيها التشدد الزائد، حتى إن الولد لا يكاد يجالس أباه و لا يقعد أمامه، و لا يؤاكله و لا يدخن أمامه و لا يرفع صوته، و لو تزوج و أولد، و لا سيما فی البيوت التی احتفظت بتقاليدها. و كانت العادة أن لا يتفرق أهل البيت الواحد مهما كثر أفراده، يسكنون فی دار واحدة، و إذا كانت الأسرة فقيرة ففی غرفة واحدة. و كثيرا ما يخصون الولد الأكبر فی الإرث بشیء من العقار أو الأرض أو المال، يؤثرونه به على إخوته، لاحتياجه إلى الظهور و حفظ كرامة البيت و قبول الضيفان، و الغالب أنهم يحرمون الابنة أرث أبيها، لئلا تنتقل الثروة إلى أسرة أخرى، شأن كثيرين من المنحطين، بل شأن من يعدون أنفسهم فی الراقين أيضا.

كان اللبنانى يتزوج فى الثامنة عشرة أو العشرين من عمره و لا سيما فى الطوائف الإسلامية، و المسيحيون قد يتأخرون إلى الثلاثين و بعضهم إلى الأربعين، و قد يخطف العروس عروسه فى بعض الطبقات، إذا كانت من طبقة غير طبقته، و تظاهر أهلها بأنهم يأبون زواجه، أو لعداء بين أهل الخاطب و المخطوبة، أو لعدم الكفاءة فى النسب أو المال، و كانوا يحبون كثرة النسل بخلاف ما نراهم اليوم بعد الهجرة، فإنهم أصبحوا على مثال الأمم التى تريد تقليل الذرية فى البيت ما أمكن حتى لا يدخله الفقر. و كانوا يعدون كثرة العيال من اليسر و البركة، و يقلقون لمن يتأخر حملها من نسائهم، و يشرعون

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۹۶

بمداواتها أو وضع التعاويذ المصطلح عليها بينهم، و ينذرون النذور إن رزقت ولدا، يقدمونها إلى قديسيهم و أوليائهم. و لهم كغيرهم خرافات كثيرة منها تخويف الأولاد فى صغرهم بخيالات، فينشأ الولد عند بعض المسيحيين جبانا، و الدروز يلقنون أولادهم الشجاعة و الفروسية فيأتون شجعانا أقوياء.

و لذلك كان الدروز منذ القديم فى هذا الجبل على قلة عددهم يخاف جيرانهم بأسهم. و قد زاد هذا الجبن كثيرا بعد انتشار التعليم و معرفة قدر الحياة، فأصبح يجبن من لم يكن يجبن، و نزعت الأخلاق الحربية إلا من الدروز، و أصبح القوم يؤثرون الراحة و يتطلبونها حيثما وجدوها، و يزهدون فى سكنى جبالهم على كثرة غرامهم بها، و تمجيدهم لهوائها و مائها و مناظرها و هنائها. و ربما كان أهل لبنان من أكثر الشاميين اقتدارا على الإعلان عن أرضهم، و الإعجاب بجبلهم، و التبجح بثروتهم و أثاث بيوتهم، و تمجيد رؤسائهم و علمائهم و أدبائهم. و هذا مما ساعد على إعمار الجبل بما جلبه المهاجر اللبنانى من المال إلى أرضه، و سمت الهمم بأهله أن يعمروه هذا العمران الواسع بالنسبة إلى البقاع الأخرى، لو لا ذلك لكان كسائر جبال الشام انحطاطا وفاقة.

تسربت العادات الغربية إلى لبنان أكثر من غيره، فبعد أن كان اللبنانى يأكل و أهله و ضيوفه على سفرة فى الأرض أو على خشبة مستديرة من صحفة واحدة، بأدوات منها الخزف و منها ملاعق من الخشب من صنع أرضه، أصبح يجلس إلى خوان و أمامه صحاف و ملاعق و شوكات و سكاكين و مائدته مغطاة بثوب أبيض، و على يده منديل الغمر أبيض، و ألوان الطعام تأتيه أرسالا. و أكثر هذا محسوس الأثر بين المسيحيين و لا سيما سكان الساحل.

و قد بلغ ببعضهم حب التقليد أن أصبحوا لا يكتفون بخمر أرضهم، و يتغالى بعض أغنيائهم المترفين فيجلب خمور الغرب يسقيها ضيوفه على مائدته.

و غدا لا يطيب له الزجل و الموالیا و المعنّى و القراديات و الغناء العربى و القصائد العربية، و كانت تنبسط أرواح أجداده إلى سماعها، بل يحاول أن يسمع النغمات الإفرنجية لأنها أجمل و هو «تفرنج» و «تأورب» و يحب أن يقطع صلاته مع آبائه.

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۹۷

و هكذا يقال فى الرقص و الألعاب كلها فإنها أصبحت بين طبقات المتعلمين إفرنجية محضة فى بيروت و فنادق لبنان الكبرى. و قد ولع بعض النساء فى البيوت الراقية على الطراز الحديث بالرقص و المخاصرة و المقامرة و لا سيما فى بيروت، و لوعا لا تكاد تجد له مثيلا فيما بلغنا و عرفناه من أخبار الأقطار الغربية. فقد ترى المرأة البيروتية و لا سيما من المسيحيات ترقص من الهزيع الأول من الليل إلى الساعة الثالثة و الرابعة صباحا. و ترى السيدة المتقدمة فى السن منهن تجلس إلى منضدة القمار تقضى الساعات الطويلة، و قد يكون بناتها الفتيات واقفات ينتظرنها ليذهبن إلى النوم و هى مستغرقة.

و كثير عدد النساء اللاتى فقدن صحتهن و شرفهن لشدة و لوعهن بالقمار و الرقص، و إذا رأيت أزياءهن، حسبتهن أوربيات و زيادة، أفرطن فى التقليد، و غرتهن الظواهر من مدنية الغرب فاجتزأن بها، و كانت المرأة المسيحية فى جنوبى لبنان فى القرن الماضى تتحجب و تتجافى عن غشيان مجالس الرجال من غير محارمها.

و فى أندية بيروت فى الشتاء و الفنادق الكبرى فى الجبل مدة الصيف، نموذج من الحياة البيروتية التى أصبحت مزيجا غريبا من

الأخلاق و العادات، يبدو فيها التكلف و التصنع، و يفقد منها الروح العربى، و ليس المسلمون فيها على مستوى جيرانهم فى النهوض الاجتماعى حتى ترسم لهم الآن صورة بعينهم. و قد أخذت بعض البيوت التى أخذت المدنية الحديثة لا تتكلم فى بيوتها أو مجالسها و اجتماعاتها إلا بالفرنسية و قليل منها بالإنكليزية، أو يمزجون لغتهم الأصلية باللغة التى تعلموا بعضها فى المدارس، و أصبحت معظم عادات السكان إفرنجية مقتبسة منقولة لا أصلية أصيلة.

و أنت إذا دخلت اليوم دار لبنانى متعلم ممن كتب له السفر كثيرا، و رأيت العادات القديمة محفوظة يأخذك العجب، لأن اللبنانى يحاول أن يقلد، و لطالما عولج فى هذه السبيل حتى تنزع منه عاداته و تقاليده، و يلحق بالإفرنج فى مناحيه و منازعه. و من أبشع ضروب التقليد أنه أخذ بعد أن تعلم بعضهم فى المدارس تعليما ناقصا أبتر يستعمل فى سلامه و حديثه بعض ألفاظ إفرنجية، تساوى فى ذلك البحرى الجاهل و التاجر المتمول، فصارت أحاديثهم مزيجا

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۹۸

من العربية و الإفرنجية كعاداتهم و أخلاقهم. و أثبت ابن هذا الصقع أنه ما استطاع أن يتخلى عن القديم برمته، و لا استعد لأن يقتبس الجميل من الجديد بجملته.

و اللبنانى أكثر من غيره من سكان هذا القطر اقتصادا و تؤدة، و معرفة بأساليب الحياة، و بعد همم، و شدة حذر. و هو نظيف لا كابن الجبال الأخرى، و فى مسكنه و زراعته و صنائعه شىء من النظام. و قد تبيت فى بيت الفقير منهم فى إحدى المزارع الحقيرة، و لا تستنكف من مؤاكلته، و لا تأنف من النوم فى فراشه، و الجلوس على مقاعده، و الاتكاء إلى وسادته.

فالزعامة الزمنية من قبل عند غير المسيحيين، و الرياسة الدينية عند المسيحيين، كانتا بين اللبنانيين على أتمهما لسهولة تسلط الزعيم أو الرئيس الروحى على رعاياه، لضيق الرقعة التى يمتد عليها نفوذه. و قد استفاد ابن الجبل من هذه الزعامة ترتيبا و نظاما على الجملة، و ولد فيه حب التضامن و الصدق بما يلقنه إياه الشيخ أو الكاهن، و ربط الناس بقيود يصعب التفلت منها بعض الصعوبة و هذا أقرب إلى النفع من فوضى تضرب أطنابها بين سكان الجبال الأخرى، و جهالة ممتدة الرواق على الكبار و الصغار لا تدرى متى ينقشع ظلامها. و قد اضطر السكان أن يقلد بعضهم بعضا فى باب الأخذ بأسباب الترقى و التعليم.

و كان للموارنة التقدم ثم لمن يليهم من الروم و الكاثوليك، ثم يأتى الدروز فالسنة فالشيعة.

فقدت عادات ليست بقليلة من الجبل و مما فقد أو كاد لباس الفلاحين و هى العمائم و السراويل و العباءات، و لا سيما من القرى التى هى مصطاف البيروتيين و الطرابلسيين و المصريين، و لباس جمهور عظيم منهم الآن هو اللباس الغربى، و القبعة الإفرنجية شائعة الاستعمال فى النساء و الرجال، و لا سيما عند من تعلموا التعليم الغربى فى مدارس التبشير فى بيروت و ما إليها من القرى و المدن. و القبعة اليوم تهزم الطربوش و العمامة و الكوفية و العقال أمامها، كما تنهزم المدنية الشرقية أمام المدنية الغربية طوعا أو كرها، و ربما كان لحالة لبنان السياسية مؤخرا دخل كبير فى هذا التمثل السريع. و المغلوب أبدا مولع بشعار الغالب. و كل ما قام به اللبنانى من اقتباس التمدن قبل هذا العهد كان مقدمة إلى هذه النتيجة. و لو لا أن الهجرة نخرت عظام اللبنانيين،

خطط الشام، ج۶، ص: ۲۹۹

و تغلغل حبها فى شغاف قلوبهم، لكان الخطر كبيرا من هذه السرعة فى اقتباس عادات ليست عاداتهم، و أخلاق قلما تلائم أخلاقهم، فى أرض هى مفتاح باب البحار. و كأنا بلبنان إذا ظلّ غرام أهله بالرحيل عنه على هذه الصورة طلب الغنى، يوشك أن يفرغ من سكانه، و سكانه يتعلمون لا ليكونوا فلاحين و صناعا بل تجارا و مستخدمين. و قد أولعوا بتقليد الأمم العظيمة الغنية فى عامة مناحيهم و هم لا ثروة ثابتة لهم، و فى ذلك ما يخشى عليهم من عواقبه، و من أظهر شؤمه على مجتمعهم ما نسمع به اليوم بعد الآخر من كثرة الاختلاس و الاحتيال فى دواوين حكومتهم و بيوت تجارتهم بحيث كادت ترتفع ثقة الغرب منهم، ذلك لأن الصعلوك فيهم يحاول أن يعيش عيش أرباب الطبقة الوسطى، و هؤلاء لا يقنعهم إلا أن يدانوا الطبقات العليا، و تقليد أوربا أوقعهم فى شر أمورهم، وفاتهم

أن الأمـة لا تفلح إلا باقتباس الجديد، و الاحتفاظ بالقديم المفيد، و أن كل شـعب يحاول أن يرتجل عاداته، و يصـطنع أخلاقه، يندغم فى غيره، و يذوب فى بوتقة من يريدهم و لا يريدهم.

العادات فى الأرجاء الأخرى:

تتخالف العادات فى القرى و تتقارب، بحسب قربها و بعدها عن الحواضـر على الأغلب، و بحسب أصول سكانها، فإذا كانوا من أصول عربيـة تجلت فيهم عادات الباديـة كأهل حوران مثلا فإنهم على قربهم من دمشق قـد رسـخت فيهم العادات البدوية، كأهل الحواضـر و البوادى من سكان أقصى الجنوب.

ذلك لأن العرب تسربوا إلى الشام أولا من الجنوب قبل الإسلام بقرون، و ما زالت موجات الهجرة تأتيها من تلك الأصقاع. و بينا تجد أهل غوطـة دمشق كأهل الحاضـرة فى مناحيهم كما يقول الرحالـة ابن بطوطة، ترى أهل المرج مرج دمشق، و ما هم من الغوطة ببعيد، كأهـل حـوران، فى عـاداتهم و لباسـهم و طراز معيشـتهم. تتمثـل فيهم عيش البـداوة، و هم فلاـحون مقيمـون على الحرث و الكرث و ماشـيتهم قليلة. و عادات المسـيحيين فى حوران و جبل الدروز و مادبا و الكرك كعادات المسـلمين السـنة و الدروز، و التعديل القليل يدخل على عادات المسيحيين لأنهم أسرع إلى التعليم من الأكثرية و ن كانت

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۰۰

الأقليات فى الغالب تفنى فى الأكثريات. بيد أن الحال كانت على ذلك قبل الانتباه الأخير فى الأقلية. مثال ذلك أن النساء المسيحيات فى نابلس و حماة يحتجبن كالمسلمات مراعاة لعادات الأكثرية.

و لبـاس أهـل بلاـد غزة و الخليـل و نـابلس كلبـاس أهل حوران، كوفيـة و عقال و عباءة و قفطان. و كـذلك أهل بر حماة و حمص و المعرة و ما إليها مما هو فى سـمت الشـمال من الأصـقاع. و سـكان قرى حلب القريبـة، كسـكان قرى دمشق يلبسون العمائم. و هـذه لا تلبث أن تزول بـالطربوش، لأـن المتعلمين من أبنـاء القرى يؤثرون لباس الطربوش على العمامـة أو الكوفيـة. دع أهل المـدن فقـد قلت العمـائم فيهـا. و لـذلك يصـح أن يقـال: إن القبعـة تهزم الطربوش من الساحـل، و الطربوش يهزم العمامـة فى الوسـط، و العمامـة تهزم الكوفيـة و العقال من سائر أطراف القطر النائيـة. و هكـذا لا ترى وحـدة فى اللباس فى أيـة ناحية من أنحاء الشام اجتزت بها. و قد يظن الغربىّ الـذى اعتادت عيونه رؤية التوحيد فى الملابس، إذا مرّ بإحدى الحواضـر عندنا، أنه فى قاعة تمثيل هزلى، تعرض فيها صور من البشر غريبة فى حركاتها و ألبستها.

جاء فى «دوانى القطوف» أن عادات الحورانيين فى أعراسـهم و ولاداتهم و مآتمهم شبيهة بعوائد سورية القديمة ممتزجة ببعض عادات العرب، مثل دفع الخاطب لوالـد عروسه نقـدها فى القـديم عشـرة آلاف غرش فخفض إلى سـتة آلاف ثم إلى ألفى غرش فقط لعهدنا هذا عند المسيحيين. و عندهم الألطاف (النقوط) و رشق العروس عند مرورها فى البلد بالعنصل (بصل الفار).

و فى المـآتم يحملون الطعـام إلى بيت الميت. و مـدة النوح سـبعة أيـام كاملـة. و من العـار عنـدهم بكاء الرجال إلى غير ذلك. و أهم ملابس الرجال القمصان الطويلـة البيضاء المرسـلة الأردان، و الغنباز من نسـيج الـديما القطنيـة أو الحريريـة، و سـلطة (قنطيشـة) واسـعة الكمين قصـيرة، من الجوخ الأـزرق، مطرزة بـالحرير الأـحمر النـاتئ، و الفقراء يتخـذونها من الخـام الأـزرق بلا طراز. و على رؤوسـهم الكوفية و العقال. و فى أرجلهم المداس و «الجزمة» (الحذاء) أما ملابس النساء فقميص أزرق ملون التطريز، واسع الأردان و الأكمام.

و فوقه «سلطة» أكبر مما يلبسه الرجال إما من الخام أو الجوخ. و على رؤوسهن

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۰۱

«شنبر» أسود حريرى. فالمتزوجات يتلفعن به و يربطنه من الوراء. و العزبات يعصبن رؤوسهن فوق المنديل. و يلبسن (البوابيج) الصفراء و الجزمات القصيرة، و يتخذن زنارا من الفضة (حياصة) قيمته أكثر من ألف غرش، و له ذوائب مسترسلة، و فى معاصمهن أساور فضية

ضخمة، و فی أرجلهن خلاخیل فضیة، و فی آذانهن تراکی ذهب (حلق مستدیر)، و علی رؤوسهن عصابة من قماش مرصوفة بنقود ذهبیة تعرف بالشکة، و فی أصابعهن خواتم فضیة. و یستعملون جمیعهم نساء و رجالا- الوشم إلی غیر ذلک مما یختلف باختلاف حالتهم اه.

و عادات السکان فی القری تتشابه و کذلک ألبستهم، و کلما بعدوا عما یقال له التمدن تمازجوا و تضامنوا، فما یزال المسلمون فی بعض قری وادی بردی إذا کان عند جارهم المسیحی فرح أو ترح یأتی المسلمون یخدمون ضیوفه، و یقدمون له الهدایا لیبیضوا وجهه أمام الواردین علیه و بالعکس.

و هذا من أجمل العادات فی التضامن بین أهل البلد الواحد. و عادات المسلمین فی الساحل و الداخل متشاکلة، و کلها مقتبس من عادات أهل دمشق. فدیر الزور و حلب و حماة و حمص و المعرة و أنطاکیة و اللاذقیة و طرابلس و بعلبک و بیروت و صیدا و صور و صفد و النبطیة و الصلت و نابلس و عکا و حیفا و یافا و القدس و الخلیل و غزة، و بالجملة فکل بلد فیه کتلة إسلامیة أو مسیحیة من السکان لا تجد عاداته إلا دمشقیة، و أهله یقتبسون من دمشق إلی الیوم ما یروقهم من عاداتها، و مدینة دمشق محبوبة تهفو إلیها نفوس الشامیین عامة، و أهلها محبوبون للرقة التی فطروا علیها، و لأنهم یعطفون کثیرا علی الغریب، و ربما أغرقوا فی عطفهم و آثروه علی ابن حیهم، و کل من دخلها و لا سیما من سکان القطر متی خرج منها اکتأب و دعا لها بالعمار و لو خسر فیها جزءا من ماله.

قال القزوینی: «و أهل دمشق أحسن الناس خلقا و خلقا و زیا و أمیلهم إلی اللهو و اللعب و لهم فی کل یوم سبت الاشتغال باللهو و اللعب.» و وصف اجتماعهم هذا الذی یدعی الیوم سبتیة أی یوم یسبتون و ما یجری فیه من المساخر و الصراع و الغناء و الألعاب بما لا یخرج الآن عما کان منذ نحو ألف سنة. و الغالب أن السبتیة من عادات الیهود سکان البلاد الأصلیین کما

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۰۲

أن إضراب بعض المشایخ عن القراءة أیام الثلاثاء، من عادات الصابئة لأن یوم البطالة عند الصابئة یوم الثلاثاء. و مع هذا فقد مدح الدمشقیون منذ القدیم کثیرا و هجوا کثیرا. و لعل المادح و القادح لا یخلوان من مبالغة.

و من یتزوج من أهل هذا القطر بامرأة دمشقیة یحسب نفسه سعیدا، فالدمشقیات یتغربن کثیرا، و ما برحت دمشق تضم إلیها الغرباء من أهل الکور الأخری و تتمثلهم و تعیضها عمن یدخل إلیها من الرجال بعض نسائها، یدخلن فیها عادات العاصمة الأمویة، و یمزجن أهل الوطن الواحد من طریق الأسر و البیوت. و البدو و الحضر من جمیع النحل یؤثرون البنین علی البنات، و کلهم یلدون کثیرا، و یعیش الأطفال فی المدن أکثر من القری، للعنایة بصحتهم و وجود الأطباء و القوابل. و لو لا أن البدوی یولد له کل سنة لانقرض نسله لکثرة الغزو و الذبح فی الدهر السالف.

و جمیع نساء القری من المسلمات فی الشام سافرات یعملن مع الرجال فی الحقول و المراعی علی صیانة لا تبذل فیها، ما خلا بعض القری القریبة من الحواضر فإن عادة الحجاب سرت إلیهن، فیلبسن ملاءات من حبر أسود أو أزرق علی الأغلب. و فی بعض المدن ملاءات ملونة بأصفر و أحمر معا أو بأبیض فقط. و لکن نساء دمشق خاصة اخترن زیا من الملاءات و منادیل الوجه، اقتبسنها عن نساء الاستانة أیام کان الحجاب شائعا فی نساء الترک.

فلما کشف الحجاب فی ترکیا فی العهد الأخیر و أصبح زیهن کزی الغربیات، قبعات علی الرؤوس و أثواب قصیرة خفیفة. و زال الحجاب أو کاد عند نساء مصر بالطبیعة لتغلب المدنیة علیهن، بقی نساء حواضر الشام کبیروت و دمشق و حلب و طرابلس حائرات یطمح بعضهن إلی تقلید الترکیات و المصریات.

و لکن شدة المسیطرین من الرجال، اضطرتهن إلی الوقوف الآن عند حد حجابهن القدیم، فیظهرن فی الشوارع فی حبرات سوداء مسدولة إلی أعقابهن و منادیل سود مسبلة علی وجوههن، و قد تکون فی المتبرجات شفافة جمیلة لا تکاد تحجب الوجوه بل تزینها و تدعو الناظرین إلی إرسال الطرف إلیهن.

و منذ هاجر الجركس من القافقاس بعد الحرب الروسية التركية سنة (۱۲۹۴) إلى الشام و أسكنتهم الدولة العثمانية فى بعض قرى منبج و حمص

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۰۳

و سلمية و دمشق و عمان و جرش و القنيطرة، أدخلوا إلى الشام بعض عاداتهم فى تربية المواشى و الفلاحة و الصناعات الزراعية. و يغلب على الجراكسة الإمساك و التضامن لأنهم فى حاجة إليه لدفع عادية البوادى عنهم، و يغلب التدين على شيوخهم و الشجاعة على شبانهم. و إذا أراد الشاب منهم أن يخطب فتاة خطفها من بيت أبيها مهما كانت منزلتها و منزلته. و نساؤهم يظللن سافرات ما دمن أبكارا و عانسات، حتى إذا تزوجن عمدن إلى الحجاب و ابتعدن عن مجالس الرجال. و الفتيات يختلطن بالفتيان و يغنين و يرقصن معا و يتسامرون و يتحدثون من دون نكير. و يقل فيهم تعدد الزوجات، و المرأة الجركسية مثال المرأة الصالحة فى تربية أولادها و إدارة شؤون بيتها.

و قد أخذ الصهيونيون فى فلسطين يدخلون عاداتهم منذ كثر سوادهم فيها، و لكن من الصعب أن يقتبسها السكان الأصليون لأنهم ينظرون إليهم نظر أعداء، و إن كان فى عاداتهم الجميل جدا كحب النظام و الترتيب و النظافة و الاقتصاد، و تجويد الأعمال الزراعية على اختلاف ضروبها. و كذلك الحال فى المهاجرين من الأرمن الذين تسربوا من الشمال و امتدوا إلى الجنوب قليلا و إلى الغرب، فإن من عاداتهم ما هو المعقول، و هو تضامنهم إلى ما لا حد له، و اقتصادهم و مهارتهم فى التجارة و الصناعة، بيد أنهم لا يمتزجون بالشاميين و يريدون كالصهيونيين أن يعاملوا أهل القطر ليربحوا منهم فقط، لا لتكون بينهم المنافع مشتركة كما هو الحال بين أبناء هذا الوطن الواحد على اختلاف نحلهم، و على كثرة ما يوقد الواقدون من الرؤساء المتعصبين من جذوة التعصب، يوشكون أن يقاطعوا غير أبناء جنسهم، و لكن السواد الأعظم إذا عاملهم بالمثل و عمدوا إلى مقاطعتهم لا يبقى أمامهم سوى الرحيل.

و أهل دمشق و حلب بل و أكثر المدن الداخلية من أشد الشاميين محافظة على عاداتهم و أخلاقهم، و لهم غرام إلى اليوم بالتلقيب بألفاظ التشريف، و استعمال الألقاب الضخمة، راجت رواجا كثيرا على آخر عهد الترك العثمانيين، لأن رتبهم و ألقابهم مما كانوا أسرفوا فى منحه للرفيع و الوضيع، فصار أهل الطبقتين الوسطى و الدنيا لا يتخاطبون إلا بلقب «باشا» أو «بك» أو «أفندى» و «دولتك» «عطوفتك» «سعادتك» «سماحتك» «فضيلتك»

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۰۴

«سيادتك». أما ألقاب سيدنا و مولانا فتكاد تؤلف جزءا مهما من أحاديثهم.

ابتليت الأمة بهذه الألقاب كما ابتليت بالتلقيب بالدين فى القرن الخامس إلى القرون الأخيرة. و قد وصف ابن جبير مآتم أهل دمشق و جنائزهم فى الدولة الصلاحية فقال: و نقباء الجنائز يرفعون أصواتهم بالنداء لكل واصل للعزاء من محتشمى البلدة و أعيانها و يحلونهم بخططهم الهائلة التى قد وضعوها لكل واحد منهم بالإضافة إلى الدين فتسمع ما شئت من صدر الدين أو شمسه

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۰۵

أو بدره أو نجمه أو زينه أو بهائه أو جماله أو مجده أو فخره أو شرفه أو معينه أو محييه أو زكيه أو نجيبه إلى ما لا غاية له من هذه الألفاظ الموضوعة، و تتبعها و لا سيما فى الفقهاء بما شئت أيضا من سيد العلماء و جمال الأئمة و حجة الإسلام و فخر الشريعة و شرف الملة و مفتى الفريقين إلى ما لا نهاية له من هذه الألفاظ المحالية، فيصعد كل واحد منهم إلى الشريعة ساحبا أذياله من الكبر ثانيا عطفه و قذاله قال: و مخاطبة أهل هذه الجهات قاطبة بعضهم لبعض بالتمويل و التسويد و بامتثال الخدمة و تعظيم الحضرة، و إذا لقى أحد منهم آخر مسلما يقول: جاء المملوك أو الخادم برسم الخدمة كناية عن السلام، فيتعاطون المحال تعاطيا، و الجد عندهم عنقاء مغرب. و صفة سلامهم إيماء الركوع أو السجود فترى الأعناق تتلاعب بين رفع و خفض و بسط و قبض و ربما طالت بهم الحالة فى ذلك، فواحد ينحط و آخر يقوم و عمائمهم تهوى بينهم هويا. و هذه الحالة من الانعطاف الركوعى فى السلام كنا عهدناه لقينات

النساء. و عند استعراض رقيق الإماء، فيا عجبا لهؤلاء الرجال، كيف تحلوا بسمات ربات الحجال، لقد ابتذلوا أنفسهم فيما تأنف النفوس الأبية منه، و استعملوا تكفير الذمى المنهى فى الشرع عنه، لهم فى هذا الشأن طرائق عجيبة فى الباطل، فيا للعجب منهم إذا تعاملوا بهذه المعاملة، و انتهوا إلى هذه الغاية فى الألفاظ بينهم فبماذا يخاطبون سلاطينهم و يعاملونهم لقد تساوت الأذناب عندهم و الرؤوس، و لم يميز لديهم الرئيس و المرؤوس اه.

بمثل هذا اللسان الغريب وصفنا ابن جبير. و لما أفرط القوم فى عاداتهم فى الجنائز و المآتم و الأفراح و المجتمعات و القيام و القعود و تبادل السلام و تقديم القهوة و الشاى و غيرهما، و دخلت فى طور من الهزل عجيب، زهد فيها المتعلمون على المناحى الغربية، و أنشأوا ينبذونها نبذ النواة. و خفت أيضا

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۰۶

ألفاظ التكريم عن عهد الترك و هى آخذة بالزوال، و بقدر ما يكثر سواد المتعلمين يقل سواد المداهنين و المرائين، على ما يقلّ المخرفون و المعتقدون.

فقد كان بعض الناس يعتقدون بالفال و المندل و الكيمياء و الأحلام و الكشف، فقلّ اليوم من يلتفتون إلى هذه المسائل، و خفت و طأتها حتى من القرى البعيدة. و المنورون من الناس قسمان: قسم وقف عند حدود الشرع و اكتفى بأوامره و نواهيه، و آخر نزع ربقة الدين و لكن فى سره دون الجهر من القول.

و بعض العادات لا تقوى على نزعها إلا الأيام الطويلة و النشوء السريع، و هذا متعذر الآن لتعذر نشر التعليم الإجبارى فى الشعب، فقد كان النساء إلى عهد قريب فى الأحياء البعيدة عن مدينة حلب يخرجن فى الجنائز مسخمات وجوههن مخمشات لها لابسات ثياب الحداد، باكيات مولولات منتحبات، و هذا من عادات الجاهلية التى منعها الإسلام. و أول المسؤولين عن إقرار مثل هذه العادات المشايخ و الوعاظ و أرباب الصحف. و قل أن رأينا من المشايخ و الوعاظ من يتعرض لإنكار مثل هذه البدع و العادات الضارة. أما الصحف فعلى كثرة ما نشرت من الأنوار فى طبقات مخصوصة من الناس فقد بقيت فى ناحية من النواحى مقصرة كل التقصير، و هو البحث فى العادات المضرة و الأخلاق الساقطة. و إنا ليحزننا أن كان فى الصحافيين أناس لا يزيدون المجتمع إلا فسادا فوق فساده، لأنهم يلقنون العامة الكذب و الخديعة و الملق، و يدعون أن قراءهم لا يرضون منهم إلا بهذه الطرق. و لكننا على يقين من أنهم هم يبيعون من قرائهم ما يتفق مع مصلحة جيوبهم و أكياسهم.

كان التدجيل إلى عهد قريب من خصائص بعض مشايخ الطرق فذهبت الآن ريحهم أو كادت و خلفهم هذا الضرب من الناس.

يمكن إرجاع أهم صفات الناس فى هذا القطر إلى مادتين أصليتين «الوفاء و الكرم» و لا- تزال هاتان الصفتان ماثلتين فى معظم الشاميين على كثرة ما اعتور مجتمعهم من تبديل و تعديل. و تجد هاتين المزيتين على أتمهما فى كثير من أهل الطبقات الوسطى و الدنيا، يقومون عليهما غالبا من دون أن يتوقعوا عنهما أجرا سماويا أو مظهرا دنيويا. أما الطبقة العليا فمن النادر أن يكون فيها الوفاء و الكرم، و إن وفت فلأمر ما تفى، أو تكارمت فلغرض

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۰۷

ترتجيه. و كلما ضعف الوازع الدينى فى القوم، و هاجمتهم عادات الغربيين، انحلوا من عهدة الوفاء و الكرم، و لذلك ترى الأوفياء و الكرماء بعيدين إلا- قليلا- عن المناطق التى اختلطت بالغريب على سواحل البحر، و أخذت من معارفه، و تخلقت بأخلاقه، و اعتادت عاداته.

و منذ شاع الكذب و الحسد فى الشاميين، ضعفت مادة حياتهم من التجارة و الصناعة، و كادت ثقة الغرب ترتفع منهم، و إذا كتب لهم أن عاشوا فى الجملة اليوم فبفضل الأسس القديمة التى قام عليها مجتمعهم و جامعتهم، و بفضل نشاطهم فى مهاجرهم حيث رأوا أنفسهم أمام جاليات كثيرة من الأمم اضطرتهم الحال معها أن يظهروا بمظهر الأمانة ليعتاشوا و يرتاشوا. أما التحاسد و المشاغبة فلم

تنقطع شأفتهما فيهم حتى فى ديار الغربة، و ربما زادهم على ما كانوا ألفوه منها ما رأوه فى مهاجرهم عند الأمم الأخرى فاقتبسوه و أضافوه إلى رؤوس أموالهم. و ربما بلغت الجالية الشامية نحو ألف ألف نسمة أى نحو سبع سكان القطر، فما أمرهم باليسير إذا حتى لا يشار إليهم بجملة، لأنهم على الأقل يمثلون صورة من أهل القطر فى الخارج، و الأجانب لا يعرفون إلا أنها صحيحة مطابقة للأصل، أو أنهم من أمثل طبقات الشعب.

و لو تفرقوا فى الأرجاء التى ينزلونها، كما تفرقت قلوبهم فى موطنهم الأصلى، لكان لزاما أن يؤثر ذلك فى أخلاقهم و عاداتهم، و لكنك تراهم فى مهاجرهم يجتمعون أهل كل إقليم بإقليمه على الأكثر، و قد لا تختلط لفائفهم بسكان الديار التى ينزلونها إلا كما يختلط الشامى بالمصرى إذا نزل مصر، يختلط به ليربح منه و يحتفظ بشاميته و تقاليده بعد جيلين و ثلاثة و أحيانا بعد أربعة و خمسة.

عادات القبائل و أخلاقها:

ثمن أو سبع أهل القطر الشامى اليوم أى نحو خمسمائة ألف نسمة بادية أو قبائل رحالة، و يقال لهم فى الاصطلاح: العرب أو العربان، تصطاف فى مكان و تشتو فى آخر، و قلّ من يألف منهم سكنى الدور، و بيوتهم من الخيام و المضارب تنسج من شعر المعزى، يعمدونها بعمد و يشدونها بأطناب،

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۰۸

و يضربونها حيث نزلوا لرعية ماشيتهم، يحملون معهم أثاثهم و خرثيهم و دوابهم و مؤونتهم، و هم شاوية يقومون على تربية الشياه و العنز و يربى بعضهم الأباعر، و الشاوية من الأسماء التى تطلق على عشائر دير الزور على الفرات خاصة لأنهم جماعة شياه. و معاش البدو من مواشيهم و ما تدرّ عليهم من السمون و الألبان و الأجبان و الزبد و ما يبيعون من نتاج قطعانهم، أو من غزو بعضهم بعضا إن كانوا أشرارا على الفطرة لم تتدمث أخلاقهم قليلا بالاحتكاك بالمتحضرين، و إذ كان سكان البادية على هذه الحالة من التنقل و أكثرهم يوغل فى الشتاء إلى وسط ديار العرب انتجاعا للكلإ و الماء، أصبح من المتعذر أن تنشأ لهم حالة ثابتة يتأتى معها وصف كل قبيل منهم فى عاداته و أخلاقه.

و عرب الشام من أصول شتى و قد تتغير أسماء قبائلهم مهما عظمت فى كل قرن أو قرنين، فقد تغيرت أسماء القبائل التى كانت معروفة بدخول الإسلام الشام، فى القرن الثالث أو الرابع، و ما عرف من أسمائها فى القرن الثامن أو التاسع تبدل فى القرن الحادى عشر، و هكذا تتبدل أسماء العشائر تبعا للمتأمر عليها، و قد تسمى القبيلة كلها باسم أميرها أو شيخها. و العشائر كلها تنقسم إلى أفخاذ و بطون، و الإمارة أو المشيخة ترجع على الأغلب لمن كان له أصل قديم من بيته، أو من كان أذكى قومه جنانا، و أبسطهم بالكرم يدا، و أشجعهم يوم النزال قلبا، و أصلبهم فى الحوادث عودا، ثم تنتقل بالوراثة.

و غزو القبائل بعضها بعضا يحول دون بقاء الثروة الناطقة و الصامتة فيهم، فقد تكون القبيلة اليوم فى الغاية من طيب العيش، ناعمة البال بحلالها أى ماشيتها، فتغزى من الغد فى عقر دارها، فلا تلبث أن تصبح أعرى من مغزل لا سبد لها و لا لبد. دع ما يصيبها من نقص فى الأنفس، فقد كان من النادر أن تجد رجلا بلغ أقصى سن الشيخوخة لأنه يعتبط فى الغزوات، و يقتل فى سن الفتوة غالبا. و الحكومات الشامية اليوم تحظر على القبائل الغزو، و هم يخافون سطوتها لمكان السيارات و رشاشاتها فى الأرض، و الطيارات و قذائفها فى الجو، و تحاول كل حكومة أن تعطى البادية أرضا تزرعها لتأوى

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۰۹

إلى البيوت الثابتة، و تتخلى عن عيش البداوة و ما تستلزمه من شقاوة و شقاء.

و من عشائر الشام ما عرف أنها كانت رحالة فأصبحت مزارعة مقيمة، و لذّ لها عيشها الثانى فاغتنت يوم تحضرت، مثل الدنادشة أو بنى دندش فهم قبيلة يمانية جلت إلى حوران منذ نحو ثلاثمائة سنة، ثم انتقلت إلى أرجاء تل كلخ من عمل حصن الأكراد، و لهم اليوم

قرى عامرة و بيوت و قصور فى قرى الفتايا و الحوز و مدان و حير البصل و الموح و مشتى حمودة و مشتى حمزة و برج الدنادشة و غيرها، و ظلت أخلاقهم إلى عهد قريب أخلاق العشائر يحبون الغزو و السطو و يحمون الذّمار و الجار، و هم على حصة موفورة من الكرم و الوفاء و صحة العهد. و اتفق مثل هذا التحول لكثير من عشائر الحديديين و الموالى و بنى خالد، فإنهم لما امتلك السلطان عبد الحميد الثانى أرضا واسعة فى الشمال الشرقى من الشام فى أرجاء حماة و حمص، حمى العشائر و منع الغزو بينها، فتحضر من هذه العشائر عدد كبير انصرفوا إلى اعتمال الأرض و العناية بالزرع و الضرع. و هكذا كانت الحال فى القديم و الحديث، تدخل البادية فى الحضارة، و قلّ أن خرج أفراد من الحضارة إلى البداوة، لأن الترقى سنة الطبيعة، و البداوة أصل ثم يذوب أهلها على الزمن فى الحضر. تبعد منازل البدو عن سواحل البحر المتوسط غالبا، و لا تزال تمتد فى الداخل حتى ينتهى العامر من ديار الشام فى الجنوب و الشرق، و هناك البداوة بأجلى مظاهرها. و الأولى أن يقال مثلا فى عشائر الفضل و الهوادجة و البحاترة النازلين على ضفاف بحيرة الحولة، و بنى صخر الضاربين فى البلقاء، و بنى حسن فى عجلون، و الحسينة و الفواعرة و العكيدات فى أرجاء حمص، و بنى خالد عرب حماة، و الحديديين و الموالى و اللهيب و الغيار عرب حلب.

و السّبعة و الفدعان من عنزة النازلين من بحيرة الجبول إلى سلمية و عشائر البشاتوة و البواتية الغزاوية و المساعيد و نقار و الصقور عرب بيسان و نابلس و جنين و طول كرم، و عشائر شرقى الأردن التى تشتو فى وادى العربة أو الأغوار، أو الحماد أى الصحراء العربية شرقا، و تصطاف فى أرض معينة الحدود معروفة- فالأولى أن يطلق على هذه القبائل اسم نصف حضرية

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۱۰

لأن منها من يزرع الأرض، و من أفلح فى الفلاحة، و أيقن على الأيام أن العيش الثابت خير من المتقلقل، و أن من يدفع للدولة أجرة حمايته، أهنأ بالا ممن يتكل فى حمايته على نفسه و سيفه و عصبيته.

و هكذا يقال فى عرب الغياث و العمور فى اللجا و الصفا، و عرب العدوان و الأيديات و العباد و المشالخة و الحمايدة و الشوابكة و الدعجة و العجارمة و النمر و الكايد فى أطراف عمّان و الصلت و مادبا، و الخرشان و الجبور فى الموقر و العليا و النقيرة، و بنى حميدة و السليط و الحجايا و الحباشنة و الصرايرة و الطراونه و كثر ربة و المعايطة و المجالى و المدانات فى أرجاء الكرك، و الحويطات و الدمانية و أبى تايه و المطالقة و النعيمات و الديابات و بنى عطية فى جهات معان، و عرب الشرور و بنى عطا و الهلالات و العبيدية و العلايا فى وادى موسى و جبال الشراة، و الحميدات و عبدين و البحارات و الكلالدة و الوهبيات و المناعين فى الطفيلة، فإن كثيرا منهم يزرعون الأرض، و يقومون على تعهد الماشية، و قد يبعدون فى الانتجاع ثم يعودون أدراجهم.

و على مثل هذه الحال عشيرة العمور فى أرجاء تدمر و عشائر بوشعبان فى السخنة و الجبور فى البوكمال و الكعيدات فى الميادين و دير الزور و غيرهم من العشائر النازلة على شط الفرات الغربى، فإنها كلها نصف متحضرة و بقليل من العناية تدخل فى المدنية و تترك عاداتها و شقاءها، و يسوغ لنا أن نستنتج أن البادية حتى أكثرها إيغالا فى البداوة يمكن تحضيرها إذا أكرهت على التحضر خلافا لما يذهب إليه بعض أهل الغرب. و فى الشام قبائل من البدو مثل عرب الروالة من عنزة و هم لا يقلون عن عشرين ألف نسمة، يتنقلون أبدا كالنور أو الغجر كل مدة فى ناحية، و لا ينزلون المدن إلا لابتياع حاجاتهم و بيع جمالهم و أصوافهم و ألبانهم. و النور جيل منحط من الناس يرتحلون كالبدو و يعملون الأعمال الخسيسة، و لذلك يحتقرهم جميع أصناف العالم من أهل المدن و القرى و البدو، و هم قلما تخلو منهم بلد و منهم عدد كبير فى أوربا.

و لا تختلف عادات العشائر لأنها كلها فى حالة أولية فطرية هدتهم إليها الحاجة إلى الحياة، فعشائر ولد على و السرحان و المعجل و السردية و النعيم

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۱۱

فى حوران و القنيطرة و الزوية، و الزريقات فى طرابلس و التياهة و العزازمة و الترابين و الجبارات و الحناجرة و الكعابنة و الصرايعة و

الجهالين و فقرة و ثبانى و هارين و فرحات و زويديين و ضواحك و سلامات و صقرير و الرسيلات و أبى صونية و الغوالبة فى أقصى فلسطين أى فى أرجاء بئر السبع و غزة و الخليل و المجدل، و عشائر القدس و رام اللّه و بيت لحم و أريحا و يافا و الرملة كالسويطرة و عرب النبى روبين و الجماسين و أبى كشك و السوالمة و العوجا و الديوك و النويعمة و الخطباء و الفهيرات و العرينات و النصيرات و التعامرة و العبيدية و السواحرة و عرب حيفا و عكا و زمارين و الناصرة و طبرية و صفد و هم الغابة و العواضين و الشقارات و الزبيدات و التواتحة و الكمابية و الضيبة و بنى عزة و النغناغية و الرمل و عرب التركمان و جسر الزرقاء و قسارية و الفقرة و نفيعات و الدمايرة و السواعيد و السمنية و الغوارنة و السويطات و الحجيرات و الطوقية و المريسات و صبيح الحجيرات و المزاريب و السبارجة و الجواميس و الغزالين و التلاوية و المواسى و السرجونة و السدور و السمايرة و الخرامية و السماكية و المنارة و كراد الخيط و الملاحة و الشمالنة و البويزية و الزنغرية و زبيد و قديرية و طوبا و حسينية و علمانية و وقاس و الصويلات و النميرات، و عشرات من القبائل كلها متشابهة فى عاداتها و أحوالها الطبيعية و جلها لا تسد مطامعه إلا الغارات و استباحة حمى المعمور، عرفوا بذلك منذ عرف تاريخهم. و كان الرومان خاصة يقيمون المخافر خوفا من اجتياحهم القرى و يقيمون لهم منهم زعماء يصدونهم عن الاعتداء بعضهم على بعض، أو يحولون دون اعتدائهم على المقيمين من سكان المزارع و الدساكر.

و فى تاريخ فلسطين أن العزة و السيطرة كانت فى جميع بلاد الساحل و السهل للبدو و أهل الدير، فبلاد السبع و غزة كانت منقسمة بين العزارمة و الحناجرة و الترابين و التياها و الجبارات، فالعزارمة يمانيون و مشايخهم أجداد ابن سعيد، و أمراء الترابين عائلة أبى ست، و أمراء التياها الهزءيل، و أنساب هذه القبائل غير صريحة فإنها مزيج من عشائر مختلفة و قبائل متنوعة و فيهم القيسى و اليمانى، و بلاد الخليل أكثرها قيسية و مقاطعة القدس يمانية و قيسية اه.

و كما عرف البدوى بأنه يجير الملتجئ إليه، فهو كذلك إذا آنس ضعفا

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۱۲

من أحد أبناء السبيل فى البرية سرق منه ماله و ثيابه أو هميانه و دابته، و ندر أن يقتله فشأنه شأن معظم البشر عبد القوة لا يحاذر غيرها. و لطالما كان الجنود الشاميون أيام كانوا يفرون على عهد الترك من اليمن تطيل البادية عليهم أيدى الاعتداء تارة و يكسونهم و يطعمونهم تارة أخرى، و هكذا كان الفار يعرى و يكتسى مرارا حتى يصل إلى المعمور من دياره.

و ماذا يعمل البدوى و ماشيته ترعى أمامه، و كيف يصرف ليله و نهاره، و كيف تطيب له الحياة فى الصيف و الشتاء، و هو معرض لأشد الحرارة و أشد البرودة، و خائف على الدوام يترقب غزوة خصمه و قبيله الذى يعاديه؟

لا- جرم أن البدوى، و هو بذكائه و فراسته معروف موصوف أكثر من الفلاحين أهل القرى، يعرف من الأخبار التى تهمه من أنباء العالم ما ينبغى له الإحاطة به، و يتناقله بسرعة البرق، حتى إن ما يحدث فى الحجاز أو العراق، يصل خبره إلى ابن بادية الشام و ما وراءه من العرب، قبل أن تصل السيارة و البريد، فينتقل الخبر فى الأفواه من فم إلى فم، و يسمون الأخبار «العلوم» و أول ما يسأل البدوى فى البادية أو المعمورة عن العلوم. و إذا لم يكن عند البدوى ما يتسلى به من القصص و الأخبار التى تكون فى العادة نمطا واحدا يأخذ شاعر القبيلة ربابه يضرب عليها، و يفكههم من نظمه أو من محفوظه بأشعار. و فى الغالب أن يكون ما ينشدهم إياه بلهجتهم التى يألفونها. و يحتوى على الأكثر الحماسيات و أخبار الغزاة و الغزوات و أيام الشجعان و حوادث الكرماء و الضيفان. و الرقص معروف عندهم و هو الدبكة أو السحجة يرقص فى الغالب الفتيان و الفتيات، دون الرجال و النساء المتزوجات.

و مهور النساء غالية فى بعض العشائر، و تكون من الجمال و الشياه غالبا لا- من النقود لقلة تداول النقد بينهم فهم يتقايضون الحاصلات، كما يتقايضون البنات بالحيوانات. و البدوى يخصب إن جادت المراعى من خيرات السماء، و إلا فقد أترب و أجدب، و نفقت دوابه فأعوزته اللقيمات.

و يجلس الرجال فى العراء فى خيمة مضروبة تكون فى الغالب خيمة الشيخ أو الغنى، يتعاطون قهوة البن و هم يجيدون طبخها لفراغهم

و توفرهم على معالجتها. و قد يستغنى البدوى عن الأكل أو يقلل منه كثيرا، و لكنه لا

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۱۳

يستغنى بحال عن تعاطى القهوة فى كل ساعة فهى نقله و حلواؤه و شرابه المنعش، و قد يصرف أحدهم ثمن بنّ فى السنة أكثر مما يصرف على طعامه و لباسه. و أحب الهدايا إلى قلب البدوى أن تحمل إليه مقدارا من البن. و طعامهم من أسهل الأشياء، مقصور على بعض الألبان و البرّ و الجريش و الأقط و العصيدة، و لباسهم ساذج للغاية و كسوتهم متشابهة: قفطان من القطن، و عباءة خفيفة، و زنار عادى، و كوفية و عقال، و لا يلبسون فى الأعم من حالاتهم قمصانا و صدرا و سراويل، و أكثرهم حفاة، و يصطنع بعضهم كسكان وادى موسى نعالا من جلود الأباعر ينيطونها بحبال يدخلون فيها أباهم أرجلهم تعلق بها.

قلّ أن تجد فى البادية من يقرأ و يكتب، فقد تبلغ العشيرة ألف نسمة و لا تظفر فيها بمن يكتب جملة. و من العشائر من تستأجر خطيبا من أهل الحضر يكون معها فى مشتاها و مصيفها، يقرئ بعض أبناء العشيرة القرآن، و ينظر فى الأنكحة و الطلاق و يعظهم بما يعلم من أمور الدين. و أكثر البادية لا يتطهرون و لا يصلون و لا يصومون و لا يعرفون من الإسلام إلا أن اللّه واحد و أن محمدا رسوله. و لو لا هاتان الكلمتان لقلنا إنهم كعرب الجاهلية حذو القذّة بالقذة و قد تصلى بعض القبائل كالروالة، و لما كان الماء يعوزهم فى منتجعاتهم و تنقلاتهم فهم يتيممون صعيدا طيبا، و اللّه يعلم هل يحسن أكثرهم قراءة فاتحة الكتاب، أو يعرفون بعض سوره الصغار. و ما كانت هذه العشيرة تصلى من قبل لو لا أن لابسها بعض دعاة الشيعة و علموا كل فريق منهم إقامة الصلوات، و لقنوهم بعض معتقدات التشيع من حيث لا يدرون.

و قد تديّن اليوم أى دان بالمذهب الوهابى قسم من الروالة لما لحقوا بنجد، و المذهب الوهابى مذهب محمد بن عبد الوهاب و هو مذهب أحمد بن حنبل بأصوله و فروعه.

و إذ كان من الأمور العادية فى البادية أن تكون القبائل فى خصام دائم، و هى أشبه بحكومات صغرى تتقاتل و تستعين بالغريب على خصمها، مست الحاجة إلى قضاة يفصلون بينها فى المنازعات، و قضاتهم منهم يتقاضون عندهم بأجر معلوم، و أحكامهم سريعة نافذة، و من أحكامهم ما هو مطابق للشرع

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۱۴

الإسلامى، و منها ما هو من بنات أفكار القاضى، أو يأخذه من العرف و العادة.

و الاختلافات تفض بين المتخاصمين على أيدى الرؤساء صلحا على الأكثر.

و قلّ أن يراجع البدوى الحكومة فى مسائله لأن من أصولها البحث و التحقيق، و هو يحب قضاء عاجلا، و أن يحكم له أو عليه فى جلسة واحدة، و ينفى القاتل فى بعض القبائل سبع سنين فإذا صالح أهل القتيل و دفع الدية يعود إلى عشيرته، و تختلف دية القتيل بين (۳۳) ألف غرش إلى (۱۵) ألفا، و لا يحق عند بعضهم لأحد بعد سبع سنين أن يثأر للقتيل، و الأخذ بالثأر كثير عندهم، و لا مدة عند معظمهم للمطالبة بالثأر. و من المأثور عنهم أن البدوى أخذ ثأره بعد أربعين سنة و قال: إننى تعجلت أخذه. و جزاء السارق تغريمه المال المسروق من ضعفين إلى أربعة أضعاف، و ينجو السارق بالفرار، و يدفع الضارب للمضروب إذا عطل منه عضوا نصف الدية. و الزانى يرجم عندهم حتى يموت و لكنهم تساهلوا فى هذا الحكم، و الفحش عندهم على نسبة ما هو عند الحضر و يكثر فى بعض العشائر و يقل بحسب اختلاطها بأهل المدن و بعدها عنها، و الخمور لا أثر لها فى البادية لأن العرب قلما يشبعون الخبز و الإدام فمالهم إذا و المدام، و لشظف العيش عندهم يعدون فى الأعياد اليوم الذى ينزل على شيخهم ضيف يجب أن ينحر له شاة فإنهم فى تلك الوجبة مدعوون كلهم بالطبيعة، و عندما يأكلون اللحم فترى قطعانه تسافر من فوق الرؤوس حتى يطعم من «المنسف» البعيد منهم عنه، و تسمع عندها تعريق اللحم عن العظم أشبه بأصوات حيوانات وقعت على عظام.

و يكثر تعدد الزوجات بينهم خصوصا عند من يملك بعض نعجات أو بضعة أباعر فتراه طول النهار و جزءا من الليل، تحت خيمته

يتقهوى أى يشرب القهوة مستلقيا على قفاه، يقص أقاصيصه و ينعم ببطالته، على حين ترعى امرأته و بناته الغنم و الجمال، و يحتطبن الحطب أو يجمعن العشب، و تحمل المرأة الماء على رأسها من مكان بعيد، أو تستقيه فى قرب تحملها على حمار إن كان صاحبها من أهل اليسار، و تستخرج المرأة الزبد و السمن و تعمل الجبن و تخبز الخبز و تهيئ الطعام. و يعيش أولادهم كالسائمة فى البرية بدون عناية و يهلك معظمهم قبل الخامسة من العمر، و لهذا تكون أجسام من يفلتون

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۱۵

منهم من الموت قوية تبعا لقاعدة بقاء الأنسب. و هم لا طبيب عندهم و لا جراح و لا قابلة إلا ما تعلموه من أجدادهم من الوصفات، و ثقفوه بطول الزمن فى مداواة الجروح، و يداوون أكثر الأمراض المستعصية بالكىّ أو بأدهان و حشائش لهم يعرفونها. و أمراضهم قليلة بالنسبة لخشونة عيشهم و جشوبة طعامهم و قلة تطهرهم، و ذلك لمكان الهواء النقى و الشمس المطهرة من أجسامهم و لندرة ما يطعمون من الأطعمة المركبة من حامض و حلو و حار و بارد، و لقلة الهموم التى تساورهم و ما تساور فى العادة إلا سكان المدن و القرى ممن يفقهون واجبات الحياة، و يكدحون فى طلب المعاش و لا يزالون مأخوذين بحب التقليد. و البدوى حاد النظر يرى الأشباح من مسافة بعيدة جدا، و قد يرى و القمر ليلة هلاله ما لا يبصره الحضرى، و من رآه فى تمييز المرئيات عن بعد باعد، يكاد يصدق ما ذكرته العرب عن نظر زرقاء اليمامة. و كما كانت أبصارهم حادة كانت أسنانهم و أضراسهم سليمة براقة للطف أخلاطهم و تخليطهم.

قال أديب و هبة: «إن سكنى البدوى فى بيت الشعر فى البوادى المحفوفة بالأخطار و المشاق، و بعده عن الحامية و انتباذه الأسوار، قد ولد فيه عدة مزايا يمتاز بها على الحضرى، منها الشجاعة و العصبية و الكرم و الوفاء و الأنفة و النجدة فتوغل البدو فى البادية، و تولعهم بالغزو و الغارات قد جعلهم فى قتال أو استعداد دائم للقتال، فأصبحت الشجاعة فيهم طبيعية، و تعذر قيام الفرد مهما كان شجاعا بمقابلة العدد العديد من العدو قد اضطرهم للالتجاء إلى العصبية، و هى التضامن المطلق بين أفراد القبيلة، حتى تطلب العشيرة بأجمعها بحق أحد أفرادها، و أقرب أسبابها لديهم الأخوة و الأبوة و العمومة، و منها تتألف الأسرة، و من الأسر تتألف الفصيلة و تتدرج بهذه الصورة إلى القبيلة. و الذى عليه عشائر الشرق العربى أنها تطلب و تطالب بحقوق أفرادها إلى الجد الخامس من جدود الطالب و المطلوب، أى لكل فرد يتصل مع أيهما بالجد الأول أو الثانى أو الثالث إلى الخامس الحق بطلب حق قريبه، و عليه أن يخضع للحق المطلوب منه، و لهم بذلك قوانين و قواعد موروثة.

ثم إن ابتعاد البدو عن المدن و تفردهم فى الأرض المقفرة يضطرهم إلى إكرام

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۱۶

الضيف و القاصد و حماية الضعيف و الملتجئ، حتى إذا وقع أحد أفراد قبيلتهم بمثل هذا الأمر الذى يكثر حدوثه لديهم يتقاضى ما أسلفه. و قد قويت هذه المزية فيهم حتى ضرب بكرمهم المثل، وفاقوا به سائر الأمم. و إن مطاوى التاريخ العربى مستفيضة بأقاصيص كرماء العرب و كرمهم العجيب. و البدوى يعتقد أنه لا ذكر له و لا إرث أفضل من سمعة الكرم و الجود. و إن هذه المزية لا تزال عند بدو الشرق العربى على ما كانت عليه فى زمن أجدادهم الجاهليين.

فلا يحل ضيف بيت أحدهم غنيا كان أو معدما، إلا و يسرع لتهيئة كل ما يرضيه و يسره، و إن الكثيرين منهم يضطرون إلى تحمل أعباء الدين الثقيلة لإرضاء قاصدهم. و إذا استأمنهم مستأمن على أمانة فدوا لحفظها أموالهم و أولادهم و أنفسهم، و كذلك إذا التجأ إليهم خائف، أو استجار بهم مظلوم، أو نزل عليهم موتور مطرود».

رأى فى الأخلاق الشامية:

تمثل الأمم فى العادة طبقتان من أبنائها «الوسطى و العليا». و الطبقة الدنيا و هى طبقة العامة مستتبعة لا متبوعة، لأن ما هى فيه من تأخر أسباب الحياة، لا يترك لها مجالا للتفكير فى شىء، غير ما يقع تحت حسها مباشرة، و تشتد حاجتها الطبيعية إليه. و قد تقلد الطبقة

السفلى الطبقة الوسطى تقليدا خفيفا لا يكاد يشعر به، و تقليد الطبقة الوسطى الطبقة العليا أشد ظهورا من تقليد الدنيا للوسطى. و تتجلى فى الطبقة العليا مظاهر السعة فى العيش، و البسطة فى العلم أو الحضارة، و هى أبدا حريصة على مكانتها، تحاذر سقوط شأنها من أنظار الطبقتين التاليتين، و تعد السؤدد كل السؤدد، ما هى فيه من جاه و مال و مجد و علم.

يعد من الطبقة العليا العلماء و العظماء و القواد و أرباب الأموال، ممن يسيرون الجماعات إلى حياتها أو موتها، و ينفثون فى روعها ما يرفع مستواها العقلى، و يطهرون نفوسها من الآثام و الآلام، و بأيديهم زبدة ثروة الأمة و جهودها، و إليهم منتهى ما بلغته قرائح أبنائها يمثلون التسلسل فى الفكر، و تتجسم فيهم الإرادة الثابتة و العزيمة الصحيحة، و هم صورة البيوت الخالدة

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۱۷

و منعكس التأثيرات الطريفة و التالدة، و مثال الشعب و رقيه و وجهه الوضاح الجميل، و فى قبضتهم مفاتيح المفاخر و مغاليق المآثر و هم المذكورون و هم المشهورون، و مصير غيرهم إلى الخمول و العفاء.

من أجل هذا كان على تلك الطبقة أن تتحلى بحلى الفضيلة و الشرف، و أن تكون عفيفة الطعمة حسنة الأحدوثة، بعيدة عن الموبقات و البذخ و السرف، حريصة على النهوض بالأمة تشارك فى المسائل المدنية عن عقيدة راسخة و تأخذ بأيدى العاثرين و البائسين، و تلقن أبناء أمتها علما ينتج الثروة و يحفظ المجد، و يولى الكرامة. و إذا جنت بالظهور من دون استعداد له و حاولت الاحتفاظ بمكانتها دون أن تتذرع بأسباب البقاء، و بتجديد مواد حياتها الحين بعد الآخر، فإن عزها لا يلبث أن يزول، و سعادتها توشك أن تضمحل، و من العبث أن تعيش هذه الطبقة بشهرة أجدادها من الحكام و أهل الشرف و أرباب المظاهر، و أن تعتقد أن جماع المفاخر وقف على أحسابها و أنسابها، و تطلب من كل إنسان أن يرفع مقامها لأن من أجدادها من كان على شىء من الفهم أو الظهور، أو أنه كان يسفك الدماء و يستحل أكل أموال الناس حتى أثرى و خلف عقارا و قرى و صامتا و ناطقا. و رب صعلوك فى نظر المتمجدين كبير فى عيون الخلق. و الكبير من كبرت أخلاقه، و نفع الناس و انتفع بهم.

و إذا جئنا نحاسب مثلا بعض من انتسبوا إلى الدين، و هم أشرف الفئات فى العرف نراهم أقرب الناس إلى امتهانه بأعمالهم، يأتون ما لا ينطبق على جلال منزلتهم. فقد فشت المطامع فيهم و استحلوا الأموال مهما كان لونها و طعمها و رائحتها، و أتوا للاحتفاظ بمظاهرهم القديمة من الأعمال ما بدت به مقاتلهم، فقضوا بفساد ذممهم على أوضاع الأمة، و ركبوا مراكب الهوى و استمرأوا لأنفسهم أكل ما اعتقدوه حلالا طيبا فأضاعت الأمة مشخصاتها و مقوماتها، و أصبحت مزيجا غريبا لا تعرف كيف تكيفه. و ليس فى المجتمع من يناقشهم الحساب، و كيف يناقشون و هم المرجع و هم الهادون. و كان المشار إليهم بالبنان من أهل هذه الطبقة فى الدهر الغابر، يدلون بشممهم على الخلفاء و السلاطين، و يسيطرون بإخلاصهم على القضاة و الحاكمين، و من هانت عليه عزة نفسه يوشك أن يستهين بكل محمدة. و لقد أدركنا أحد كبار شيوخ

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۱۸

العلم، لما شاهد هذا التسفل فى طبقة العلماء يشير على طلاب العلم الدينى أن يتقن كل واحد منهم صناعة حتى لا يسفّ لأحد يستجدى نواله، و لا يمسى عالة على أبواب الحكومات و أرباب السلطات، إن احتاج إلى صناعته احترف بها. و إلا كان لمناصب الدين و الدنيا مخطوبا لا خاطبا.

ولى سويد بن عبد العزيز قضاء بعلبك سنة (۱۶۷ ه) و كان محتاجا، فلقيه داود ابن أبى شيبان الدمشقى فقال له: يا أبا محمد وليت القضاء بعلم العلم و الحديث. قال: نشدتك اللّه أتحت جبتك شعار؟ فقال داود: نعم. فرفع سويد جبته و قال: لكن جبتى ليس تحتها شعار. و قال: أنشدك اللّه هل هذا الطيلسان لك؟ قال داود: نعم. قال سويد: فو اللّه ما هذا الطيلسان الذى ترى علىّ لى، و إنه لعارية، أفلا ألى القضاء بعد هذا، فو اللّه لو و لونى بيت المال فإنه شر من القضاء لوليته اه. هذا قول عالم فى زمن كان صاحب السلطان يطلب الأكفياء إلى القضاء فيفرون منه فرار السليم من الأجرب. و منهم من ضرب لأنه لم يقبل أن يلى القضاء، و كان محتما عليه قبوله

لانتهاء الرياسة فى العلم و العمل إليه. كان هذا فى ذاك العصر الذهبى فما بالك بالعصر الأخير، و الجهال يتطلبون مناصب الدين إلا فى الندر، و يقدمون لتوليتها الرّشى و الهدايا و قلّ فيهم النزيه الذى يستحق أن يطلق عليه اسم العالم، أفلا تسقط بجدّك هيبة هذه الطبقة من النفوس بعد هذا؟

و بينا تجد بعض القائمين على الدين من أهل السواد الأعظم لا يهتمون لغير إملاء جيوبهم و بطونهم، تشاهد بعض رجال الدين من أبناء الطوائف الصغيرة يجمعون شمل من التفوا؟؟؟ حولهم، يقودونهم إلى محجة سعادتهم، و يؤسسون لهم دور التعليم و القربات، و ينشلونهم من السقوط الذى صاروا إليه بحكم الأيام. فلا بدع إن جاء مجموع الطوائف المسيحية على قلته فى الشام، أرقى من مجموع الطوائف الإسلامية على وفرة عدده وسعة ثروته.

و كان من أثر الرياسة الدينية المنتفية من الإسلام أن استخدمها أهل النصرانية فى المصالح المهمة، فكان لهم فيها عموم النفع. و كانت هذه الرياسة على ما فيها ناجعة فى تهذيب الشعب عندهم، فأخرجوه من تيه الفوضى إلى باحة النظام. و هذا هو سر الترتيب الذى تراه ماثلا فى المجتمع النصرانى و هو على

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۱۹

حصة ضئيلة فى المجتمع الإسلامى و لا- يؤاخذ الإسلام بانحطاط أهله و ما المؤاخذ إلا من أخذوا على أنفسهم عهدا بأن يطبقوا مفاصله فأهملوا واجبهم، و لو كان الدين عاملا من عوامل سقوط أمة ما كانت اليابان و هى تدين بالبوذية فى مقدمة أمم الأرض علما و عمرانا.

و لا مشاحة فى أن من طبقة الدينيين فئة صالحة، و لكنها كانت فى كل عصر تلقى الحبل على الغارب لغلبة اليأس عليها، و هناك فئة أشد تأثيرا و ظهورا و هى التى طالما قدمت و أخرت و باعت من هذه الأمة المسكينة ما شاءت و شاءت منافعها و دارت فى كل دور مع مطامعها كيف دارت. إلا أن الدهر عاقب هذه الطبقة بما احتقبته من الكبائر، فضربها ضربة آذنت بانقراضها لأنها لم تجار الزمن فى نشوئه، كأن تكون مثال الفضائل تربأ بأنفسها عن الغيبة و النميمة و تتشرب أفئدتها حب الصدق و الصدع بالحق و تتحامى مزالق التغرير و التضليل و تحضر و كدها فى واجبها من إرشاد العامة من طريق العلم الصحيح، فى زمن اشتد فيه النزاع بين القديم و الحديث، أو بين الدين و الإلحاد، و تجلى الانتقال فى كل مظاهر الحياة. و ما زالت هذه الفئة تحاول أن تسترد بالثرثرة و التبجح مجدا زائلا، و هى فى حالة المحتضر لا تبدئ و لا تعيد.

و ما تحدثت أن تخرج من جهالتها، و تتطور بطور العصر، و تأخذ بحظ من العلم الدينى و المدنى، و تتحلى بشىء كثير من مكارم الأخلاق.

كان أحد أفراد هذه الطبقة أبلى فى الدعوة الدينية بلاء حسنا، و رزق قلما ماضيا، و عزما مؤاتيا، و استعد للنزول و النزال فى ميدان دعوته، يحمل أكثر أدواتها. و ما عتم أن ترك ما هيأته الفطرة له و أكسبته إياه التجربة و طول المدة و حاول بلوغ مظهر جديد اعتقد أنه جماع المظاهر، و هو لم يتمرس بآدابه، و لا عرف مداخله و مخارجه، و غلبه حب الشهرة فادعى ما لم يخلق له و لا تخلّق به و نسى الغرض الذى يضطلع به، و راح يستغل موضع الضعف من فطرته و لا يعتمل فيما يرجى فيه كماله، ترك سيرته الأولى و هام بمظهره الثانى، زهد فيما يحسن و حاول التلبس فيما لا يحسن. و غريب من إنسان لم يقنع بمنزلة طيبة وضعته فيها بيئته و تربيته، و يجاهد جهادا آخر فى ساحة الوغى و لا سلاح معه يستخدمه، و لا آلة من أدوات الحرب يتقنها. الذكاء

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۲۰

وحده ينفع إلى حد معين، و أدوات النجح فى طريقه تحتاج إلى علم و فطرة.

و العلم بالتعلم و التريض، و الفطرة هبة لا تباع و لا تشرى.

أنت يا هذا إذا حفظت قواعد علم من العلوم، يتعذر عليك أن تدعى الكيمياء و الطبيعة أو السياسة و الاجتماع، علوم مختلفة طويلة

الـذيل لا ينفع معها التخليط. القواعد المجملة التى تحفظ من كتاب فى موضوع تحتاج فى إتقانها إلى صـرف طائفة طويلة من عمرك فلا تعطيك القريحة قياد كل أمر و لا تيسر فى سبيلك كل دعوى. و لذلك ترى من هذا شأنه صاعدا متدليا، ينفى اليوم ما أثبت أمس و يحـارب حينـا من سـالمه زمنـا، يصانع أرباب القوة طورا ثم يقلب لهم ظهر المجن تارة، إذا لم يسـتمرئ ما أطعموه و لم يسـتقبل من أمره ما استدبر فى وضع الخطط التى خطها لهم، و الناس كلهم فى نظره صغار عقول و أرباب فضول و هو لا يرى غير نفسه استجمعت ضروب المحامـد، و لـذلك لاـ يضن عليهـا بما يمجـدها، و يضع الألقاب الضـخمة لها و ينوه أبـدا بما انطوى عليه من شـرف و علم و عمـل، و من رضـى عنه من النـاس ينيله من عطفه مـا لو وزن أيضـا فى ميزان القسـط لشـالت كفته. و العاقـل من أنصف نفسه قبـل أن ينتصـف النـاس منه، و من ظلم نفسه كـان حريـا بـأن يظلم غيره، و لهـذا أمثـال غير قليلـة فيمن يلقبونهم ب «البـارزين» و الخواص أى النابهين.

نموذج آخر. بينـا تجـد الأول يجرع دعوته كما يجرع الصاب و العلقم و يسـتعلى و يسـتطيل و يحاول أن يثبت أنه مصـدر كل خير، لو اسـتمع الناس له لتمت سـعادتهم الدنيوية و الأخروية، ترى أخاه قد اتخذ فى الحياة غير طريقته و خالفه فى سـيره و سيرته، فقد لقن فى صبـاه مجملات يحكم فيها بالجزئيات على الكليات حكما مسـمطا و يتلطف و يتطرف ليجـد السبيل إلى قلوب العامـة و السوقـة لأنهم كثير سوادهم يسـتميلهم بالدعابـة و الفكاهـة، و مـاذا يهمه من الخاصـة و هم قليـل عديـدهم، و مـا ينـاله من غضـبهم و رضاهم ما دام الجمهور عنه راضـيا. و أحسن ما يراه للوصول إلى قلوب العامة أن يرضـى كل صاحب سلطان، لأن فى رضى القوىّ تنطوى المظاهر و الدنيا و هو عبدها و غايته من الحياة السجود على أبواب سدنتها، لا يبالى أن يصعق

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۲۱

كـل من لم يمـالئوه، و يتوهم أن النقـاد لاـ يفرقون بين الزيف و البهرج، و لاـ بين الهازل الماجن و المجـد المجاهـد، و العلم الحقيقى يولى صاحبه عزوفا، و إذا قرن بالتهذيب لا يحاول صاحبه درجة إذا تخطاها أدركه العثار.

عرفت عالمين دينيين أريـدا على أن تفتح لهما أبواب الرزق، و تغدق عليهما المظاهر على أن يسـفا إسـفافا خفيفا يكون فى السـكوت عن رجل كان لهما صاحبا قـديما فحاز مظهرا كبيرا من مظاهر الدنيا حسده عليه عبيد المطامع و الشـهوات، و كان جوابهما كل مرة أن من لا يعمل للمصـلحة العامة لا يسـتحق صداقتنا، ليأت ما اسـتطاع من الخير و نحن بالطبع له الأخلاء الأوفياء لا نريد منه جزاء. و هكذا قاطعاه و هو الحاكم المتحكم فى الدولة، و هكذا عزفت نفسهما عن أن يرقصا للقرد فى دولته و يزينا للظالم ظلمه و هو فى أوج عزته.

زهدا فى الجاه العريض لزهد صاحبه فى الفضائل و شدة هيامه بدرهمه و دينار.

رجلاـن يأكلاـن اللقمـة بالتسـفل و الريـاء و آخران جـاهرا بأنهـا تؤكل بـدون هـذا. و هـذا مثال من أخلاق بعض المعاصـرين، و عبرة للأعقاب فى الغابرين.

ظهر التعطيل فى الإسـلام منـذ قرون، بما قام به المبتدعـة من أهل الطرق و سـخفاء الدجالين و القصاصـين، فانحطت العقول و ضـعف مسـتوى العلم و التهـذيب فى الناس فمن تصدى يا ترى لمحاربة هذه الضـلالات التى لم ينزل بها سـلطان؟ فشت أخلاق سـيئة تخالف هـدى الـدين فتغافـل الموكل إليهم هدايـة الخلق عن انتشار سـمومها كأنهم يقرونها، و تركوا رعيتهم هملا كالسائمـة. و كانت دروس العلم مباحة موروثة إلى أوائل هذا القرن، و بتساهلهم كاد العلم الإسلامى ينقرض. و جاء كثير من مرتزقة الوعاظ و الخطباء و الأئمة و القضاة جهلاء يفتون بغير علم، و يخطبون بالمبتذل الساقط، و يلهون الجمهور بالقشور، و يبيعونه من سـلعهم الكاسدة ما لو ائتمر العوام بأوامرهم لرجعوا ألف سـنة إلى الوراء. و إذا اجتمع هؤلاء الدينيون إلى أكثر زعماء الأديان الأخرى، ظهر الفرق بين التقصير و العناية و تجلت المباينة بين من ساروا مع الزمن، و من عاندوا الحقائق و حاربوا العقل و جمدوا فى الفكر، و مالوا إلى الكسل عن العمل. و فوق هذا تراهم يجمعون أموالهم بخرق حرمة كل

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۲۲

قانون و شريعة، و هم متخاذلون متفاشلون لا يكاد واحد منهم يزكى أخاه، و لا تجد خمسة منهم اتفقوا على مقصد واحد من مقاصد الخير. و العاقل يرجح الأمية على هذا العلم الذى لم ينتج خيرا لأهله و لا لغيرهم، و الأميون لا تصدر منهم هذه الجرأة على العبث بناموس الكمال. و من تفلتوا من حدود الشرائع على قربهم منها، كانوا أشد انتقاضا عليها من الجاهلين و الغافلين.

و تتصرف على هذه الطبقة، طبقة تلتحم بالخاصة أو العليا أيضا، من جماعة المتعلمين على الأصول المدنية الحديثة، فقد دب فى بعض هذه الطبقة سوس الفساد و لما تزل فى بدء تأسيسها، و ظهر لأرباب البصائر أن الدروس الطبيعية و الرياضية و الاجتماعية و الفلسفية و الحقوقية تنير العقل، و لكنها لا تحسن الأخلاق، إذا كانت منحطة من أصلها. و ربما كان العلم فى بعض هذه الطبقة أداة شر تستخدمه حبائل لصيد ما يسد المطامع. و الأخلاق مغروسة فى الدم و الأسرة، و العلم صناعة يتعلمه الذكى الدائب.

و لقد تلونت صبغة هذه الفئة فى هذه الأرض الطيبة، بألوان أهوية الأقاليم و جوائها، بل بألوان المدارس التى تخرجت بأساتيذها، فمن تعلم منها فى مدارس التبشير التى أنعم بها أهل أوربة و أميركا على آسية و إفريقية، جاءت إلا قليلا منحلة من ربقة حب الوطن و عهدة حب الجماعة، و استحكمت فى كثير من أفرادها الأنانية و الأثرة استحكاما هوّن عليها كسر قيود الحكمة و الخروج على الأدب الصحيح.

و قد اشتهر بعض هذه الطائفة بمعاداة الدينيين و الأعيان، و الإزراء بسائر الطبقات و أكل الحسد و الحقد قلوبها، فهى لا تتحاب بينها و لا تحب غيرها، و لا تعرف من محيطها أكثر مما يعرف الدخلاء: شمخت بأنوفها، و احتقرت كل من لم يجر على مثالها، و لا تثقف تثقيفها. و منهم من دفعه ما لقفه من تربية و حصله من تعليم ناقص، إلى خدمة الغريب، و الفناء فى محبته و الدهشة بكل ما يأتى على يده و قبول كل ما حمله من خلق و ثقافة و التغنى بتاريخه و مجده و التغزل بجمال بلده و الإعجاب بأوضاعه، أخذ كل ما أعطاه شاكرا مغتبطا، فخرج بذلك عن قوميته. و كثير منهم هجر بلده، إلى مكان ينبت بزعمه العز و يدر أخلاف الرزق.

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۲۳

و منهم من تعلموا فى مدارس الدولة المنقطعة و تخلقوا بغير أخلاقهم، و انحلوا زمنا من قوميتهم فلا يفكرون و لا يتكلمون إلا بالتركية، و لا يكتبون إن كانوا ممن يحسنون الكتابة إلا بالتركية. فلما تبدلت الحالة السياسية بعد الحرب العامة دفعتهم الضرورة إلى ادعاء العربية و كانوا من قبل يعقونها و هم من أبنائها، زاعمين أنهم تبدلت أخلاقهم بمجرد الانتقال من دور إلى دور.

و ليست الأخلاق بذلة تنزعها، و لا طلاء تزيله و تستبدل غيره به. و لما كان معظم من تعلموا هذه العلوم فى العهد السابق من أهل الطبقات النازلة فى أصولهم، كان الموروث لهم و الماثل فيهم من الأخلاق مثالا من أخلاق أهل جرثومتهم، و لذلك هان عليهم و يهون فى كل دور أن ينزلوا عن مشخصاتهم لأول طارئ. و هذه الفئة مضرّة بأخلاقها أكثر من الجهال لأنها تعلمت تعليما ممسوخا ظنته كل شىء. و مذ فارقت المدارس التى تفاخر بأنها تحمل شهاداتها، و كثيرا ما نال شهاداتها المتوسط و الغبى، ظنت أنها قبضت على قياد العلوم و ودعت الكتب فصارت ترجع القهقرى فى معارفها الأولية و تجلت أخلاقها فى كل ما عانته من الأعمال، فكانت إذا و سد إليها أمر تلتهم الأخضر و اليابس، و إذا بدا لها طمع تهزأ بالفضائل إذا لم تجلب لها السعادة التى تتصورها.

رأى المجتمع من سقوط الأخلاق فى بعض أهل هذه الطبقة ما تندى الجباه من تسجيله: رأى منهم من يقول و لا يخجل أنه إذا قيل له: إن الحالة الحاضرة ستتبدل بعد عشرين سنة يفكر مذ الآن فى أمر راتبه الذى يقبضه من سلك ما كان يحلم أن يحشر فى جملة أهله، و يقول أبدا: اعذرونى إذا خدمت أغراض كل صاحب قوة كما يشتهى، و إذا كنت له آلة فى كل ما يحب.

هو غنى الجيب فقير النفس. جاهل يحشر نفسه فى العلماء، و الطبيعة تضعه حيث تريد.

و منهم من جعل رأس ماله فى مصانعة ولاة الأمر مهما كانوا و التقرب إليهم بكل حيلة، لينال مظهرا يظهر به، لاعتقاده و اعتقاد كثيرين أن الشرف كل الشرف فى التقرب من الحكام، و أن كل مجد جاء من غير طريقهم لا وزن له إذا نصبت الموازين، و هؤلاء المتصدرون أسوأ مثال لمن حولهم.

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۲۴

يحببون إليهم الاتكال وضعة النفوس، و كأنهم يقولون: إن سبيلهم لا غيرها هى سبيل الفلاح و التمجد، و إن الفضائل لا شأن لها أمام المغانم. و إن العلم لا ينفع بغير تدليس، و الطريق المسلوك عندهم طريق المداجاة و المحاباة، و إتقان المؤمرات و السعايات.

و منهم أناس ظنوا و يا لسوء ما ظنوا، أن السعادة مناط القحة، و السعادة هى المال، و المال محلل أخذه من كل وجه، فتراهم يرتكبون كل شائن من العمل ليجمعوا مالا و يعددوه و يستمتعوا بمتع الحياة، فهم حراص على كل ما يوصلهم إلى غايتهم، سلاط فى التسور على مقامات أهل الفضل، يصمونهم بكل كبيرة و ينبزونهم بالخفة و الرعونة. جوزوا لأنفسهم السرقة، لأنهم لا مأرب لهم فى غير الإثراء، و جمع المال جماع المزايا فى نظرهم. احتقروا الشرائع فهان عليهم تبديل مذهبهم و التقرب إلى أهل كل دين و طريقة بدينهم و طريقتهم. و لو أنصفوا لعدوا لصوصا عارفين باللصوصية، و اللص يسرق خفية من طريق واحدة قد يكون فيها مكرها ليطعم نفسه و عياله، و هذا يسرق جهرة من كل طريق و يزيد على لؤم طباعه تبجحا بالمبادئ و الشرف و الأمانة، و من الغريب أن يرى حتى من الأذكياء من يجلونه أو يغالطون أنفسهم فى انحطاط أخلاقه و هم يعرفونها، و رحم اللّه شاعر مصر إسماعيل صبرى حيث قال:

غاض ماء الحياء من كل وجه‌فغدا كالح الجوانب قفرا

و تفشى العقوق فى الناس حتى‌كاد رد السلام يحسب برا

أوجه مثلما نثرت على الأجداث وردا إن هن أبدين بشرا

و شفاه يقلن أهلا و لوأدّين ما فى الحشا لما قلن خيرا

و منهم أناس ورثوا عن آبائهم استحلال أكل السحت و العبث بحقوق العباد. فلما تلقفوا القشور اللازمة لهم فى المدارس التى سموها بالعليا و مرنوا على النفاق و الباطل و مردوا على آداب الأديان و خرجوا عن أوضاع المجتمعات، جاءوا سراقا يسكنون القصور، و عاشوا طول حياتهم فى ذل النفوس، يجمعون بين المنازع المختلفة فى وقت واحد علما بأن أحدها لا بد أن تكتب له الغلبة، فإذا نجح كان لهم حظ من نجاح أهله، و إذا أثمر الآخر لم تفتهم خيراته، جعلوا

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۲۵

بيوتهم للخمر و القمر أندية و مسارح، و فطموا نفوسهم إلا عن إشباعها المال الحرام. و هم بأصحاب الملاعب أشبه منهم بالمتعلمين أصحاب المراتب، و إذا دخل الغرّ حانتهم و فيها كل مفعول جائز هان عليه انتهاك الحرمات، و إذا عاشرهم تعلم فى بؤرتهم من التزوير و التغرير ما يعاب به الحيوان فضلا عن الإنسان.

و منهم من ورثوا التذبذب من بيوتهم و أخذوا الدس و الوقيعة بالسند المتصل بآبائهم، و كان قصاراهم أن يحرزوا مناصب تمكنهم من المتاجرة بحقوق الناس و دمائهم، ليتأثلوا و ينفقوا فى السفه ما تأثلوه، فهم لا يستنكفون عن التقرب من أصحاب الشأن بكل ما لديهم من الوسائط، و يبسمون لعامة أصناف الناس بل و يصانعونهم على حين تلعنهم قلوبهم، و هم موقنون أن المصانع على الجملة يعرف كذب مصانعه، و مع هذا يمضون فى طريقهم و هم لا يحبون أحدا و لا يحبهم أحد. و نزع عقيدة عرفوا بها أمس، لتقلد غيرها اليوم، أسهل عليهم من نزع أحذيتهم و قمصانهم. قضوا أعمارهم فى نصب الحيل و المكايد، لا- يلذهم من دنياهم غيرها، و أكبر أفراحهم يوم يغشّون و يسرى فى الناس غشهم، كأن المدرسة التى تعلموا فيها لم تعلمهم غير ذلك.

و لكن هى الفطرة إذا فسدت فكل خير يأتيها يكون عارضا عليها، تنبذه و لا تسيغه.

و منهم أناس عرفوا منذ قبضوا على زمام أعمالهم بسلب نعمة الضعيف و محاولة التقرب من القوى نبذتهم الطبيعة أولا، ثم عمى الدهر عنهم فبلغوا مأربهم من المراتب، و لم تسعهم جلودهم يوم شاهدوا العز بعد الذل، فظهروا فى مظاهر من الكبرياء و العظمة، و من أين للسافل بأصله أن يكون فرعه عاليا. حصروا همهم فى العبث بالمصالح العامة، فلا يفكرون بغير إملاء جيوبهم، و الدهان لساداتهم مهما كانوا، و توفير المنافع لمن يحف من حول عروشهم، و إن كانوا من أحط الطبقات معرفة و أخلاقا. و قد رأينا من هذه الطائفة من يغير

سیرته فی السنة الواحدة مرتین، و یدخل فی آن واحد فی عدة أحزاب و جمعیات سریة و جهریة، و یقسم لکل واحد منها الیمین الغموس، معاهدا کل طائفة علی الإخلاص لطائفتها و حزبها و طریقتها دون غیرها، و هو لا یتوقع من هذه المرونة المستغربة إلا أن یکون له شأن مع کل

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۲۶

حزب إذا کتب له الظهور ..

و من هذه الفئة أناس لا- یهنأ لهم بال إلا- إذا اغتنوا، فلما انتفخت صنادیقهم بالورق و الورق، ضیقوا حتی علی بنیهم و بناتهم لئلا یسرفوا فی أموالهم، فاضطروهم إلی ارتکاب کل شنعاء، أما هم فعادوا یدعون الفاقة، فتراهم لا ینفقون إلا ما یحفظ علیهم مظهرهم، و یوصلهم إلی مرامیهم، کأن الدینار جعل للخزن فقط، و السعید من یجمعه و لو لم یستمتع به حیاته، و یخلفه لمن هم علیه أشد الأعداء، یصرفونه فی العهر و الخمر و الزمر و القمر. و لو أنصف هذا نفسه لأنفق بعض دخله علی ما یرفع مستوی أمته و یزیل بؤسها، و فی هذا ظهور له أیضا إن تاقت نفسه إلی الظهور.

و منهم طائفة تصلی و تصوم، و تلزم المساجد و دروس الوعظ، و تتظاهر بالدین، و تتقرب إلی حملة الشرع و أرباب الصلاح لا تفلت السبح من أیدیها، تتظاهر بأنها تذکر اسم اللّه فی غدوها و رواحها، و هی فی باطنها من أشد الخلائق عداوة للإنسانیة، تقول بألسنتها ما لیس فی قلوبها، و لو کشفت عنها الغطاء لأیقنت أنها من الشفقة بحیث لو شاهدت صغارا یتضورون جوعا ما أطعمتهم فتات موائدها، و لو بصرت ببائسین یرتعدون دنقا و عریا ما کستهم بلاس بلاطها و لا زودتهم حثالة مطابخها و أهرائها، و إذا وقع لها أن أکرهت علی نجدة بائس مؤوف تبجحت بما أتت، و قامت تومئ بلسان الحال إلی أنه لولاها لانهار بناء الأمة و تداعت صروح مجدها، و توهم أن وجودها رحمة، و عملها غبطة و نعمة، و لها فی نشر ما تتخیله محامد، أسالیب غریبة مضحکة.

و منهم أناس إذا عرفتهم فی العهد الماضی عرفتهم بعجمتهم التی لا- غبار علیها، و هم ما کانوا یجوزون لأنفسهم التکلم بلغتهم الأصلیة، فلما تبدلت السیاسة تبدلوا لساعتهم، و صاروا لغیر ما سبب معقول حربا علی من کانوا بالأمس یتمنون رضاهم، و أخذوا أنفسهم و أبناءهم بتعلم لغة من جاءوهم، و غیروا عاداتهم و لهجاتهم، و أنشأوا یستخدمون کل الطرق للاحتفاظ بکراسیهم، حتی إذا جلسوا علیها نسوا فضل المفضلین علیهم، و قد عاهدوا أنفسهم أن یخدموا کل صاحب قوة بالصورة التی تروقه مع

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۲۷

ذکاء فیهم و تجربة أحرزوها فهان علیهم أن یبیعوها مقابل عرض قلیل و مظهر ضئیل. التجسس فیهم فطرة و الإزراء بالقومیة و الوطنیة من مألوفاتهم ما أساءوا استعمال ما ائتمنوا علیه إلا لیغتنوا بطرق عرفوها، و یغنوا أبناءهم و لو کان فی ذلک هلاک مئات من الناس.

و منهم أناس کانوا فی أخذ المال کالعلقة یمتصون الطاهر و غیر الطاهر ثم یفیضون منه علی القانع و المعتر، و یطعمون الطعام و یکسون الأیتام. و منهم من جمعوا عشرات الألوف و مئات الألوف و لا تجود أنفسهم بدانق لتعلیم أطفال الفقراء و إنجاد البائسین و إکساء العراة. و إذا تصفحت جرائد الجمعیات الخیریة التی قامت فی العهد الأخیر لتعلیم الیتامی و إغاثة المحاویج، لا تسقط فیها إلا نادرا علی أسماء بعض أرباب السعة، بمعنی أن هذه الطبقة کانت أقل الناس فی معاونتها. و الطبقتان الوسطی و النازلة هما اللتان جمعتا الدرهم فوق الدرهم، اقتطعتاه من رزق عیالها، لتطعما به من هم أجوع منها، و تنشل من السقطة من هم أکثر سقوطا من بنیها.

و فی هذه الدیار عشرات من الأغنیاء یدمجون فی سلک الأعیان یعتزون بأموالهم، و یضنون بها کل الضنانة، اللهم إلا إذا کان فی صرفها إرضاء شهواتهم، و توفیر أنواع رفاهیتهم. و إذا أشیر إلیهم أن یشارکوا فی المصالح الوطنیة لووا وجوههم، و هزأوا فی باطنهم بهذه الأعمال التافهة، حتی إذا حلت بهم مصیبة أخذوا یستنجدون و لا- ینجدون، و یطلقون ألسنتهم فی رجال کانوا بالأمس یقدسونهم، و أنّی للأمة أن تعرفهم أیام شقائهم، و هم لم یتعرفوا إلیها أیام سعادتهم. هذا و هم أنصار کل حکومة تسوغهم أکل حقوقها و حقوق الضعاف، و تطلق أیدیهم فی ظلم الفلا-حین و المغفلین، و تعاونهم فی محاکمها علی فض قضایاهم بما یتفق مع

رغائبهم، و توسد إليهم أمورها المنتجة لهم مالا و جاها.

فى هؤلاء الأعيان رجل كان عنده من أدوات الزينة و التبرج ما يساوى المئات من الدنانير، و ربما كان ثمن ربطات رقبته المعمولة من الحرير لا يقل عن ألف جنيه، لأن عددها كان ألفى ربطة معروضة فى قاعة كبيرة، و كنت إذا أردته على أن يبتاع جريدة ليقرأها شكا إليك ضيق ذات يده،

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۲۸

و أظهر أن القراءة مما لا تسمح له به أوقاته الثمينة، و كان يدفن أمواله فى الأرض، حتى لا يظهر عليها الناس إذا وضعت فى المصرف، فظهر منها ألوف بعد أن أصيب بنكبة اضطرته إلى نبشها. و بلغ الشح ببعضهم أنه كان يطعم خدامه و أولاده طعاما غير ما يطعمه نفسه و زوجه، و يدعى مع كل من يجتمع إليه أنه فقير مملق، لا طاقة له على تحمل شىء، فلما اضطر إلى الكشف عن دفائنه كانت ألوفا عدا ما يسلفه بالربا الممقوت أضعافا مضاعفة وعدا مزارعه و حدائقه. و من الغريب أن يتطوع مثل هذا الرجل الذى رد إلى أرذل العمر فى الجاسوسية و هو يتظاهر بالتقوى. و أكثر هؤلاء الأشحة يظهرون فى العامة بمظهر المتصدقين و المحسنين، كأن تجود نفوسهم ببعض دريهمات لبعض المستكدين على رؤوس الأشهاد، ليقال عنهم إنهم أهل خير و صلاح. و هناك رجل كذب على قومه طول حياته الطويلة، بنسبه و علمه و تقواه، فلم يعدم بين ضعاف العقول من صدقوه فى دعاويه، و عاش بمداهنة الناس و بلغ من ثقة القوم به أنه إذا حانت منية أحدهم، يلوب على من يأتمنه على أولاده بعده، فلا يجد غير هذا المزوّر يقيمه وصيا على عياله لما اشتهر من أمانته بين السذج فى كل دور، فلا يلبث مال الموصى أن يمزق بيد الوصى.

و هكذا كان هذا الدعى بعد نصف قرن من المشار إليهم المجمع على تكريمهم، و قد عرف أيام تولى القضاء بتبرئة المجرم و تجريم البرىء. و من العجب أنه لم يسأله أحد من أين جاء بثروته، و العادة على الأكثر أن لا يسأل الغنى عن طرق غناه بل يتمسح به و يتبرك بأنفاسه، و لو كان لا ينزل منه عن قطمير لأحد.

ظهر كثير من العامة فى حوادث وقعت بمظهر الغيراء على المصالح الوطنية، و أبانوا عن حمية و أريحية ما كان يرجى صدور مثلهما من أرباب الطبقة العليا، و لا ممن اعتادوا أن يجعلوا من الأديان سلما إلى درك شهواتهم، و قام من صفوف الأميين و أهل المتربة أناس جعلوا هدفهم ما اعتقدوه حقا نافعا مخلصين فى أقوالهم و أفعالهم، معتقدين الخير فيما بذلوا أنفسهم و نفائسهم فى سبيله. و تجلى النبوغ فى أفراد منهم بحكم قانون الرجعة، فأثبتوا فى الشدائد بهذا الشرف المغيب أنهم ربما كانوا من سلالة عظماء أكارم. و هناك أناس ظاهرهم مهذب براق آثروا

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۲۹

امتهان النفس فى أخس الأعمال مقابل عرض ينالونه أو إقبال يتخيلونه، فارتكبوا كل ما يورثهم عار الأبد، فكان ظاهرهم مجملا، و باطنهم خبثا و خديعة، يفادون بكل ما ليس لهم فيه مصلحة، و يداجون كل من يلقاهم بما يريد، و لعلك على حق إذا قلت إن صيغ الكلام تضيق عن وصف أفعالهم.

فهم ممن حبب إليهم من دنياهم أذى القريب لا ينامون ملء جفونهم إلا يوم يوقعون بأصحاب الشرف و المروءات.

و ما لنا و الإكثار من ضرب الأمثلة بفئة هى معقد الآمال فى الإصلاح و هى لم تكد تحقق رجاء إلى الآن، و ليست فى أخلاقها مما يرغب المرء كثيرا فى تكثير سوادها، لأن منها من تجرد من معنى الحق و الصدق. و لو حللت نفوس أكثرهم تحليلا دقيقا لرأيتهم أعرف الناس بالمدخل و المخرج و أعراهم من أكثر الفضائل الكسبية و اللدنية. ضعف عطفهم على جنسهم و هان عليهم أن يبيعوا وجداناتهم لمن يضمن لهم مظاهرهم. فهم أبدا سلاح الغريب على القريب، و هم يده الباطشة و أظافره الخادشة.

و لطالما نضب حلم أرباب الحلوم من تلاعب أناس استناروا بقبس العلم الحديث، يتهارشون على أبواب جمعية مدنية و هم فى الحقيقة لا يهمهم من دعوتها إلا أن يحموا بسلطانها سلطانهم، و يستروا فى حمى كهفها معايبهم، و من الغريب أنه لا يكاد يرقى فى

درجاتها إلا من عرفوا بالاسترسال فى حظوظهم، و كانوا من الممقوتين فى العرف و العادة، هذا و قانون الجمعية شديد فى التسامح مع أمثالهم، و لكن كل قانون ينصبغ بصبغة محيطه، و ما دام المحيط على ما ترى فلا بدع إن كان بعد هذا أعظم قانون سماوى أو أرضى فى حكم العدم.

و لا- يفوتنك أن الطبقة الوسطى فى ديارنا هى التى تتمثل فيها الأمة حقيقة لا مجازا و يكثر فيها الخير و يقلّ الشر، و هى التى تقوم بجلب المنافع و درء المضار، و تعيش فى خوف الديان، و تهتم لسعادة الأوطان، هى فى الغالب محدودة بعقول أبنائها، كثيرة بما يتم على أيديها من الخيرات باجتماعها، و هى التى تفكر و تقدر و قد قام كثير من الأعمال النافعة بصنيعها و من وضعها. فيهم الصبر و فيهم الأناة و فيهم الرحمة، خسيسهم أقل من رفيعهم، هم قوة الظهر

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۳۰

فى جيش الأمة بل فى طليعته المتيقظة. السخاء مغروس فى أكثرهم و المروءة و الوفاء غريزتان يورثهما الآباء لأبنائهم، و هم يبعدون عن أرباب السلطات، دأبهم التوفر على صناعاتهم و زراعاتهم، و قلما تحدثهم أنفسهم أن يتخذوا بديلا عن عمل عاناه آباؤهم و أجدادهم.

الأخلاق التى تعبث بالفضائل هى التى رسخت فى بعض العلية من أهله.

و شهد اللّه أن هذه الأمة لا تشكو قلة علمها بقدر ما تشكو ضعف أخلاقها، و إذا أخذت المطامع البشعة من قلوب دعاة الإصلاح و حماة الحوزة كيف يوجه اللوم على من كان دون طبقتهم؟ و مما يسوء أن كان أقرب الناس إلى إدراك معنى الفضائل أسرعهم إلى عقوقها و انتهاك حرماتها. و إذا كانت فى الطبقة الوسطى هنات لا يخلو منها إنسان فهى كالعوذة يتقى بها شر الحاسد، و يصان بها جمال المكرمات و المحامد، و قلما يخلو بشر من عيوب صغيرة ضررها على صاحبها وحده.

أكثر ما تعاب به هذه الأمة عصيانها على الأنظمة و الشرائع لا تطبق منها إلا ما لا يمس بمصالحها الخاصة، فإذا كان فى بعضها ما يخالف الشهوات و الأغراض خرجت عليها و حاربتها و المهيمنين عليها. و لذلك صعبت هنا فى كل قرن مهمة المصلحين فى إصلاحهم لقلة الثبات و ونى الهمم. فقد يسرع بعضهم فى التصديق خصوصا إذا أحسنت الدعاية بادئ بدء و لكنهم سرعان ما ينقضون العهد. و من أضرّ ما يضر هذا الشعب أنه قلما يخضع للزعيم خضوعا حقيقيا تقرأ معانيه فى حركاته و سكناته و لو كان الزعيم فى الغاية من حسن الأخلاق و إرادة الخير لها. و هذه أخلاق العرب بعينها أفرطوا فى حب حريتهم فحاول الصعلوك فيهم أن يكون وجيها فسارع الانحلال إلى دولهم بالطبيعة و ظهر التخبط فى إحرازهم الرياسات منذ فجر الإسلام.

و ظلت هذه الأخلاق متسلسلة فى دمائهم. و قد يريد الطامع فى شىء أن تنقلب الدولة رأسا على عقب، و تنتقل و لو إلى عدوه، على أن يتولاها قريبه الذى لا يحبه و أن يهلك فى الحمم و النيران المستعرة فريق عظيم من قومه إذا كان له من هذا الحريق ما يشوى به سمكته.

و أنت إذا حللت روح الشاميين تراهم فرادى لا يقلون كثيرا عن

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۳۱

غيرهم من الراقين، و إذا جئت تحللهم جماعات فهناك التفسخ فى القوى و الانحلال فى الروابط. الشاميون إذا اجتمعوا تخالفوا عادة على الرياسة و التصدر، و تباينوا فى الفكر و الاجتهاد، لأن الذكاء غالب عليهم، و حب الذات مستحكم فى شغاف قلوبهم، و كل واحد يريد أن ينفذ قوله و لو كان مغلطا، و إذا لم يوافقه رفقاؤه على ما ارتأى عاداهم و ربما آذاهم، كأن الاختلاف فى الاجتهاد يستلزم العداوة و السخيمة. فلا تستغرب بعد هذا إن أصيبت أكثر أعمال الجماعات عندهم بالشلل و الفشل و منها ما يموت كالجنين فى بطن أمه قبل أن يتمثل بشرا سويا. و قد ينشئ غير المسلمين الجمعيات و المجامع و يحالفهم النجاح أكثر من غيرهم لأنهم على تربية متقاربة و على تكافل و دؤوب فى الحملة. و ما ندرى لعل العامل فى هذا النجح الضرورة التى دعا إليها تماسك الصغير أمام قوة

الكبير، على حين ترى أن هذا الكبير لا يحسن على الأغلب إلا الإدلال بقوته الموهومة و الإعجاب بماضيه يقف عند حده، و لا يعرف أن يبرهن على العظمة الغابرة بسداد أعماله الحاضرة.

و من عيوب السواد الأعظم أن الهزل يغلب عليهم، و الجد قليل فيهم، يحبون المداعبة و الهزل و اللهو، و يسوء بعض اللئام أن يروا فى قربهم من يجد.

يهزأون بمن يعملون و هم لا- يعملون و لا- يعرفون كيف يعملون، فسبيلهم سبيل العاطل و المعطل. و من عيوبهم أنهم لا- يصدقون صاحبهم لأن سوء الظن غالب عليهم، هذا و لو جاءهم مستنصحا مسترشدا، لأنهم أميل إلى المصانعة لا إلى الصدع بالحق، و أقرب إلى أن يرضوا جليسهم و يسكتوا أمامه عن هفواته، و ربما التمسوا له فى حضرته المعاذير حتى إذا غاب عن عيونهم نحتوا أثلته و عابوه بما قد لا تلزمه تبعته. و من أجل هذا تأصلت فى القوم عادات و أخلاق كان يتأتى نزعها لو كتب لها من ينقدها و ينكرها غير مدالس و لا موالس.

فالنعومة الظاهرة التى تشاهد فى بعض الشاميين يحتاجون معها إلى شىء من الخشونة و القسوة.

كانوا فى الأيام الماضية إذا أرادوا الحط من شخص سلبوه صفاته و اتهموه «بالمروق من الدين» و ربما أوصلوه بهذه التهمة الشنعاء إلى ضرب عنقه، و هذا من بعض الأسباب فى قلة النوابغ فى القرون المتأخرة. و اليوم

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۳۲

نشأ لهم زى جديد من أزياء التهمات يلبسونها من لا ترضيهم حاله، أضافوا إلى من يحاولون النيل منهم تهمة «المروق من الوطنية» كأن الوطنية ما هم فيه من الختل و التخاذل و طلب الظهور بقاصمة الظهور. و يا لشقاء الدين و الوطن كم اتجر بهما متجرون فى الغابر و الحاضر. و من تدبر أحوال هذه الطائفة بأدنى نظر أدرك أن كل من يتبجحون بهذه الدعاوى هم أول من يدوس كل مقدس لبلوغ غرض حقير.

و الدواء الناجع فى مداواة هذه الأخلاق هو أن يكون للصغار مدارس وطنية متقنة تلقنهم العلم الصحيح و الأخلاق الصحيحة و القومية الصحيحة.

أما الكبار الذين اشتهروا بسوء القالة فيقاطعون و يتجهم لهم العقلاء فى كل أفق، لا يدنونهم من مجالسهم مهما بلغ من سلطانهم و جاههم و مالهم. فإن من السخف التلطف مع الأشرار فى المحضر، و التهامس فى قبيح سيرتهم فى المغيب. يجب أن يناقشوا الحساب و لا يؤمن لهم على خطاب و «المؤذى طبعا يقتل شرعا».

سيقول فريق ممن يقرأون هذه الصفحات: إنها أغرقت فى وصف أخلاق الطبقات و فضحت ما كان مكنونا لا- يعرفه إلا- أرباب البصيرة، و نحن فى زمن أحوج ما نكون إلى السكوت عن المعايب حتى لا- يبدو عوارنا لغيرنا، كأن غيرنا لا يعرفنا أكثر مما نعرف أنفسنا. و كان الأولى فى عرفهم أن نجامل و نجمجم، بيد أن السكوت عن العيوب عيب كبير، و كتمان العلة مدرجة إلى الهلكة، و التاريخ لا يكتب على الهوى و لا يملى لإرضاء الناس. و ما نخال منصفا بصيرا إلا و يعترف و هو مثلنا جدّ آسف أن ما أصاب هذه الديار من المصائب منذ عهد طويل لم يكن إلا بسوء أخلاق من تولوا من أبنائها أمرها، و أنه من المستحيل بعد أن صرح الحق عن محضه أن تؤلف الشام كيانا يذكر و تقوم فى ساحة الحضارة البشرية بعمل يشكر، و لو أوتيت علم الجرمانيين و اللاتينيين، و رزقت غنى الإنكليز السكسونيين، ما دامت أخلاق أهل الحل و العقد فيها لا تعالج بالتقويم، و لا يحاول القضاء على مواطن الضعف من نفوسهم و عقولهم. الساكت عن الحق شيطان أخرس.

فصّلته لكن على عقلى فمامقياس عقلك كان لى معروفا

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۳۳

حياة محمد كرد على مؤلف خطط الشام «ترجمته بنفسه»

أصل أسرتنا من السليمانية تنسب إلى الأكراد الأيوبية، جاء جدى إلى دمشق فى التجارة و كان من أهل اليسار فراقته و سكن فيها. ثم ذهب فى بعض السنين إلى الحجاز متجرا، و اتفق له أن انتقد ذات يوم عملا من أعمال محافظ الحج، و كان ظالما جبارا، فشق ذلك عليه، و أمر بمصادرته فى كل ما يملك، فاضطر أن يذهب إلى الاستانة مستعديا. و ما زال يعمل الوسائط حتى اجتمع بالسلطان، و اقترح عليه هذا أن يصرف النظر عن دعواه على محافظ الحج، و يأخذ مقابل ماله قريتين فى الشام إقطاعا له و لأولاده من بعده، فأبى و قال للسلطان: ما جئت لآخذ صدقة بل جئت أطلب عدلا و إنصافا.

و هكذا رجع إلى دمشق مجردا من ثروته و هلك قهرا بعد قليل. و خلف والدى يتيما فقيرا فاشتغل لأول أمره فى صناعة الخياطة ثم بالتجارة، فأثرى مرات و خسر مرات، و ابتاع فى آخر أمره مزرعة صغيرة فى الغوطة تمززتها أنا و إخوتى منذ كنا صغارا و إلى الآن.

ولدت فى دمشق أواخر صفر سنة (۱۲۹۳ ه) (۱۸۷۶ م)، من أم شركسية، و لما بلغت السادسة فى العمر أخذت بتلقى القراءة و الكتابة و مبادئ العلوم الإسلامية و الحساب و الطبيعيات فى مدرسة كافل سيباى الأميرية، و نلت شهادتها من الدرجة الأولى. ثم دخلت المكتب الرشدى العسكرى فدرست مبادئ التركية، و كانت دروس الإفرنسية ناقصة فأتانى والدى بمعلم إلى الدار أخذت عنه نحو هذه اللغة و صرفها على الأصول مدة ثلاث سنين،

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۳۴

و برعت بالترجمة من الإفرنسية إلى العربية و بالعكس. و لما أحرزت شهادة المدرسة الرشدية من درجة متوسطة، لأنى لم أتمكن على ما يجب من الرياضيات لإصابتى بالحسر و ضعف البصر- بحيث لم أكد أتبين عن بعد ما يرسم الأستاذ من أشكالها و خطوطها فى اللوحة، ففاتنى التبحر فيها مع الأسف- عينت مدة ست سنين موظفا فى قلم الأمور الأجنبية، فأخذت فى خلالها أتقن آداب التركية. و شرعت أنشئ فيها كما أنشئ بالإفرنسية، و قد اختلفت حولين كاملين إلى مدرسة اللعازاريين للاضطلاع بآداب اللغة الإفرنسية، و درست الطبيعيات و دروس الكيمياء بهذه اللغة لأزيد تمكنا منها.

و قد اقتطعت مع ذلك جانبا من الوقت لدرس الآداب العربية و العلوم الإسلامية، و تلقيت اللغة الفارسية حتى حذقتها ثم أنسيتها. و فى خلال تلك المدة اتصلت بالأساتذة الشيخ طاهر الجزائرى و السيد محمد المبارك و الشيخ سليم البخارى و أخذت عنهم و عن غيرهم من مشايخ الطبقة الثانية كل ما وسعتنى قراءته، من كتب اللغة و الأدب و البيان و الاجتماع و التاريخ و الفقه و التفسير و الفلسفة. و كان العامل الأكبر فى توجيه إرادتى نحو الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعى، و الإقدام على التأليف و النشر، و إشرابى محبة الأجداد و التناغى بآثارهم، و الحرص على تراث حضارتهم، أستاذى الأكبر الشيخ طاهر الجزائرى، فما زلت ألزمه منذ اتصلت به إلى أن ذهب إلى ربه سنة (۱۳۳۸ ه) حميد الأثر. و كنت بدأت بنظم الشعر فنهانى عن تعاطيه أستاذى المبارك، و أرادنى على إتقان الإنشاء فقط، و ما ينبغى له من الأدوات، لئلا يشغلنى الشعر بلذته عن طلب العلم. فصدعت بأمره، كما كنت قبلت نصيحة والدى، و أنا يافع، بترك الإنشاد بصوت رخيم. لأن ذلك كان يعدّ فى نظره شيئا وضيعا كما روى ذلك عن شيخه. و هكذا حرمنى والدى الموسيقى، و حرمنى شيخى الشعر. و لو لا نصيحتهما لعنيت بهذين الفنين، و كانا لى سلوى و أى سلوى. و لكن أستاذى المبارك خرجنى باللغة و الإنشاء. و والدى، و كان عاميا يقرب من الأمية، أنفق عن سعة ليعلمنى. فكان مدة سنين يدر الرواتب على أساتذتى، و قد ابتاع لى خزانة كتب كانت تعد فى ذلك العهد شيئا فى بلدتى.

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۳۵

و أهم ما أولعت بمطالعته- بعد درس المطبوع من كتب الأدب العربى و جانب من المخطوط الذى عثرت عليه- كتب الفلاسفة و علماء الاجتماع، و أصول الشعوب و مدنياتهم. و طالعت بالإفرنسية أهم ما كتبه فولتير و روسو و مونتسكيو و بنتام و سبنسر و فوليه و تين و رنان و سيمون و بوتمى و لافيس و هانوتو و بوترو و لوبون و برونتيروبثى دى جولفيل و لمتر و سانت بوف، و تدارست

المجلات الفلسفية الاجتماعية و التاريخية و الأدبية باللغة الفرنجية.

و جريت منذ نشأت على قاعدة مطردة لم أتخلف عنها قيد شبر، و هى أن أقرأ أكثر مما أكتب، و قلما دوّنت موضوعا لم أدرسه فى الجملة و لم تتشربه نفسى. و عهد إلىّ سنة (۱۳۱۵ ه). بتحرير جريدة «الشام» الأسبوعية فحررتها ثلاث سنين كانت مدرستى الأولى فى الصحافة. و ساعدتنى فيها معرفة التركية و الإفرنسية. ثم دعيت إلى. المؤازرة فى مجلة المقتطف المصرية أكبر مجلاتنا العربية. فنشرت فيها أبحاثا جمة فى التاريخ و الاجتماع و الأدب مدة خمس سنين فبدأت لى شهرة فى عالم الأدب العربى لمنزلة هذه المجلة إذ ذاك بين أبناء اللغة العربية، و كثرة من تقع تحت أنظارهم من العلماء و الأدباء و الباحثين.

و فى عام (۱۹۰۱ م) هبطت مصر للسياحة بقصد الذهاب إلى باريز للدرس، فعرض علىّ صاحب جريدة «الرائد المصرى» نصف الأسبوعية أن أحرر فى جريدته، فلبيت الطلب متكارها، إذ كانت عاقتنى عن العودة إلى الشام أمور قام بها المشاغبون المتجسسة فى دمشق. و اتهمونى تشفيا بأمور هى من المحرمات فى عرف الحكومة العثمانية، ثم رجعت إلى الشام بعد عشرة أشهر.

و من أعظم ما استفدته من رحلتى هذه الأخذ عن عالم الإسلام و الإصلاح الشيخ محمد عبده و حضور مجالسه الخاصة و العامة.

و فى شتاء سنة (۱۳۲۳) فتشت الحكومة العثمانية دارى فى دمشق بحجة أنه علقت مناشير فى شوارع البلدة مكتوبة بلغة سلسة، و فيها مطاعن فى أحد الأعيان و الوالى، و مثل هذه العبارة و هذه الأفكار لا يحسنها و لا يعرفها غيرى! فظهر للحكومة افتراء المفترين و اكتفت بأن شردتنى أياما عن دارى.

و فى هذه الوقعة نظم صديقى العلامة الأمير شكيب أرسلان قصيدة ارتجالية يداعبنى بها، و يصف ما حل بى مجسما قال سامحه اللّه:

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۳۶ ألا قل لمن فى الدجى لم ينمطلاب المعالى سمير الألم

و من أرّقته دواعى الهوىفدون الذى أرقته الحكم

فكم فى الزوايا تخبى فتىطريد الكتاب شريد القلم

يرى الأرض ضيقا كشق اليراعو يهوى على ذا الوجود العدم

و كم ذا بجسرين من ليلةعلى مثل جمر الغضا فى الضرم

تمنى الأديب بها ندحةو لو بات يرعى هناك الغنم

و كم سروة تحت جنح الظلام كسرّ بصدر الأريب انكتم

يخاف بها حركات الغصونو يخشى النسيم إذا ما نسم

و إن تشد ورقاء فى أيكةتؤرقه فى صوتها و النغم

و كم بات للنجم يرعى إذاأديم السما بالنجوم اتسم

و طال به الليل حتى غدايظن عمود الصباح انحطم

و من ذعره خال أن النجومتهدى إلى مسكه عن أمم

إذا ما السماك بدا رامحاتوهمه نحوه قد هجم

و لو لا الدجى لم يتم النجاو قد أمكن الظلم لو لا الظلم

و للّه در القرى إذ خفتهفما بالسهولة يخفى العلم

«فجسرين» «زبدين» و «الأشعرىّ»ديار بها قد أوى و اعتصم

و نحو «المليحة» رام الخفاو كم بالمليحة من متهم

ديار أبى أهلها غدرهو آواه فيها الوفا و الكرم

و لا شك رقوا لأحوالهطريدا يعانى الجوى و السقم

ليالى كانون فى الأربعينو برد العشيات أغلى الفحم

بأرض تراها سماء و ماءففوق السوافى و تحت الديم

يجول و قد صار مثل الخيالو دقّ فلو لاح لم يقتحم

و فوق الخدود كلون البهارو تحت المآقى كلون العتم

و فى كل يوم سؤال و بحثو أنّى تولى و كيف انهزم

و قد كان فى كبسهم بيتهبجلق قال و قيل عمم

فكانت على كتبه غارةكغارات عرب «الصفا» بالنّعم

و قالوا سينفى إلى «رودس»و قالوا سيجزى بما قد جرم

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۳۷ و قالوا سيحمله أدهمبمرقاه لا تستريح القدم

و قد قيل «فزان» من دونهو تلك السموم و تلك الحمم

و بعض بسجن عليه قضىو بعض بضرب عليه حكم

و «كرد على» غدا عبرةففات و منه الرجاء انصرم

فيا كرد لا تحزننك الخطوبفإن الهموم بقدر الهمم

و من رام أن يتعاطى البيانتوقّع أن يبتلى بالنقم

فذى حرفة القول حرّيفةو كم أدركت من لبيب و كم

و كم نكتة أعقبت نكبةو كم من كلام لقلب كلم

و من بالكتابة أبدى هوىفإن الكآبة منها القسم

فيا كرد صبرا على محنةفكم محنة شيبت من لمم

و صبرا على ورقات لهاعيون المعانى يبكّين دم

و واها لباقات زهر غدوتلها جامعا يا أخى من قدم

أزاهر تسهر فى جمعهافلا غرو إن فاح عرف فنم

و ما نمّ إلا بنشر ذكىو طيب يفوق عرار الأكم

فقولوا لواش بكرد علىنشرت الثنا حين حاولت ذم الخ

كان التضييق علىّ فى الشام يزيد كلما استفاضت شهرتى، و الشهرة حقيقة كانت على صاحبها آفة فى الدور الحميدى، فرأيت بعد طول التأمل أن المقام فيه عبثا، فأخذت بالاستعداد للهجرة إلى مصر لأصدر مجلة المقتبس، فأصدرتها فى أول سنة (۱۳۲۴ ه)، و توليت معها رئاسة تحرير جريدة الظاهر اليومية، و بعد سنة عينت أمين سر تحرير جريدة المؤيد. و الجرائد الثلاث التى توليتها فى مصر هى «الرائد المصرى» و «الظاهر» و «المؤيد» و كانت من الصحف التى تصدع بالوطنية المصرية، و تنتقد سياسة المحتلين، و لذلك كثر أصدقائى من الوطنيين المصريين، فعددت بهم مصر وطنى الثانى، و كادوا هم يعدوننى منهم. و قد آزرت فى مجلة «العالم الإسلامى الباريزية» التى ما زالت تصدر فى باريز باللغة الإفرنسية إلى عهد قريب. حتى إذا حدث الانقلاب العثمانى (۱۹۰۸ م) رجعت إلى دمشق و أصدرت فى ۱۷ كانون الأول

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۳۸

(۱۹۰۸) جريدة المقتبس يومية سياسية، بعد أن صدر المقتبس ثلاث سنين فى القاهرة مجلة شهرية علمية، وعدت إلى إصدار المجلة أيضا.

و کـان المقتبس السیاسـی معتـدلا بلهجته، وطنیا بمسـلکه، ینتقـد ما یمکنه نقـده من مواطن الخلل فی الإدارة العثمانیـة، و ما رمی إلی الانفصال عن الترک قط، بل کان یرمی الی اسـتحصال حقوق العرب ضـمن الجامعـة العثمانیة الکبری، فلم یرق هذا أیضا بعض رجال الـدور الحمیـدی، و أخـذوا یقاومون المقتبس و صاحبه، و یقیمون علیه الدعاوی المزورة، یصدرها الظالمون المرتشون من الموظفین، ممن دأبنـا علی الکیـد لهم، و العمـل علی تنحیتهم، حتی جـاء زمن و علی المقتبس عشـرات من الـدعاوی، یطلب فیها أصـحابها جزاء المفتری علی الأکثر، لأنهم أبریاء بزعمهم مما نسب إلیهم.

و من أغرب دعوی الوالی الحمیدی علیّ فی السـنة الأولی اتهامه إیای بالارتجاع، أی إرجاع عهد عبد الحمید الاستبدادی، و هو الدور الذی بکیت من أهواله، و قد هجرت الأهل و الوطن فرارا من کابوسه، و لکن أعمالی فی خدمة الحریة سـنین طویلة، کذبته و أشـیاعه من الحمیدیین الاتحادیین.

و قـد اضـطررت فی هـذه الـدعوی إلی مغادرة الشام، فرکبت البحر إلی فرنسا، و أخـذ الوالی یهدد القضاة بالعزل إذا لم یحکموا علیّ بالجنایـة، و صـرفت الوقت فی بـاریز أدرس مـدنیتها و أسـتفید من لقاء علمائها وساسـتها، و وقفت وقوفا حسـنا علی حرکتها العلمیـة و السیاسـیة، و ذلـک بواسـطة جماعـة من أصـدقائی علمـاء المشـرقیات، عرفونی إلی الطبقـة العلیـا التی أردت التعرف إلیها فی عاصـمة الفرنسـیس، و فی مقدمتهم فیلسوف فرنسا المرحوم إمیل بوترو. و قد سألته أن یکتب لی جریدة بأمهات الکتب التاریخیة و الاجتماعیة و الأدبیـة و الاقتصادیـة، فتفضـل و کتب لی مـا أردت، فـابتعته و طالعته کله مطالعـة درس، و لا أزال إلی الیوم أجعل تلک المجموعة المختارة سلوتی فی خلوتی و جلوتی.

کتبت خمسـا و ثلاثین مقالـة و محاضـرة فی وصف سیاحتی، و لا سـیما فی وصف عاصـمة فرنسا، و طبعت هـذه المقالات فی کتاب سمیته «غرائب الغرب» و ما کان فی الحقیقـة إلا غرائب باریز لیس إلا. و بعد أن أقمت ثلاثة أشـهر فی «کارتیه لاتین» بباریز عدت إلی الاستانة عن طریق قینا

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۳۹

مبرأ ممـا نسب إلیّ. و فی سـنة (۱۹۱۲) أقـام نفس الوالی الحمیـدی دعوی علی المقتبس و قبض علی مـدیره المسؤول المرحوم أخی أحمد، و أخذ عالما من علماء المدینة اسـمه الشـیخ إبراهیم الأسکوبی، و أرسلهما إلی الاستانة فسجنا مدة، و ذلک بتهمة أن المقتبس نشر قصیدة لهذا العالم تمس الآل السلطانی.

و الحقیقة أنها تأوهات و نصائح، و کانت نشـرت فی جریدة من جرائد الشام قبل أن تنتشـر فی المقتبس بعشـرین یوما. أما أنا فتمکنت من الفرار کالمرة الأولی، و هبطت مصـر عن طریق البر مع تجار الجمال. فـدخلت الإسـماعیلیة بعـد سـیر أربعـة عشـر یوما، قطعت فیها الشام من الوسط إلی أقصی تخومها الجنوبیة. ثم برئت مما نسب إلیّ کالمرة الأولی، وعدت إلی دمشق بعد ستة أشهر، و عاد المقتبس إلی الصـدور. إلاـ أن الوالی کـان تمکن من إجبـار أحـد إخوتی علی بیع مطبعتنـا، فأباعهـا بثمن بخس، فأضـیفت الخسـارة بها إلی ما خسرناه فی إغلاق صحیفتنا السیاسیة مرتین. و لم یعوض علینا أحد شیئا مما خسرناه.

و اکتفی المقتبس إلی ذاک الحین باشتراکاته و إعلاناته و مطبوعاته فقط. و قد اسـتقبلت یوم عودتی إلی دمشق کما یستقبل العظماء، فضـحکت من تبدل الرأی العام، و بالغ بعض من اسـتقبلونی بالحفاوة، و هم یزیدون علی ألفین، کانوا یوم وقعت فی الدعوی ینکرون عملی فی انتقاد الحکومـة، و من قبل کانوا یصـفقون و یستحسـنون، و ینحنون و یدعون، فلم أدر وجها لرضاهم و لا لغضـبهم، فکتبت إلی صـدیقی المرحوم العلامـة رفیق بک العظم أقول له: إن القوم لاقونی فی دمشق فی هذه المرة کما یلاقون الملوک. فلم أفرح لهذا الإقبال، و لا ساءنی ذاک الإدبار، و عجبت لجنون من ینخدع بالجماعات الذین لا یثبتون بحال علی أفکارهم.

و فی سـنة (۱۹۱۳) زرت إیطالیـا و سویسـرا و فرنسـا و المجر و الاسـتانة، و کتبت ۳۳ مقالـة فی وصف مدنیـة تلک الممالک. و کان الـداعی إلی هـذه الرحلـة الثانیـة البحث عن المخطوطـات التاریخیـة التی نقـل عنها بالتصویر الشمسـی صورا، الأمیر لیونی کایتانی من

علماء إيطاليا و عظمائها. و قبل نشوب الحرب العامة ببضعة أشهر وقف والى دمشق المقتبس، بدعوى أنه نشر عبارة فى كشف الحجاب، و هى منقولة عن الصحف التركية، و الحقيقة أن المقتبس

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۴۰

كان توفر على كشف حجاب الاتحاديين، و أصلاهم حربا عوانا هو و أنصاره من رجال البلاد و حملة الأقلام فيها، فأخذوا يخلقون له هذه التهم أو يكفّ عنهم. و لطالما تقاضوه ذلك، و له أن يتحكم فى مطالبه الخاصة ما شاء فأبى، و ربما كان رده لهم غير جميل لا يخلو من بعض خشونة، ثم ورد الأمر من نظارة الداخلية بعود المقتبس إلى الصدور، فأبيت إصداره، لما رأيت من الحيف و الغرض و تربص الاتحاديين الدوائر به و بصاحبه، و كانوا الحاكمين المتحكمين فى السلطنة العثمانية بلا- منازع. و ألح أرباب الشأن بإعادة المقتبس إلى الصدور، فكان جوابى أننى زهدت فى هذه الصناعة صناعة الصحافة، ما دامت أحكامهم غاشمة ظالمة. إلا أن الحكومة بقيت تحاذرنى مدة أشهر. و أقامت شرطيا أمام دارى يكتب كل يوم أسماء من يدخل علىّ من أرباب الطبقات المختلفة، حتى إذا خرجت إلى منتزه أو زيارة أحد يتبعنى الجواسيس حيث سرت. أما كتبى و جرائدى و برقياتى فإنها كانت تراقب أشد مراقبة، بل أضحكها و أبكاها.

و بينا كان حالى كذلك أعلنت الحكومة العثمانية النفير العام، و جاء الشام وال عاقل عادل اسمه خلوصى بك فنشأت بينى و بينه صداقة، و لا سيما عقب أن ظهر من تفتيش أوراق قنصل فرنسا أننى كنت دائما إلى جانب خدمة العرب، و لم أمل إلى الخروج على الترك، و لا- أسففت إلى خدمة غيرهم، مع أنى أردت على ذلك مرات، و أغلوا لى الثمن و الجعالة، فاحتقرت كل نفيس فى سبيل خدمة المصلحة العامة، و هذا سر نجاتى من مخالب قتلة الاتحاديين الذين لم يراعوا عظيما و لا غيره فى الحرب، و صلبوا من صلبوا على أعواد المشانق بلا رحمة فى مدن دمشق و بيروت و حلب.

أرادنى خلوصى بك ست مرات على إصدار المقتبس و أنا أحاوله و أطاوله، و لكن قنصل ألمانيا كان يلح على الحكومة المحلية بإقناعى لإصداره، لما أيقن من تأثيره فى أفكار الشاميين بل فى بلاد العرب، فصحت بعد حين عزيمتى على إصداره، خصوصا بعد أن أوحى إلىّ أحد خلص أصدقائى، بأن القوم يتربصون بى الشر إذا لم أجبهم إلى إصدار المقتبس، و لم أخدم الحكومة فى تلك الحالة الحرجة. و أننى إذا ظللت على إبائى يخشى أن يحاسبونى

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۴۱

عما اجترحته فى الماضى حسابا غير يسير، و تكون حياتى فى تهلكة، فاعتذرت بأن على المقتبس مبلغا من الديون بسبب توقفه ثمانية أشهر و بيع مطبعته فقالوا إنهم يسددونها عنى ففعلوا. و فى خلال ذلك جاء الشام أجد أساطين الاتحاديين «أحمد جمال باشا» قائدا للجيش الرابع، و حثنى على التعجيل بإصدار المقتبس، و كان كلامه رجاء فى الصورة الظاهرة، و تهديدا فى الحقيقة، فبادرت إلى امتثال الأمر فأصدرته، و بقيت سنة لا- أكتب فيه إلا- نادرا، و يتولى أخى سياسته، حتى تنبه جمال باشا للأمر و أرادنى على كتابة مقالات افتتاحية باسمى ففعلت، و كثيرا ما كانت أفكارى ترشح اضطرارا من أفكار القائد العام مباشرة أو بالواسطة، فكانت إرادتى مسلوبة لتهديدى كل ساعة بنشر الحسابات القديمة مع الاتحاديين، و فى أواخر السنة الأولى للحرب أرسلنى جمال باشا مع البعثة العلمية من علماء الشام إلى الاستانة فچناق قلعة، و أوعز إلىّ بإنشاء رحلة هذه البعثة، و وضع كتاب فى رحلة أنور باشا، وكيل القائد العام و ناظر الحربية، إلى الشام و الحجاز. ففعلت مضطرا. و ظهر هذان الكتابان الأول باسمى و اسم ثلاثة من أرباب الصحف فى الشام، و الثانى باسمى فقط. و هما من كتب الدعاية السمجة فى الحرب الممقوتة. و فى هذه السنة أيضا أنشأت الدولة بإيعاز ألمانيا و ترتيبها فى مدينة دمشق جريدة يومية عربية أسمتها (الشرق) عهدت إلىّ برئاسة تحريرها فوليته مدة، و اضطرنى أحمد جمال باشا إلى رفع اسمى من جريدة المقتبس لتروج جريدة الشرق التى ظهرت إلى أواخر الحرب. و كانت جريدة ألمانية تركية بحتة يقصد بها الدعاية و التأثير فى العالم العربى خاصة و العالم الإسلامى عامة.

و لما بـدأت جيوش الحلفاء تتقـدم فى جنوبى الشام غادر أحمد جمال باشا البلاد، فأرادنى خلفه جمال باشا المرسـينى أن أظل على ما كنت فى جريـدة الشـرق فقلت له: «لم يسـتعبدنى أحـد فى حياتى غير سـلفك العالى و لا أريد أن أسـتعبد مرة أخرى». و قصدت إلى الاسـتانة للتجارة فمانعنى الاتحاديون هناك بإيعاز من أحمد جمال باشا، و منعونى من معاطاة أعمال لا أعرفها فى الحقيقة. و بينا كنت أفاوضهم بذلك سقطت دمشق بأيدى الحلفاء، و انقطعت الطريق بين الشام و الاستانة، فعدت إلى دمشق بعد ثلاثة أشهر

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۴۲

من سـقوطها، لأعاود إصـدار المقتبس، لكن الحاكم العسـكرى العام و كان من أصـدقائى، ألـحّ علىّ أن أتولى رئاسة ديوان المعارف فقبلت متكارها، و أخـذت فى درس حالة المدارس لإصـلاحها على ما يلائم روح الأمة العربية، و بدأت بإنشاء دار للآثار و تجهيز دار الكتب الظاهرية بجهاز حديث. ثم حصل خلاف بينى و بين الحكومة فأردت التنحى عن رئاسة ديوان المعارف، فألحّت علىّ الحكومة بالبقاء، فقلت: إن كان و لا بـد فينقلب ديوان المعارف بأعضائه و رئيسه إلى مجمع علمى، و تكون علاقته مع رئيس الحكومة مباشـرة، فقبل هذا الاقتراح و شرعت فى تأسيس المجمع العلمى العربى فى ۸ حزيران سنة (۱۹۱۹).

و فى آخر تشـرين الثانى سـنة (۱۹۱۹) صـدر الأمـر بـدعوى الضـيق المالى بصـرف رئيس المجمع العلمى و أعضائه، إلا عضوين فقط للإشـراف على دارى الكتب و الآثـار. و كـان ذلـك تشـفيا من بعض الأحزاب التى لم أشأ أن أسايرها على العمياء. و دمت منعزلا فى دارى إلى أن عهـدت إلىّ وزارة المعارف فى ۷ أيلول سنة (۱۹۲۰) أول دخول السـلطة الإفرنسية إلى المدن الأربع، و هى الوزارة التى غيروا اسـمها بعـد مع سائر الوزارات باسم «مديريـة عامـة». و فى خلال ذلك أخـذت عشـرة من الطلاب للإخصاء فى العلوم العالية فى جامعات فرنسا. و زرتها للمرة الثالثة، كما زرت بلجيكا و هولاندة و انكلترا و إسبانيا و ألمانيا و سويسرا و إيطاليا، و كتبت الرحلة الثالثة فى إحـدى و خمسـين مقالـة، و أعـدت طبع «غرائب الغرب» و أدخلت فيه الرحلات الثلاث، فجاء فى مجلـدين. و كـان أحـد أعوان الجنرال غورو أول مفوض سام للجمهورية الإفرنسـية فى سورية و لبنان نشـر على لسانى و بدون اطلاعى فى إحدى المجلات الباريزية عبارة يقصد منها مدح الانتداب الفرنسـى إلى التى ليس بعدها و تقريظ غورو و أعوانه. فكذبت ما عزى إلىّ فى الصحف. و كان أحد موظفى البعثـة الإفرنسـية فى دمشق دسّ أيضا على لسانى فى خطبة أردت على إلقائها باللغة الإفرنسـية فى معرض بيروت التجارى على جماعـة من الفرنسـيس- جملا بخصوص العهد الفيصـلى لم تخطر لى فى بال. فامتعضت مما وقع فى المرة الأولى و المرة الثانية، و لما لم يرق عملى من التكذيب فى نظر وكيل المفوض

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۴۳

اسـتقلت من المعارف، و بقيت فى رئاسة المجمع، و كنت أديره أثناء وزارة المعارف و بعدها. و كان فى ذلك الخير لأنى حصـرت و كدى فى خدمة المجمع و تأسيسه على ما يجب و بقدر ما يساعد المحيط و الحالة المالية. و عرضت علىّ وزارة المعارف فى الحكومة الموقتة خلال ثورة سنة (۱۳۴۴ ه) فاعتذرت و آثرت الانقطاع إلى المجمع و إتمام كتابى «خطط الشام».

و فى ۱۵ شباط سنة (۱۹۲۸ م) أسـندت إلىّ وزارة المعارف فى حكومة صاحب الفخامة الشيخ تاج الدين الحسنى و بقيت أدير شؤون المجمع العلمى الى الآن. و فى أواسط شـهر تموز سـنة (۱۹۲۸) نـدبتنى دولة سورية و المجمع العلمى لتمثيلهما فى موتمر المستشـرقين السابع عشر بمدينة اكسفورد فرحلت إلى بلاد الانكليز وزرت بلجيكا و فرنسا. و قد اغتنمت فرصة وجودى فى وزارة المعارف فأنشأت مدرسة العلوم الأدبية العليا جعلتها من فروع الجامعة السورية، كما هيأت جميع أسباب افتتاح كلية الإلهيات تضاف أيضا إلى الجامعة و بذلك تمت لها أربع شـعب، شعبة الطب، و شعبة الحقوق، و شعبة الآداب، و شعبة الإلهيات. و إذا انفسح الزمن للعمل ففى النية إضافة الفرع الأخير من فروع الجامعة و هو الفنون و العلوم.

كان المقتبس عقب الهدنـة قد عاد إلى الصدور و ظلّ يطرد نشـره، حتى ألفت العصابات لغزو الساحل الشامى و أصـبح القول الفصـل لأناس من صـعاليك العامة و أغرار الشـباب، ممن أخذوا يهددوننا سـرا و جهرا إن لم نمالئهم على رغائبهم، فى هيج الأفكار و دعوتها

إلى الثورة، فآثرت توقيف المقتبس على إصداره آلة للفتنة بين الناس، و إهراق دماء الأبرياء ليربح المستعبدون. خطط الشام ؛ ج۶ ؛ ص۳۴۳

ى حين كنت على مثل اليقين أن الانتداب الفرنسى واقع لا محالة. و قد شق علىّ بعد أن بلوت من السياسة حلوها و مرها، و كرعت خلها و خمرها، أن آتى ما يكون و باله علىّ قبل غيرى من رجال الصحافة، فى أمر لا فائدة منه إلا لمن يستثمرون الثورات لمصلحتهم الخاصة. و بقيت جريدتنا معطلة سنة كاملة، حتى دخل الجيش الفرنسى فعادت إلى الظهور. و ظهرت جريدة المقتبس بتحرير المرحوم شقيقى أحمد كرد على تصدر حرة فى الجملة، وطنية الصبغة و المنزع، فلما هلك أصبح تحريرها ألعوبة فى أيدى أناس أرادوا

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۴۴

تسخيرها فى خدمة أحزابهم، فاضطررت إلى إغلاقها فى صيف سنة (۱۹۲۸) بعد أن خدمت البلاد عشرين سنة.

كان مذهب المقتبس السياسى معاونة الحكومة بالمعقول، و انتقادها عند الاقتضاء. و تحبيذها إذا أتت ما تحبذ عليه. ينزع أبدا إلى إنارة الأفكار، و بث الملكات الصحيحة و تقوية روح القومية العربية، و سياسته وطنية ليس فيها شىء من روح الكراهة للأجانب، و يرمى إلى فتح صدر الأمة لمعظم ما فى المدنية الغربية من أسباب الرقى. و لا يتحزب المقتبس لحزب إلا إذا تجلى له غناؤه و بلاؤه فى خدمة الأمة. فقد دخلت فى جمعية الاتحاد و الترقى قبل الانقلاب العثمانى بنحو اثنتى عشرة سنة، و خدمت ما استطعت و ساعدت البيئة، و لم أجدد فى الانقلاب للاتحاديين عهدا مع كثرة إلحاحهم علىّ. إذ رأيت ذلك حطة و تناقضا فى الخطة، لأن مرامى الاتحاديين تجلت بأنها تقصد إلى تتريك العناصر، و من أول مقاصدنا الدعوة إلى القومية العربية، و إنهاض العرب من كبوتهم.

و لما عبث الاتحاديون بالمقصد الذى رسموه لأنفسهم يوم نشأتهم الجديدة، تألفنا فى الشام و الاستانة كتلة من العرب و الترك، و ألفنا حزب الحرية و الائتلاف اشتغلنا به مدة، ثم رأينا من المصلحة حله فحللناه. و اقترح علىّ زمن الحكومة العربية غير مرة الدخول فى الأحزاب فأبيت. و لكن لما تفاقم الشر، و أصبحت دمشق عاصمة فى الصورة، و المدبرون لها أغمارا غرباء فى الأكثر، صحت عزيمتنا مع جماعة من أهل الطبقة العالية مسلمين و مسيحيين و ألفنا «الحزب الوطنى» معدلا لأمزجة الأحزاب الأخرى. فكان حاجزا دون انبعاث ما يكدر من العوام.

و فى شباط (۱۹۲۴) عهد إلىّ تدريس الآداب العربية فى معهد الحقوق بدمشق، فرأيت تفاوتا فى عربية الطلبة، و كان منهم المقتدر الذى يصلح للكتابة و الخطابة، و منهم الضعاف فى مبادئ النحو و الصرف، لأن مدرستى الحقوق و الطب كانتا تحاولان تكثير سواد الطلبة و تقبل منهم حتى المقصرين فى الفروع المهمة، و لا سيما اللغة العربية التى يعدونها ثانوية! فاضطررت إلى إلقاء بعض دروس نحوية مختصرة على التلاميذ ريثما يستعدون لتلقى

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۴۵

الآداب، و حاولت تعليمهم الإنشاء و الخطابة بالعمل أكثر من النظر. و لم ترق بعض الطلبة العلامات التى نالوها فى الفحص العام، و كان بعض أساتيذهم يشوقونهم من طرف خفىّ على رفع أصواتهم بالشكوى من المدرس ليضموا درسه إلى دروسهم، و رأى رئيس الجامعة الطبيب الكحال السيد رضا سعيد الايتونى استثمار هذه الحركة لمصلحته، و مصلحته أبدا فى إقصاء الأكفياء أرباب الإرادات المستقلة من تداريس الجامعة، فقام مدفوعا أيضا بيد رئيس الحكومة إذ ذاك السيد صبحى بركات. و كان هذا مغيظا محنقا من صاحب الترجمة لأن جريدة المقتبس لم تمالئه على خطته، و صعب علىّ أن أترضاه، و لو بأن أذكر له على الأقل أن لا علاقة لى بالمقتبس منذ مدة طويلة، و أننى لا أديره و لا أحرره و لا ينطق بلسانى.

و كانت المؤامرة فاستكتب رئيس الجامعة بعض الصحف للنيل منى، و أعطاها فيما قيل دراهم لتكتب له المطاعن علىّ بما يفيد فى تنحيتى. و من الرسائل ما كتبه له بعض مستخدميه ممن كان يغضى عن سرقاتهم فى مدرسة الطب مقابل هذا التطوع فى خدمة أغراضه، و منهم طلبة مقصرون فى دروسهم كافأهم على ما نشروه له من الطعن بى بأن منحهم شهادة الطب، و معذرته أنه فى حاجة

إلى من يحسن من جماعته كتابة سطرين بالعربية، لأنه هو و رئيس الحكومة ابن بركات لا يحسنان كتابة سطر واحد، و إذا قرأ أو قرئ عليهما كلام عربى لا يفهمانه بحال. و هكذا جمع رئيس الجامعة بعض الطلبة المقصرين فى دروسهم فى دار أحد من يدهنون له من أطباء مدرسته، و لقنوهم كيف يجرأون على الشكوى من الدرس و يكتبون محضرا بهذا الطلب، و من لم يوقعه من الطلبة يهدد بما يخاف منه على مستقبله. و أخيرا تقرر إرسال بضعة من طلبة مدرسة الطب إلى درس الخطابة فى دار الحقوق لينادوا بإسقاط خمسة من الأساتذة من جملتهم مدرس الآداب العربية، و خطب بحضورى أحد الطلبة، و هو ابن أحد أخصاء رئيس الحكومة خطبة لقنها، و كوفئ عليها بعد هو و والده، فخرجت من المدرسة على أن لا أعود إليها، و تم لبعض الأساتيذ ما أرادوه، فاستأثروا بأكثر الدروس الشاغرة، و لم يعد من المخطوب فيهم إلا واحد و هو مدير المعهد السيد عبد القادر العظم الذى

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۴۶

استرضى الطلبة و صانع رئيس الجامعة مع أنه أضعف الأساتذة المشتكى منهم و لا صلة له بالعلم.

أهم المطبوع من كتبى مجلة المقتبس «ثمانية مجلدات و جزآن» صدر منها ثلاث سنين فى مصر و خمس فى الشام و هى تبحث فى الاجتماع و الأدب و التربية و التعليم و التاريخ و منها «رسائل البلغاء» و «غرائب الغرب» و «غابر الأندلس و حاضرها» و «تاريخ الحضارة» و «القديم و الحديث» و «رواية المجرم البرىء» و «قصة الفضيلة و الرذيلة». و أول ما نشرت رواية «يتيمة الزمان» سنة (۱۳۱۲ ه). و آخره «خطط الشام» و هو كتاب فى مدنية الشام و تاريخه صرفت فى تأليفه ثلاثين عاما، و طالعت لأجله زهاء ألف و مائتى مجلد باللغات الثلاث العربية و التركية و الإفرنسية، و أنفقت فى سبيل تأليفه نحو ألف و خمسمائة جنيه، و يدخل فى ستة مجلدات و ربما كان معجمه فى أربعة. و عندى من التآليف التى لم تطبع «حرية الوجدان» و «الحرية المدنية» و «الحرية السياسية» معربة عن جول سيمون الفيلسوف الإفرنسى. و منها «كنوز الأجداد» و «مكتشفات الأحفاد» و «أمراء الإنشاء» و «أخلاق المعاصرين» إلى غير ذلك من المقالات و الأبحاث المنشورة فى المجلات و الصحف و آخرها مقالاتى و انتقاداتى فى «مجلة المجمع العلمى العربى» خلال تسع سنين.

خلقت عصبى المزاج دمويه، مغرما بالموسيقى العربية، محبا للطرب و الأنس و الدعابة، عاشقا للطبيعة و السياحة. و قد كان للمزرعة الصغيرة التى أورثنا إياها المرحوم والدنا فى قرية «جسرين» من قرى الغوطة أثر ظاهر فى تربية ملكتى. و بها استغنيت أنا و إخوتى لأول أمرنا عن طرق الأبواب للتحيل أو التسفل للمعاش.

و لم أخل منذ اشتغلت بسياسة البلاد و حتى بعد أن تجردت للعلم المحض، من جرائد كان من جملة أغراضها ثلبى، و كثير من الكتاب الذين عرفوا بالسفاهة كانوا يرزقون الجنيهات الكثيرة على حساب النيل منى، و التطاول علىّ، و ما زلت حتى الساعة لا أخلو من أناس يتطاولون علىّ حب الشهرة، ينالونها من طريق الطعن بمن اشتهروا، و لم يحدث لى أن أجبت أحد هؤلاء

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۴۷

الطاعنين فى وقت من الأوقات. اللهم إلا- إذا كان هنالك تحريف لحقيقة وطنية أو قضية علمية، فأذكر الواقع بدون اسم المتحامل المخالف. و قد وقع مرة لمجلة ألبسها أصحابها ثوب الدين، أن سلخت نحو ثلاث سنين تكتب فىّ المقالات و القطع الصغيرة فلم أجبها، و لم أقرأ أكثر ما كتبت، حتى إذا نضبت مادتها من المال و القول، أجبتها بمقالة نشرت فى كتاب «القديم و الحديث» باسم «الإصلاح» و هى من المقالات التى لم تخل من حدة.

أعشق النظام و التدقيق، و أحب الحرية و الصراحة، و قد أولعت بالتجدد، و من عادتى أن أقف بمعالجته عند حد لا أتعداه إلى هدم أصل من الأصول المقدسة، و أدور من الإصلاح التدريجى العلمى فى دائرة لا تتعدى الثورة فى الأفكار، أجاهر فى الحق، و أطعن فى المنافقين و أتجهم لهم، و أجبه المرتشين و المخربين، لذلك يكثر أعدائى من أهل هذه الطبقة. و لطالما كادوا لى و آذونى فى مادياتى فلذ لى عملى و لم تسؤنى نتائجه. أخلص للصاحب و أخدمه خدمة خالصة، و أغار على مصلحته. و ربما أرفعه فوق قدره،

حتى إذا بدرت منه بادرة سوء نحوى أو نحو المجتمع، ألوى وجهى عنه آخر الدهر. و لطالما آخذنى بعض أصحابى على أسداء المعروف إلى من هم أول من ينكرونه، و إسراعى إلى تصديق من حولى، فى زمن يكذب فيه معظم أهله، دعانى إلى الإحسان إلى أناس ليسوا أحرياء به، و إلى الأخذ بأيدى فئة كان الأولى لهم أن يظلوا مغمورين، و معظمهم كانوا لمقاصد لهم يتخيلونها أول من حملوا علىّ و عادونى، فكان الجواب، أنى أحمل الناس على محمل الخير، فإذا ظهرت تربيتهم الحقيقية، و تبين أنى كنت مغرورا بهم كان جزاؤهم الإعراض، و هل يجوّز العقل أن تعض الكلب الذى يعضك، و الحيوان المفترس الذى يحاول إهلاكك و لو أطعمته و سقيته.

أكره الفوضى و أتألم للظلم، و أحارب التعصب، و أمقت الرياء، و إذا حاربت لأجل المظلومين، و هاجمت طغمة المتعصبين، فإنما أحارب و أهاجم بذوق و فهم على الأغلب، و أميل إلى الشدة، و قد تكون إلى الإفراط أحيانا، لتفعل البلاغة فعلها فى عقول من يراد إرشادهم أو إسقاطهم، و تنقبض نفسى منذ الصغر من غشيان المجالس و المجتمعات الغاصة بأنواع الناس، و أحرص على الوقت فلا أكاد أنفقه إلا لمنفعة عامة أو خاصة اه.

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۴۹

مصادر الخطط

اشارة

لم نذكر فى هذا البيان الكتب المطبوعة و لا الأجنبية التى اطلع عليها المؤلف. لأنه لم يشر إلى مواضع ما أخذ منها، فلم يبين أجزاءها و لا صفحاتها مما أفقدها قيمتها لمن يحب الرجوع إليها.

و إنما اقتصرنا على المخطوطات من تلك المصادر تعريفا بها، و رجعنا فى تحقيق وفيات مؤلفيها إلى الأعلام لخير الدين الزركلى، فما وجدناه فيه و ضعناه بين هلالين و إلا استدركناه من معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة أو أبقيناه كما جاء فى الأصل.

«الناشر»

أ

إتحاف المحبين بجواز ما يفعل فى الخماسين لإبراهيم الخضيرى الحنفى؟

الإحسان فى دخول اليمن آل عثمان لعبد الصمد بن إسماعيل؟

الأحكام السلطانية للقاضى أبى يعلى (۴۵۸).

أخبار ملوك اليمن لقاسم بن حسن الجرموزى (۱۱۴۶)

الإشارات إلى أماكن الزيارات لأحمد الصباغ و ذيله بتراجم بعض المشاهير من كتاب الزيارات لمحمود العدوى

الإشارات إلى معرفة الزيارات لعلى بن أبى بكر الهروى القارى (۶۱۱)

الإعانات فى معرفة الخانات ليوسف بن عبد الهادى (۹۰۹)

الأعلاق الخطيرة فى تاريخ الشام و الجزيرة لابن شداد الحلبى (۶۸۴)

الإعلام فى فضائل الشام لأحمد العدوى المنينى (۱۱۷۲)

إعلام الورى بمن ولى من الأتراك بدمشق الكبرى لابن طولون الصالحى (۹۵۳)

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۵۰

الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التأريخ للسخاوى (۹۰۲)

إنباء الغمر فى أبناء العمر لابن حجر العسقلانى (۸۵۲) مسوّدة المؤلف و نسخة أخرى كتبت سنة (۸۱۲)

الإنصاف و التحرى فى دفع الظلم و التجرى عن أبى العلاء المعرى لابن العديم (۶۶۰)

إيضاح الظلم و بيان العدوان فى تاريخ النابلسى الخارج الخوان لحسن بن أحمد ابن عربشاه؟

أيمان العرب لأبى إسحاق النّجيرمى نحو (۳۳۵)

ب

الباشات و القضاة بدمشق زمن السلطان سليم لمحمود جمعة المقار (۱۱۵۶)

البداية و النهاية لابن كثير الدمشقى (۷۷۴)

البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكانى (۱۲۵۰)

البرق المتألق فى محاسن جلق للراعى الشهير باب خداويردى؟

بلوغ المنى فى تراجم أهل الغنا لمحمد بن أحمد الكنجى العصرونى ۱۱۵۰

بهجة الصيانة فى عجائب مصر و الكنانة لأحمد محمد القزوينى؟

ت

تاريخ الإسلام الكبير للذهبى (۷۴۸)

تاريخ الأمويين من أول خلافة الوليد بن عبد الملك إلى انقراض الدولة العباسية، قطعة منه

تاريخ ابن خلدون (۸۰۸) الكبير قطعة منه و فيها رحلة فيلسوف المغرب من الديار المصرية إلى دمشق سنة ۸۰۳ نقلها تلميذه محمد بن أحمد الزملكانى

تاريخ أبى المواهب بن ميرو الحلبى (۱۱۸۴)

تاريخ الأمم لمحمد الغزالى من أهل القرن الحادى عشر الجزء الثالث منه.

تاريخ حكماء الإسلام لظهير الدين على بن زيد البيهقى (۵۶۵)

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۵۱

تاريخ حمص لعمر الأتاسى لم يبرح فى المسودة

تاريخ الخورى ميخائيل بريك من سنة ۱۷۲۰ م الموافقة ۱۱۳۲ ه و فيه الأخبار الأخيرة إلى سنة ۱۲۵۷

تاريخ دمشق لابن عساكر (۵۷۱)

تاريخ دول الأعيان شرح قصيدة نظم الجمان فى ذكر من سلف من أهل الزمان لأحمد المقدسى المشهور بابن زوجة أبى عذيبة (۸۵۶)

تاريخ دولة الأتراك لحسن بن عمر بن حبيب الحلبى (۷۷۹)

تاريخ سليمان باشا والى عكا من سنة ۱۱۹۰- ۱۲۲۹ لإبراهيم العورا ۱۲۸۰

تاريخ سورية المجوّفة لعيسى إسكندر المعلوف. (۱۹۵۶ م)

تاريخ عام لأكمل الدين بن مفلح المتوفى سنة ۱۰۱۱ بلغ فيه زمن قايتباى سنة ۸۷۲

تاريخ فخر الدين بن معن لأحمد بن محمد الخالدى الصفدى ۱۰۳۴

تاریخ معرة النعمان لمحمد سلیم الجندی ۱۳۷۵

تاریخ الملک الناصر محمد بن قلاوون الصالحی و أولاده من سنة ۷۳۷- ۷۴۵ لشمس الدین ابن السجاعی (جزء من أجزاء).

تاریخ میخائیل مشاقة (۱۳۰۵) و فیه حوادث أسرته و ما جری فی لبنان و بلاد الشام فی عهده، و بعضها مما حذف من النسخة المطبوعة المحرفة.

تحفة الأدب فی الرحلة من دمیاط إلی الشام و حلب لأحمد بن صالح الأدهمی الطرابلسی سنة ۱۱۵۹

تحفة الأدباء و خلوة الغرباء للخیاری (۱۰۸۳) و هی رحلته من المدینة إلی الشام و الروم و مصر.

تحفة الأنام فی فضائل الشام لجلال الدین البصروی کتب سنة ۱۱۵۹.

تحفة ذوی الألباب فیمن حکم دمشق من الخلفاء و الملوک و النواب لصلاح الدین الصفدی (۷۶۴).

التحفة الظریفة المسماة بمجموعة الحکیم لحسن بن عثمان الحکیم جمعها سنة ۱۱۸۸

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۵۲

تذکرة ابن العدیم (۶۶۰) أجزاء منها.

تذکرة الصلاح الصفدی (۷۶۴) الجزء الثامن و الثلاثون

تذکرة کمال الدین الغزی (۱۲۱۴)

تراجم الأعیان من أبناء الزمان للحسن البورینی (۱۰۲۴)

تشریف الأیام و العصور بسیرة الملک المنصور.

التصویر عند العرب لأحمد تیمور (۱۳۴۰).

تعطیر المشام فی مآثر دمشق الشام لجمال الدین القاسمی (۱۳۳۲).

تقریر فی التعلیم فی فلسطین علی عهد الأتراک و الإنکلیز لأحمد سامح الخالدی (۱۳۷۰)

تنبیه الطالب و إرشاد الدارس لأحوال مواضع الفوائد بدمشق لدور القرآن و الحدیث و المدارس الخ لعبد القادر النعیمی ۹۲۷.

تواریخ الحکماء للزوزنی.

التیسیر و الاعتبار و التحریر و الاختبار لمحمد الأسدی من أهل القرن التاسع.

ث

ثمار المقاصد فی ذکر المساجد لیوسف بن عبد الهادی (۹۰۹)

ج

الجامع المختصر لابن الساعی (۶۷۴) قطعة منه.

جزء من تاریخ بدأ من سنة ۷۹۲ و انتهی بأخبار سنة ۸۵۶ مخروم أوله و لا یعلم مؤلفه کتب سنة ۹۱۸ بقلم محمد بن المرحوم السیفی قرقماس العلائی أمیر أخور والده (۹۴۲) و یظن أنه هو المؤلف.

جماهیر الأنساب لأبی محمد علی بن غالب الأندلسی.

جنی الأزهار من الروض المعطار للمقریزی (۸۴۵)

الجواهر و الدرر فی تراجم أعیان القرن الحادی عشر لعبد الرحمن بن حمزة (۱۰۸۱).

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۵۳

ح

حدائق الإنعام فی فضائل و محاسن الشام لعبد الرحمن بن عبد الرزاق من القرن الثانی عشر

الحسبة لمحمد بن محمد المعروف بابن الإخوة القرشی (۷۲۹)

الحقیقة و المجاز فی رحلة بلاد الشام و مصر و الحجاز لعبد الغنی النابلسی (۱۱۴۳).

حل الرموز فی عقائد الدروز لسلیم البخاری (۱۳۴۷)

حلیة البشر فی تاریخ القرن الثالث عشر لعبد الرزاق البیطار (۱۳۳۵).

حوادث جرت فی دمشق من سنة ۱۰۲۳- ۱۰۲۶ من خط حسن البوریني.

حوادث جرت فی دمشق بعد سنة ۱۲۰۱ دونها من لم یذکر اسمه.

حوادث دمشق الیومیة. من سنة ۱۱۵۴- ۱۱۷۶ لابن بدیر الحلاق

حوادث یومیة من سنة ۹۸۵ إلی ۱۰۰۶ نقلت سنة ۱۱۰۱ من خط محمد ابن داود المقدسی الدمشقی

د

در الحبب فی تاریخ أعیان حلب لمحمد بن إبراهیم الحنبلی الربعی التاذفی (۹۷۱)

الدر المنتخب بتکملة تاریخ حلب للجبرینی المعروف بابن خطیب الناصریة (۸۴۳) کتب سنة ۷۸۵

الدر النضید فی مناقب الملک الناصر أبی سعید؟

الدرر الکامنة فی أعیان المائة الثامنة لابن حجر العسقلانی (۸۵۲).

دمیة القصر و عصرة أهل العصر لأبی الحسن الباخرزی (۴۶۷)

دیوان النصائح الکافیة لمحمد الحافظ النجار ۱۱۰۳.

ذ

ذخائر القصر فی تراجم نبلاء العصر لابن طولون الصالحی (۹۵۳).

ذوب الذهب لمحسن بن حسن المنصور نحو (۱۱۷۰).

ذیل التمتع بالأقران لابن طولون الصالحی (۹۵۳).

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۵۴

ذیل الدرر الکامنة لابن حجر العسقلانی (۸۵۲).

ذیل الروضتین فی أخبار الدولتین لأبی شامة (۶۶۵).

ذیل الکواکب السائرة فی أعیان المائة العاشرة و اسمه لطف السمر و قطف الثمر من تراجم أعیان الطبقة الأولی من القرن الحادی عشر للنجم الغزی (۱۰۶۱) ذیل مختصر علی تاریخ حلب لابن العدیم (۶۶۰).

ر

رحلة الأمیر یشبک الدوادار من مصر إلی الشام فی سنة ۸۷۵ لشمس الدین ابن أجا الحلبی (۸۸۱).

رحلة البطریرک مکاریوس بن الزعیم الحلبی.

رسائل فی عقائد الدروز فی ثلاثة مجلدات.

رسائل القاضی الفاضل (۵۹۶).

رسالة الجوامع و المدارس الأول مختصر من کتاب أماکن الزیارات.

رسالة لابن شداد (۶۸۴) کتبت فی القرن الثانی عشر.

رسالة فی تاریخ جبل عامل و وصف قراه لأحمد رضا ۱۳۷۲.

رسالة فیمن تولی و قضی و أفتی فی مدینة الشام من حین انقضاء دولة الجراکسة إلی سنة ۱۲۴۰.

روضة الأفکار و الأفهام لحسین بن غنام الأحسائی (۱۲۲۵).

ز

زبدة الحلب من تاریخ حلب لابن العدیم (۶۶۰).

الزبد و الضرب فی تاریخ حلب لمحمد بن إبراهیم الحنبلی الربعی التاذفی (۹۷۱).

زلازل دمشق سنة ۱۱۷۳ لم یذکر اسم المؤلف

زیادات ألحقها بعضهم بکتاب أخبار الدول و آثار الأول للقرمانی (۱۰۱۹) فیها أخبار الولاة و القضاة بدمشق فی القرن العاشر و الحادی عشر و الثانی عشر.

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۵۵

س

سانحات دمی القصر فی مطارحات بنی العصر لدرویش محمد الطالوی (۱۰۱۴)

سیرة أحمد باشا الجزار انتهت سنة ۱۲۲۵ و فیها ما حدث بعد مماته لمؤلف مسیحی سوری.

ش

شذرات الذهب فی أخبار من ذهب لعبد الحی بن العماد (۱۰۸۹).

الشعور بالعور لصلاح الدین الصفدی (۷۶۴).

الشمعة المضیة فی أخبار القلعة الدمشقیة لابن طولون الصالحی (۹۵۳).

ص

صور الأقالیم لأحمد بن سهل البلخی (۳۲۲).

ض

ضرب الحوطة علی جمیع الغوطة لابن طولون الصالحی (۹۵۳).

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوی (۹۰۲).

ط

الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء و الرواة بأعلى الصعيد لجعفر بن تغلب الأدفوى (۷۴۸).

طبقات أئمة القراء لابن الجزرى (۸۳۳).

طبقات الحنابلة لابن رجب (۷۹۵).

طبقات فقهاء جبال اليمن لعمر بن على بن سمرة بن الحيمى بعد (۵۸۶)

طبقات المهندسين فى الإسلام لأحمد تيمور (۱۳۴۰).

طبقات النحاة و اللغويين لابن قاضى شهبة الأسدى (۸۵۱).

طرف الأخبار من نتائج الأسفار لشرف الدين حسين بن أحمد التميمى (۱۰۷۱).

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۵۶

ع

عدة الملمات فى تعداد الحمامات ليوسف بن عبد الهادى (۹۰۹).

عرف البشام فيمن ولى فتوى دمشق الشام لخليل المرادى (۱۲۰۶).

عقد الجمان للشاطبى ۸۷۲.

عيون التواريخ لصلاح الدين الكتبى (۷۶۴) أجزاء منه.

غ

غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ليحيى بن حسين ۱۰۸۰.

غربال الزمان المفتتح بسيد ولد عدنان اختصار يحيى بن أبى بكر العامرى (۸۹۳) من تاريخ أسعد اليافعى (۷۶۸) مرتب على السنين فى التراجم و الوقائع إلى سنة ۷۷۰.

غرر السير للحسين بن محمد المزغنى؟ (المرعشى ۴۲۱).

ف

فضائل الشام و جامعها و من دفن بها من الصحابة و الأولياء يظن أنها لعلى بن محمد الربعى (۴۴۴) كتبت سنة ۱۰۰۵ و أكملت الورقتان الأوليان بخط سليمان المحاسنى ۱۱۸۷

فهرست الكتب الموقوفة ليوسف بن عبد الهادى (۹۰۹).

ق

قاموس الصناعات الشامية المسمى بدائع الغرف فى الصناعات و الحرف لمحمد سعيد القاسمى (۱۳۱۷).

قرة العيون فى تاريخ اليمن الميمون لابن الديبع الزبيدى (۹۴۴).

قصيدة عبد الرحمن بن النقيب المعروف بابن حمزة (۱۰۸۱) ذكر فيها المغنين و الندماء فى الدولتين الأموية و العباسية بشرح خليل مردم بك.

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۵۷

ک

كتاب فی التراجم يظن أنه جزء من طبقات الحنابلة.

كراستان نقلتا من خط حسن البورينی فيها حوادث جرت فی دمشق من سنة ۱۰۲۳ إلی ۱۰۲۶

الكشاف عن أسرار الأوقاف لمحمد سعيد البانی ۱۳۵۱.

كناش الشيخ إسماعيل المحاسنی الدمشقی؟ و فيه حوادث وقعت فی أواخر القرن الحادی عشر و أوائل القرن الثانی عشر.

كناش الشيخ طاهر الجزائری (۱۳۳۸) الكبير و الصغير و فی الأول ذكر لبعض نوادر المخطوطات فی دور الكتب بمصر و الشام و الاستانة.

كناش علی الكيلانی الحموی (۱۱۱۳).

كنوز الذهب فی تاريخ حلب الجزء الأول مسودة المؤلف أبی ذر أحمد الشهير بسبط ابن العجمی المتوفی سنة (۸۸۴) و هو ذيل علی الدر المنتخب لشيخه الجبرينی (۸۴۳) و هذا ذيل تاريخ حلب لابن العديم (۶۶۰) لابن قاضی شهبة (۸۵۱)

الكواكب الدرية فی السيرة النورية بخط محمد المرادی سنة ۱۱۶۰.

الكواكب السائرة فی أعيان المائة العاشرة لنجم الدين الغزی (۱۰۶۱).

م

المؤتلف و المختلف و مشتبه النسبة لابن نقطة (۶۲۹).

مجموع كتب سنة ۱۱۰۵ لإبراهيم بن سليمان الحنفی الجينينی ۱۱۰۸.

مجموعة تاريخية فيها سيرة الشيخ ظاهر العمر الزيدانی مجهولة المؤلف و نبذة فی سيرته أيضا لفراج المقدسی؟.

مجموعة رسائل و أوراق عليها تعليقات يظن أنها لابن آقبيق كتبت أوائل القرن الثالث عشر.

محاضرة فی شرقی الأردن لأديب و هبة.

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۵۸

مختصر الدارس للعلموی ۹۸۱.

مختصر تاريخ الإسلام للذهبی (۷۴۸).

مخدرات القصور لابن قطری البحيری ۸۹۸.

المدبجات المسمی بمنادح الممادح و روضة المآثر و المفاخر من خصائص الملك الناصر لعبد المنعم الجليانی المتوفی (۶۰۲).

المدهش لابن الجوزی (۵۹۷).

المروج السندسية بتاريخ الصالحية لمحمد بن كنّان (۱۱۵۳).

مسالك الأبصار لابن فضل اللّه العمری (۷۴۹) أجزاء منه.

المشتبه وضعا و المختلف صقعا لياقوت الحموی (۶۲۶).

معادن الذهب فی الأعيان المشرفة بهم حلب لأبی الوفاء بن عمر العرضی (۱۰۷۱).

المعزة فيما قيل فی المزة لابن طولون الصالحی (۹۵۳).

المعلومات الزراعية و الاقتصادية و الإدارية عن لواء دير الزور لوجيه الجزار؟

مفكرات توفيق طارق فی مصانع دمشق و مدارسها و جوامعها و ما حوت من النفائس الفنية ثابتة كانت أو منقولة (بالعربية و التركية).

مفكرات نجيب نصار (۱۳۶۷) فی بلاد فلسطين.

مقاتل الطالبيين لأبی الفرج الأصفهانی (۳۵۶) و فی آخره نور العيون فی سيرة الأمين المأمون لابن سيد الناس (۷۳۴).

المواكب الإسلامية فی الممالك الشامية لمحمد بن كنّان (۱۱۵۳).

منادمة الأطلال لعبد القادر بدران (۱۳۴۶).

المنتخب من تاريخ علم الدين البرزالی (۷۳۹).

المنتقى من تاريخ الإسلام للذهبی مع ما أضيف إليه من تاريخی ابن كثير و الصلاح الكتبی و غيرهما انتقاه ابن قاضی شهبة (۸۵۶) و هو من سنة ۳۰۱ إلى سنة ۴۵۰

المنهج الأحمد فی تراجم أصحاب الإمام أحمد لعبد الرحمن العليمی (۹۲۸).

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۵۹

ن

نبذة فی ذكر من تولی القضاء بدمشق الشام نقلت من نزهة الخاطر و بهجة الناظر لموسی بن أيوب الأنصاری الدمشقی (۱۰۰۰).

نبهة ذوی الاحتشام فی فضائل الشام لمحمد بن محمد العيثاوی؟

النجوم الزواهر فی معرفة الأواخر للبدری (۸۹۴).

نزهة الأبصار فی ذكر الأقاليم و ملوك الأمصار لحسن بن أحمد بن علی مطر الشهير بحاكم البقاع النصف الأول انتهی سنة ۱۲۴۲.

نزهة الأنام فی محاسن الشام للبدری (۸۹۴).

نزهة الزمان فی حوادث جبل لبنان مجهول مؤلفه.

نزهة الناظرين و أخبار الماضين فی تاريخ من ولی مصر فی سالف العصر من الخلفاء و السلاطين لمرعی الكرمی (۱۰۳۳).

نسمة السحر بذكر من تشيع و شعر ليوسف بن يحيی (۱۱۲۱).

نشر المحاسن اليمانية فی خصائص اليمن و نسب القحطانية لأحد أفاضل و صاب من بلاد اليمن.

نشق الأزهار فی عجائب الأمصار لابن إياس (۹۳۰).

نصاب الاحتساب لعمر بن عوض الشامی (النسامی أو السنامی).

نفحات العنبر فی القرن الثانی عشر لإبراهيم الحوثی (۱۲۲۳).

نفحة الريحانة لمحمد أمين المحبی (۱۱۱۱).

نقش فصوص خواتم الحكماء و اجتماعات الفلاسفة فی الأعياد و تفاوض الحكمة بينهم.

نهاية الرتبة فی طلب الحسبة لعبد الرحمن بن نصر بن عبد اللّه الشيزری ۷۷۴.

و

الوافی بالوفيات للصلاح الصفدی (۷۶۴) أجزاء منه.

واقعة بين خارجی الديار المصرية و وزير الشام عثمان باشا.

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۶۱

فهرست الجزء السادس من خطط الشام

التاریخ المدنی من خطط الشام ۳- ۴۴
البیع و الکنائس و الدیرة ۳
بیوت العبادة عند الأقدمین ۳
منشأ الأدیار و البیع ۴
أعظم الکنائس و أقدمها ۶
مبدأ هدم الکنائس ۹
کنائس دمشق ۱۴
کنائس حلب ۱۵
الکنائس و البیع فی القدس ۱۶
کنائس فلسطین ۱۹
کنائس الأردن ۲۱
کنائس لبنان ۲۲
عمل الرهبان و الراهبات العظیم ۲۴
الأدیار القدیمة فی الشام ۲۶
خطط الشام، ج۶، ص: ۳۶۲
المساجد و الجوامع ۴۵- ۶۵
فی أول الفتح ۴۵
مساجد حلب ۴۸
جوامع عمالة حلب ۵۰
مساجد الساحل و جوامعه ۵۲
جوامع المدن الساحلیة ۵۵
جوامع العاصمة و ضواحیها ۶۲
المدارس ۶۶- ۱۲۹
نشأة المدارس ۶۶
دور القرآن بدمشق ۶۹
دور الحدیث بدمشق ۷۱
مدارس الشافعیة بدمشق ۷۵
مدارس الحنفیة بدمشق ۸۸
مدارس المالکیة بدمشق ۹۶
مدارس الحنابلة بدمشق ۹۶
المدارس الحدیثة ۹۸
مدارس الطب بدمشق ۱۰۰
مدارس حلب ۱۰۴

مدارس القدس ۱۱۶

بقیة مدارس القطر ۱۲۴

الخوانق و الربط و الزوایا ۱۳۰- ۱۵۵

خوانق دمشق ۱۳۰

رباطات دمشق ۱۳۴

زوایا دمشق ۱۳۶

خوانق حلب و ربطها و زواياها ۱۴۰

ربط القدس و زواياها ۱۴۸

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۶۳

الربط و الزوایا فی المدن الصغری ۱۵۱

مراقد العظماء ربط و خوانق ۱۵۳

المستشفیات و البیمارستانات ۱۵۶- ۱۶۷

مستشفیات دمشق ۱۵۶

مستشفیات حلب ۱۶۰

بقیة المستشفیات ۱۶۱

لهفة علی المدارس و غیرها ۱۶۳

دور الآثار ۱۶۸- ۱۷۹

المتاحف و العرب ۱۶۸

نشأة علم الآثار ۱۷۱

البعثات الأثریة الغربیة ۱۷۲

آثارنا و آثار جیراننا ۱۷۴

تأسیس دور الآثار ۱۷۵

متحف دمشق ۱۷۶

متاحف بیروت و السویداء و حلب و طرطوس و القدس و عمان ۱۷۷

دور الکتب ۱۸۰- ۲۰۴

نشأة الکتب ۱۸۰

نشأة الخزائن و العنایة بحفظها ۱۸۳

مصائب الکتب و دورها ۱۹۱

خزائن الیوم و أهم ما حوت ۱۹۵

الأدیان و المذاهب ۲۰۵- ۲۷۳

أدیان القدماء ۲۰۵

الیهودیة ۲۱۰

السامرة ۲۱۳

الأرثوذكسية ۲۱۹

الكثلكة ۲۲۳

خطط الشام، ج۶، ص: ۳۶۴

المارونية ۲۳۰

البرتستانية ۲۳۲

أصل السنة ۲۳۹

الشيعة ۲۴۵

الباطنية ۲۵۰

الإسماعيلية ۲۵۴

النصيرية أو العلوية ۲۶۰

الدروز ۲۶۳

البابية ۲۶۸

الأخلاق و العادات ۲۷۴- ۲۳۲

عادات الدمشقيين ۲۷۴

عادات الحلبيين ۲۸۱

عادات لبنان و أخلاقه ۲۹۱

العادات فی الأرجاء الأخری ۲۹۹

عادات القبائل و أخلاقها ۳۰۷

رأی فی الأخلاق الشامية ۳۱۶

حياة محمد كرد علی- مؤلف الخطط ۳۳۳- ۳۴۷

مصادر الخطط ۳۴۹- ۳۵۹

فهرست الجزء السادس من خطط الشام ۳۶۱- ۳۶۴

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فی سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخيص بحار الأنوار، للعلّامة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَيت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة)

تحتَ عنايـة سـماحة آيـة الله الحـاجّ السيّد حسن الإمـاميّ – دامَ عِزّهُ – و مـع مساعَـدَةِ جمـعٍ من خِرّيجى الحـوزات العلميّـة و طلاـب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّـى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشـّباب و عموم النـاس إلى التّحَرّى الأـدَقّ للمسائـل الدّينيّـة، تخليف المطـالب النّافعـة – مكـانَ البَلاـتيثِ المبتذلـة أو الرّديئـة – فى المحـاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسـيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّـلام – بباعث نشـر المعارف، خـدمات للمحققين و الطّلاّب، توسـعة ثقافـة القراءة و إغناء أوقات فراغـة هُواةِ برامِـج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشـّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشـرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّـه يُمكِن تسـريعُ إبراز المَرافِق و التسـهيلاتِ– فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثـّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائى/"بناية "القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵–۲۳۵۷۰۲۳– (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم - إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ ولىّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹